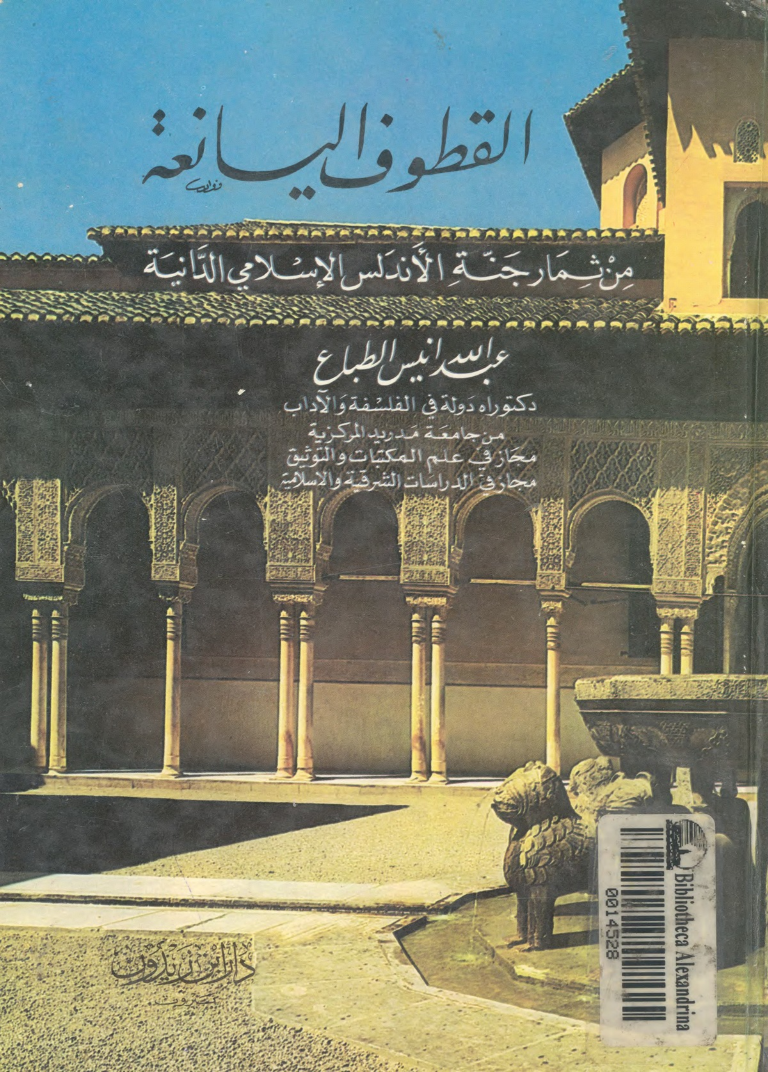

القطوف اليانعة
من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية
عبد الله انيس الطباع
دكتوراه دولة في الفلسفة والآداب
من جامعة مدريد المركزية
مجاز في علم المكتبات والتوثيق
مجاز في الدراسات الشرقية والاسلامية
دار ابن زيدون
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0014528

القطوف اليانعة

من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع

شارع الاستقلال - تلفون ٣٦٨٥٩٤ - ٢٢٥٨٨٨ - ٢٥٥٤٥٤ - برقياً : جباحبكوم - ص.ب ٧٨٤٦ - بيروت (لبنان)
Istiklal St. - Phone 368594 - 225888 - 255454 - Cable : JABAHABKOUM - P.O.Box 7846 - Beirut (Lebanon)

القطوف اليانعة

من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية

عبد الله انيس الطباع

دكتوراه دولة في الفلسفة والآداب
من جامعة مدريد المركزية

مجاز في علم المكتبات والتوثيق
مجاز في الدراسات الشرقية والاسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهْـــدَاء

الى ينبوع العطاء والمحبة

المنبثق من أرض "صيدون" والذاهبة أصوله حتى بطحاء الحجاز عند بكة، وبئر اسماعيل قرب البيت العتيق حيث توالى النبيون من عهد ابراهيم وهبط الوحي على محمد الأمين، وعلى أفنان دوحته تألق الكبار الكبار حماة الدين الحنيف كالنيرات، وفي أفلاكها أسد الجزيرة وأشبال السعود، والفيصل، والخالد والفهد الأغر.

الى هذا الينبوع المتدفق خيراً وسلاماً من فيض زمزم كما تهب الريحانة أريجها للنسيم في الوادي كما صوّر جبران عطاءات تسمو فوق اعتبار العرق والمذهب والاقليم وتتناثر في زهو وفخار، طلاب علم، ورواد حضارة.

الى واحدٍ من أقباس الضياء في بلد الضياء:

الى رفيق الحريري أهدي كتاب: "القطوف اليانعة من ثمار جنة الاندلس الاسلامي الدانية".

تحية إكبار لأهدافه السامية في بناء جيل مؤمن برسالة المملكة العربية السعودية، ومؤتمن عليها.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

المقدمة

كانت اسبانيا الإسلامية مجالاً للإبداع الفكري ، بعد ان توفرت لها عوامل الطبيعة الساحرة ، وعوامل الدولة الناهضة ، وكان تفاعل المسلمين الذين حملوا معهم من الشرق مدنيتهم واحلامهم وطموحهم مع الإسبان سكان البلاد الذين كانت لهم خصائص من الطبيعة والفكر لم تكن لأولئك .

الفاتحون والإسبان

قلت كان تفاعل المسلمين مع سكان البلاد على ارض هذه الدولة التي كانت مزيجاً من الشعوب واللغات ، والتي فيها كان يلتقي المتناقضان ، عربي اسمر نحيل من اعماق الصحراء صهرته الشمس ، وغربي اشقر من اطراف اوروبا امتزجت الألوان امام عينيه من زرقة في السماء ، وزرقة في البحر ، واخضرار في الأرض ، وثلج ناصع البياض على قمم الجبال ، حتى كادت هذه الالوان تنطبع في بؤبؤ عينيه اخضراراً في زرقة ، او زرقة في اخضرار ، وسمراء رقيقة الاحساس ، دعجة العينين مليحة القد تحس الشوق في اعماق ذاتها فتكتمه ، وهيفاء كان شعاع الصبح ينسدل على كتفيها ، وتلتقي آلاف الصور امام عينيها، ومسجد شامخ كالطود في انفة وحرية الى جانب كنيسة قائمة كالطود ايضاً في عزة وكبرياء ، ولغة عربية تكتب من جانب ، ولغة غربية تكتب من جانب آخر ، كل هذه المتناقضات، وكل هذا التفاعل والاحتكاك جعل من اسبانيا الاسلامية مدخلاً لنقل مدنيات العرب ، والفرس والاغريق وبقية

الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد ، الى اوروبا المدينة ابداً الى اسبانيا الاسلامية ، والى النبوغ العربي الاسباني بمدنيتها الحديثة وتطورها العلمي الذي بنته على أسس البحث الذي وضع اعلام اسبانيا العربية ركائزه في الأدب والشعر والفلسفة والتاريخ والفلك والرياضة والموسيقى . كأوسع مدلول لمفهوم الأدب قبل تحديد ماهيته علمياً .

دخل العرب اسبانيا في رمضان سنة ثلاث وتسعين للهجرة ، «سبعماية واحدى عشرة» للميلاد ، الأرض الخضراء الضاحكة الممتدة في الجنوب الغربي من اوروبا بعد حملة استطلاعية قام بها احد القادة العرب قبل عام من الفتح .

موقف الخلافة من الفتح

وكانت تعليمات الخليفة في دمشق الى القائد العام في القيروان موسى ابن نصير صريحة إذ امره ان لا يتوغل بالجيش قبل ان يتأكد من إمكانات النصر ، عندها جهز جيشاً بقيادة مولاه عبد الله طارق بن زياد الليثي حاكم طنجة ، وهو بربري على الغالب من قبيلة زناتة وبعث له امراً قال فيه « اذا كان اليوم واحداً وعشرين من مارس اشحِن كما امرتك ان شاء الله ، فإذا اجريت فسر حتى يلقاك جبل اجردُ احمرُ ، تخرج منه عين شرقية الى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، فاكسر ذلك التمثال وانظر في من معك الى رجل طويل اشقر بعينيه قيل ، وبيده شلل فاعقد له على مقدمتك ثم اقم مكانك حتى يغشاك امري ان شاء الله » .

قال فلما انتهى الكتاب الى طارق كتب إلى موسى « انني منته الى ما امر به الأمير ووصف ، غير اني لم اجد صفة الرجل الذي امرتني أن اوليه الاّ في نفسي» .

سكان اسبانيا الأوائل

قلت دخل العرب اسبانيا في رمضان ، وكانت قبائل من الجلالقة والسلت ، والبسك قد دخلت في عصور التاريخ الأولى ، واستقر بعضُها على

الشواطىء الساحلية ، ثم قصدتها سلالات من بربر افريقيا ، وحوالي القرن العاشر قبل الميلاد دخلتها سلالات من الفينيقيين استوطنت قرطاجنة ، ثم شهدت البلاد في عصور الحضارة الاغريقية الأولى اليونانيين ثم الرومانيين ، وذلك في اوائل القرن الثالث للميلاد ، وفي اسبانيا حتى اليوم ترى آثارٌ رومانية تدل على عظمة تلك الحضارة ، وعلى اثرها في تطوير الحياة الاسبانية آنذاك ، ومنذ ذلك الوقت اطلق الرومان على البلاد اسم (هسبانيا) وقد حكموها مدةً طويلة حتى غلبتهم قبائل الفندال الجرمانية التي اسست لها على نهر الوادي الكبير مملكةً سميت باسمهم (فندلس) ولعل من هذه الكلمة عَرّف العرب على حد قول المؤرخين والنقاد كلمة (الاندلس) . والواقع انه لم يكن نصيب هذه القبائل الفندالية خيراً من نصيب الرومان فلقد اغار القوط عليهم ونسخوا الحكم الفندلسي ، واتخذوا مدينة طليطلة اقوى معقلٍ في الشمال عاصمةً لهم ، وفي هذه الحقبة التي استمرت نحواً من ثلاثة قرون عرفت هسبانيا على حد تسمية الرومان ، وفندلس على حد تسمية قبائل الفندال الدين المسيحي الذي انتشر على اعقاب الوثنية الأولى القائمة يومئذ في تلك الاصقاع . ويجمع المؤرخون العرب وفي طليعتهم ابن القوطية القرطبي ان آخر ملوك القوط بالأندلس غيطشة توفي عن ثلاثة اولاد اكبرهم الموندو ، ولم يكنْ أحدُهم قادراً على ان يتولى الحكم ، وأن الأمر كان للقائد لذريق الذي لم يحسن سياسة البلاد ، وبالتالي لم يحسن معاملة الموندو مما دفع به مع اخويه ان ينحازوا الى طارق بن زياد القائد المسلم الفاتح ، وان يكونوا عوناً له على النصر .

لقد رافق الفتحَ الإسلامي لهذا الصقع من العالم المترامي على ساحل الابيض المتوسط شرقاً وعلى ساحل بحر الظلمات غرباً كثيرٌ من الروايات والأساطير التي يدحضها العلمُ ويرفضها التاريخ .

عداء المؤرخين الفرنجة للفتح الإسلامي

لعل اكثر هذه الروايات شيوعاً حتى بين طبقة المثقفين ان القائد طارق

ابن زياد قد احرق السفنَ التي اقلته والجيش عبر مضيقِ الجبل الذي سمي باسمه .

يوزع المؤرخون الفرنجة عمل طارقِ بنِ زياد هذا ، الى انه اراد ان يلهب نفوس جنوده ويجعلهم امام مصير محتم ، وهكذا كتب للقوة الإسلامية النصر الذي دوّخ اوروبا قروناً ودفعها لأن تستفيق على واقع الحياة الإسلامية في الأندلس .

ان منطق الوقائع التاريخية وبالتالي النصر المؤزر الذي حققه المسلمون على ارض الجزيرة الخضراء ومن ثمة في الاندلس جميعاً يدحَضُ الروايةَ الغربية ولا يقرها .

من الثابت كما يؤكد ابن القوطية القرطبي في كتابه تاريخ افتتاح الاندلس ان يوليان القوطي حاكمَ سبتة لخلاف كان بينه وبين لذريق حاكم الاندلس قد رغّب طارقَ بن زياد عاملَ مدينةِ طنجة على فتح البلاد ومدح له شرفَها وموقعَها واعانه على الفتح بعد موافقة موسى بن نصير حاكمِ افريقيا في القيروان، الذي استأذن بدوره الخليفةَ الوليدَ بنَ عبد الملك في دمشق ، قلت ان يوليان حاكمَ سبتة القوطي اعان العربَ بسفن ست نقلت جيوشهم عبر المضيق .

امام هذه الحقيقةِ التاريخية لا يمكن ان يُقْدم القائدُ الأموي طارقُ بنُ زياد على احراق سفن قدمها لهم رجل قوطي لتُعينَهم على نقل الجنود والعَتاد .

هذا ونحن لو اخذنا برأي اصحاب الرواية ان السفن التي اقلت الجنود كانت اموية بالرغم من أن الواقع التاريخي يرفض هذا الرأي، ذلك ان المسلمين في فتوحهم لافريقيا والمغرب لم يركبوا البحر ، وليس لهم في الواقع على طول الساحل اسطول بحري ، كما انه ليس من تقاليد الحرب ان يتلف القائد عتاداً حربياً هو من اسباب النصر ، فضلاً عن ان طارق لن يستطيع ان يُقْدِم على مثل هذا الأمر الخطير دون ان يستأذن قائِدَه العام .

الواقعُ انه ليست هناك وثيقةٌ تاريخية تؤكدُ ان طارقَ بنَ زياد قد استأذن موسى بنَ نصير، فضلاً عن انه ليس في كل المصادر التي تؤكد ان خلافاً وقع بين القائد العام وطارق بنِ زياد ما يثبت ان موسى بنَ نصير قد اخذ على فاتح الاندلس مأخذاً عسكرياً واحداً .

ان الرواية الغربية التي حاولت ان تُنْقِص من قيمة الفتح الإسلامي للاندلس فادعت ان طارق بنَ زياد قد احرق السفن إنما هي رواية مدسوسة على التاريخ الإسلامي ، وعلى القوة الأموية التي كتب لها ان تَكْسَبَ نصراً مؤزراً على ارض شبه جزيرة ايبريا ، وان تغيّر من معالم التاريخ في اوروبا كلِّها . الى جانب هذه الرواية التي دسها المؤرخون الفرنجة ، روايةٌ أخرى دسها العربُ الغلاة في عنصريتهم .

حول خطبة طارق بن زياد

وضع بعض المؤرخين العرب في عصر التدوين خطبة لطارق بنِ زياد ادعوا انه القاها في جنوده ابان الفتح الإسلامي للأندلس .

ان الناقد الذي يدرسُ خُطْبَةَ ابنِ زياد هذه ، ويعلم بالتالي حقيقةَ الجيش الذي رافق القائدِ البربري لفتح البلاد يدرك ان الخطبة نُحِلَت على لسان القائد الفاتح ابن زياد .

من المؤكد ان الجيش الذي فتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد قد اناف على اثني عشر الف جندي ، منهم ثلاثمايةِ فقط على أكثر تقدير من العرب ، ومع ذلك فالروايةُ العربيةُ تَحْرِصُ على ان تؤكد قولَ طارقِ بن زياد « لقد اختاركم اميرُ المؤمنين من الابطال عرباناً » .

كأني بالمؤرخين العرب الذين حَرِصُوا في عصر التدوين على تأريخ الفتح العربي واثبتوا خطبة القائد ابن زياد قد حاولوا ان ينكُروا على غير العرب ما اسهموا به من خدمات في نشر الدعوة وفتح البلاد ، وانها من غير شك صورة للعراك الشعوبي الذي احتدم بين العرب وبقيةِ الشعوب خلالَ

الحكم العباسي . يدعو الى درس ونقد كثير من الروايات والمصادر . ومن هنا اكدوا « قول طارق عرباناً لا عرباً » .

رواية ابن خلدون وفتح القسطنطينية

اما الرواية الثالثة والتي تتصل بهذه المعركة الفاصلة في تاريخ العرب العسكري بالنسبة الى اوروبا يعتبرها ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر امتداداً لما رسمت الخلافةُ في دمشق من خطط ، وانها محاولةٌ وفق منهج مرسوم لاحتلال اوروبا ، وبالتالي لاحتلال القسطنطينية عن طريق الغرب بعد ان تعذر الاستيلاءُ عليها عن طريق الشرق .

ويعتمد هذه الفكرة الاستاذ محمد عبد الله عنان احدُ الكتاب المعاصرين فيؤكد بأن الدولة الأموية كانت ترمي من وراء غزو القسطنطينية الى اكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية ، فلقد كانت ترمي الى حمل الدعوة وفرض السيطرة على اوروبا كلها ، فلما ارتدت جيوشُها امام اسوار القسطنطينية شقت الى الغرب والى اوروبا طريقاً آخر فجازت جيوشها الى اسبانيا ، واقتحمت جبالَ البرينة الى فرنسا .

امام هذا الخطل في التحقيق بكيفيات الوقائع التاريخية واسبابها ، حري بنا ان نؤكد بأن ابن خلدون قد اخطأ في فهم هذه الاسباب ، وبأن الكاتب العربي المعاصر بنى رأيه على وهم وخيال بعيدين عن الحقائق العلمية . والحقيقة ان الدولة الأموية قد حاصرت القسطنطينية مرتين ، المرة الأولى في عهد معاويةِ بن ابي سفيان سنة تسع وأربعين ٤٩هـ ستمائة وتسع وستين٦٦٩م ، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ تسع وتسعين هـ ، وسبعمائة وسبع عشرة ٧١٧م . اي بعد فتح الأندلس على يد طارق بن زياد بست سنوات ، ومن حقنا هنا ان نتساءل ، اذا كانت الخلافة الأمويةُ تنوي من وراء فتح اسبانيا الاستيلاءَ على اوروبا وبالتالي على القسطنطينية ترى لماذا هاجمت عاصمةَ الدولة الشرقية للمرة الثانية سنة تسع وتسعين ٩٩هـ ، وطريقُ اوروبا قد تمهدت امام جيوشها عن طريق الاندلس ؟ وهل كان بإمكان القواتِ العربية

التي عَجِزَت عن احتلال القسطنطينية عن طريق الشرق بعد حصار طويل الأمد وهي قريبةٌ من مراكز انطلاقها في سوريا ، احتلالَ القسطنطينية عن طريق اوروبا وهي القوة الخليط من الشعب العربي الفاتح يومئذ ، وهل ان اسوارَ القسطنطينية ، من جهة اوروبا هي من الوَهَن بحيث تستسلم سريعاً لهذه القوات . إن لم نأخذ بالاعتبار المضيق الذي يشطر المدينة إلى شرقية وغربية.

ان الحقيقة العلمية تَدْحَضُ كل هذه الآراء ، فاقتحام الاندلس كان وليدُ الاحداث المحلية والظروف الحياتية ، ولقد اكدنا نقلاً عن ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الاندلس وعن غيره من المؤرخين العرب ، العواملَ التي اهابت بالقائد العربي الى غزو جزيرة ايبريا وفتحها ، وليس من شك في ان الخلافة الأموية وهي الدولة العربية الاعرابية التي بنت حكمها على اساس تمجيد العنصر العربي كانت اعجزَ من ان تدبر تلك الخطط العسكرية ولم يكن لها اهدافٌ بعيدةُ المدى للسيطرة على اوروبا، وان كنت لا أنكُرُ بأنها لو وفقت الى ذلك لما تراجعت عن اقتحام الحدودِ في سبيل نشر الدعوةِ ، وتأسيسِ امبراطورية عربيةٍ مترامية الأطراف .

ان العبقرية العسكرية وروحَ الجندية الحقة التي اجتمعت لطارق بن زياد مع عواملَ سياسية وظروف حياتية كانت كامنة في البلاد ، هي التي هيأت النصر المبين لتلك القوةِ العربية ان تدخلَ الاندلس ، كما اتاحت لها خلال قرون ثمانية ان تنشيء تلك الحضارة وتقيم هاتيك المدنية ، وان تجدد في روح الأدب العربي ، وان تضع اسساً جديدة في الفكرات الفلسفية ، وان تؤكد كرويةَ الأرض ، وان تفكر في اختراق أجواء الفضاء بعد ان اسست في ارض الأندلس الجميل القشيب ، محاربَ عبادة يتيه الفكر في بنائها ، وأقامت فيها زهراءَ قرطبة ، وحمراء غرناطة ، وقصر اشبيلية وسط حدائقَ بدعةٍ في الهندسة والتنسيق ، فواحةٍ بالنرجس والنسرين ، الى جانب مدن كانت مراكزَ للتفاعل الفكري والحضاري ، ومواطِنَ للعرب والاسبان على حد سواء .

موسى بن نصير يلحق بمولاه طارق بن زياد

بعد عام من دخول طارق ، قام موسى بن نصير القائدُ العام في حملة اخرى على الأندلس سلكت طريقاً مغايرة لطريق قوات طارق الا انها التقت في ما بعد مع القوات الأولى في طليطلة .

يقول الرازي في كتاب الرايات « إن القوات التي دخلت مع موسى بنِ نصير لم تكن نظاميةً وإنها كانت من رجال القبائل وكانت كل قبيلة تلتف برايتها وشعاراتها وقد استوطنت في ما بعد الاقاليمَ الاندلسية واقتطعت لها المزارعَ والحقول واخذت تسودُ مواطِنَها على غرار الحكم القبلي الفردي» .

في الواقع ان خطر هذه القبائل لم يُعْرَف عندما كانت الدولةُ العربية في الاندلس في اوج سلطانها وقد تكشف سوء السياسة الفردية عند بدء انهيار الاندلس العربي فكانت هذه القبائل في خصومتها وتَنَكُّرها للمصلحة العامة اشدَ على الدولة من سكانِ البلاد الاسبان انفسهم ، واني كناقد للتاريخ في الأندلس استطيع ان اقرر ان هذه القبائل في سياستها واقطَاعِها وحكمها كانت احدى العوامل التي ادت الى خروج العرب من شبه الجزيرة بعد حكم استمر قرون ثمانية .

من المؤكد ان خلافاً وقع على ارض شبه الجزيرة بين موسى بنِ نصير الحاكم العام لشمال افريقيا وبين قائده طارق بن زياد لأن هذا الأخير لم ينجز الفتح كما كان قد قرر له ، ولأنه لم يلبِ الأمر الذي وجهه اليه موسى بعد ان استبطأ عودته .

من المعروف في تاريخ الاندلس ان موسى بن نصير عين ابنَه عبد العزيز والياً على الأندلس وعاد مع طارق بن زياد الى دمشق ليقدما الطاعة للخليفة الوليد بن عبد الملك . وعند وصولهما الى بيت المقدس ارسل اليهما سليمان ابنُ عبد الملك شقيقُ الخليفة امراً يطلب فيه ان يتريثا ردحاً من الزمن لأن الوليد كان على فراش الموت ، وإنه يرغب في ان يكون قدومُهما في مطلعِ خلافته هو ، لأنه كان ولياً للعهد .

لم يستجب موسى لرغبة ولي العهد ودخل دمشق في عهد الوليد واستقبل استقبالاً حافلاً كان يوماً مشهوداً في تاريخ العاصمة الأموية .

سليمان بن عبد الملك وموقفه من موسى بن نصير

يؤكد النقاد والمؤرخون ان الخليفة سليمان بنَ عبد الملك بعد وفاة اخيه الوليد اساء معاملَةَ القائدِ العربي الكبير موسى بنِ نصير وصادر املاكه وصرفه عن وجوه الخدمة العامة ، ومن المعروف ان موسى بنَ نصير توفي وهو في طريقه إلى الحج سنة ٩٦هـ ٧١٤م .

من الثابت ان الدولة الأموية في الشرق خسرت المعركة الفاصلة بينها وبين قوى آل محمد سنة ١٣٢هـ ٧٤٩م وعلى انقاض هذه الدولة العربية الاعرابية كما يقول الجاحظ قامت دولة بني العباس الاعجمية الخرسانية .

ولاة الأندلس

ان الحكم الفعلي للولاة الأمويين في الاندلس استمر نحواً من اربعين سنة من سنة ٩٢هـ / ٧١٠م إلى سنة ١٣٢هـ / ٨٤٩م . عندما سقطت الدولة الأموية في المشرق .

في هذه الحقبة بالذات كان والي الاندلس يومئذ عبدُ الرحمن بنُ يوسف الفهري فاستمر يحكم البلاد وهو يدعو على المنابر للدولة الإسلامية في بغداد حتى دخل الأندلسَ سنة١٣٨هـ /٧٥٥معبدُ الرحمن بن هشام الأموي الذي قدر له ان يَهْرُب من ظلم العباسيين في المشرق وان يُقيمَ مدة طويلة في المغرب عند اخواله بني نفرة .

خلال المدة التي حكم فيها الولاةُ الأمويون الاندلس وهي لا تزيد عن اربعين سنة تداول الحكمَ في قرطبة نحوٌ من عشرين واليا منهم الصالح الإداري ، ومنهم المسرف المبذر حتى ان الاندلسَ العربي لم يعرف استقراراً طوال عهد الولاة .

احقاب الحكم العربي في الأندلس

في ضوء التاريخ العربي في الأنـدلس نستطيـع ان نقيم احقابـاً للحكم الأموي وهي التي اتفق عليها المؤرخون :

١ ـ حقبةَ عهدِ الولاة الأمويين من ٩٢هـ ـ ٧١٠م / ١٣٨هـ ٧٥٥م .

٢ ـ حقبةَ عهدِ الإمارة من دخول عبد الرحمن صقر قريش سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م إلى قيام الخلافة الأموية في قرْطبة سنة ٣١٦هـ ٩٢٨م .

٣ ـ حقبةَ عهدِ الخلافة الأموية في قرطبة في عهد عبد الـرحمن الناصـر الذي بويع بها سنة ٣١٦هـ ٩٢٨م إلى سقوط الدولة الأمويـة في الأندلس وقـد تخللها دولة بني حمود ، ومن ثمة قامت دولة بني امية الثانية وكان اولُ من حكمها المستظهر عبدُ الرحمن هشام بنُ عبد الجبار بنُ النـاصر ، وكـان هشام المؤيد آخرَ من بويع بها .

٤ ـ حقبةَ دول ملوك الطوائف ، هـذه الدول التي قـامت عَقِب سقوط الـدولة الأموية الثانية على اساس من العنصرية القبلية اذ استأثر بنـو جهور بحكم قرطبة ، وبنو عبّاد بحكم اشبيلية ثم ضموا اليهم حكم قـرطبة ، وبنـو ذو النـون بحكم طليطلة ، وبنـو الافطس بحكم سـرقُسْطَة ، وهكـذا اصبح الاندلُس دويلاتٍ وشيع ، هي كما نعلم نتيجةً لحكم القبائل التي دخلت مع موسى بنِ نصير في حملته .

معركة الزلاقة[١]

كان بنو عبّـاد في اشبيلية اقـوى هؤلاء الملوك ، وقد لعبت دولتهم دوراً تاريخياً حاسماً في البـلاد ، وفي عهد المعتمـد الشاعـر الذي كـان في ذؤابة شعراء الاندلس رقة بيان واشراقة ديباجة وقعت معركة الزلاقة بين جيـوش ابن ادفونش ملك قشتالة من جهة ، وبين جيوش بني عبّاد المؤيـدة بجيش يوسف ابن تـاشفين سلطان المرابـطين في مُرَّاكش من جهـة اخرى . المعـركـة التي

(١) ثمة دراسة خاصة عن معركة الزلاقة في هذا الكتاب انظر ص : ١٠٨ .

انتصرت فيها القوة الأندلسية المراكشية المتحالفة .

بعد هذا النصر المؤزر الذي حققه الجيش الإسلامي في الأندلس رجع يوسف بن تاشفين مع رجاله الى بلاده غير ان ملوك الطوائف عادوا إلى منازعاتهم وخلافاتهم وكان على ابن تاشفين ان يحمي الاندلس مرة ثانية من غزو القشتاليين فدخل الأندلس وحمى البلاد الا انه خلع المعتمد وساقه اسيراً الى اغمات وظل رهينَ مَحْبَسِهِ حتى وافاه الأجل ، وهنا تنتهي الحقبةُ الرابعةُ من التاريخ العربي في الأندلس .

٥ ـ الحقبةَ التي قامت فيها دولةُ الموحدين في مُرَّاكش وقضت على دولة المرابطين وحكمت الاندلس ، وفيها كان نفوذُ الاسبان قد اصبح قوياً بعد الزواج الذي تم بين فرديناند الخامس وايزابيلا لاكاتوليكا .

٦ ـ الحقبةَ الأخيرة التي شهدت فيها مملكةُ غرناطة حِصاراً اسبانياً شديداً قضى على كل امل في الحياة ، بعد ان طلبت فكَ الحصار الاسباني عنها ، ورضيت في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢م الشروط التي املاها الاسبان وقبلها بنو الأحمر ، والتي نقضها الاسبان في ما بعد .

سقوط غرناطة[1] آخر معقل اسلامي في الاندلس

ومع فجر ذلك اليوم غادر ابو عبد الله محمد قصرَ الحمراء موطنَ عزّه ، وخرج للقاء عدوه الظافر ، وهَمّ أبو عبد الله ان يترك جواده ليحيي الملك المنتصر ، ولكن فرديناند منعه ، وعانقه ثم سلم الملكُ الغرناطي مفاتيحَ الحمراء قائلاً : (ان هذه المفاتيح هي الأثرُ الأخير لدولة العرب في بلادكم ، لقد اصبحت ايها الملك سيدَ تراثِنا ، هكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً عادلاً) . واتجه الملك بعدئذ مع فرديناند الى حيث كانت زوجته الملكة ايزابيلا فقدم لها خضوعه ، ثم انحدر مع اسرته الى البشرات ليحكمَها باسم

(١) ثمة دراسة حول سقوط غرناطة في هذا الكتاب انظر ص : ١١٣ .

ملك قشتالة وفي طاعته ، واتخذ قريةَ اندرش مركزاً لحكمِهِ ، وانتشر في الناس النبأ ، فغضب الشعب وسَخِطَ على ابي عبد الله واعتبره مصدَر الهزيمة وسببَ النهاية .

ومع كل ذلك لم يقو الملكُ العربي ان يحكم تلك المقاطعةَ باسم ملك قشتالة ، فلقد ابت عليه مروءته ان يخضع للرجل الذي قاتله على ارضه ، فقرر ان يتجه نحو المغرب العربي .

كوكبةٌ من الفرسان تجتاز في تؤدة وادي المرية الذي قضى الشتاءُ فيه على كل شيء ، على العشب الأخضر الذي كان يملأ ارضَه اشراقاً ، وعلى ابتسامات الاشجار التي كانت تُحيل جواءها الحزينة الى فُسُحات طلقة من الطبيعة الضاحكة ، وعلى سواقي المياه الهاربة من النهر الواسع ، وعلى الطير المختبيء في اعشاشه ، بلى كانت هذه الكوكبة من الفرسان متجهةً نحو الشاطيء من باب المرسى حيث كانت هناك عدة سفن اعدها فرديناند لأبي عبد الله محمد ، وما ان وصل الملك ذليلاً شاحب اللون متصنعاً للعزّة ، حتى اخذت السفن تمخر عبابَ اليم متجهةً الى الملية ، دونما نظام ، ودون ان تعبأ بالرجل الذي كان الى الأمس القريبِ سيدَ هذه الأرض فلقد اندفعت معاً وكانت بمجموعتها المتفرقة اشبَهَ بقوارب الصيد المزدحمة منها بسفن ملكية ، وما ان ابتعدت عن الشاطيء واخذت ارضُ الاندلس تتصاغرُ وتتباعد عن عينيّ الملك حتى راودته عَبرة لم يقو على ردها فبكى ، وسمعته امه عائشة التي كان لها صفحاتٌ مشرقة في تاريخ المقاومة العربية في الأندلس فقالت له : (اجل ابك بكاء النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال) .

لقد انتهى الملك ابو عبدِ الله محمد إلى مدينة فاس ، وهناك تقدم من مليكها الشيخ الوطاسي مستجيراً به مستظلاً بلوائه ، ويحدثنا المقّري في نفح الطيب فيقول : (بأن أبا عبدِ الله محمد بسط دفاعه بكتاب اسماه بالروض العاطر الانفاس في التوسل الى المولى الإمامِ سلطان فاس ، وقد دبجه الكاتب ابو عبد الله محمد العربي العقيلي) ، ويبتديء الكتاب بقصيدة بالشكوى والاعتذار مطلعها :

مولى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ عيْـاً لما مِثْلُهُ يُـرْعى من الـذِّمَمِ
حُـكْمٌ مـن الله حـتـمٌ لا مـردَّ لـه وهــل مَـرَد لحُكـم منـه مُـنْحَـتِمِ
كُنَّـا ملوكــاً لنــا في ارضنـا دولٌ نِمْنَـا بهـا تحت افنـان من النِّعَم
فـلا تَنَم تَحتَ ظِـلِ الملك نَـومَتَنَا وايُ مَـلْكٍ بـظلِ المُـلْكِ لم يَـنَمِ

بلى لقد سقطت غرناطة آخرُ معقل عربي في الأندلس ، ولم تجدِ كـلُّ المسـاعدات التي قـدمها في ظـروف معينـة ، الحفصيـون ، والمـرابـطون ، والموحدون، فلقـد سقط الحصن الأخير غـرناطـة المشرئبـة ابداً في عنفـوان وكبرياء على الدهر ، المطلة على الدنيا في وسط سهلها ، وكأن الجبلَ (سيرا نفادا) الحائلَ بينها وبين الأرض هناك ، ما زال معتزاً بحراسته الأبدية للمدينة العربية الشامخة .

ان عواملَ داخلية وحياتيـة مع استئثار ملك ، وانانيـة حاكم ، وخـداع امرأة ، واسراف حاشية ، وتعصب عالم ، تضافرت كلها على ضَياع البلاد ، الا ان الطابع العربي والصبغة الشرقية والتقاليد والحضارة التي اقامتها العبقرية العربية هي الطابعُ المميز لتلك الأرض عن اوروبا كلِّها ، الوجه العربي الباسم في كل الوجوه المشرقـة ، العين السوداء الكحيلة طـابعُ كـل العيونِ الجميلة الدعجة ، الذكاءُ العربي المتوقد خصائصُ الذكاء الاسباني المتحفز :

جـادك الـغيـثُ اذا الغيـث هـمـا يـا زمـانَ الـوصـل بـالأنـدلس
لم يكن وصلُكَ الا حُلُماً في الكرى او خـلسـةَ الـمـخـتـلسِ

قلت ان اسبانيا الإسلامية كانت مجالاً للإبداع الفكري بعد ان تـوفرت لهـا عوامـلُ الطبيعـة الساحـرة ، وعوامـل الدولـة الناهضـة فلقد شهـد سهـل المصارة ، السهلُ الأفيح المنبسط قبالة قرطبة ، المدينـةِ الحالمـة عند اقـدام جبل العروس الحارس ، المزهو الضاحك للطبيعة السمحة ولأزهار الأقحوان والنسرين التي تكلله ابان ثورة الربيع ، والمتكيء في شيء من دَعة على اطراف المدينةِ الأزلية مركز الولايـة وقاعـدة الإمارة ، وكـرسي الخلافـة بعدُ ومجمـع العلم ، وكعبة العلماء ، وجنة الأرض المبعثرة على جنبات النهر الكبير، الذي

اخترق الأرض هناك عميقاً ومتسعاً فباعد بين طرفيها ، واندفع يشق السهل هادئاً تارة ، وثائراً مضطرباً تارة اخرى .

مظاهر الحضارة والفكر في الأندلس الإسلامي

قلت شهد سهلُ المصارة المعركةَ الفاصلة الحاسمة بين عهدين من حياة الأندلس العربي ، عهد الولاة الأمويين ، وعهد الإمارة الأموية ، العهدِ الذي كتب فيه للأندلس خلودٌ في التاريخ ، ورسالةٌ في الحضارة ، وصفحةٌ مشرقة في الأدب ، ولحن جديد في الموسيقى ، وفكرة في الفلسفة ، ونظرياتٌ في الطب والفلك ، وانشودةٌ في الغناء هي مزيجٌ من العلم والشعر والموسيقى ، او هي كلُ العلم والشعرِ والموسيقى في اتفاق عبارة وتجاوُبِ لحن ، وتسميط ابيات ، هي الغناء اذا اريدَ بها الغناء ، وهي اللحن اذا اريد بها النغم ، او هي اللمسات الخفية التي تداعبُ القلب وتهز اعماقَ النفس لتستحيل وتراً يتجاوب ايقاعه ، وترجع اصداؤه قبل ان يكون مركزاً للفهم والوعي ، لأن معنى الموشح الذي صيغ ابياتاً منسجماتٍ ذات اسماط متجاوبات متعانقات بالوزن والجرس والسبك ، ابداعاً من اعماق الذات الشاعرية المُلْهَمة هو اعمق في النفس تأثيراً من الكلم الشعري المتداول المعروف يومئذٍ، النابع من اعماق شعرنا العربي الأصيل .

وإذا كان الأندلس العربي لم يخلف لنا طوال عهد الولاة آثاراً تدل على حياته الفكرية كما يؤكد المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، فعهد الإمارة الأموية قد اوجد اتجاهاً جديداً في هذه الحياة اذ يعتبره النقاد مدخلاً لحياة الاستقرار بالنسبة للأندلس العربي ذلك ان العلم والأدب يحتاجان إلى الأرض ، وحيث لا ارض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيالٌ واسع ولا تفكير عميق ، ولا احساس بالبناء . وهنا كانت المشكلة خلال عهد الولاة فلا استقرارَ ولا امنَ ولا هدوءَ ولا تجاوبَ مع الذات الانسانية مبدعةُ الفكرة ، حكمةً خالدة ، او صلاة عميقةً ، او انشودة ازلية ، او نظريةً علمية او فلسفية ، هذه الفكرةُ وليدة النفسِ الانسانية قد تكون

الذاتُ نفسُها مجالَ تأملاتٍ اعمق من الذات ، وابدع من تكوينها لأن الكلمةَ في الأصلِ ابداعُ سماوي الاهـي كائن منـطلق متجاوب مـع الأرض والسماء جميعاً .

من هذه النقطة بالذات ، من الاستقرار عينه ، كان عهدُ الامارة الأموية عهدُ الدولة والبناءِ والإبداعِ ، فالثقافة العربية الاندلسية قد تفتحت في هاتيـك الأرض على تاريخ الأمة الحاكمة وآدابِها فكانت في كل انطلاقاتِهَا انعكاساتٍ للحيـاة الفكريـة في المشرق العـربي الذي كـان لا يـزال يتخبط بين القـديم والحديث، بين تيارات العرب الأعراب ، وبين تيارات الاعاجم الخـرسانيين ، ويحاول جاهـداً ان يحدد مفـاهيمَ اصيلة للتراث الجـاهلي في ضـوء التـطور العميق الذي تفاعل فيه بعد ادبِ القرآنِ والحـديث حكمةً وعبـارة ، وقصة ، وبياناً ولغةً ، واذا كان العهدُ الأموي قـد أرسى قواعـدَ القصيدة الجـاهلية في الأدب العربي كوزن ، وقافية ، ومظهر في فترة لم يكن بعد قد حدد مفهومُ الأدب ومفهـومُ الشعر فيهـا لفقدان عـوامل النقـد يومئـذ ، ولقلة الأبحـاث في هـذه الأصول ، فالأدب الأندلسي مع اطلالته على الوجود ككائن خالد على الدهر هو في صميمه حقيقةُ الأدب العربي في المشرق ، فلقد حمل العربُ الأولون كما حملَ الداخلُ ورجالُهُ هذا الشعر المشرقي الى الأندلس حيث كانت الحاجةُ فيه مـاسةً لبعث حيـاةٍ فكريـة تتجاوبُ مـع اهتمام العبـاسيين بـالأدب والشعـر ، والموسيقى والفنون الجميلة اطلاقاً . فالشعرُ الاندلسي في حياتـه الأولى كان من صميم الشعـر العربي في المشـرق ، والأدب الأنـدلسي من حيث المـادة والموضوعات كان كذلك من صميم شـرقنا العـربي والفكراتُ الفلسفية التي قامت عليها ابحاث كبار الفلاسفة الاندلسيين كانت في الأصلِ كذلك فكراتٌ للفلسفة اليونانية والاسـلامية التي اهتم بهـا فلاسفـة المشرق . وكبـار شعراء الأندلس كانوا ينعتون بأسماء شعراء الدولة المشرقية ، غير اننا لا نستطيـع ان نقرر بأن الأندلس العربي كان مقلداً في حياته الفكرية جميعاً للشرق العربي ، فلم يكن لهـذا الشـرق السـاحـر ذي المفـاتن والصـور المجسمـة في قلوب الاندلسيين والمحبب اليهم الا فضلُ الركيزة الأولى ، اما البناءُ الشامخ ، وامـا

الزخرف والفسيفساء ، واما النقوشُ والرسوم ، واما مادة البناء فكانت مزيجاً من تلك الحضارة الراسخة في هاتيك الأرض المتكبرةِ المتطاولةِ على الزمن . ومما اقام العربُ في اندلسهِمُ الخالدِ من حضارة كانت تحاكي حضارَةَ الجرمان والفندال والقوط الذين تألبوا على البلاد ، ثم طبعَتها بالطابع المميز فكانت عربيةً اصيلة، هي اسطورةُ الدنيا في الأرض هناك .

منابع الثقافة العربية في الأندلس

ان الثقافة العربية في الأندلس هي الامتدادُ الطبيعي للثقافة العربية عامة مع عوامل البيئة المؤثرة ، وتمازج العرب والاسبان والحاجة الملحة في الإمارة الأموية الناشئة لمنافسة بلاطات بغداد الاسطورية .

لقد كان واقعُ الحياة الفكرية في الأندلس مع بدء حياة الاستقرار والأمن والبناء عقب قيام الإمارة الأموية المستقلة ، على يد عبد الرحمن الداخل كما اوضحت كواقع العلم والأدب في المشرق العربي ، يوم كانت الجزيرةُ العربية مركزَ الحياة الفكرية ، وموطنَ الشعر والأدب . فعكاظ وذو المجنة ، وذو المجاز تلك الأسواق الأدبية شهدت مظاهرَ الحياة الأدبية التي مكنت العرب ان يبدعوا الحرفَ متناسقاً ، وكان نواة الحياة الفكرية لهذه الأمة ، التي كان ادبُها بعيد الدعوة من ارقى آداب العالم القديم ، وكان يوازي بقوة عناصره ، وقوة ابداعه وتفاعله مع الحياة ، ومع البيئة الأدبَ اليوناني والأدب الروماني ، وكانَ مع ذلك ارقى من الأدب اللاتيني والأدب الفارسي ،لأنه مع ضيقِ خيال مبدعيه ، كان يمثل كثيراً من خصائص الأدب الخالد ، فالأدبُ القصصي ، وادبُ الحوارَ، والابداع تلك الميزات التي كانت بعض عناصر الأدب اليوناني الخالد ، كانت ممثلةً في الشعر العربي ، مع فارق البيئة والاستقرار والحضارة ، فالشعرُ الجاهلي ابنُ الصحراء كان مرآةً لحياة الجماعة العربية في كل مظاهرها ، وكان يمثل الى حد بعيد الحياةَ الاجتماعية ، وحياةَ الابطال ، ولا غرو ان شعر اليشكري القِصة ، وقِصَصَ ابي زيد وعنترة هي اصدق مثال لعناصر الأدب المميز ، ومظهر للجمال الفني . واذا كان الشعر في الجزيرة قد سبق النثر

الفني لأن الانسانَ بطبيعته عاطفةٌ قبل ان يكـون فكراً ، فـالشعر في الأنـدلس ايضاً كان اسبقُ من النثر الفني في الأدب العربي هذا النثر الذي حمله في ما بعد اعلامٌ كبـار في العلم جميعاً مـع فارق واحـد ان الشعر والأدب كـانا في الأندلس اخصبَ فكراتٍ واكثرَ موضوعات ، ذلـك لأن الأندلس العـربي كان مهداً لحياة ثقـافية راقيـة ، وموطنـاً طيباً ، وبلداً للعلم والفن والأدب ، اسهم الفينيقيـون في وضع ركـائزه واقـام عليـه البنـاء شـامخـاً من بعـد اليونـانيون والرومانيون ثم اقبلت المسيحية فانعشته ودفعت به في معارج الابداع والبقاء . (ولعل هذا ما يفسر لنا سراً من اسرار الازدهار الفكري السريـع الذي حققـه المسلمون في اسبانيا ، على قلة اتصالهم بمنابعِ الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين الإسلامي والمسيحي) فلقد عرفت اسبانيا القوطية اعلاماً كباراً امثال ايزدور الاشبيلي ، الذي كان يرجع في اصله الى الايبيريين الرومان والذي لم يكن كاتباً دينياً فحسب ، بل مصنفاً موسوعياً ، حاول ان يجمع في كتبه كل ما انتهى اليه من علوم اليونان والرومان .

بين المشرق والمغرب العربيين

وهكـذا نجـد ان الانـدلس ، الامـارة الأمـويـة ارضَ العلم والأدب ، والفن ، الذي وصل اليه عبر الزمان من الفينيقيين واليونانيين والرومانيين كـان مطلاً ، متجاوباً متفاعلاً مع الشرق العربي ، كجزء من امبراطوريته الواسعة ، والذي انكمش على نفسه في ما بعدُ محاولاً تكوينَ دولة جديدة فيها ابدعُ ما في الغرب من مفـاتن وآثـار واجملُ ما في الشرق من سحر وحضارة . وبالرغم من كل ذلك فلم يقو الشعرُ في الأندلس ان يستقل عن حقيقة الشعر المشرقي ، وان تفاعلَ في ما بعدُ وابدع ، فالنظرة الأندلسية الى المشرق كانت قدسية صادقةً تحِس بمـا لهذا الشـرق العربي من سبق في ضـروب الحياة جميعـاً ، ولعـل صاحبَ العقدِ الفريد قد عبر عن هذه الحقيقة في مقـدمةِ كتـابه قبـل ان يقدم ابوابَه الآليء في قوله : « وَقَرَنْت بها غرائبَ من شعري ليعلمَ الناظرُ في كتابنا هـذا ، ان لمغربِنَـا على قـاصيتـه ، وبلدِنـا على انقطاعِـه حـظاً من المنـظوم والمنثور » .

ويبدو جلياً في قول صاحب العقد ان هذا الأدبَ الاندلسي في مطلع حياة الامارة كان « حظاً » من الشعر والنثر ، وكان العقدُ جميعاً في نظر الصاحبِ بن عبّاد بضاعةً مشرقية . وفي ضوء قول صاحب العقد يؤكد المستشرق الاسباني المعاصر اميلوغراسيا كومس « ان الشعر الأندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي وان تاريخه يصور لنا الحياة التي المت بالشعر العربي الاصيل ، فلقد كان لشعراء الاندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً اثرياً قديماً ، وكذلك المحدثون من شعراء المشرق العربي لم يكن لهم عند شعراء الاندلس اثرٌ بعيد ، في ما خلا بدواتٍ نلمحها بين الحين والحين ، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث» .

الشعر الأندلسي ونشأته

وعلة ذلك انه في الوقت الذي ظهر فيه شعرٌ جديد بهذا الاسم في الأندلس كان الشعرُ القديم المحدث في اوجه في المشرق ، والحقيقة ان الشعر الأندلسي عامةً في ما استثنينا بضع شواذ فقيرٌ جداً من الناحية الذهنية التفكيرية لأن شعراءه تأثروا بالشعراء الاعلام في المشرق بناحية البراعة لا بناحية التفكير ، فضلاً عن ان الشعر العربي كلّه في ذلك العصر كان في بدء نموه وتطوره واحتكاكه مع العالم المتحضر الذي خضع للدولة العربية بالفتح .

ليس من شك في ان هذا الشعر الاندلسي الذي كان بدائياً في اول عهده بالإمارة تطور حتى بلغ اوجَ مجده في القرن العاشر الميلادي ، وفي عهد الخلافة الأموية بالذات ، واصبح صورةً لذروة النضج الفكري يعمل فيه العقل والتفكير والابداع والابتكار ، كما كان انعكاساً للخيال والعاطفة والبيئة . وقد شملت موضوعاتُهُ الزهدَ، والهجاء، والحماسة، والنسيب، والمديح، والرثاء، والوصف بصفة خاصة ، وكان جُلُّ ابداعهم في وصف الطبيعة الاندلسية وما فيها من سحر وتألق . غير انهم لم يظْهِروا براعةً ذات بالٍ في الشعر السياسي والحماسي ، ولم يوفقوا كثيراً في شعرِ الحكمة والتهذيب ، اما

شعرهُم الديني فتنقُصُه حرارةُ العاطفة وهم يتنقلون فيه من الوعظ الى وجد الصوفية دون تدرج .

اميليوغراسيا كومس والشعر الأندلسي

ان هذا الشعرَ الاندلسي الذي نبع من اعماق الشعر العربي على حد قول المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس عملت ناحيتان على ابرازه ، وعلى تطوره ، فعرب الأندلس قد انكروا الذات ، وقدموا كلَّ انواعِ التضحيات في سبيل الوصول الى منابر العلم والاساتذة المبرزين في العواصم الشرقية ، وكان عملُهُم هذا لما يبعث على الاعجاب الشديد ، اما الناحيةُ الثانية فهي ان الصلةَ لم تكن قائمةً بين الغرب العربي ، والشرق العربي فحسب بل كانت هناك كذلك صلةٌ اخرى قائمةً بين عنصريّ الثقافة في شبه الجزيرة، اسلامية، ومسيحية .

على هذه الأسس من عناصر الواقع الطبيعي للأرض الاسبانية وتاريخِها وواقع البلادِ السياسي نشأ الشعرُ العربي عامةً وشعر الطبيعةِ والموشح الذي سوف ندرسه دراسة مفصلة والذي تميزت به تلك الأرضُ عن سائر الشعر في الدنيا العربية كلها . وكان نغمٌ خالد متجاوب مع جمال الأرض في سحرها وكبريائها ، ومع الشعب هناك في فرحته وفي حسرته ، تلك الحسرة حكايةُ شعب مجّده التاريخ وبكاه وعبّر عنها ابن الأبّار أحدُ اعلام الأدب والشعر في بيتين من قصيدته الكبرى مستعطفاً بها ابا زكريا الحفصي سلطان تونس وقد حوصرت مدينته بلنسية :

ادرك بِخَيْلِكَ، خيلِ الله اندلسا ... ان السبيلَ الى منجاتِها دَرَسا
يا للجزيرةِ اضحى اهلُها جَزَراً ... للحادِثاتِ وامسى جَدُّها تعِسا

تميز الأندلس عن سائر الأرض العربية بطبيعة مشرقة زاهية يتكيء فيها السهل الأفيحُ على اعتاب الجبل الأخضر ، وتداعب الأمواجُ ما امتد على شاطىء البحر من رمال فضية ، حيث تتكسر في دعة ولين حيناً ، وفي قوة وصخب احياناً اخرى .

إلى جانب هذه الأرض الباسمة الفاتنة الساحرة المترامية الاطرافِ على ساحلِ اندلسيا تفتر طبيعةُ البلاد في الداخل عن مناظرَ تأخذُ بالنفس والروح جميعاً ، فجبال قرطبة الشامخة الرابضة في الجنوب الغربي من الجزيرة ، وغرناطة المتوجة بالأشجار والمطوقة بشنيل نهرِها الخالد ، وطليطلةُ المتربعة فوق نهر التاج الذي يمر بأطرافها وكأنه يحاول ان يلمس برفق وخشوع تربتَها الخصبة الخيرةِ ، والسهول المبعثرة في انحاء الأرض، لا تكاد الشمسُ تلملم عنها اشعتَها الفضية حتى يغمرها ضَوءُ القمر بشعاع ذهبي لا تَمَلُّ العين النظرَ اليه والتأمل فيه .

هذه الطبيعة الضاحكة الباسمة ابان تفتح الربيع ، والثائرة الصاخبة مع اطلالة الصيف ، والهادئة الناعسة تحت رذاذ الشتاء اوحت الى شعرائنا في الأندلس لوناً جديداً من الشعر غناه المتفوقون لحناً ابدياً علوياً فيه كل اختلاجات نفوسِهم ،وعصارةِ احساسهم ، وانطلاقات خيالِهم ، هو لحنٌ اذا اريد به اللحن ، وهو صلاةٌ للطبيعة الخاشعةِ اذا ما تغنوا به في تمتمات ، هي كلُّ السحرِ وكلُّ الموسيقى .

شعر الطبيعة في الأندلس

واذا كانت الآدابُ الغربيةُ قد عرفت هذا اللحنَ من الشعر في اواخر القرن الثامن عشر ، وكان مظهراً من مظاهرِ الحركةِ الابداعيةِ بعد ان وجد الشعراءُ المبدعون في الطبيعةِ ميداناً فسيحاً لخيالهم ، وتربةً خصبة لنمو العواطف الانسانية ، فلقد سبق الاندلسيون شعراءَ الغرب الى هذا اللونِ من الأدبِ الخالد حيث تركوا فيه خلاصة افكارهم ، وصادقَ عاطفتهم ، ونبلَ مشاعرهم بعد ان وجدوا في طبيعة بلادِهم انعكاساتٍ لآمالهم وآلامهم ، ولما كانوا يحسون من شوق وهوى الى الأرض ، والى الطبيعة التي وجدوا فيها صداقةً صوفيةً تجذبهم إلى الساقية الهاربة من اعماق النهر ، والى الجبل الرابض هناك ، والى الغابة الكثيفة الملتفة المنتشرة في اعماق المنخفضات من الأرض عندما تتلاقى الجبال فلا تقوى ان تشد بعضها الى بعض فتترك هناك فسحات

طلقة من الأرض ، كفسحات الأمل امام الغريق المتطلع إلى الشاطىء .

وجاء ابن خفاجة ليغني ارضَهم جنةَ الخلد :

يـا اهـلَ انـدلسٍ للـه دَرُّكُـمُ   مـاءٌ وظِـلٌ وانـهـارٌ وأشْـجَـارُ
مـا جَنَّـةُ الخُـلْدِ الاّ في ديـارِكُـمُ   ولـو تخيـرت هـذا كنتُ اختـارُ
لا تَخْتَشُـوا بعدَهـا ان تدخلُوا سقـراً   فليس تُـدْخَـلُ بعـدَ الجنَّـةِ النـارُ

حقب وعصور الشعر الأندلسي

لقد اضحى من المقرر ان الشعـر الأندلسي جميعـاً قد مـر في مراحـلَ ثلاث ، فكان منذُ بدءِ عصر الأمويين حتى اواخر القرن الخامس الهجري يمثل شعر التقليد لأدب الشرق ، واعلامُهُ في هذا الأدب ابن عبد ربه وابن هانىء ، وابن شهيد وغيرُهم من شعراء الطور الأول . اما المرحلة الثانية وهي الحقبةُ التي امتدت خلال القرن الخامس فلقد اخذ الشعراء يصدرون عن الحاضر ويمثلون النفس ومشاعِرَها، والبيئَة ومظاهِرَها مع الاحتفاظ بشيء من روعةِ الاسلوبِ التقليدي الذي اكتسبوه من الأدب المشرقي ، وبانتهاء القرن الخامس تَمَّ انتصارُ الجديد واتسعتِ حركة الموشحات ، هذا اللون الجديد من الأدب الاندلسي ، واعلامه ابن زيدون ، وابن عمّار ، والمعتمد بن عباد، وابـن الحداد ومن اليهم من شعراء الطوائف الذين كانوا يجمعون صورَ البيئةِ الجديدةِ الى معاني الشعراء السابقين .

أما المرحلة الثالثة فتضم شعراء القرن السادس الهجري ، الـثاني عشر للميلاد حيث اخذ الشعراءُ يمثلون البيئةَ المترفة والجدَّة ، واعلامُ هذا التطور ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة وسواهم .

ان الوان شعر هذه المراحل الثلاث بما فيها من صفـاء الشرق وتمـازج الحضارات في هاتيك الأرض ، وخصائص الحياة الاندلسية قد انعكست كلُها في هذا اللون الواحد من شعر الـطبيعة ، الـذي هو عنـوان كتاب الشعـر في الأندلس العربي :

أَلـؤلؤ دمـعُ هـذا الـغيـثِ ام نُـقَطُ ... مـا كـان احسَنَـه لـو كـان يُلْتَقطُ
اهـدى الـربيـعُ الينـا روضـةً أُنُفـاً ... كمـا تَنَفَّسَ عن كـافـوره الـسَّفَطُ
غمـائمٌ في نَـواحي الجـوِّ عـالقـةٌ ... حَفْـلٌ تَحَـدَّر مـنهـا وابـلٌ سَـبِطُ
بين السَّحَـاب وبين الريـحِ ملحمـةٌ ... معـامـعٌ وظبـاً في الجـو تَخْتَـرِطُ
والأرض تَبْسُطُ في خـد الثَّرى وَرِقـاً ... كمـا تَنَـثَّرُ في حـافـاتهـا البُسُطُ
والـريـحُ تبعثُ انفـاسـاً معـطَّرةً ... مثـلَ العبيـرِ بمـاءِ الـوردِ مُخْتَلَطُ

اضحى من الثابت بالرغم مما طرأ على العرب بعيد الدعوة من تغيير تناولَ جميع مظاهر حياتهم السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وبدل حالهم واسس البيئة من واقع القبيلةَ ، الى واقع الأمة ، ومن زعامة الفرد المستبد ، الى حكم الخليفة العادل ، ومن حياة الصحراء والضرب في اطرافها الى حياة الحضر والتمدين ، ومن رحلتيّ الشتاء والصيف ، الى حياة اقتصادية لم تعد تعرف تلك القافلتين اللتين كانتا تؤم الجزيرة من جلق تارة ، ومن اليمن تارة اخرى ، تنقل من دمشقَ واطرافِ بلاد الشام القرطاس والمتاع ، وتنقل من اليمن وجوارِه الجلودَ غلى حد قول طرفة بنِ العبد :

وَخَـد كقـرطـاس الشـآمي ومِشْفَـر ... كسبتِ اليمـاني قِـدُّه لـم يُجَـرَّدِ

ومن المنازعات القبلية ، والخصومات الحزبية ، والثأر الدنيء ووأد البريئات ، الى نوع من نظام الحكم وفق تشريع يكفل حق المستَضْعَفين في الأرض .

الإسلام والشعر

يؤكد النقاد ان الحياة الأدبية في جميعِ مظاهرها لم تقو عوامل الدعوة ان تتناول قواعدَها ، وان تبدل من حقيقتها كما تناولت بقيةَ المظاهِرِ الحياتية في الجزيرة العربية .

لقد ظلت القصيدةُ الجاهلية اقوى مظاهر هذه الحياة الأدبية سائدة في الأدب العربي ، فضلاً عن انها كرست كمظهر ثابت ، نهج على منواله شعراء

الدولة الأموية ، وبعضُ شعراء العصر العباسي ، كما سادت في كثير من العصور الأخرى ، وتمكنت ان تسيطر في الأندلس وفي الشمال الأفريقي حتى بعيد القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد .

ان العصر العباسي ، وعوامل الخصومة السياسية بين العرب من جهة ، وبين الفرس من جهة اخرى لم يقو ان يعدل في حقيقة القصيدة الجاهلية بالرغم من ان عدداً من الشعراء تعرضوا لها ، فقدر لهم ان يتناولوا موضوعاتِها ، ووحدتِها ويدفعوا بها في اتجاه جديد يخالف المنهاجَ الجاهلي التقليدي الذي سارت عليه منذ عهد امرىء القيس الى عهد ابي نواس .

الأدب المحدث والعصر العباسي

ان الحقيقة العلمية تثبت ان العباسيين قد افلحوا في صرف القصيدة الجاهلية عن ذكر الأحبة ، ووصف الطلل ، وتعدد اغراض الشاعر في المعلقة الواحدة ، كما تثبت ان جهود المُولَّدين من الشعراء لم تقو ان تتناول هذه القصيدة الجاهلية من حيث واقعها العروضي ، لأن حقيقة شعرِ هذه الطبقة من المولدين كانت تواكب جوهر الشعر العربي .

امام هذه الظاهرة ، اقدم الخليلُ بن احمد الفراهيدي ، استاذ سيبويه والأصمعي وغيرِهما من ائمة العربية على البحث في حقيقة هذه القصيدة الجاهلية حتى وفق إلى اكتشاف علم العروض وتدوين اصولِهِ ، حتى غدا منهجاً مقرراً لواقع اوزان الشعر العربي عامة .

لقد ظلت القصيدة الجاهلية في بنائها العروضي ، واوزانها المختلفة التي حددها الخليل سائدة مع كل الجهود التي بذلها الشعراء من طبقة بشار بن برد ، وابي العتاهية ، وابي نواس ، وابن المعتز ، تلك الجهود التي لم تتعد الموضوعاتِ الجديدة ، التي ما مرت بخاطر شاعر جاهلي ، او مخضرم ، او اسلامي .

في ضوء هذه الحقيقة نستطيع ان نؤكد ان هذهِ القصيدَةَ الجاهلية التي

دخلت الى الانـدلس مع الفتـح، سنة ثـلاث وتسعين هجريـة ، وانـطلقت في ارضه كمنهج تقليدي لأدب الأمة الحاكمة لم تقو بعيد القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ان تحتفظ بحقيقتها ومظهرهـا العروضي الـذي قاومت بـه كل محاولات شعراء المشرق العربي . ذلـك ان طبيعة البـلاد ، وواقعَ الأمـةِ في الأندلس كان يختلف عن طبيعةِ المشرق وواقعِ الأمة فيه .

ليس من شـك في ان الخصومـة السيـاسيـة بين العـرب والفـرس على الحكم كانت شديدةً خلال عصور الخلافة العباسية ، الا ان كلّ ذلك لم يجرؤ ان يتعرض لحقيقة اللغة العربية كلغة رسمية للدولة سيطرت على اللغة الفهلوية وسادت في العصر الذهبي للأدب . بيد ان الشعب في الأندلس كان يستعمل العـربية الفصحى كلغـة رسميةٍ يتعلمهـا الناسُ في المـدارس ، ويكتبون بهـا الوثائق وما إليها ، امـا في شؤونه اليـومية فكـان يستعمل لهجـة من اللاتينيـة الدارجة ، ذلك ان عددَ العرب الخلص الذين دخلوا شبـه جزيـرة ايبريـا كان قليلاً بالنسبة إلى سكان البلاد ، فضلاً عن اننا لا نستطيـع اعتبار هؤلاء العـرب ساميين او مشارقة ابتداء من جيلهم الثالث او الرابع بعد الفتح .

نشأة الشعر الموشح

هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية على حد قول المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا :

«لقـد ازدرى اهـل الأدب الفصيح هذا الطراز الجديد من الاتجاه الشعبي ، الا ان العامة اقبلت عليه ، وما زال امره يعظم حتى اصبح لوناً من الأدب اتخذ من الأدب الشعبي صورتين : احداهما الزجل ، والثانية الموشحة» .

فالزجل هو شعر يصاغ في فقرات تسمى ابياتـاً ، وتبدأ مقـطوعته ببيت يعرف (بالمركز) او السمط تليه اغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع او اكثر ، ثم يَعْقِبُها بيتٌ في نفس وزن المركـز وقافيته وهكذا .

أما رأي المستشرق انخل كونثالث بالنثيا وبالرغم من هذه العوامل التي عاشتها القصيدة العربية وجابهت بها الحملاتِ المسعورة في بغداد لم تقو امام عطاء الاندلس الفكري ، وواقع العرب والاسبان في قرطبة ، وفي دنياهم الغارقة في الجمال ، وامام الانهار المنسكبة وفي ظلال الاشجار الوارفة ، وقبالةَ العيون الناعسة ، والوجوه الكرزية الساحرة .

قلت لم تقو القصيدةُ العربية في محيط امتزجت فيه لغتان ، العربية والرومنسية وتفاهمت فيه شخصيتان الشرقية الأصيلة ، والغربية المعجبة ، ان تقاوم الابداع ، والسحر ، والابتكار ، والموسيقى ، وهي وليدةُ الصحراء على نغم النشيد ، وابداع اللحن ، الاّ ان تتجاوب مع كل هذه المعطيات وان تلين امامَ نمطٍ جديد للأوزان والعروض ، لم يتناول الوزن ولا العروض ، وانما وزع هذه الاوزان ، والعروض بشكل فني آخر ، او بعبارة اخرى وفّق الى احياء كثير من العروض المهمل فوزعه بإبداع فني جديد هو وليد البيئة ، وامتزاجُ اللغة ، وتطور الغناء والموسيقى .

عن هذا التوزيع الجديد للعروض ، وعن استخدام اشطار الاشعار ذات الاعاريض المهملة من قبل الشعراء الاعلام ، نشأ في الاندلس العربي الموشح من الشعر .

يؤكد النقاد وفي طليعتهم ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة «أن مبتَكِر هذا النوع من الموشح هو الضرير مقدم بن معافى القبري ، الذي يعتبره شيخَ الصناعة وامامَ الجماعة وانّه سلك الى الشعر مسلكاً سهلاً » .

إلى جانب هذا الرأي في مبتَكِر الموشح يثبت ابن بسام «ان صنعة التوشيح التي ابدع اهلُ الاندلس طريقتَها ، ووضعوا حقيقتَها لم تكن من قبلُ مرقومةَ البرود ، ولا منظومةَ العقود حتى كان عَهدُ الشاعر الضرير الذي اقام منارَها ، وكأنما لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا اخذت الا عنه » .

يؤيد ابنُ خَلْدون رأيَ ابنَ بسام فيقول : « واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قِطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونُه ، وبلغ التنميقُ فيه الغاية استحدث

المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً ، واغصاناً اغصاناً يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعددَ منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانِهَا نهجاً متتالياً في ما بعد الى آخر الموشحة ، واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات » .

نسقا الموشح

للموشحات في ما يجمع النقاد نسقان رئيسان ، المُؤْتلف والمختلف .

اما النسق المؤتلف فينظم من مطلع ومن ابيات ، والبيت يتألف من دور ومن قفل ، واما النسق المختلف فلا قاعدة له البتة .

هذا وللنسق المُؤْتلف ثلاثُ درجات هي الموشحة المفردة (البسيطة) والموشحة المثناة (المزدوجة) والموشحة المركبة المتعددة الاسماط في المطلع .

ومن امثلة النسق المؤتلف في الموشحة المفردة مثلاً تلك التي تنسب الى ابي بكر بن زهر والتي تتركب :

اولاً ، من مطلع يتألف من سمطين لكل منهما قافية مستقلة كقوله في السمط الأول والقافية المستقلة :

ايها الساقي إليك المشتكى

ثم يلي ذلك ، السمط الثاني ذو القافية المستقلة ايضاً :

قد دعوناك وان لم تسمع

وهكذا يتألف المطلع من سمطين ومن قافيتين مختلفتين :

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

قلت إن الموشحة المفردة تتألف اولاً من مطلع يتألف من سمطين لكل منهما قافيةٌ مستقلة .

ثانياً ، من بيت يتألف من خمسةِ اسماط ، ثلاثةٍ منها الدور وتكون على

روي واحد كقوله :

ونـديمٍ همت به في غُـرَّتِهِ
وبشـرب الـراحِ من راحتـه
كلمـا استيقظَ من سكـرتــه

ثم تختم الموشحة المفردة بقفل يتألفُ من سِمْطين هما تتمة الأسمـاط الخمسة التي يتألف منها البيت جميعاً ، وقافيةُ كُلٍّ سمطٍ من القفل تقابلُ قافيةَ السمط المقابلِ في المطلع كقول الشاعر :

جَــذَبَ الــزِّق اليــه واتكــا   وسقــاني اربـعــاً في اربــع

وهكذا يكون لدينا في القفل سمطان ، القافيةُ الأولى في السمط الأول وهي كلمةُ « اتكا » تقابل في قافيتها قافيةَ كلمةِ « المشتكى » في السمطِ الأول من المطلع ، والقافيةُ الثانيةُ في السمْطِ الثاني ، وهي كلمة « اربعِ » تقابل في قافيتها قافيةَ كلمةِ « تسمعِ » في السمط الثاني من المطلع ويقرأ الموشح كما نظَمه الشاعر :

ايهــا الساقي اليـك المشتكى   قــد دعـونــاك وان لم تسمــع
ونـــديـم هـمـت بــه فــي غــرتــه
وبــشـــرب الـــراح مـــن راحـــتـــه
كـلـمــا استـيـقظ مـن سـكــرتــه
جــذب الــزِّقَ اليــه واتكــا   وسقــاني اربـعــاً في اربــع

اما الضرب الثاني من النسق المؤتلف فتكون الاسماط في مطلعها اربعة (اي ضعف مـطلع الموشحـة المفـردة) ويبنى صـدرا المـطلع على رويّ ، وعجزاه على رويّ آخر ، اما البيت فيتألف من ستة اسماط تنسق في عمودين متقابلين ، ويكون للثلاثة الاسماط في العمود الايمن رويّ واحـد ، وللثلاثـة الاسماطِ في العمود الأيسر رويّ واحد آخر ، ثم تأتي اربعةُ اسماط هي القفل فتقابل بقوافيها قوافي المطلع .

واما الموشحة المتعددة فهي التي يكون مطلعُها مركباً من ستة اسماط مجزؤه ، كل ثلاثةِ اسماطٍ تشكل جزءاً من المطلع ، واما البيت فيها فيتألف من ثلاثة اضعاف البيت في الموشحة المفردة ، اي من خمسةَ عشرَ سمطاً .

هذا النوع من الشعر الذي وفّق اليه الاندلسيون في توزيع اوزان الشعر العربي التقليدي توزيعاً جديداً ، اثّر في الغناء والموسيقى العربية ودفع بهما الى منحى جديد في الابداع والابتكار ، واوجد مذهباً جديداً في الشعر الأوروبي عامة .

ان القصيدة العربية الكلاسيكية التي رسّخ الأدب الاسلامي في مطلع الدعوة قواعدَها ، وافسح لها في العصور الأدُبية الأخرى وشحها الاندلس العربي فكانت على حد تسمية الموشحة من الطير او الظباء لها غرتان مسبلتان من جانبيها هما على اغلب الظن في اعتقادي القافيتان المختلفتان في كل سمط من المطلع ، وقد كانت القصيدةُ العربية ذات قافيةٍ واحدةٍ في عجز البيت الشعري .

في ضوء هذه الظاهرة قدم الأندلسُ للأدب العربي لوناً جديداً من الشعر ، هو الفن والابداع والموسيقى ، بل هو اللحن الآسر المتجاوبُ مع الأرغن الحالم في مئات الالحان ، والانغام ، والاناشيد .

ومع كل ما قدمنا من دراسة عن الأدب والشعر فمما لا شك فيه ان الأدب ، في الشمال الافريقي والاندلس كان امتداداً لأدب المشرق في جميع مظاهره ، ذلك لأن تاريخَ هذا الادبِ الذي اخذ في العصر الأموي يعبر عن كثير من النتاج الفكري يصور التطورات التي طرأت في الاصل على الشعر العربي في مواطنه الأولى ، فشعراء الاندلس الذين كانوا في طليعة رجال الفكر هم كسائر شعراء المغرب اعجبوا بالشعر الجاهلي ، وان لم يترك هذا الشعر اثراً واضحاً في أدبهم، كما اعجبوا بشعر المُوَلّدين الذين ابتعدوا في وصفهم عن الصحراء وحياتِها .

لقد اخذ هذا النفرُ من ادباء الاندلس والمغرب مع مطلع القرن الرابع

للهجرة، العاشر للميلاد يطرقون مواضيعَ جديدة لم تكن ظاهرةَ الأثر ، او واضحة المعالم عند الجاهليين او الأمويين اطلاقاً .

الشعر الأندلسي واثر الأدب المشرقي

امام هذا الواقع يقرر المستشرق الاسباني الدكتور اميلوغرسيا كومس في كتابه «قصائد عربية اندلسية» ان هذه الطبقة من شعراء المشرق ايضاً لم تترك اثراً بعيداً في الشعر الاندلسي الا ما صبغت به الناحيةَ الجمالية فيه .

الحقيقة أن القصيدة العربية الكلاسيكية قد سادت في الأندلس وفي الشمال الافريقي ايضاً ، وان الأدب في هذه المنطقة من العالم العربي يومئذ لا يتميز بميزة ليست في الأدب العربي العام ، ولا غرو ان نفراً من شعراء الاندلس والمغرب العربي قد اعجبوا ببعض شعراء المشرق ، ويرى الدكتور كومس ان المتنبي قد ترك اثراً بارزاً في جوهر القصيدة العربية الاندلسية، وان اثر المتنبي ظل في الشعر الأندلسي حتى موات الشعر العربي في اسبانيا الاسلامية .

إلى جانب هذا الرأي نجد الأديب الفرنسي هنري بريس يؤكد « ان اسبانيا الاسلامية في القرن الحادي عشر لم تتوقف عند حد اعجابها بالمتنبي ، فهناك شعراء آخرون اثاروا انتباهها فابن خفاجة الذي يعتبر اكبر مصوري الطبيعة ، والذي ليس هو اكثر من مقلد ماهر يعترف انه استقى اكثر مخيلته الشعرية من شعراء المشرق كالشريف الرضي ، ومهيار الديلمي » .

الخصومة الأدبية بين المغرب والمشرق العربيين

مع هذين الرأيين نجد رأياً آخر للمستشرق الاسباني الدكتور الياس سدب يؤكد فيه ان شعراء الاندلس بالرغم من اعتمادهم على الشعر المشرقي كمعين لتطور شعرهم ، فإن بعضَهم وفي مقدمتهم ابنُ عبد ربه قد اثبت في كتابه العقد مقاطع من شعره الغزلي ، وكأنه كان يحاول ان يؤكد ان شعرَه هذا يفوقُ

الشعرَ المشرقي رقة عبارة ، وجمال معنى .

من البديهي ان الرأي الذي توصل اليه المستشرق الاسباني سدبا يـدل ولو بإشارة خفية الى الشعور الذي كان يحسه الاندلسيون نحو اعلام المشرق العربي ، وبالتالي يعبر عن حاجتِهِم الى تكوين شخصيتهم الأدبية المُمَيَّزة منذ مطلعِ القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

لقد كان الشعورُ السائد بين الطبقةِ الواعيـة الموجهـة في شبه الجـزيرة دافعاً لنفر من اعـلام الفكر في المغـرب العربي في ان يبحثـوا عن خصائص مميزة للأدب في اسبانيا الاسلامية .

كان ابن حزم في طليعة هؤلاء المفكرين الذي يؤكد هنري بريس انه كان حكيمـاً عندمـا رأى أنه من العبث ان يـذهب بعيداً للبحث عن اشيـاء متوفـرة لديه ، والاندفاع نحو ادب المشرق ، ذلك ان هذا الأدب المشـرقي لم يكن كافياً ليقدم معرفة تامة عن ماهية الانسان .

امام كل هذه الآراء ندرك ان مظاهر الخصومة الأدبية بدت في المغرب العربي منذ عهد الأديب ابن عبد ربه الذي اخذ يحاول مع الاتجاه الأدبي العام في البـلاد تكوينَ شخصيـةٍ ادبيـة مستقلة ، لهـا طَـابَعُهـا المُمَيـز ، وان هـذه المحاولةَ اخذت في القرن الخامسِ للهجرة، الحادي عشر للميـلاد في رسم الخـطوط الكبرى لهـذه الشخصية الانـدلسية الفـذة ، التي راحت تبتعـد عن مواكبة ادب المشرق عامةً وشعرَ المتنبي والشريف الرضي ، ومهيـار الديلمي خاصة ، لأن هذا الشعر لم يعد بمقدوره ان يمد العبقرية الاسلامية ـ الاسبانية بنتـاج يتوافقُ وتفتحُ هذه العبقـرية على الآفـاق الجـديـدة التي بهـرت عـرب الاندلس .

لقد كان التنـافسُ شديـداً بين قرطبـة وبغداد ، بين المشـرق والمغرب العـربيين ، في السيـاســة ، والأدب ، والاجتمـاع تنــافس في الحكم وفي الادارة ، الا انها خصومة معتدلة لم تكن لتحس بها بغداد كما تُحس بها قرطبة الا في عهد المنصور ابي جعفر ، اما في غير عهد القائد العباسي فما كان اشدُّ

احساس قرطبة لهذه الخصومة الخلاقة التي بنت الشخصية الأندلسية المتكاملة ، ذؤابةَ الحضارة العربية في الأدب، والعلم ، والفن، ونبراسَ الهداية لا في شبه الجزيرة وحسب وانما في اوروبا كلِّها ، التي عاشت على اشعاع الفكر الاسلامي الأندلسي ، وعلى حصيلة نتاج مدرسةِ طليطلة في الترجمات الفلسفية والدينية التي كانت معيناً خصباً لبناء حضارة اوروبية مستقلةٍ قدّر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين على حكم العالم .

ان الخصومَةُ الأدبية التي استمرت ردحاً من الزمن بين المشرق والمغرب العربيين كانت المدماكَ الأول في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، المدينة للفكر العربي وللتراث الشرقي بخصائصها وشمولها .

الحقيقة ان هذه المدنية التي اطلت على العالم من هناك من الطرف الغربي الجنوبي لأوروبا محملةً بنتاج العقل الإسلامي ـ الاسباني لم تلبث ان تماوتت على ذاتها وخبت على نفسها اثر عوامل لم تقو العبقرية العسكرية والحذق الإداري والغنى ان تحول دون النفس الأخير ان يتلاشى ، والضوء الشاحب ان ينطفىء .

ومن وراء الظلام الدامس الذي جثم على صدر الأندلس اشرأبت عبقريات خالدات في الأدب ، والتاريخ ، والعلم ، يجلها الفكر الحديث ويقدرها البحث العلمي .

وبعد «اين تبلغ هذه الدراسات في خوض ميدان رحب خصب كميدان الأدب الاندلسي ، وفق مدلول كلمته في العصر الأموي ، اين هي من الشعر الاندلسي وحده ؟ اين هي من الفلسفة او من التصوف ؟ اين هي من الطب والفلك والرياضة والنبات ؟ واين تبلغ وهي لا تكفي لعرض علم واحد من اعلام الفكر الاندلسي ، كابن حزم، اوابن قزمان ، او ابن الأبار ، او المعتمد ، وابن عربي ، وابن حيّان ، كم للشعر ، وكم للنثر، كم للفن، وكم للفلسفة؟».

وبعد فهذه القطوف اليانعة التي نقدمها اليوم ، هي في الواقع مظاهر لاسبانيا الاسلامية ، كانت في الأصل اطرافاً ، واجزاءَ ، وموضوعات شتى ،

حتى إذا التقت بين دفتيّ هذا الكتاب اقساماً ثلاثة تجسمت صورة للتاريخ والفكر ، والعلم ، والأدب ، والفلسفة والحضارة في الأندلس بعد ان ابدعها رجال مرموقون ، كُلٌ في دائرة نشاطه وثقافته ، ما كان بقدرة علم منهم ان يجعلها معبرة تامة في مجالات الفكر جميعاً كما كانت، وكما هي صفحات مشرقة في تاريخ الحضارة الانسانية .

لقد استغرق القطاف نيفاً من ربع قرن ، ومن جنة الاندلس الاسلامي ، حيث تولت اذاعتا لبنان ، والقسم العربي في الاذاعة البريطانية ، اللتان استحقتا شكري وامتناني اذاعة هذه الأحاديث القطوف فأعانتا على هذه البحوث الموضوعية في دائرة اهتمامي وتخصصي وحققتا بذلك بعضاً من رغباتي في تعريف الاندلس ، ليس فقط الى المهتمين بالدراسات الاندلسية ، بل الى كل الذين شغفوا بالاندلس فكراً وحضارة ، وحتى الى الذين بكوه مجداً ضائعاً ، ليس سعياً وراء استرجاع صقع ترامى في طرف امبراطوريتنا يومئذ وقد افسد الحكم العربي القبلي ، والاقطاعي سياسته وادارته بالرغم مما ابدع اعلامه الكبار ، قادة وعلماء ، بل تخوفاً من ضياع صقع آخر ، او من رمية في القلب ، بضربة سيف ، او طعنة رمح ، وبيد عربية قبلية أخرى ؟

من هنا وما دامت هذه « القطوف اليانعة من جنة الأندلس الاسلامي الدانية» ، وفي الأصل موضوعات شتى فربما يقع القارىء الكريم فيها على عبارات قد تكررت عن غير قصد ، او على فكرات رددت ، ولكن عن عمد ، لا حباً في التكرار وهو ليس من طبعي ، وانما هو نتيجة حتمية لتباعد الزمن بين قطاف ، وقطاف، وثمرة، وثمرة، في حين ان الترداد وعن عمد كان سعياً وراء اشاعة ما كنت أصبوا اليه من خلال ما اكتب واذيع ايماناً برسالة الكلمة وما تبدع في العقل ، وتنشر في القلب ، والتي هي العقل والقلب معاً، وفي تفاعل دؤوب من اجل الحق ، والخير ، والجمال ثالوث المثل العليا التي نؤمن بها كأمة .

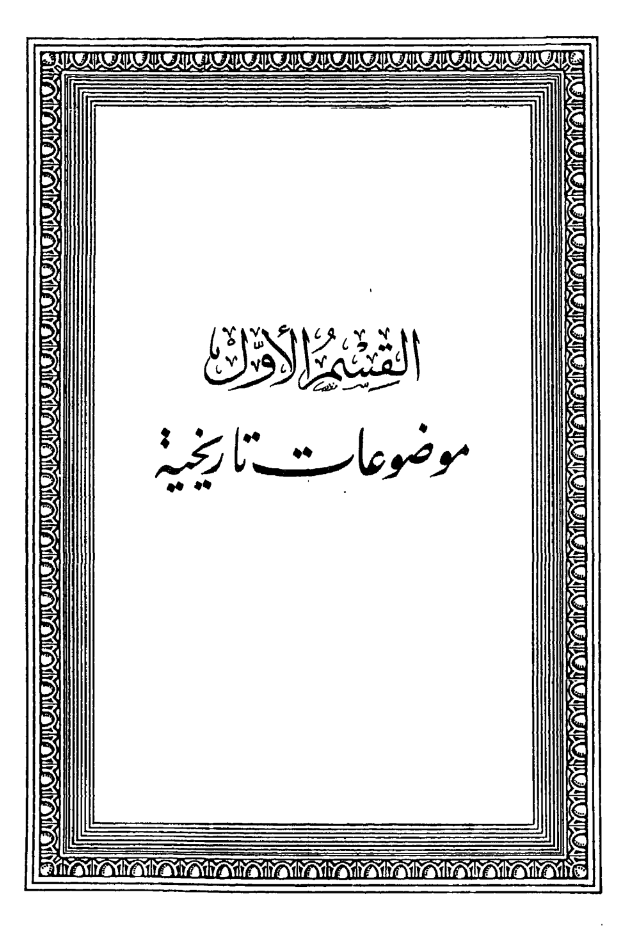
ليس من شك في ان هذه المقدمة ربما تلخص او تعرض وباقتضاب

لأقسام الكتاب الثلاثة : التاريخ ، الأعلام والحضارة ، إلاّ أنها بالحقيقة ليست سوى العبق والشذى لقطوف الجنة الأندلسية التي نقدم بعد ان طوّح الزمان بأشجارها السامقة ، الأمر الذي دفع الى نشر هذه القطوف عن « دار ابن زيدون » مَنْ شغف صاحبها بالأندلس وبشاعر ولاّدة ابنة المستكفي الخليفة ، التي نادت يوماً على ابن زيدون ، وقد برّح بها الشوق اليه ، بشعر هو الأسمى في الحب يصدر وقبل قرون عشرة عن امرأة احبت :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قلت لقد شغف « شوقي » صاحب دار ابن زيدون بالأندلس فسعى بدوره الى نشر المحبة والمعرفة بالكلم الصادق الهادف فاستحق بدوره الشكر والامتنان ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين عبد الله ورسوله ، مبلغ العلم وخاتم النبيين وعلى آله وسلم .

بيروت في اول جماد الأولى ١٤٠٦هـ
الموافق ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦م
المؤلف



القسم الأول

موضوعات تاريخية

الطريق العربية
الى الشمال الافريقي والأندلس

بعد أن استقر الأمرُ في مصر للعرب على يد عمروِ بنِ العاص اخذ القائد العربي يتطلع الى ما وراء الحدود ليحقق لأمته امجاداً عسكريةً الى جانب الانتصاراتِ الباهرة التي سجلها التاريخُ العربي .

لقد كان القائد العظيم لا يكادُ يفرغ من اقليم حتى يشرعَ في اعداد العدّة لفتح ما يليه ، فما ان كُتِبَ لجيوشه ان تستقرَ في فلسطين حتى شرعَ يمهدُ لفتح مصر ، ولم يكد يَفْرَغُ من مصرَ حتى شرعَ في السير نحو برقة ، ثم تابعَ الزحفَ حتى وصلَ الى اطرابلس وقضى هناك على فلولِ الخصومِ المنحسرة عن تلك البقاع .

ان الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة ، ومنها إلى طنجة على طول الساحل الافريقي الموازي للبحرِ الأبيض المتوسط كانت الطريقُ العربيةُ لهذه الجيوشِ التي حققت نصراً سريعاً على جيوش الرومان ، تلك التي هوجمت وفق اساليبَ وطرقٍ عسكريةٍ لم تكن تعهدُها من قبلِ .

لقد تكشفت الحربُ في لقاء الجيشين العربي الزاحفِ من الشرقِ ، والروماني المتربصِ به في مواقعه وقلاعه على الساحِلِ عن واقع الجيش العربي ، الذي تميز بخفة الانطلاقِ ،وسرعةِ الحركة وقوة المعنويات ، والايمان ، واعتماد الطرقِ الصحراوية في حركاته الخاطفة ، تلك الميزاتُ التي دفعت به الى التغلب على الجيش الروماني على طولِ الساحل

الافريقي ، هذا الجيشُ الذي كان في اكثره من المرتزقة ، والذي اعتادَ ان يسيرَ في عرباتٍ تجرُها الخيولُ الشديدةُ على طرق مرصوفةٍ بالحجارةِ ، ولم يكنْ يألفُ حربَ الصحراء ، فضلاً عن ضعف إيمانه بمباديء الدولة التي يعيش في خدمتها .

امام هذا الواقع العسكري ، وعلى اثر الانتصارات الباهرةِ التي حققتها الجيوشُ العربيةُ الزاحفةُ كان على عمروِ بنِ العاص ذاك القائدِ الخبير في شؤون الحرب ، والداهيةِ في الشؤون السياسية والحذق بالفطرة الى جانب ما اكسبته الأيامُ من خبرة ، قلت « كان على القائد العربي ان يتطلعَ الى فتح افريقيا على حد تسمية المؤرخين القدامى لما يلي ليبيا اليوم من ارض وبلاد» .

لا شك ان عمروَ بن العاص كان يتهيبُ خوضَ معاركَ جديدةٍ على الساحِلِ الأفريقي ، والتوغلِ في البلاد ، ولا علم له بنتائج هذه الحرب ، وإن كانت دلائلُ الفتوحات الأولى لبرقة ، واطرابلس تؤكد أن النصر سوف يكون بجانب القوى العربية .

هذا ويؤكد ابنُ الأبّار في كتابه « الحلةُ السيراء » ، ان عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة عمرِ بنِ الخطاب يستأذنُهُ في ذلك ويؤكدُ له ان الله عزّ وجلّ فتح عليه اطرابلس ، وليس بينها وبين افريقيا الاّ تسعةَ ايام ، فإن رأى اميرُ المؤمنين ان يغزوَها ويفتحها الله على يديه فعل . الاّ ان الخليفةَ كتب اليه ينهاه عن ذلك .

لا غرو ان انتصار العرب في الزحف على افريقيا كان محققاً بفضل العوالم التي كان يتمتعُ بها هذا الجيش الى جانبِ ان القوى العربية لم تنطلق يوماً من مركزها الا لتستقر في البلاد الأخرى ، ذلك ان زحفها كان يرسَمُ وفقَ مفهومٍ حياتي لم تعرفْه الجيوشُ الأخرى، فالعربي يوم ينطلقُ من موطنه الأول محارباً ، إنما كان ينطلق مع عائلته وعشيرته ومتاعه ، تلك العائلة التي كانت تسهلُ له سبُلَ الحياة في اقامته الجديدة وتشد أزره ، وتدفع به إلى النصر .

* فتح الأندلس

ان هـذه الحقيقةَ التي مكنت العـربيُ من كل المعـارك التي خاضهـا ، اساءت الى واقع العربِ في الأندلس يوم اعقب موسى بن نصير غزو طارقِ بن زياد بزحف آخر على جزيرة ايبريا ، فلقد كان جيشه مؤلفـاً من عدد كبيـر من القبائل التي فرقتها العصبيةُ القبلية من جهة ، والبربريةُ والعربيةُ من جهة اخرى حتى ان كلاً منها كان يلتف برايته وشعاراته ، كما يقول الرازي في كتابه الرايات .

هذه القبائل التي نزلت في اصقاع مختلفة من البلاد تعمل على تحقيق اهداف حياتية موضعية حتى اذا تكشفت الدولة العربية في الأندلس عن واقعها واخذ الاسبان في استرجاع البلاد ، تبدى اثر القبلية هـذه في الحكم ، وظهر على المسرح السياسي خطرُها الذي كان سبباً رئيسـاً من اسباب انهيار الحكم العربي في الأندلس .

الحقيقة ان فتح افريقيا او المغرب على حد تقسيم الجغرافيين القدامى للشمال الافريقي لم يتم الاّ في زمن يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين للهجرة على يـد عقبة بن نـافع مؤسس مـدينة القيـروان الذي غـامر بنفسـه واقحمهـا المخاطرَ في سبيل هذا الفتح الأول لبلاد المغرب .

نحن مـع ابن عبد الحكم ، والبـلاذري ، وابن الأبّـار ، واليعقـوبي ، والبكري ، وابن خلدون ، وكلٌّ قـد درس وأرخ لهذا الفتـح العربي ، واكـد ان محاولات كثيرة بذلت من قبل القادة العرب لتحقيق انتصار حاسم في الشمال الأفريقي .

ان كتبَ المـراجـع تؤكـد ان حمـلات كثيـرةً شنت على المغـرب من اطـرابلس وان هذه الحمـلات لم تكنْ الا بمثابـة تمهيدٍ عسكـري وسيـاسيٍ لمعركة فاصلة .

فعبد الله بن العباس غزا افريقيا سنة سبـع وعشرين للهجـرة ، ستمائة

وسبع واربعين للميلاد ، وان عبد الملك بن مروان قد غزا افريقيا مع معاوية بن حديج سنة اربع وثلاثين للهجرة ، ستمائة واربع وخمسين للميلاد كما ان معاوية بنَ حديج قام بغزوة ثانية للمغرب سنة اربعين للهجرة، ستمائة وستين للميلاد ، ومن ثمة قام بغزوة ثالثة سنة ست واربعين للهجرة ، ستمائة وست وستين للميلاد .

هذه الغزوات كانت الضربات العسكرية الموفقة للقضاء على معنويات الخصوم، وبالتالي على فهم حقيقة امكاناتهم ومبلغ استعداداتهم، ومستوى تدريب جنودهم .

هذا فضلاً عن معرفة طرقِ مواصلاتهم، حتى إذا قام معاوية بن حديج كما اسلفت بغزوته الثالثة في سنة ست واربعين للهجرة، ستمائة وست وستين للميلاد بدأ الزحفُ العربي المركز الصاعقُ على طول الساحل الأفريقي بقيادة عقبة بنِ نافع ، هذا الزحف الذي انتهى بنصر مظفر سنة اثنتين وستين للهجرة ، ستمائة واحدى وثمانين للميلاد ، وقد سقطت طنجة حيث أطل منها على المحيط (بحر الظلمات) ورفع يديه الى السماء وقال : « يا ربِّ ! لولا ان البحر منعني ، لمضيت في البلاد الى ملك ذي القرنين ، مدافعاً عن دينك ، مقاتلاً من كفر بك » . ومن بعد زحف الى وليلي او Volubilis المدينة الرومانية الأثرية في المغرب الأقصى .

لقد كان لهذا الفتحِ اثرُهُ البارزُ في الحياة الانسانية ، كما كان عاملاً اساسياً في فتح شبه جزيرة ايبريا على يد طارق بن زياد عاملِ طنجةَ لموسى بن نصير .

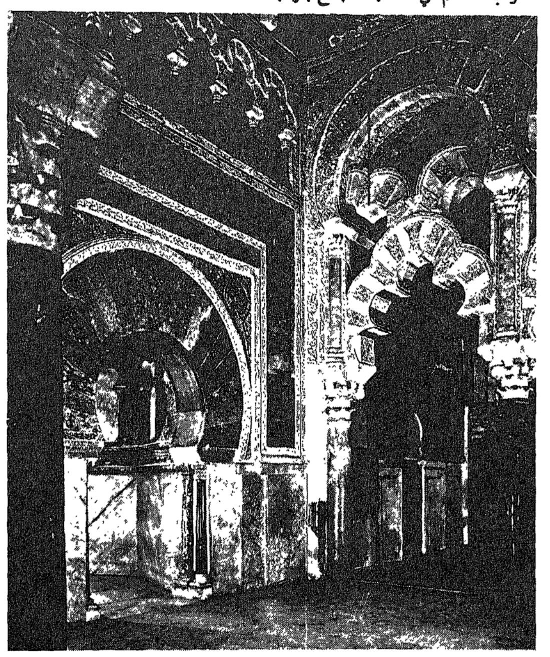
ان الطريق التي سلكها العربُ الى افريقيا بعد احتلالهم لمصر وبرقة وطرابلس هي الطريق التي مهدت امام الحضارة العربية وحضارات العالم القديمِ التي تفاعلت في الشرق البعيد حتى قدر لها ان تتفاعل في طليطلة المدينةِ الناعسة على قمة الهضبة المسورة بنهر توجه ، النافذةِ المشرعةِ على سهول وآكام فرنسا الجنوبية المدخلِ الطبيعي لمدنية العرب وحضارتهم الى

أوروبا، التي لم تحسن فهم هذه الحضارة وجوهرها فحولتها من حضارة فكرية روحية انسانية الى مظاهر من المادية والقوة لإذلال الانسان ، لا لرفاهيته هدف الحضارة الاسلامية .

سوف تظل الطريق العربية إلى الساحل الافريقي النبراس الذي اشاع الضوء في الظلمات التي كانت تطوق افريقيا كل افريقيا فأتى عليها ، ثم تسرب قوياً الى اوروبا عن طريق الاندلس الاسلامي، وبخاصة مدرسة الترجمات الاسلامية في طليطلة .

□□□

محراب الحكم في المسجد الجامع بقرطبة



الأندلس الاسلامي والتاريخ [1]

. . . والقيت حفنة من تراب ، فتناثرت ثم التقت وقد استقرت في اعماق اليم، كادت تكون عائمة تغرقها الأمواج، فجذبتها اليابسة وشدتها اليها من الشمال ، وهكذا ظل البحر الأزرق يغسل اطراف الأرض التي وقعت فيه . . .

انها شبه جزيرة كان اسمها في القديم إبارية ثم سميت باطقة ثم دعيت باشبانيا لأن رجلاً كان اسمه اشبان ملكها ردحاً من الزمن وسميت بعد ذلك بالاندلس نسبة الى قبائل الفندال الذين نزحوا اليها واستوطنوها .

تمتد شبه جزيرة ايسريا من الجنوب عند كنيسة الغراب على البحر المحيط الى الشمال عند الجبل المسمى بهيكل الزهرة الف ميل ومائةَ ميل وعرضها ستمائة ميل .

كان أولُ من اختط الاندلس بعد ان القيت حفنة التراب بنو طوبال بن يافث بن نوح فمن المؤكد انهم سكنوا الاندلس في الزمان الأول ويحدث الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الاقطار ان مائة وخمسين ملكاً حكموا الاندلس من سلالة طوبال ابن نوح هذا .

---

(١) من محاضرة القيت في مدرسة زهرة الاحسان بيروت ت ٢ ١٩٧٢ .

كانت اسبانيا او هسبانيا على حد تسمية العرب لها في ما بعد موطناً للرومان والفندال والقوط ، وكان آخر من ملكها منهم لذريق اسير في سجون الملك غيطشة الذي مات عن اولاد اكبرُهم الموندو .

لم يستطيعوا مقاومته فانتهت الدولة وعاصمتها يومئذToledo طليطلة على حد تسمية العرب لها في مابعد الى لـذريق هذا الذي خالف مفاهيم حكم القوط للبلاد واقدم على فتح بيت مغلق كان بها ، وكان الاقدمون قد حرموا فتحه ، يحميه زعماء القوم وقد وكلوا به بعضهم البعض ، عهدَ به الأولُ إلى الآخر ، وكان كلُ ملك منهم يملك يزيد على البيت قفلاً ، فلما ولي لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت ، فـاعظم ذلـك اكابـرهم ورهبانهم ، وتضرعوا اليه في الكف عن ذلك فأبى ، وظن انه بيت مال ، ففض الاقفال عنه ودخله فوجده فارغاً لا شيء فيه سوى تابوت عليه قفل ايضاً ، فأمر بفتحه فالفاه فارغاً ليس فيه الا شقة مـدرجة قـد صورت فيهـا صـور العـرب على الخيـول وعليهم العمائم، متقلدي السيوف متنكبي القسي، وفي اعـلاها في مـا تقول الرواية العربية كتابة اعجمية جاء فيها : اذا كسرت هذه الاقفال وفتح التابوت وظهـر ما فيـه من هذه الصـور فان الأمـة المصـورة فيـه تغلب على الانـدلس وتملكُها . فوجم لذريق وعظُم غمُه ثم أمر بـرد الاقفال واقـرار الحراس على حالهم .

دخل العرب اسبانيا في رمضان سنة ٩٢هـ ٧١٠م وكان يوليان حاكم سبتة القوطي على خلاف مع لذريق الذي اغتصب الملك من اولاد غيطشة ، وهنا تؤكد الرواية العربية ان يوليان هذا عندما وصل الى افريقية اتصل بطارق بن زياد الحاكم العربي في مدينة طنجة ، وانه رغّبه في فتح الانـدلس ، فكتب طارق الى القائد العام في مدينة القيروان وكان يومئذ موسى بنُ نصير فكتب بدوره إلى الخليفة الأموي في دمشق الوليد بن عبد الملك ، فكتب اليه الوليد أن خضّها بالسّرايا حتى تختبرَ شـأنَها ، ولا تغـرِّر بالمسلمين في بحـر شديـد الاهوال ، فراجعه انّه ليس ببحر وانما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه ، فكتب اليه : وان كان، فلا بُدّ من اختباره بالسّرايا، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من جيشه هـو

طريف بن مَلُّوك المعافري في اربعمائة رجل فعبر بهم المضيق ونزل في الجزيرة المنسوبة اليه ، ثم اغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سبياً ومالاً جسيما .

بعد هذه الحملة الاستطلاعية التي تمت سنة ٩١هـ ٧٠٩م امر موسى بن نصير قائده حاكم طنجة طارق بن زياد وهو على اغلب الظن من بربر افريقيا بالتوجه إلى الشاطىء الاسباني وقد بعث معه بسبعة آلاف من البربر والموالي ليس فيهم من العرب الا قليل، وهيأ له يوليان المراكب، وحل بالجبل الذي سمي باسمه يوم سبت في شعبان او رمضان سنة ٩٢هـ اثنتين وتسعين للهجرة آب سنة ٧١٠م سبعمائة وعشرة للميلاد .

من المؤكد في بعض كتب التاريخ ان القائد طارق بن زياد القى كلمة حماسية في الجند قبيل المعركة ، وانه احرق السفن التي عبر بها المضيق .

هنا كناقد للتاريخ العربي في الاندلس اود ان اتوقف لادرس نقطتين على جانب كبير من الأهمية :

١ ـ احراق السفن .
٢ ـ خطاب طارق بن زياد .

ان نقدة التاريخ الفرنجة وقد اقلقهم انتصار العرب الساحق ردوا هذا النصر الى رواية ابتدعوها اكدوا فيها ان القائد العربي احرق السفن .

الحقيقة ان امرأ من هذا لم يحدث لاسباب اهمها ان قائداً ما ، لا يجوز له عسكرياً ان يُتلِف عتاداً حربياً له قيمته في المعركة .

ان قائداً كطارق بن زياد يتلقى الأوامر الحربية من القائد العام في مدينة القيروان لا يقدم على احراق سفن دون مراجعة قائده .

ان قائداً عاماً لا يخول نفسه اصدار مثل هذا الأمر قبل مراجعة حكومته .

ليس هناك وثائق او روايات تشير الى مثل هذه المشاورات .

ان القائد العربي الذي وطأ بجيشه ارض الاندلس لو رأى من المصلحة العسكرية احراق السفن وريثما يتلقى الموافقة من القائد العام او الخليفة مع اعتبار حقيقة المواصلات في ذلك الزمن ـ لاضاع الوقت على نفسه وعلى جيشه ـ وسمح للعدو ان يبادره بالضربة القاضية الى جانب ان السفن كما اكدت وكما ذكرت الوثائق والمصادر المعتمدة لم تكن في الأصل ملكاً للعرب وانما قدمها يوليان حاكم سبتة ، فضلاً عن ان العرب في كل الفتوحات التي تمت لهم على طول ساحل افريقيا من سيناء الى طنجة لم يساند قواتهم البرية اسطولٌ بحري .

فمن اين اتوا بهذه السفن ، وكيف سمح طارق بن زياد لنفسه ان يحرقها ؟

انها الرواية الأجنبية ، وبالتالي انعدام الرؤيا عند نقدة التاريخ الاسلامي !

هذا من جهة واما ما نسب المؤرخون الى طارق من خطبة فانا لا انكر عليه ذلك البتة ، ولكن كناقد انكر الخطبة التي نسبت اليه !

الدارس لتاريخ الأدب العربي يعرف ان التدوين لم يبدأ الاّ في العصر العباسي ، حتى ان حديث النبي العربي صلى الله عليه وسلم الذي يأتي اهمية بعد القرآن الكريم لم يجمع الا سنة ١٠١ للهجرة في عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز .

من هنا ندرك ان كلمة طارق التي نسبت اليه وضعت في عصر التدوين ودليلنا على ذلك الاسلوب المسجع ، والتنميق في العبارة ، وتخير الألفاظ والوصف الذي جاء فيها كقوله « العدو اماكم والبحر وراءكم » وهذا قول لا يصدر عن قائد لجيش يعرف ان العدو امامه والبحرَ وراءه ، انما يصدر عن مؤرخ تتراءى له صورة الجيش الفاتح ، فضلاً عن قول طارق الذي جاء في

خطبته « وقد اختاركم امير المؤمنين من الفرسان عربانا » مع ان كل المصادر التاريخية تثبت ان الجيش الذي دخل مع طارق كان من البربر وليس فيه غير قليل من العرب » .

لنلاحظ هنا كلمة عرباناً لا عرباً .

الخلاف السياسي بين العرب والشعوبيين

كانت اول معركة بين العرب وخصومهم في طرف الجزيرة الخضراء ، ثم بعد تطاحن مرير انتصرت القوات الاسلامية وقضت على جيش لذريق الذي كان اكثره من المرتزقة ، وقد انشق عنه اولاد الملك غيطشة « الموندو واخواه» وانحازوا بقوات ابيهم الى الصف العربي ، بعد ان احتلت القوات العربية مدينة قرطاجنة ، ثم تقدمت الى مدينة استجة فقرطبة وطليطلة العاصمة دون ان تلقى مقاومة تذكر، ثم تابعت زحفها الى جليقية وانتهت الى استرقة في شمال البلاد .

بعد عام من دخول طارق ، قام موسى بن نصير القائد العام في حملة اخرى على الأندلس سلكت طريقاً مغايرة لطريق طارق إلاّ أنها التقت في ما بعد مع القوات الأولى في طليطلة .

يقول الرازي : « إن القوات التي دخلت مع موسى بن نصير لم تكن نظامية وانها كانت من رجال القبائل وكانت كل قبيلة تلتف برايتها وشعاراتها وقد استوطنت في مّا بعد الأقاليم الاندلسية واقتطعت لها المزارع والحقول واخذت تسود مواطنها على غرار الحكم القبلي الفردي» .

في الواقع ان خطر هذه القبائل لم يعرف عندما كانت الدولة العربية في الاندلس في اوج سلطانها وقد تكشف سُوء السياسة الفردية عند بدء انهيار الاندلس العربي، فكانت هذه القبائل في خصومتها وتنكرها للمصلحة العامة اشد على الدولة منْ سكان البلاد الاسبان انفسهم ، واني كناقد للتاريخ في الاندلس استطيع ان اقرر ان هذه القبائل في سياستها واقطاعِها وحكمِها كانت

احدى العوامل التي ادت الى خروج العرب من شبه الجزيرة بعد حكم استمر ثمانية قرون .

من المؤكد ان خلافاً وقع على ارض شبه الجزيرة بين موسى بن نصير الحاكم العام لشمال افريقيا وبين قائده طارق بن زياد لأن هذا الأخير لم ينجز الفتح كما كان قد قرّر له ، ولأنه لم يلب الأمر الذي وجهه اليه موسى بعد ان استبطأ عودته .

من المعروف في تاريخ الاندلس ان موسى بن نصير عيّن ابنه عبد العزيز والياً على الاندلس وعاد مع طارق بن زياد الى دمشق ليقدما الطاعة للخليفة الوليد بن عبد الملك ، وعند قدومهما الى بيت المقدس ارسل لهما سليمان ابن عبد الملك شقيق الخليفة امراً يطلب اليهما ان يتريثا ردحاً من الزمن لأن الوليد كان على فراش الموت وانه يرغب في ان يكون قدومهما في مطلع خلافته هو ، لأنه كان ولياً للعهد .

لم يستجب موسى لرغبة ولي العهد ودخل دمشق في عهد الوليد واستقبل استقبالاً حافلاً كان يوماً مشهوداً في تاريخ العاصمة الأموية .

يؤكد النقاد والمؤرخون ان الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة اخيه الوليد اساء معاملةَ القائدِ العربي الكبير موسى بن نصير وانه صادر املاكه وصرفه عن وجوه الخدمة العامة ، ومن المؤكد ان موسى بن نصير توفي وهو في طريقه الى الحج سنة ٩٦هـ ٧١٤م .

من الثابت ان الدولة الأموية في الشرق خسرت المعركة الفاصلة بينها وبين قوى العلويين سنة ١٣٢هـ ٧٤٩م وعلى انقاض هذه الدولة العربية الاعرابية كما يقول الجاحظ قامت دولة بني العباس الاعجمية الخرسانية .

ان الحكم الفعلي للولاة الامويين في الاندلس استمر نحواً من اربعين سنة من سنة ٩٢هـ ٧١٠م الى سنة ١٣٢هـ ٧٤٩م عندما سقطت الدولة الاموية في المشرق .

في هـذه الحقبـة بـالـذات كـان والي الاندلس يـومئذ عبـد الرحمن بن يوسف الفهري فاستمر بحكم البلاد وهو يدعو على المنابر للدولة الاسلامية في بغداد حتى دخل الاندلس سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م عبد الرحمن بن هشام الأموي الذي قدّر له ان يهرب من ظلم العباسيين في المشرق وان يقيم مدة طويلة في المغرب عند اخواله بني نفرة .

خلال المدة التي حكم فيها الولاة الامويون الاندلس وهي لا تزيـد عن اربعين سنـة تداول الحكم في قـرطبة نحـو من عشرين واليـاً منهم الصـالـح الاداري، ومنهم المسرف المبذر حتى ان الاندلس العربي لم يعرف استقراراً طوال عهد الولاة .

من المؤكد ان العباسيين عندما اعملوا السيف في رجال بني امية تمكن احدهم عبد الرحمن ان يفر مع اخيه الى شمال سوريا، وهناك ظل خائفاً متربصاً حتى داهمه الجند ذات يوم والشمس تلملم عن الأفق بقايا اضوائها المبعثرة ، فلم ير بداً من ان يلقي بنفسه في اعماق الفرات ليعبره الى الضفة الأخرى ، بعد ان خدع الجند اخاه الصغير فارجعوه الى الشاطىء ، وهناك دونما رحمة ، ودونما شفقة بتروا رأسه ، ثم قضى الأمير الفتى اياماً طوالاً مختبئاً بين الغابات متوارياً عن الانظار ، مدبراً امر فراره الى المغرب ، وكـان وهو الفتى مـا زال يذكر نبوّةَ مسلمةِ بن عبد الملك الذي توقع له ملكاً في الاندلس فيجد في ذلك املاً ليقطع هاتيك الفيافي الممتدة بين سوريا ومصر حتى يصل الى طرابلس، في ليبيا فينزل عند اخواله من بني نفرة ، ولا يكاد يستقر به الأمر حتى يلاحقه اميرُ البلد عبد الرحمن بن حبيب الذي كلف كعامل للمنصور ان يغتال الامويين وانصارهم ، وكان الفتى قد بلغه مقتل ابنيّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك على يديه ، فلم ير بداً من ان يفر الى مكناسة ومن ثمة أن يلتجىء الى قوم من زناتة وهم من أشد بربر الساحل اكراماً للضيف واماناً للخائف ، حتى اذا ضاع عن اعين العـامل ورجـاله لحق بمليلة على السـاحل الافـريقي الى جانب البحـر الأبيض المتوسط .

من بلدة مليلة بعث عبـد الـرحمن مـولاه بـدراً الى مـوالي المـروانيين

وانصارهم في الاندلس فأخذ يجتمع اليهم وراحوا يبثون الدعوة له ، ويؤلبون له الرأي ، ويجمعون حوله الكلمة ، وكان الاندلس يومئذ شيعاً فالخلاف على اشده بين اليمنية والمضرية وقد دعمته المضرية وشدت من ازره وارادت له الامارة على خصمها وخصمه وولي الأمر في الاندلس عبد الرحمن بن يوسف الفهري آخر وال معين كان يراوغ ويمالق رجالات البلاط في العراق فيدعو كما قدمت للخليفة العباسي على المنابر ، ويعلن ان حكمه كان مستمداً من الأوامر التي تصدر اليه من بغداد .

في عرض البحر ، وعلى الأفق البعيد سفينة تقترب من الشاطىء ، دون ان تحس حركة قوية تدفعها اليه ، وقد لاحت عن بعد كخيط ابيض على طرف السماء الداكنة ، وكان الموج هادئاً ساكناً ترتعش صفحته لتلك النسمات البليلة التي تداعبه فتبعث فيه طرفاً من حياة ، فينفرج في رفق كلما شق حيزوم السفينة عباب اليم الراكد الذي تضارب لونه بين الزرقة القاتمة ، وبين الخضرة الباسمة ابان تفتح الربيع .

لقد كان على الشاطىء نفر من الرجال كأن ثمة موعد بينهم وبين القدر فهم يمدون النظر في الأفق كأنهم كانوا يبحثون عن شيء في عرض اليم ، وتقترب السفينة مع الفجر المطل من وراء البحر اللامتناهي فتلوح على اطراف السماء اضواء باهتة لا تلبث ان تقوى كأن يداً خفية اخذت تلعب في ذبالة المصباح فتوقده وينتشر الضوء قوياً على جوانب السماء ثم يأخذ طريقه الى الأرض فيبدو الساحل جلياً امام الفتى القوي الذي هيء ليكتب تاريخاً جديداً لتلك الجزيرة التي القيت بالامس يوم خلق الله الأرض حفنة من تراب .

تلامس السفينةُ رمالَ المنكب المرفأ الصيفي الباسم القائم على الحصى بين البيرة والملية من اقليم مرسية في شرق الاندلس وينهض الأمير الفتى من جلسته ويهبط من السفينة وكأن جمال الأرض ، أو كأن المجد الذي ينتظره اهاب به الى ان يتطلع الى البلد الذي اعد ليكون امتداداً لحكم ذويه في المشرق .

ما ان تطأ اقدامُ عبد الرحمن الذي عرف في ما بعد بالداخل لأنه اولُ امير

اموي دخل الاندلس بعد قيام الدولة العباسية ، قلت ما ان تـطأ اقدام الفتى الأرض حتى يتلقاه وفد من الرجالات على رأسهم ابو عثمان وعبد الله بنُ خالد فيرحبون به ثم يتوجهون برفقته الى بلدة طرش .

كان هذا الاستقبال بعد نزول عبد الرحمن الداخل في الاندلس بدءُ تاريخ جديد لشبه جزيرة ايبريا هو عهد الامارة الاموية ، ويكون دخولُ عبد الرحمن الاموي بدءَ صراع شديد بينه وبين والي الاندلس عبد الرحمن بن يوسف الفهري الذي استمر نحواً من عشرين سنة حتى قدر للأمير الاموي ان يركز دولته ، وينظم جيشه ويحفظ حدود بلاده ، وان يقاوم الى حد بعيد كره العباسيين له الذين حاولوا مرات كثيرة القضاء عليه ، فانتصر عليهم بحنكته وسحره وحفاظه على الدولة وقتل كل الاشخاص الذين اتوا من الشرق حتى سماه ابو جعفر المنصور الخليفةُ العباسي « صقرَ قريش » .

استمر حكم الامارة في الاندلس منذ دخول عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م حتى اعلان الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٣١٦هـ على يد عبد الرحمن بن محمد الذي لقب بالناصر لدين الله بعد ست عشرة سنة من ولايته كأمير ، وبعد ان ضعف نفوذ الدولة العباسية في المشرق وذهبت ريحها .

يعتبر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وهو المعروف بالداخل وبصقر قريش اولَ من أرسى قواعدَ الدولة الاموية في الاندلس ، وقد خلفه من بعد ابنه هشام الرضي ، ثم ابنه الحكم بن هشام ، ثم ابنه عبد الرحمن الاوسط ، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم اخوه عبد الله بن محمد ، ثم ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله الذي اعلن نفسه خليفة وفي عهده تحولت الامارة الاموية في الاندلس الى الدولة الاموية فيها .

يأتي عبد الرحمن الناصر ثاني شخصية اموية في الاندلس بعد عبد الرحمن الداخل كما يعتبر منشيءُ الحضارة فيها ، وان الدور الذي اقامه خلال الحكم العربي للجزيرة هو الدور الثالث :

مَرَّ الأندلس في :

١ ـ فترة عهد الولاة الامويين من سنة ٩٢هـ ٧١٠ ، ١٣٧هـ / ٧٥٥م .

٢ ـ في فترة عهد الامارة من دخول عبد الرحمن صقر قريش سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م الى قيام الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٣١٦هـ ٩٢٨م .

٣ ـ في فترة الخلافة منذ اعلانها سنة ٣١٦ هـ ٩٢٨ الى سقوط الدولة الاموية في الاندلس وقد تخللها دولة بني حمود ، ومن ثمة قامت دولة بني امية الثانية وكان اولُ من حكمها المستظهرُ عبد الرحمن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر، وآخر من حكمها هشام المؤيد .

في مطلع هذه المرحلة الثالثة من تاريخ الاندلس العربي ، قدّر لمؤسس الخلافة فيها عبد الرحمن الناصر لدين الله ان ينشىء جيشاً قوياً من خيرة شباب الاندلس الذي كان مخلصاً لشخصه مؤمناً بقيادته الحكيمة ورجولته الفذة ، كما استطاع ان يضيف الى عداد الجيش جماعات من الموالي الجدد كوّنها من عناصر اجنبية ، وهي التي عرفت بالصقالبة ، وكان معظمها من اوروبا الوسطى .

بهذه القوى الجديدة الفتية غزا الناصر ممالك الاسبان في الشمال واخضعها لنفوذه ، كما تدخل في مهارة فائقة في الخصومات القائمة بين سكان مدن ليون ، وقشتالة ونبرة من الاسبان ، وتمكن بذلك من ان يسوس شؤونهم وينفذ مآربه السياسية الكبرى .

اضفى عبد الرحمن الناصر على الاندلس العربي ، النظام والرخاء ونشر في ارجائه المدارس والمؤسساتِ العلمية والثقافية ، واهتم بمكتبة القصر التي كانت اعظم برهان على درجة ثقافته العالية .

وفق عبد الرحمن الناصر الى انقاذ الحضارة الاسلامية الاندلسية الزاهرة مما كان يتهددها من الاخطار الخارجية ، والخلافات الداخلية ، كما وفق الى تلقيح الفكر العربي بالفكر اليوناني ويؤكد الناقد الفرنسي هنري بريس ذلك ،

عندما يشير الى ان الراهب نقولا موفد امبراطور بيزنطة الرومانية الى عبد الرحمن ليشرح ويترجم كتاب «Dioscòrides» تمكن خلال اقامته في قرطبة من ان يتعرف الى العالم ابن شهيد احمد بن عبد الملك ، فاستطاع ان يطلع على المؤلفات اليونانية ، هذه الموضوعات التي احياها فانتقلت الى ابنه ومن ثمة الى حفيده مع روح النقد وحدة الذكاء .

بعد سقوط الدولة الاموية الثانية في الاندلس وهي نهاية المرحلة الثالثة كان النفوذ العربي قد أخذ بالوهن بينما اخذ القشطاليون يستعدون لاسترجاع بلادهم وفرض نفوذهم ، فاتسعت بذلك البقعة التي كانت تحت حكمهم .

في هذه الحقبة وبعد سقوط الدولة الاموية الثانية قامت في الاندلس دويلات كثيرة، تعرف بدول ملوك الطوائف ، فقد استأثر بنو جهور بحكم قرطبة ، وبنو عباد بحكم اشبيليا ثم ضموا اليهم حكم قرطبة ، وبنو ذي النون بحكم طليطلة ، وبنو الافطس بحكم سرقسطة وهكذا اصبح الاندلس دويلات وشيع هي كما يذكر نتيجة لحكم القبائل التي دخلت مع موسى بن نصير في حملته .

كان بنو عبّاد في اشبيلية اقوى هؤلاء الملوك ، وقد لعبت دولتهم دوراً تاريخياً حاسماً في البلاد ، وفي عهد المعتمد الشاعر الذي كان في ذؤابة شعراء الاندلس رقة بيان ، واشراقة ديباجة والذي تزوج باعتماد الرميكية التي شاهدها على ضفة النهر عند مرج الفضة واجازته على شطر من بيت عندما قال :

صنع الريح على الماء زرد

وطلب الى صديقه الشاعر ابن عمّار ان يجيزه فأبطأ فردت اعتماد : أيّ درع لقتال لو جمد .

قلت في عهد المعتمد وقعت معركة الزلاقة بين جيوش ابن ادفونش ملك قشتالة من جهة وبين جيوش بني عبّاد المؤيدة بجيش يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في مراكش .

انتصر العرب في هذه المعركة ورجع يوسف بن تاشفين مع رجاله الى بلاده غير ان ملوك الطوائف عادوا الى منازعاتهم وخلافاتهم وكان على ابن تاشفين ان يحمي الاندلس مرة ثانية من غزو القشتاليين فدخل الاندلس ، وحمى البلاد إلّا أنّه خلع المعتمد بن عباد وساقه اسيراً الى اغمات في مراكش حتى وفاه الأجل .

سنة ٤٤٧هـ ١٠٥٥ م قامت دولة الموحدين في مراكش وقضت على دولة المرابطين وحكمت الاندلس ، وكان نفوذ الاسبان قد اصبح قوياً بعد الزواج الذي تم بين فردينانـد الخامس وايزابيلا ولم يبق يومئذ تحت حكم العرب من الاندلس الّا مملكة غرناطة وعلى رأسها ابو عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملك عربي في الاندلس .

شهدت غرناطة المعقل العربي الأخير في الاندلس مأساة انهيار الحكم العربي فيها بعد ان طلبت فك الحصار الاسباني عنها ورضيت في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ الثاني ايضاً من كانون الثاني ١٤٩٢م الشروط التي املاها الاسبان والتي قبلها العرب والتي نقضها الاسبان من بعد غدراً وخداعاً .

مع فجر ذلك اليوم المشؤوم غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء موطن عزّه وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان ، فاستقبله فردينانـد في محلته على ضفة شنيل النهر الذي ينسكب لجينا في ارض غرناطة ، وهمّ الملك العربي ان يترك جواده ليحي الملك المنتصر ولكن فرديناند منعه وعانقه وكانت لحظة حاسمة سلم خلالها الملك العربي مفاتيح القصر الأحمر الى الخصم قائلاً « ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في بلادكم ، لقد اصبحت ايها الملك سيد تراثنا هكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً عادلاً» .

في هذه المرحلة ينتهي حكم العرب للاندلس ويغادر الملك العربي الأرض التي احبها وتدمع عيناه وتراه امه عائشة التي كانت سيدة المقاومة العربية في غرناطة وهو يبكي فتلتفت اليه قائلة كلمتها التاريخية : « ابك اليوم بكاء النساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال » .

لقد سقطت غرناطة آخر معقل عربي في الاندلس ، ولم تجد كل المساعدات التي قدمها في ظروف معينة الحفصيون، والمرابطون والموحدون فلقد سقط الحصن الأخير غرناطة المشرئبة ابداً في عنفوان وكبرياء على الدهر المطلة على الدنيا في وسط سهلها ، وكأن الجبل سيرانفادا الحائل بينها وبين الأرض هناك ما زال معتزاً بحراسته الابدية للمدينة العربية الشامخة .

ان عوامل داخلية واخرى حياتية مع استئثار ملك ،وضعف حاكم وخداع امرأة ، واسراف حاشية ، وتعصب عالم ، واقطاع الحكم القبلي تضافرت كلها على ضياع البلاد ، الا ان الطابع العربي والصبغة الشرقية والتقاليد والحضارة التي اقامتها العبقرية العربية هي الطابع المميز لتلك الأرض عن اوروبا كلها ، الوجه العربي الباسم صورة كل الوجوه الكرزية المشرقة ، العين السوداء الكحيلة طابع كل العيون الجميلة الدعجة ، الذكاء العربي المتوقد خصائص الذكاء الاسباني المتحفز .

هذا هو الاندلس العربي شيء من تاريخ ، وشيء من واقع ، إنّه الاندلس الضائع .

□□□

معركة وادي البرباط الحاسمة

رمضان تاريخ ، ومحطات ، ومواقف الاحداث الكبرى في تاريخ الانسانية بعامة ، وتاريخ الاسلام بخاصة . حتى اضحى على الزمن رمزاً لبدايات ، وشعاراً لكرامات ، وموئلاً لهبات سماوية رحيمة .

في رمضان انزل الله القرآن منجماً على محمد ، عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي رمضان انزلت التوراة على موسى ، وفي رمضان انزل الانجيل على عيسى المسيح ابن مريم عليهما السلام ، وفي رمضان في السنة الثانية للهجرة كان انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى ، وكان لها ما بعدها من مواقف حاسمة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، ونشرها في العالم قاطبة .

وفي رمضان في السنة الثانية والتسعين للهجرة ، تموز (يوليو) سبعمائة واحدى عشرة للميلاد ، بل في يوم الاحد الثامن والعشرين من رمضان ، التاسع عشر من تموز (يوليو) اذن للعرب ان يدخلوا شبه جزيرة « ايبريا » ويفتحوا الطريق امام الحضارة الاسلامية إلى قلب أوروبا ، ويطلوا ، بل ويعيشوا على ارض الاندلس المعطاء ويمثلوا فيها نقيضاً مما عرفت الجزيرة من عادات وتقاليد ، يتفاعل مع واقع البلاد ويقدم للعالم المتمدين مزيجاً من العلم ، والفن ، والأدب ، عصارة الحضارة الانسانية المميزة .

في عرض البحر ، وعلى الافق البعيد سفن لا يستطيع المرء ان يحدد عددها بعد ، تقترب من الشاطىء دون ان تحس حركة قوية تدفعها إليه لبطئها

وثقل حمولتها من الرجال والعتاد ، في ما لاح على طرف السماء الداكنة خيط ابيض من الفجر .

مع ساعات الليل الأخيرة ، وابان الصيف كان الموج هادئاً ساكناً في بحر الزقاق ترتعش صفحته لتلك النسمات البليلة التي تداعبه بفعل انفراج اليم كلما اوغلت السفن في البحر وراحت تجتاز المضيق بين شمال المغرب ، وجنوب اسبانيا ، هذا الذي كان في عهود جيولوجية غير قديمة براً يصل ويربط بين قارتيّ افريقيا وأوروبا .

كان قائد الحملة متميزاً بفكر عسكري ، ونظرة حكيمة عميقة في وضع الخطط العسكرية وتطبيقها بدقة ، وحذر وبعد نظر حتى اضحى شخصية نادرة بين أمثاله واترابه من رجال الحرب والسلم .

اصدر القائد الأمر للسفن ان تبحر ومع الظلام اخذت تنحرف شمالاً بشرق ، مخالفة خط السير الشمالي المرسوم في اجتياز المضيق عادة لكي يفاجأ سكان الجزيرة الخضراء بقدوم القوات العربية دون ان يكتشفوا بانفسهم قدومها ، وقبل ان تنزل على الشاطىء الاسباني ، فتكون موضع هجوم مباغت من العدو .

وتبحر السفن وكأنها متجهة شرقاً إلى (سبتة) حتى إذا غابت في اليم ولم يعد مراقبو الشاطىء من الاسبان ومن الحرس والجنود رؤية وتحديد تحركها اخذت تتجه شمالاً مبتعدة عن الأرض الاسبانية ، فإذا اضحت في عرض البحر اتجهت غرباً ورست عند جبل اجرد احمر، تخرج منه عين شرقية إلى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، على ما يحدد ابن قتيبة في كتابه « الامامة والسياسة » والذي عرف مع الزمن باسم القائد العربي « طارق بن زياد الليثي » واضحى مشهوراً باسم جبل طارق (Gibraltar) واصبح مع الأيام من المواقع الستراتيجية العالمية لخطورة مركزه ، وجبل طارق في الحقيقة شبه جزيرة صغيرة صخرية قابعة في طرف اسبانيا الجنوبي شرقي الجزيرة الخضراء (Aljéziras) .

تقول بعض الروايات العربية ان طارق بن زياد عندما دخل احدى السفن المنطلقة بالجند: « غلبته عينه فرأى في نومه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسي ، ويمر النبي الأعظم بطارق ويقول له تقدم لشأنك ، ونظر طارق في نومه إلى المصطفى سيدي رسول الله واصحابه حتى دخلوا الاندلس فاستبشر وبشر اصحابه » .

لئن اذن للعرب ان يدخلوا « شبه جزيرة ايبريا » في رمضان سنة ٩٢هـ ـ ٧١١م فالواقع ان اعداد الخطط ، بعد موافقة القائد العام موسى بن نصير حاكم افريقيا في « القيروان » وتوجيهات الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك في دمشق ، واوامره الصريحة في ان لا يزج بالجيش الاسلامي في معركة غير معروفة النتائج ، وخض البلاد بالسرايا ، ودراسة طبيعة الأرض ، ومبلغ تعلق الاسبان « بالملك » الحاكم المستبد المغتصب لعرش خصمه قد اخذ وقتاً طويلاً ، كل ذلك بعد ان حصل حاكم طنجة طارق بن زياد على عدد من السفن قدمها «يوليان» القوطي حاكم « سبتة » وعلى عهد بتقديم الادلاء وكل ما يعين على النصر .

قبل ان يدرس رجالات الاسلام من القادة والزعماء امر فتح الاندلس كانوا قد مهدوا له باحتلال كل الشمال الافريقي من عريش مصر حتى بحر الظلمات عند المحيط .

ان فتح الشمال الافريقي واخضاعه للحكم العربي اقام فيه حركة اجتماعية ناشطة لم يعرفها من قبل وقد اخذ باساليب الادارة ، والاتصال البريدي ، ونشر الثقافة العربية والاسلامية في اوساطه ، قبل ان يعرف التنظيم الاجتماعي في مطلع القرن الثاني للهجرة وتقسيم المسافة على طول الساحل الى ١٠٠٠ محطة ، يفصل الواحدة عن الأخرى ستة كيلومترات ، ويقوم على كل منها « رباط » هو عبارة عن مسجد ، وفندق ، ومدرسة ، ومستوصف ، وارض زراعية في آن ، تشبك البلاد من اولها في المشرق ، إلى آخرها في المغرب بمؤسسات متعاونة في خدمة الانسان ورفاهيته ، حقيقة الحضارة الاسلامية الانسانية .

كل هذا يدل على قيمة الفكر الاداري والاجتماعي الذي نظم ، وخطط وعمل على تهيئة النصر لهذه القلة من الجنـود التي عبرت في سفن اربـع في رواية ، او ست في رواية اخرى « الزقاق » ونزلت ومع بشائـر الفجر على بـرّ العدوة .

من الثابت ان الجيش الذي عبر مع طارق بن زياد كان بربرياً خالصاً إلا من بعض الجنود العرب وكبار القادة كعبـد الملك بن ابي عامـر المعافـري ، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمي ، هذا لا يعني ان ليس في الجيش قـادة من البـربـر ، فـالمؤرخـون يـذكـرون اسم القـائـد « مونوسة » البربري الذي قدر له مع زملائـه من القادة ان ينفـذوا ما أُمـروا به بدقة ، وقدرة ، ومهارة اكدت دورهم المجلي في الفتح .

ليس عجيبـاً ان يكون جيش الفتـح في غالبيتـه من البربـر لان الدارس لجوهر الدين الاسلامي ولغايته من الفتوح وهو نشر الدعوة يدرك مدى قابليتـه كدين لاستيعاب المؤمنين الجدد لمجرد قولهم : « ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله » وقبولهم بأركان الاسلام والعمل بها .

في ضوء هذه الحقيقة كان الجيش الذي فتح ليبيا (المغرب الأدنى) في غالبيته من اهـل مصر ، في حين كـان الجيش الذي غـزا الجزائـر (المغرب الاوسط) في كثرته بربرياً من اهل ليبيا ، حتى إذا تم للعرب فتح كل الشمال الافريقي وسقطت طنجة القابعة عند ملتقى البحرين في (المغرب الاقصى) كان الجيش كل الجيش من البـربر سكـان الجزائر ، وطبيعي والأمر كـذلك ان يكون جيش طارق بن زياد بربري في كثرته ، او بربرياً خالصاً .

كانت شبه الجـزيرة الايبريـة تعيش في ظلم الحـاكم وتحت قبضة يـده الحديديـة وكان النـزاع بين اهلها على اشـده ، والخلاف قـائم في عمق بين مغتصب السلطة رودريـك « لذريق » وقـاتل الملك الشـرعي غيطشه واولاده الموندو واخواه ، حتى إذا عرض يوليان على طارق بن زياد « حاكم طنجة » في البدء وعلى موسى بن نصير حاكم افريقيا في ما بعد دخول البلاد شاء موسى ان

يتحقق من صدق عزيمته ، وولائه فطلب إليه ان يشن الغارة على شواطىء شبه الجزيرة مكتشفاً ومتحققاً ففعل ، وقتل وسبى ورجع بالغنائم ، وكان ذلك سنة ٩٠هـ ـ ٧٠٩م قبل عام واحد من حملة ابي زرعة طريف ، على شواطىء الاندلس ، والتي كان قوامها اربعمائة راجل ، ومئة فارس نقلوا بسفن «يوليان» ونزلوا في موضع يعرف باسم « بالوماس ـ Palomas » على مقربة من الموضع الذي حمل في ما بعد اسم جزيرة « طريف ـ Tarifa » .

كان ذلك في رمضان أيضاً سنة ٩١ هـ تموز (يولية) ٧١٠ م ، وقد سارعت يومئذ جماعات من رجال يوليان، وانصار ابناء غيطشة لمساعدة القائد العربي وحرست المعبر حتى تم لهم ما ارادوا بعد ان قاموا بغارات سريعة خاطفة كحركات « الكومندوس » الشائعة اليوم .

يؤكد كل الذين ارخوا لمعركة وادي البرباط ان طلائع الجيش الاسلامي التي وصلت في رحلة السفن الأولى اقامت مكامن لها على الشاطىء واجتمعت فيها ريثما تم نقل الجيش جميعاً وذلك قبل المعركة الأولى التي حمى وطيسها واستعرت نارها ، واشتد اوارها بخاصة عندما وصل الجيش القوطي بقيادة لذريق وذلك صباح الأحد في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ ١٢ تموز (يوليو) ٧١١م .

كانت المعركة مخيفة إذ القى القوط فيها بجيش يناهز المئة الف غالبيته من الفرسان الاشداء ، والابطال المغاوير من ذوي التدريب البيزنطي المتقدم والمتطور في حين لم يكن الجيش العربي ليزيد عن سبعة آلاف ، الفرسان فيهم قلة بعامل ضعف الامداد عبر الزقاق ، وقلة السفن .

لم يكن هذا العدد الهائل من القوط ليرهب المسلمين او ليزعزع ايمانهم بالله والنصر، «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله»، «وما النصر إلا من عند الله » ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، وان كانت القضية في كل حرب هي قضية المؤمنين، بلى المؤمنين حقاً، وليست قضية عدد وعدة وحسب.

ويثبت جيش الله ومن آزره من البربر الذين جاء بهم «يوليان» حاكم سبتة

وحليف العرب وقد بذل هؤلاء من الجرأة والاقدام وضروب الشجاعة ما يعجز البيان عن وصفه ، كيف لا وهم من خيرة رجال « عُمارة » وقد دربوا على نفس اساليب القتال البيزنطية واتقنوا فنون الحرب في الكر والفر ، تماماً كجيش لذريق ناهيك عما كانوا يتمتعون به من دفع معنوي ، وما يحسون من فخر وعزة .

لقد كانت المعركة حامية وفاصلة في آن فقد القى كل فريق بجموعه في نار آتونها المحرق التي خبرت القدرات ، ووازنت بين الرجال بعد ان صال الفرسان وجالوا على ساحة القتال ذهاباً واياباً ، وكراً وفراً ، واقداماً واحجاماً ، واستبسل الفريقان إلى ان هبط الليل ولم يكتب لطرف منهما ان يحقق نصراً حاسماً وان كانت الشجاعة صنعة المقاتلين جميعاً .

مع الفجر عاد الفريقان إلى القتال ، وظلت الحرب بينهما سجالاً طيلة ايام سبعة ، وفي اليوم السابع وقد اخذت كفة العرب ترجح وان ابلا فرسان القوط مقدرة عظيمة في القتال ابان المعركة وثبتوا لضغط الجيش العربي الا انهم لم يلبثوا ان انهاروا جماعات جماعات امام الضربات المباشرة والمحكمة وكثرة الاصابات التي نزلت بهم ، ناهيك عما اصابهم من ويلات الحرب النفسية التي روجها يوليان وانصاره حيث اكدوا « ان العرب لم يقدموا إلى الأندلس للفتح والسيطرة بل للقضاء على « لذريق » والظفر بما في شبه الجزيرة من الثروات والغنائم » .

ما ان انتصف نهار اليوم السابع حتى وجد القوط انفسهم يقاتلون بعضهم بعضاً وقد اضحوا وجهاً لوجه ، رجال لذريق يقاتلون انصار يوليان ، وحزب الموندو والاسرائيليين الذين خرجوا على طاعة الملك بقيادة « اوباس » واستغلوا الموقف العربي الراجح ، وتنحسر المعركة او تكاد عن الموت في كل ناحية وكل مكان ، القتلى يملأون الأرض والخيل مطروحة هنا وهناك ، والاسلحة مبعثرة ، والاشلاء متناثرة ، وبعض اجسام لا زالت فيها الحياة تئن وتتوجع وتصرخ ولا مغيث ، والقادة من القوط الذين كانوا إلى أيام يرفلون

بالفاخر والنادر من اللباس ، ويخالج نفوسهم عز النصر اضحوا مضرجين بدمائهم تدوسهم سنابك الخيل العربية ، النبيل منهم قرب خادمه ، والقائد العظيم مطروح امام عبده . . . !! انها المعركة . . .

في صباح يوم الاحد الثاني الخامس من شوال ٩٢هـ ٢٥ تموز (يوليو) ٧١١م ، يمتطي طارق بن زياد فرسه ويجول في ساحة القتال المغطاة بالجثث والتي شهدت هزيمة لذريق وجيشه في ما كانت مياه الجداول المتدفقة لا زال لونها احمر قان . لقد دبت الفوضى في الجيش القوطي وفر لذريق مع نفر من رجاله، وطلائع الجيش العربي تلحق فلولهم وتضرب اقفيتهم وهم لا يلوون على شيء .

لقد قتل من القوط عدد كبير في ما جمع المسلمون ما لا يحصى من الغنائم بخاصة ان عظماء القوط كانوا يعرفون بخواتم الذهب ، في حين كان القادة يعرفون بخواتم الفضة ، اما الخدم والاتباع فكانوا يحملون خواتم النحاس حتى قيل ان طارقاً جمع منها ما لا يحصى ومن العتاد والغنائم ، وبخاصة الخيل حتى لم يبق من جنوده راجل .

بعد ايام قلائل جمع طارق جيشه مغتنماً الظروف الحرجة التي يعيشها الجيش القوطي وسارع إلى قرطبة الا انه فوجىء بان حزب (غيطشة) الملك السابق الذي غدر به لذريق اخذ يبذل مسعى لدى مجلس طليطلة ليستصدر منه قراراً باعتبار وقلة (اخيلا) لحد ابناء الملك القتيل ، ملكاً شرعياً للبلاد،الأمر الذي لو تحقق لحتم عليه ان يعلن حرباً ضد حلفائه .

كانت اوامر « القيروان» كأوامر دمشق قد حتمت على القائد «ان لا يتوغل في البلاد وأن لا يغرر بالجيش»، ولكن ما هو موقف طارق أمام الأحداث التي استجدت وكادت ان تقلب موازين القوى لغير صالح المسلمين ، لقد رأى بفكره العسكري وبعد معركة شذونة ، او معركة وادي بكة ان الطريق ممهدة أمامه إلى طليطلة ، فهل يؤب إلى طنجة تنفيذاً لأوامر موسى بن نصير وهو قاب قوسين او ادنى من نصر نهائي مظفر .

لم يتوان البطل عن الاندفاع شمالاً إلى « استجة » ويجتازها مسرعاً إلى قرطبة حيث كان نفر قليل من فلول العدو مع حامية المدينة قد تحصنوا فيها وتوقع طارق مقاومة عنيفة .

لقد كان القائد الطلعة امام مواقف ثلاثة : ان يعود إلى طنجة مقر قيادته ، ان يحاصر قرطبة ، أو يزحف إلى طليطلة .

لم يكن امام طارق بن زياد إلا ان يزحف إلى طليطلة بعد ان احكم الحصار حول قرطبة واوكل امر القيادة فيها إلى مغيث الرومي مولى الوليد بن الملك . وهو في ذلك لم يتخذ هذا القرار اعتباطاً فطريق طليطلة في وسط الشمال من شبه جزيرة « ايبريا » كان أمامه ممهداً كما اشرت وكان احتلال عاصمة القوط في فكر ابن زياد العسكري يعني اطباق الكماشة العربية على قرطبة وسقوطها . وهكذا عبر الوادي الكبير عند منجبار (Manjibar) وسلك الطريق المار بمدينة جيّان (Jean) والذي كان يعرف في العهود الرومانية بطريق « هانيبال » اللبناني الأصل فإذا اطل على طليطلة واحاط بها دخلها دون مقاومة تذكر فإذا هي شبه خالية ، فأهلها لاذوا بالفرار حتى كبار الكهنة، عندها لم ير طارق سبيلاً إلا متابعة زحفه حتى « وادي الحجارة » في الشمال الغربي من شبه الجزيرة .

كان سقوط طليطلة بيد العرب مدعاة لمغيث الرومي ان يطبق فك الكماشة الجنوبي على قرطبة ، فهو بعد ان ادرك بجيشه الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير وبعد حصار طويل لقرطبة انتظر ريثما سنح له عبور النهر فطوق المدينة الاثرية العريقة ، والتي هي مدينة في خمس مدن ، من كل ناحية وكل صوب حتى استسلمت حاميتها وسقطت في ايدي المسلمين .

ان دراسة نتائج معركة وادي برباط امر يطول ، فضلاً عن الاحداث التي شهدتها الأرض الاندلسية ابان الحكم العربي من مطلع عهد الولاة الامويين ، حتى سقوط غرناطة ، لقد كانت مسرحاً لمعارك طويلة وكثيرة ، وارضاً طيبة لعطاء خير ، ومساجد وكنائس ومعابد للمؤمنين ، ولغة عربية تكتب من

جانب ، ولغة اعجمية تكتب من جانب آخر . كل هذا التفاعل والاحتكاك جعل من اسبانيا الاسلامية مدخلاً لنقل مدنيات العرب والفرس والاغريق وبقية الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد إلى اوروبا المدينة ابداً لاسبانيا الاسلامية وللنبوغ العربي الاسباني بحضارتها المعاصرة وتطورها العلمي الذي بنته على اسس البحث وركائز الموضوعية في الشعر والفلسفة ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والرياضة والهندسة .

كل هذا في فكر القادة العسكريين كان يتم بفضل وعطاء وسخاء شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن .

ولكن بعد النكبة التي حلت بالاندلس ، وبعد النكبات التي تحل بالعالمين العربي والاسلامي اليوم هل لنا ان نردد مع ابن الأبار :

يا للجزيرة اضحى اهلُها جَزَراً للحَادثاتِ وأمْسَى جَدُّها تَعِسَا

□□□

معركة بواتيــة

لعل من اهم الأحداث التـاريخية التي حفـل بها الانـدلس خلال عهـد الولاة الامويين ، العهد الذي يبدأ بالفتح العربي لاسبانيا وينتهي بولاية يوسف ابنِ عبدِ الرحمن الفهري آخرِ وال اموي كان يرجع في شؤون الادارة والحكم الى قاعدة الامارة في القيروان، او الى مركز الخلافة في المشرق، والذي كان يمارس نوعاً من الحكم المنفرد المستبدِ في البلاد ، بعد ان اضحى الاندلسُ غريباً عن اداة الحكم العربية،لأن دمشق العاصمة الزاهية المطلة على غوطتها الفيحاء والمشرئبة على العالم خـلالَ الحكم الاموي ، قبلة العـرب ، وبلاط الدولة ، ومنتدى الشعراء ، وبهجه النفس ، وسلوه الخاطـر ، ونقطة الثقل في السياسة الدولية يومئذ شهدت على يد جيوش العباسيين التي غزتها من العراق الفصلَ الأخيرَ من المسرحية التي انشأ فصولها معاويةُ بنِ ابي سفيان بـالحنكة والمرونة تارة ، وبالقوة والخداع تـارة اخرى ، كمـا شهدت الستـار يلقى في شيء من حزن وفي كثير من حسرة على تلك الامجاد ، وهـاتيك العبقـريات الفذة التي عملت على بناء الـدولة الامـوية ، الـدولةِ التي غيـرت من مجرى التاريخ في الشرق العربي واملت على الحكم العربي تاريخاً جديداً قد لا يمت الى اسس رسـالة هـذا الحكم الا ببعض مظاهـره ، والذي ليس هـو الامتداد الطبيعي لاهداف وغايات الخلافة في شيء .

لقد كانت الدولةُ الأموية كما قال الجاحظ دولـة عربيـة اعرابيـة وكانت

الدولةُ التي قامت على انقاضها دولةً عجمية خرسـانية ، ومن هنـا كانت كلتـا الدولتين على نقيض في التوجيه وفي تحديد الخطوط الكبرى لسياسة الحكم واهدافه ، وطبيعي ان تكونَ الدولةُ العباسية الجديدةُ صورةً للحكم المـرتقب عقب تأسيس الامبراطورية الامـوية في دمشق من نـاحية ، والـواقع الـطبيعي لاستمرار حكم الخلافةِ ومسايرة الزمن وتطوره من ناحية اخرى ، لو لم ينحرف بها قادتها عن الأهداف والمبادىء التي رُسمت لها في خرسان . والحقيقة ان بُعْدَ الاندلس عن قاعدة الدولة الفتيةِ الناهضـة مع تقـدير لعنـاصر سكـانه من القبائل العربية الاعـرابية ، ومن سـلالات البيت الاموي ، ومن قبـائل البـربر المختلفة المتشاكسة ، ومن سكان البـلاد الأصليين الـذين امـتزجـوا الى حـد بعيد مع هذا الخليط من عناصـر الشعب في الاندلس ، كـل هذا كتب لعبـد الرحمنِ بنِ يوسف الفهري آخر وال اموي كما ذكرت ان يكون مستبداً متفـرداً في حكمه ، صارماً في احكامه ، حذراً في تنقلاته ، نافذ العزيمة داعياً لبني العباس مرونة منه وكيـاسة ليبعـد الطامعين عن الانـدلس ويقضي على آمالهم فيه ، ومع كل هذا لم يكتب له البقاء على رأس الحكم العـربي في البلاد ، وبانقضاء عهده ودخولِ عبـد الرحمن الـداخل افـل عهد الـولاة الامويين في الاندلس الخالد .

قلت لعل من اهم الاحداث التاريخية التي حفل بها الاندلس خلال عهدِ الولاة الامويين محاولة السمحِ بن مالـك الخولاني اقتحـامَ الحدودِ الشمـالية الشرقية لشبـه جزيـرة ايبيريـا ودفع القـوات للتوغـل في ما وراءِ هـذه الحدود والسيطرةَ على اوروبا ، ان الواقع التـاريخي يؤكد ان القـائد العـربي وفق في اجتيـاز الحدود وفي الـزحف على مقاطعـة بروفـانس في جنوب فـرنسـا وفي الاستيلاء عليها ، كما ان هذا الواقع يؤكد ايضاً بأن السمح بن مالك قد شتت شمل الثوار هناك والتحم مع قوات الدوق اكوتين في معركة حاميـة الا انه لم يستطع احتلال مدينةِ تولوز عـاصمةِ الامـارة ، فقد ارغم هـذا الجيش العربي على العودة الى مقاطعة بروفنس بعد ان سقط قائدهُ السمح بن مـالك شهيـداً على الارض الفرنسية سنة مائة واثنتين للهجرة ، سبعمائة وعشرين للميلاد .

هذه المحاولةُ التي لم يكتب لها النجاح خلقت في رجال الجيش روحَ الثأر واجبرت قيادته على رسم خطة احكمَ دقةً ، وأبعد هدفاً ، فاذا كانت سنة مائة وثلاث عشرة للهجرة ، سبعمائة وواحدة وثلاثين للميلاد وتسلم الحكمَ في الاندلس عبدُ الرحمن بنُ عبد الله الغافقي بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك ، وهو راوية عبدِ الله بن عمر بن الخطاب واحد التابعين الذين دخلوا الاندلس للجهاد والرباط اخذ بزيارة المقاطعات المختلفة وتنظيم شؤونها وعهد بادارتها الى نخبة من الاكفاء ، واعاد الى الاسبان معابدهم واملاكهم المغتصبة ، واعد الجيش اعداداً قوياً ، وزاد في عدده ، واضاف الى صفوفه كتائب جديدة من فرسان البربر باشراف قادة من العرب ، وحصن المناطق الشمالية ، ورسم الخطط لهجوم سريع صاعق ، وقد عجل بهجوم هذه القوى العربية على جنوب فرنسا ان احدّ امراء الشمال من العرب وهو عثمان بن ابي نسعة انشق على طاعة عبد الرحمن الغافقي وتحالف مع الدوق اكوتين ضد العرب بعد ان تزوج ابنته .

كانت الخطة العربية تقضي باحتلال املاك الدوق والاستيلاء على مدن بوردو وليون وبيزنسون وسرعان ما كتب النصر للعرب واصبحت الطريقُ بعد هذا النصر ممهدة امام جيوشهم لاحتلال باريس .

هذا النصر الصاعق الب على القوى العربية التي ابتعدت عن مراكز انطلاقها في قرطبة وفي شمال اسبانيا كلَّ القوى في اوروبا كما وحد كلمة امرائها فتنادوّا جميعاً لمجابهة هذا التيار ، وكان لهم في السهل الفسيح بين مدينتيّ تور وبواتية ما ارادوا ، وذلك سنة مائة واربع عشرة للهجرة ، سبعمائة واثنتين وثلاثين للميلاد ، فانهزم الجيش العربي على يد كبير وزراء فرنسا الامير شارل مارتل بعد ان استشهد الامير عبد الرحمن الغافقي وبعد ان بهرت عيونَ الجيش الغنائمُ والتحفُ ، ونفائسُ الآثار التي استولى عليها والتي فرح بها ، والتي اذهلته عن النصر ، وعن طاعة اميره وقائده .

ان معركةِ بواتية كما يسميها النقادُ الاجانب او معركة بلاطِ الشهداء كما

يسميها المؤرخون العرب كانت حداً للزحف العربي على اوروبا كما كانت نقطة تحولٍ خطير في مجرى التاريخ العام ، فقد قال في نعتها احد النقاد الفرنجة « ان معركة تور انقذت اسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نفوذ العرب الديني والمدني واخرت احتلال القسطنطينية » .

هذه المعركةُ الفاصلةُ في تاريخ العرب العسكري بالنسبة الى اوروبا يعتبرها ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر امتداداً لما رسمت الخلافة في دمشق من خطط وانها محاولةٌ وفق منهج مرسوم لاحتلال اوروبا ، وبالتالي لاحتلال القسطنطينية عن طريق الغرب بعد ان تعذر الاستيلاء عليها عن طريق الشرق .

ويعتمد هذه الفكرةَ احدُ الكتاب المعاصرين فيؤكد بأن الدولة الأموية كانت ترمي من وراء غزو القسطنطينية الى اكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية ، فلقد كانت ترمي الى حمل الدعوة وفرض السيطرة على اوروبا كلها ، فلما ارتدت جيوشها امام اسوار القسطنطينية شقت الى الغرب، والى اوروبا طريقاً آخر فجازت جيوشها الى اسبانيا ، واقتحمت جبال البرينه الى فرنسا .

امام هذا الخطل في التحقيق بكيفيات الوقائع التاريخية واسبابها ، حريٌّ بنا ان نؤكد بأن ابن خلدون قد اخطأ في توهم هذه الاسباب ، وبأن الكاتب العربي المعاصر بنى رأيه على وهم وخيال بعيدين عن الحقائق العلمية . والحقيقة ان الدولة الاموية قد حاصرت القسطنطينية مرتين ، المرة الأولى في عهد معاوية بن ابي سفيان سنة تسع واربعين للهجرة، ستمائة وتسع وتسعين للميلاد، والمرة الثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين للهجرة ، سبعمائة وسبع عشرة للميلاد اي بعد افتتاح الاندلس على يد طارق ابن زياد بست سنوات ، ومن حقنا هنا ان نتساءل ، اذا كانت الخلافةُ الأمويةُ تنوي من وراء فتح اسبانيا الاستيلاء على اوروبا وبالتالي على القسطنطينية ، ترى لماذا هاجمت عاصمة الدولة الشرقية للمرة الثانية سنة تسع وتسعين

للهجرة ، وطريق اوروبا قد تمهدت امام جيوشها عن طريق الاندلس ، وهل كان بامكان القوات العربية التي عجزت عن احتلال القسطنطينية عن طريق آسيا بعد حصار طويل الأمد وهي قريبة من مراكز انطلاقها في سوريا احتلال القسطنطينية عن طريق اوروبا وهي القوة الخليط من الشعب العربي يومئذ ، وهل ان اسوار القسطنطينية من جهة اوروبا هي من الوهنِ بحيث تستسلم سريعاً لهذه القوات . ,

ان الحقيقة العلمية تدحض كلّ هذه الآراء ، فافتتاح الاندلس كان وليد الاحداث المحلية والظروف الحياتية ، ولقد اكدنا نقلاً عن ابن القوطية صاحبِ كتاب تاريخ افتتاح الاندلس وعن غيره من المؤرخين العرب العوامل التي اهابت بالقائد العربي الى غزو جزيرة ايبريا وافتتاحها ، وليس من شك في ان الخلافة الاموية وهي الدولة العربية الاعرابية التي بنت حكمها على اساس تمجيد العنصر العربي كانت اعجز من ان تدبر تلك الخطط العسكرية ولم يكن لها اهدافٌ بعيدةُ المدى للسيطرة على اوروبا ، وان كنت لا انكر بأنها لو وفقت الى ذلك لما تراجعت عن اقتحام الحدود في سبيلِ نشر الدعوة وتأسيس امبراطورية عربية بعيدة الحدود .

وبعد ، وازاء هذه الاحداث التاريخية والحقائق العلمية لا بد من ان ينحني المؤرخ امام عبقرية العرب العسكرية ، وامام تلك الشخصيات التي ظلت خالدة ، مشرئبة على الدهر ، تحكي اسطورة العرب الخالدة في الفن ، والعلم والأدب ، والسياسة والمرونة والدهاء .

١ ـ لعل ما اشرنا اليه من رأي لابن خلدون هو من التكرار المتعمد توضيحاً لروايات دست على التاريخ الاسلامي .

□□□

يومـــان في تاريخ بني امية

عرف الامويون في تاريخهم بعد معركـة صفين يومين من اخلد ايـامهم السياسية ، لعب فيها المجد والدهاء دوراً عظيم الخطورة حتى قدّر لدولتهم ان تتبوأ الزعامة الفعلية في العالم الاسلامي بعد المعركة الأولى ، كما قدّر لها ان تؤسس صرح الحضارة الانسانية في الاندلس العربي بعد المعركة الثانية وبعد ان ركزت قواعد الحكم فيه على اسس جديدة من الادارة والنظام .

الحقيقة ان كلا اليومين كانا صورة واحدة في التاريخ ، وفي الخصومـة السياسية، وفي اوجه المعركة ونتائجها ، بالرغم من ان قرنا ونيفاً من الزمن كان يفصل بين الحدثين العسكريين .

لا بد لناقد ايام بني امية وتاريخهم الحافل بـالمعارك والثـورات من ان يقف طويلاً مع شاعرهم الاخطل يستجلي قوله :

اعـطاهم الله جدا ينصـرون به   لا جـدّ الا صغيـر بعـد محتقـر

الواقع ان حظ بني اميـة في نتائـج المعارك التي خـاضتها قـواتهم كان عظيم الأثر في زعامتهم للعالم الاسلامي ، وفي اقامة عرشهم في شبه جزيرة ايبريا بعد ان اعاد التاريخ نفسه في يومين متشابهين انجلت فيهما المعركة عن نصر ساحق للدولة الاموية العربية الاعرابية على حد قـول الجاحظ ، وغـدوا سادة المشرق والمغرب العربيين .

ليس من شك في ان المعركة التي وقعت على سهل المصارة قبالة قرطبة في الاندلس اعادت الى امويي المغرب ذكرى ايام معركة مرج راهط فاتاحت لهم ان يتفاءلوا بنتائج معركتهم الجديدة ، والظروف العسكرية والسياسية بين المعركتين تكاد تكون واحدة .

يذكر ابن القوطية القرطبي في كتابه تاريخ افتتاح الاندلس « ان عبد الرحمن الداخل سأل اصحابه قبل بدء المعركة مع خصمه يوسف بن عبد الرحمن الفهري في أي يوم نحن ، فقيل له في الخميس وهو يوم عرفة ، فقال اليوم عرفة وغداً الاضحى والجمعة وامري مع فهري ، ارجو انها اخت يوم مرج راهط » .

مضى قرن ونيف من الزمن بين معركة مرج راهط الى الشرق من دمشق ، الأرض الفيحاء المنسكبة اخضراراً على ضفاف بردى اللجيني ، وبين معركة سهل المصارة ، الأرض الحالمة على اطراف نهر الوادي الكبير ، والى اعتاب جبال سيرا مورينا في جنوب الاندلس .

ان زمناً طويلاً كهذا لم يكن كافياً لاطفاء اوار الخصومة السياسية ، والنفوذ القبلي ، والحقد الاعرابي بين القيسية واليمنية ، او بين عرب الشمال وعرب الجنوب واحلافها بالرغم من ان الاسلام حمل على القبلية وصهرها في بوتقة الدعوة فاعادها الامويون يوم نادوا بالثأر لمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، الاموي البيت .

اضرم المعركة الأولى في المرج الضحّاك بن قيس الفهري احد كبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في ما يحدث عماد الدين القرشي الدمشقي في كتابه « البداية والنهاية في التاريخ » ، واحد اصدق اعوان معاوية بن ابي سفيان ، ونائبه على دمشق .

هذا ، ويؤكد ابن عبد ربه في « العقد » والمسعودي في « التنبيه والاشراف » وغيرهما من المؤرخين ان سبب معركة مرج راهط هو وفاة

معاوية بن يزيد دون ان يعيّن ولياً للعهد ، لأن الخليفة المريض شاء ان يترك الأمر ليتخذ فيه اهل الحل منهاجاً جديداً علهم يخالفون به منهج جده معاوية بن ابي سفيان حسماً للخلاف السياسي .

لم يلبث النـاس ان سارعـوا الى مبايعـة عبد الله بن الـزبير عقب وفـاة معاوية بن يزيد وكان في ظليعتهم النعمان بن بشير الانصاري اميـر حمص ، وزفر بن الحرث الكلابي وهو على قنسرين وتبعهما في ما بعد الضحاك بـن قيس الفهري الذي خرج الى مرج راهط في ستين الفاً من القيسية عندما دعى الى نفسه مروان بن الحكم شيخ بني امية ووقف الى جانبه عبد الله بن زياد وبنو امية وكلب، وغسان، والسكاسك، وطي .

استمرت معركة المرج عشرين يوماً كاد ينتصر فيها الضحاك لو لم يلجأ الامـويون الى المهـادنة والخـداع شأنهم في صفين، وما امن الضحـاك رغبـة الامويين في الصلح وفي مبايعة عبد الله بن الزبير حتى امسك عن القتال ولكن سرعان ما شدت عليه خيل خصومه ونزع قومـه الى راياتهم من غيـر استعداد واقتتل الناس قتالاً شديـداً ،وحمل مـروان بن الحكم حملة عنيفة نزل معها النصر وقتل الضحاك مع نفر كبير من فرسان قيس ورجالاتها البارزين .

ويشـاء القدر ان يعيـد التاريـخ نفسه في يـوم آخر في سهـل المصـارة ويجتمع عبد الرحمن بن هشام صقر قريش مـع اليمانيـة واحلافهـا كما يلتقي يوسف بن عبد الرحمن الفهري مع القيسيـة وانصارها ويرجو الداخل ان يكون يومه مع خصمه كيوم جده مروان مع جـد خصمه الضحـاك الفهري ، واليـوم جمعة واضحى فيتحقق رجاؤه ويخضع الاندلس من جديد لنفوذ الحكم الأموي الذي انحسر عن المشرق بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفائهم .

ترى لو قدر للاخطل شاعر الامويين ان يشهد معركة سهل المصارة بعد ان عرف مواقف دولته في معركتيّ صّفين ومرج راهط هل سيعتبر هذا النصـر الجديد اقبالاً سماوياً فيردد بيته الأول :

اعطاهم الله جداً ينصرون به   لا جـدّ الا صغير بعـد محتقر

ام ان الشاعر الاموي سوف يؤكد ان السماء امدت الامويين بعون الاهي جديد على غرار ما امدتهم يوم صفين .

ويوم صفين والابصار خاشعة   امدّهم اذ دعوا من ربهم مدد

لا غرو ان الامويين ادركوا ان (الحرب خدعة) فلجأوا اليها في صفين ومرج راهط، وسهل المصارة ، وكلها ايام خالدة في تاريخهم السياسي والعسكري .

هذا ، ولو كتب للاخطل ان يؤرخ يومهم الخالد في الاندلس وقد التقت اطراف السماء الزرقاء باردان الأرض الزمردية على جنبات الفردوس في شبه الجزيرة لانشد ان السماء كل السماء نزلت على ارض الاندلس لتقف الى جانب صقر قريش ، سيف الله المنتصر ! . وانها « بدر » أخرى ، والشعراء يتبعهم الغَاوون !

□□□

معطيات الحكم العربي في الاندلس ونتائجها

بالرغم مما عرف الاندلس العربي من مظاهر حضارية كانت موضع دراسةِ النقاد والادباء ، فقد ظل مغلقاً بالنسبة للدراسات الرياضية والفلكية ، والعلوم العقائدية والعقلية وغيرها .

ليس من شك في ان واقع الاندلس الداخلي وخضوعه لعلماء الدين من المالكية المتشددين قد كان له اكبرُ الأثر في كثير من نتائجِ الحياةِ السياسية والفكرية ، وبالتالي من النهاية التي آل اليها مصيراً حتمياً للأحداث،والأساليب الحياتية التي رسمت لهذه البقعة من العالم العربي يومئذ ، وفق الاساليب المرسومة لبقية انحاء العالم الاسلامي .

ان طبيعة البلاد الاندلسية وما تكشَّفَ فيها من حضارات قديمة ، وسلالات بشرية ، وعقائد دينة ، ومذاهب فكرية كانت ادعى الى اهتمام المسؤولين العرب من الحكام والفقهاء مما رسموا لتلك البلاد من سياسة تقليدية كانت امتداداً للسياسة العربية في المشرق .

كان على الطبقة الحاكمة الواعية ان تأخذ الاندلس بحكم يتناسب والنفسية القومية التي جوبهت على ارض بلادها فيقوم منذ عهد الامارة الاندلسية في قرطبة نظام حكم يتلاءم مع جوهر ما حمل العرب الى الاندلس من عقيدة وفكرات سياسية ، واساليب في الحكم والادارة ، وبناء مجتمع جديد يساير ركب الاسلام وفلسفته في المجتمع ، وهو دين ودولة ، كما يتلاءم

مع عقلية ابناء البلاد ، ونفسيتهم وروحهم الثورية ، ونمط تفكيرهم ، وخاصة عقيدتهم القومية والدينية .

لقد كان موقفُ العرب في الاندلس يختلف اختلافاً كلياً عن مواقفهم في البلاد التي دانت لهم بالفتح ، فلم يكن الهدف الأول من الاستيلاء على شبه جزيرة ايبريا نشر الدعوة الاسلامية في البدء وحسب ، فأهل الجزيرة كانوا يدينون بالمسيحية وهم من هذا القبيل اصحاب كتاب سماوي ، ولم يعرف عن العرب حتى تاريخ استيلائهم على الاندلس في حياتهم العسكرية انهم جابهوا اهل كتاب ، بل من المعروف ان المسلمين الأوائل هاجروا الى الحبشة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم لأن اهلها من النصارى .

هذا فضلاً عن ان اقتحام العرب للاندلس لم يكن رغبة في الفتح والسيطرة ، او في جمع الغنائم ، فمن المؤكد ان العرب لبوا نداء شعب كان يعاني الظلم ، والاضطهاد ،والفقر ، والتعصب من طبقة فرضت نفسها على البلاد ، واباحت لنفسها الظلم ، وعبثت بالقيم الاخلاقية ، وبالفضائل الانسانية .

الحقيقة ان فتح العرب للاندلس كان استجابة انسانية لشعب رغب في التخلص من حكم جائر ، وليس ادل على ذلك من المساعدات العسكرية ، والمعونات المادية ، التي قدمها الكونت يوليان حاكم سبتة انتقاماً لشرفه الذي طعن في قصر الملك لذريق ، فضلاً عن جموع الشعب التي ناصرت الجيش العربي الفاتح ، وعن اولاد الملك غيطشة ، الموندو واخويه الذين وقفوا بجانب طارق بن زياد ، القائد العربي .

ان النصرَ الصاعق الذي حققته القوات العربية امام قرطاجنة اول مدينة اسبانية تحطمت اسوارها امام الجيش العربي ، هو الدليل الواضحُ على تفهم الشعب الاسباني لحقيقة الحملة العربية وبالتالي لاهدافها الانسانية والحياتية في شبه الجزيرة .

امام هذه الحقائق التاريخية التي تثبتها الوثائقُ العلمية وتؤيدها البراهين كان على حكامِ الدولة العربية في الاندلس، من ولاة كانـوا يخضعون لأوامـر دمشق تارة ، ولأوامر القيروان تارة اخرى ، ومن امراء امويين قد استقلوا بحكم الجزيرة ، الى خلفاء وملوك كانوا يوجهون للدولة ويرسمون سياستها العليا .

قلت كان على حكام الدولة العربية في الاندلس ان ينهجوا نهجاً مرسوماً يختلف عن منهج السياسة العربية في المشرق النابعة من فلسفة الحكم القائم والقائل بان الاسلام دين ودولة .

هذه الفلسفة او جوهر النظام الذي اثبت جدارته وحقيقة منطوقه في كل البلاد التي خضعت للاسلام بالفتح .

نحن لا ننتقد جوهر الحكم العربي في الاندلس النابع من هذه الفلسفة في الحكم ، انما ننتقد مفهوم الحكام العرب في شبه الجزيرة لهذه الفلسفة في الحكم .

لقد فهم الحكام في الاندلس الاسلام انه دينٌ ولم يفهموه انه مع ذلك دولـة ، فلو قدر لاكثـريتهم الساحقـة ان يـطبقـوا هـذين الخـطين العـريضين للحكم ، لما فشل العرب في سياستهم ولما اضطروا الى الخروج من الأرض الاندلسية .

من المؤكد ان الدولة كانت تخضع لنفوذ الفقهاء من المالكية ، وهم اشدُ الفقهاء تصلباً في آرائهم الفقهية ، والحق يقال انهم في كثير من احكامهم كانوا اشد تصلباً من اصحاب مدرسة الحجاز التي تعتبر الطرف الأول في التشـريع الاسلامي ، الى جانب مدرسة العراق التي قامت على كثير من التسامح توافقاً مع روح الشريعة السمحاء وتجاوباً مع نفسية اهل فارس وخرسان .

فمن تشـدد فقهاء الانـدلس انهم حملوا على الخمرة ، في ارض جنـةٍ منسكبة قبالة انهارٍ مبعثرة بينِ المروج ، تمد الاشجار الباسقة الفـرعاء بعـطاء الحياة ، وبين شعب مزيج من شعب لم يجرم الخمرة اصلاً ومن شعب دفعته الحياة المترفة والجنة المتكئة على ضفاف الانهار ان يجد في الخمـرة النشوة

والمتعة . وكان من الخير ان تحرم على القوط وعلى دفعات وكما نزلت الآيات الخاصة بها . وهكذا يستتب أمر التحريم على الجميع .

قلت حمل الفقهاء في الأندلس على الخمرة حتى فكر الحكم ، الخليفة العالم ان يقتلع اشجار الكرمة من البلاد ، فجاءه بعض الاعيان واكدوا لـه ان باستطاعة المدمنين عليها ان يصنعوها من ثمرة التين ، فصرف النظر عن اقتلاع الكرمة .

هذا النمط من التفكير في المحافظة او في التشديد على تطبيق الشريعة في وسط غريب هو الذي الب القلوب وبالتالي دفع كثيراً من سكان البلاد الى العصيان فالثورة .

قد يعتبر عمر بن حفصون في طليعة هؤلاء الناقمين الذين دفعتهم سياسة الـدولة الى الخـروج عن الطاعـة والى التعاون مـع خصـومهـا ضـد سلطتهـا الشرعية .

ان النهج الذي سار عليه الحكامُ العرب في الاندلس ، قد اوقف حركةَ التطور العلمي حقبة طويلة من الزمن الى جانب الاخفاق في السياسة العامة ، فلقد كان من نتيجة تشدد الفقهاء عدم النهوض بالعلوم الرياضية والفلكية ، غير انهم كانوا يتجاوزون عن الحساب ويبيحون الاشتغال به في ما يتصل بالعمليات التطبيقية المعقدة المتعلقة بقسم المواريث ليس الا .

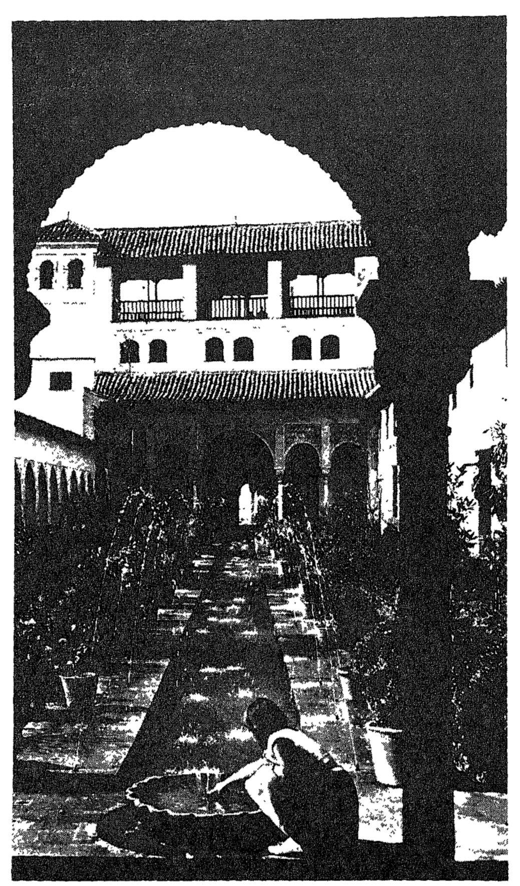
في ضوء التفكير الساذج تأخر البحث في المسائل الفلسفية ، وفي امور الفلك ، وفي دراسة المعتقدات والمقارنة بينها ، ولا غرو فـإني اميل إلى ان هذا التشدد دفع نفراً من اهل البلاد الى الأخذ بالآراء والمعتقدات والسياسـة التي كانت تحرمها الدولـة ، وعن المسير في هـذه الطريق المنـاوئة لأهـداف الحكم العربي في الأندلس اتجهت الدولة نحو الانهيار المحتم .

في اعتقادي ان الانفتاح والنقاش في امور عقائديـة متأصلة في ضـوء البحث العلمي وتجاوباً مع الانطلاق الطبيعي لسنة الطبيعة ، افيد من الانكماش

والتزمت ، وليس ادل على هذه الحقيقة من النتائج التي توصل اليها الاسلام بعد المحنة التي اثارها البعض في قضية خلق القرآن الكريم ، هذه المحنة هي التي دعمت التفكير في ازلية الكتاب المبين بعد نقاش طويل دعمته السلطة لمصلحة عكسية ، فجاءت الحقيقة ناصعةً بيّنة .

ان فوضى الحكم العربي في الاندلس القائم على اساس من معطيات النفوذ والهوى ، هو الذي حال بين عدد من العلوم ان تتطور وتتفاعل ، وهو الذي ادى الى ضياع الأرض العربية ، الشرفة المشرعة على اوروبا ، المطلة على دنيا قابعة في الظلمات يومئذ ، لو قدر للعرب ان يطبعوها بطابعهم لكانت مبعث امل جديد لخير الانسانية وفلاحها .

□□□



حدائق جنة العريق في القصر الأحمر بغرناطة

الحضارة العربية في الاندلس

بين دخول العرب الى الاندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة ،سبعمائة واحدى عشرةَ للميلاد وحتى سقوطِ غَرناطة ، آخرِ معقل عربي في تلك الأرض ، الزاهية الضاحكة للشمس ، المبتسمة للربيع سنةَ ثمانمائة وسبعٍ وتسعين للهجرة ، الف واربعمائة واثنتين وتسعين للميلاد ، قامت في الأندلس العربي حضارة اصيلة ، قدَّر لها ان تأتي على اكثر ما خلَّفه القوطُ في هاتيك الأرضِ ، من عاداتٍ وتقاليد ، وان تطبع البلاد بالطَّابع المميز لهذه الحضارة ، وان تقوى على الاستمرار والبقاء حتى بعد انقضاءِ الدولة العربية التي لعبت الدور الرئيس في تطوير النظرة الانسانية الى واقع المجتمع ، والتي انشأت تلك الحضارة ورعَتْها خلالَ قُرونٍ ثمانية .

ان الحضارة العربية في الاندلس لم تكنْ لتمثلَ المفهومَ اللغوي لمعنى الحضارة اليوم، فالاندلس كان عريقاً بمدنية هي مزيجٌ من حضارات الجرمان والفندال والقوط الذين تقلبوا على البلاد كغزاة او فاتحين ، وقد تركوا اثارا باقية تدلُ على عظمة تلك الامكانات في ابداع عبقرية الإنسان ، وفي ما يحْفَظُ له على مدى التاريخ قيمةَ نبوغه ، وفضل انسانيته ، فالحضارةُ العربية في الاندلس قامت على نحو جديد ذي مفهوم انساني حضاري لا تقف مجالاتُ نشاطِهِ وطرقِ ابداعِهِ ، امامَ صقْلِ الحجرِ ورصفه، وامام تشييد البناء وزخرفته وامام اقامة الطقوس والاحتفالات ، والتفنن في اقامة الهياكل والمعابد ، بل

تعدت كلَّ ذلك ووجهت عنايتها نحو رفاهية الفرد واسعاده ، الفرد الذي هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع المُتحضر الأمثل، والمدينة الفاضلة، الفرد الذي ترعاه الدولة فينصهر في المجتمع الذي هو بمظاهره ، وخصائصه حقيقة المجتمع الحضاري ، وصورةٌ للحياة في شتى مظاهرها .

فالحضارةُ العربيةُ في الاندلس قامت على ركائز اربع ، مما خلف الجرمان والفندال ، والقوط من مدنية وما تركوا من عادات وتقاليد ، وعلى ما حمل العرب من مدنية وثقافة ، ومن شعارات ، ونزعات قبلية ، وما عرف عنهم من حب للحكم والقيادة ، وعلى امكانات البلاد ومقدرتها على المساهمة البناءة ، وعلى قابليتها في التحول بين أيدي الفاتحين لتتخذ الشكل والصورة التي اعدت لها مع المحافظة على طابعها الأصيل، وعلى الاستفادة بقدر ما تسمحُ ظروفها من كل تلك الألوان الثقافية ، والمظاهر الحضارية وطرق المعيشة ، وسُبُلِ اللهو والغناء ، وضروب الرقص والموسيقى ، مع عنايةٍ خاصةٍ واهتمام منقطع النظير للتغلب على كلٍّ العقد النفسية التي سيطرت على البلاد نتيجةً للفتح ، فتفاعل كلٌّ ذلك بجاذبية الحكم الصالح والقيادة الحكيمة ،وعن هذا التفاعل قدِّر للاندلس ان يكون مدخلاً لنقل مدنيات العرب والفرس والاغريق وبقية الشعوب التي تفاعلت في الشرق البعيد الى اوروبا ، الى جانب أنَّه كان مركز هذا التفاعل ومصدر هذه المدنية الجديدة التي بهرت اوروبا خلال قرونٍ ثمانية .

والواقع ان الاسبان لم يندمجوا في هذه البوتقة العربية عقب الفتح ، ولم يكن ثمة مظاهر لهذه المدنية الجديدة طوال عهدِ الولاة الامويين الذين تمرسوا باعباء الادارة قبل تأسيس الامارة الاموية بقيادة عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهذا ما يؤكده المستشرق الاسباني الكبير انخل كونثالث بالنثيا اذ يقول : (قد لا نجد آثاراً لأي لون من الوان الحياةِ الفكريةِ في الاندلس خلال السنوات الأولى التي اعقبت الفتح العربي لاسبانيا على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، بل ان الشعب الاسباني الذي دخل في طاعة المسلمين نتيجةً للفتح ، لم يخلف آثاراً تدل على حياته الفكرية طوالَ عصرِ الولاة) .

لا غرو ان الادارةَ الاموية في الاندلس الموجهة من دمشقَ قاعدةِ الحكم العربي لم تحسن ضبط الادارة الحاكمة ولم تقو على وضع تخطيط لسياستها في البلاد ، فلقد كان الاندلس بالنسبة للحكم العربي ولايةً تابعةً للمغرب . فلقد تألب عليه خلالَ ستٍ واربعين عاماً عشرون والياً ، ليس بين سياستهم لُحمة ، وليس بين اهدافهم صلة ، كلٌّ حكم البلاد وفقاً لمآربه ، وكلٌّ مهدَ مع ذلك في حكمه دونَ ان يدري لدخولِ عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي كان دخوله ايذاناً بتأسيس الدولة الاموية في الاندلس الخالد .

انَّ الاندلس بما وجدت فيه من امكانات ، وبما بقي فيه من مدنيات ومع الارادة القادرة على بناء دولةٍ ناهضةٍ وضع اميرٌ امويٌ ركائزها واهدافها بلغ الاندلس خلال القرون المتوالية ، ووفق مخطط عُمراني واداري مركز على اسس من الثقافة المتفتحة على الشرق والغرب جميعاً ، على القديم والحديث ، على الاسلام والمسيحية على التسامح والتقدير، على الالفةِ والمحبة ، على العطاء والبذل ، وفي محيط دقيق تجمعت فيه قوى المواطنين الاصليين الذين بالرغم من اندماجهم الى حد بعيد في الوسط العربي كانوا يترقبون الفُرَصَ للانقضاض على الحكم ، قلت وفي هذا الوسط الدقيق قدَّر لعبد الرحمن الداخل ولخلفائه من بعده ان يُقيموا الحضارة العربية في الاندلس التي كان العلم ، والاخلاص ، والعمل ، رائدها الأول .

ان الاندلس ، وان خضع بالفتح العسكري للقائد طارق بن زياد ، فلقد وضع عبد الرحمن الداخل المدماك الأول في بناء صرح مدنيته الشامخ الذي يمر به العالم اليوم في طليطلة ، المطلة على نهر التاج ، وفي اشبيليا المسورة بالازهار وفي غرناطة الناعسة على ضفة شنيل ، وفي قرطبة المعجبة بالمسجد الجامع ، وبقنطرة الوادي حيث يتدفق الماء لجينا ، وحيث يلتقي العشاق وقتاً غير قصير فيتيهون هناك بين ما يختلج في قلوبهم من حب، وبين ما يطفح في نفوسهم من شوق ، وبين ما يشاهدون من مناظر تأخذ بالقلوب والنفوس جميعاً ، الى جانب انها كانت كعبة العلم ، ومجلس العلماء ، قلت يمر

العالمُ امام بقايا تلك المدنية فيجدون انفسهم مجبرةً على الخضوع والانحاء امام الشخصيةِ العربية الفذة ، شخصيةِ صقر قريش مؤسس الحضارة العربية في الاندلس

قلت يـومـاً لـدار قـوم تفـانـوْا ‏ ‏ ‏ ‏ اين سكـانُـكِ العـزازُ علينـا
فـأجـابت: هنـا اقـامـوا قليـلاً ‏ ‏ ‏ ‏ ثم سـاروا ولست اعلم اينـا

لا إنهم في كل مكان، انهم كالنجوم المضيئة، لقد تناثروا في اطـراف المعمور العربي فلحقوا بمدن المغرب ، كما لحقـوا بمدن تـونس ، وأقامـوا هناك مدنية تحاكي مدنيتهم، وقصوراً على طـراز قصورهم وكـانوا في رحلتهم تلك قد اقامـوا الصلة بين الحضارة العـربية في الانـدلس وبين ما اقـاموا من حضارة في الشمال الافريقي .

□□□

* جغرافية الاندلس العربي والبحث العلمي الحديث

ما ان عرف العربُ الاستقرارَ في شبه جزيـرةِ ايبريـا بعد ان اخضعـوها لنفوذهم السياسي سنة اثنتين وتسعين للهجرة،سبعماية وعشرة للميلاد على يد طـارق بن زياد حتى اخـذوا في دراسة طبيعتهـا وتحديـد اقليمها والبحث عن مصادر الثروات في ارضها .

لقد ظل عربُ الاندلس بعـد القرون الأولى للفتـح يأخـذون بالمصـور الجغرافي المعكوس المنحرف الذي وضعه بطليوس فكانـوا يصورون اسبـانيا على شكـل مُثَلَّثٍ غير مُنتَـظَم ، اطرافـه من الجَنُـوب جـزيـرة طـريف ورأسُ مُراكش ، ومن الشَّمالِ الشرقي رأسُ كريـوس ومرسى فـاندر ، وفي الشمـال الغربي بلاد فينستير .

هذا وكانوا يعتبرون الشواطىء الممتدة من طريف الى كريوس او بالأقل الى طركونة وبرشلونة كأنها ثغورٌ جنوبية ، وقد اثبت هذه النظرية المراكشي في كتابه عن جغرافية الاندلس .

الـواقع ان عـرب الاندلس لم يـأخذوا بمثـل هذه الاخـطاء الجغرافيـة وحسب بل أخذوا ايضاً بالرأي القائل ان جبال البـرانس وهي المعروفـة اليوم باسم البيرنة هي ثغور الاندلس الشرقية .

استمر الاندلس على مثل هذا الخطل الجغرافي حقبةً طويلة من الزمن

حتى قدّر له علماءُ جغرافيون افذاذٌ امثال البكري والادريسي ، وابن حوقل ، والمقدسي وغيرهم ، وهؤلاء وان وقعوا في بعضِ الاخطاء الجغرافية بالنسبة لقلة وسائل العمل الفني يومذاك فقد كشفوا كثيراً من الاخطاء القديمة وبددوا اوهاماً شاعت ، وحددوا مسالِكَ وممالك البلاد .

الواقع ان جميع الاطالس الجغرافية المتعلقة باسبانية الاسلامية ظلت حتى ايامنا هـذه تتناقل بعض الاخطاء القديمة الشائعة بالنسبة الى الارض الاندلسية، فأطالس «سبرونر» و «منكه» Spruner et Menka المطبوعة سنة ١٨٨٠م واطالس دريزين Draysen المطبوعة سنة ١٨٩٤م في كتاب المستشرق الالماني اوغست مولر المسمى « الاسلام في الشرق والغرب » او غيرها من الاطالس الأخرى تناقلت هذه الاخطاء منذ ايام طلائعِ الجغرافيين الاجانب الذين اهتموا بمصور الاندلس الغربي .

نحنُ لا نُنْكِر ان عدداً غيرَ قليلٍ من العلماءِ والمستشرقين توافروا على دراسةِ تاريخ الأندلس وجغرافيتّه الا ان الجهود التي بذلت لتصحيح هذه الاخطاء كانت ضئيلةً ومحدودةً للغاية .

كان المستشرق الهولندي دوزي في طليعةِ المهتمين بالابحاث الاندلسية ، وهو بالرغم من المجهودات الكبيرةالتي خلفها في هذا الميدان لم يَتْرك اثراً يُذْكَرُ بالنسبة لتصحيح هذه الاخطاء الجغرافية .

قام دوزي بترجمة كتاب الادريسي الموسوم « بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وعلق على كثيرٍ من موضوعاته واهتم اهتماماً بالغاً في ترجمة اسماءِ الاعلام التي ذكرها الادريسي في كتابه ، وبالرغم من ان ترجمة دوزي لكتابِ الادريسي جاءت محققةً للغاية فالمستشرقُ الهولندي لم يكترث للاخطاءِ الجغرافية في الكتاب .

ان البحث العلمي يفرض على المهتمين بالابحاث الاندلسية جمعَ كُلِّ المعلوماتِ المتعلقةِ بجغرافية البلادِ والتي تراكمت منذ ايام كزيرير Caisirir وكوندي Conde وهامنر Hamner وميهرن Mehren والنظر فيها في ضوءِ المصادر

العربية التي تعتبرُ المرجعَ الأولَ في مثل هذه البحوث .

لقد حَفِلَ الأندلسُ باعلام جغرافيين كبار كالحميري صاحب كتاب « الروض المعطار في خبر الاقطار » فقدم لنا فيه مُعْجماً مبنياً على بعضِ مظاهرِ الدراساتِ الحديثةِ في ذكر اسماءِ البلادِ ومواقِعِها واسماءِ مؤسسيسها واهم انهارها وجبالِها وتَعْداد منتوجاتِها الزراعية واهمِ صناعاتها المحلية .

نحن لا ننكر مع اشادتِنا بكتاب الروض المعطار للحميري الذي نشره المستشرقُ الفرنسي بروفنسال ان جغرافياتِ العرب لم ترد فيها تفاصيلُ كافية عن الاندلسِ ونحن بحكم هذا الواقِع مجبرون ان نَقْتَنعِ بما في ايدينا منها ، ككتاب الهمذاني الذي الف سنة ٩١٠م وكتاب الاصطخري الذي الف سنة ٩٢١م في اوائل عهد عبد الرحمن الناصر ، وكتاب ابن حوقل الذي اكمله سنة ٩٧٦م والمقدسي الذي وضع كتابه في احسن التقاسيم .

قلت نحن مجبرون ان نقتنع بهذه الكتب ، غير ان مناهِجَ الدراسةِ العلمية تفرض علينا اليوم نمطاً جديداً في البحثِ والاستقصاءِ حتى نتمكن من اعطاءِ صورة حقيقية لجغرافية الاندلس العربي .

الدارس لما اورده ابنُ حوقل مثلاً عن اهم الكور والثغورِ الاندلسية،ولما اورده المقدسي عن هذه الكور يجدُ ان الفرقَ شاسعُ بالنسبة إلى عدد الكور واهميتها ، فابن حوقل يعتبرها ثمانية ويسميها، والمقدسي يعتبرها اكثر عدداً ويسميها .

في ضوء هذا الواقع هل يصحُ أن نأخذ بتقسيم واحدٍ من هذين الجغرافيين ام علينا انِ نرجِعَ الى مصادر اخرى ؟.

الحقيقة ان الابحاث الجغرافية الاندلسية لم تعرف مفهومها العلمي في عهد العرب وان قُدِّر للبلاد ان تنجب عدداً من اعلام الجغرافية .

ان الادريسي العالم الجغرافي وان كان قد اتحف العالم بمصور لحوض البحر الابيض المتوسط يعتبرُ من ادق المصورات الجغرافية بالنسبة الى الابعاد

والقياسات غير أنّه اعتبر الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، وهو وان لم يوفق لاعطاء صورة حقيقية لواقع الحوض الجيولوجي فليس معنى ذلك ان الادريسي قد اخفق في عمله وقد قام به في عصر كان يفتقر الى الآلات والمعدات الفنية التي توفرت لعلماء العصر الحديث .

الثابت ان الدهر قد اتى على كثير من جغرافية ومعالم الاندلس الاسلامي ودك كثيراً من آثاره ان لم يأت على اثاره كلّها كما اتى على معظم كوره ومدنه العربية ، وان لم يكن ثمة فائدة من اعادة النظر في دراسة هذا الموضوع من اساسه فلا اقل من ان نهتم بتصحيح كثيرٍ من الاخطاء الشائعة خدمة لتراثنا العربي في الأندلس واسهاماً في البحث العلمي الرصين وتجاوباً مع واقع الحياة الفكرية المعاصرة ، لان الاندلس سيظلُ ابداً موطناً لحضارة انسانية خلّاقة .

لقد اضحى من المؤكد ان تضافرَ الجهودِ العلمية العربية والاجنبية التي يقومُ بها الباحثون المختصون للكشف عن معالمِ هذه الحضارة الاندلسية الزاهية آخذةً في تأديةِ سياستها نحو اضاءةِ كثيرٍ من الجوانب الغامضة في تاريخ الاندلس فضلاً عن اهميةِ البحوث بالنسبة الى حقبة طويلةٍ من حياةِ البلاد التي تعتبر مركز الثقلِ في المدنية الأوروبية الحديثة .

ان امةً ليس لها تاريخٌ يدرس لهي أمةٌ خاملةٌ لم يكن لها من دورٍ بارز في تفاعُلِ المجتمعات وبناءِ الحضارات، وخدمةِ الانسان، ورفاهيته، ويكفي الاندلس العربي من فخر أنّه بالرغم من انقراضِ الحكم العربي فيه ظل موضعَ دراسةِ وعنايةِ الباحثين لأنه كان مادةً علميةً غنيةً لمناقبِ امةٍ حذقت الادارة والسياسة ، في حكمِ الشعوبِ .

وليس ادل على ذلك من كتاب الحميري « الروض المعطار في خبر الأقطار » ، والذي هو ببليوغرافية جغرافية متخصصة عني بتحقيقها الدكتور احسان عباس ونشرتها في بيروت مكتبة لبنان، العام الف وتسعماية وخمسة وسبعون .

اوائل الجغرافيين في الاندلس

مع قيام الخلافة الاموية في الاندلس ، وفي عهد عبد الرحمن الناصر ، الذي جعل للاندلس العربي رسالة في الحضارة ، ومنهجاً في البناء ، وقاعدة للحكم والسياسة في الدولة، اخذ علماء الاندلس يهتمون بالابحاث الجغرافية، وبمصبورات الأرض وتحديد الاماكن ، وقياس المسافات ودراسة التربة ، ويضعون في ذلك الكتب والبحوث في ضوء اختباراتهم وحاجة بلادهم .

ان حب الرحلة ، والبحث ، والكشف عن واقع الطبيعة كان متأصلاً في نفوس الاندلسيين ، تدعوهم إلى ذلك الرغبة في رسم معالم الطريق ، وتحديد مسالكه بين بلادهم النائية المترامية في طرف العالم القديم ، وبين موطن الحضارة العربية في قلب العالم العربي ، كما تدعوهم الحاجة الملحة في كل عام الى مغادرة بلادهم والتوجه إلى الارض المقدسة لزيارة البيت الحرام يحدوهم الى ذلك الايمان والشوق والحنين .

من هذه الناحية بالذات ، من رغبتهم في الانطلاق الى مراكز الثقافة العربية والاسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد ومن حنينهم الى مكة وما حول البيت العتيق والى تأدية فريضة الحج نشأ ادب الرحلة . وعلم الجغرافيا في الاندلس العربي الذي هيأ لسكان البلاد واقعاً مرسوماً محدداً لاسفارهم وتنقلاتهم لم يكن مأمون الجانب من قبل ، كما دفع بهم ان يولعوا من بعد بالتنقل والاسفار ولعاً شديداً وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ان ظهر من بينهم من

الف في وصف رحلة او حاول ان يقدم نتيجة لتلك الاسفار وصفاً لنواحي المعمور .

لقد كان شأن جغرافيي الاندلس في هذا العلم شأن علماء الاندلس في بقية مجالات المعرفة، فهم في بحوثهم ومصوراتهم ومنهج تآليفهم وفي رسم رحلاتهم وادب هذه الرحلات يتتبعون في ذلك اعلام الجغرافيين العرب في المشرق العربي .

ان النقاد والباحثين يقسمون الادوار التي مر بها علم الجغرافيا وادب الرحلة في تاريخ الفكر العربي الى مراحل ثلاث ، ويؤكدون ان الشرق العربي عرف طلائع هذه النخبة من الجغرافيين والرحالة منذ اواسط القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد ونراهم يعددون اسماء نخبة من هذه الطبقة كالخوارزمي محمد بن موسى ، احد علماء عصر المأمون الذي وضع كتاباً في اصول « العمل بالاسطرلاب » ونقلت بعض مؤلفاته الى اللاتينية ، واحمد اليعقوبي من علماء القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد الذي رحل الى بلاد الهند ومصر والمغرب ووضع كتاب « البلدان » . والتاريخ من عهد الأوائل الى عصره هو ، والذي كان يوافق الطبري في رواياته ، كما يذكرون المسعودي ابا الحسن الذي نشأ في بغداد ، وطاف في بلاد فارس ، والهند وسيلان ، والصين ومدغشكر واذربيجان وغيرها ووضع في ما رآه وسمعه عشرات المؤلفات ، واشهر ما بقي من كتبه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الى جانب محمد ابن ابي مسلم الجرمي ، والفقيه الهمذاني وابن رستة وهارون بن يحيى وابي الفروج قدامه والجيهاني والبلخي والمقدسي وغيرهم . بينما لا يذكرون في عداد هذه الطبقة الأولى من الجغرافيين العرب واحداً من رحالة الاندلس او المغرب الاقصى .

ليس من شك في ان هؤلاء النقاد الذين اعتمدوا هذا التقسيم لاعلام الرحالة العرب ، قد اسقطوا سهوا او جهلاً اسم الوراق محمد بن يوسف من رجالات القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد من بين رواد علم الجغرافية

والرحالة الأوائل ذلك لأن الوراق الاندلسي الذي يرجع بنسبه الى وادي الحجارة في اواسط اسبانيا ، والذي نشأ وتأدب في القيروان لانتقال آبائه الى قاعدة الحكم العربي في الشمال الافريقي ومن ثمة عاد الى قرطبة وقام فيها، كان طلعة من بين اوائل الذين جابوا افريقيا وترك في ذلك ديواناً ضخماً سماه « مسالك افريقيا وممالكها » كما الف في اخبارها واخبار ملوكها وحروبهم كتباً جمة كانت عوناً لكثير من الجغرافيين الذين جاؤوا من بعده .

قلت ليس من شك في ان النقاد قد اسقطوا اسم الوراق من بين رواد علم الجغرافية الأوائل ، وان لم يتجاهلوا اسماء النخبة من جغرافيي الاندلس خلال الدور الثاني في مطلع القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد كالبكري ، ابي عبيد عبد الله بن عبد العزيز من رجالات القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد الذي يعتبر بحق اول جغرافي اندلسي جليل الشأن .

هذا ويذهب دوزي المستشرق الهولندي الى القول ان البكري هو اكبر جغرافي انجبه الاندلس، والبكري الذي ولد في قرطبة ولم يكتب له ان يبرح شبه الجزيرة قد اعتمد في مؤلفاته على الجمع والتصنيف ، كما اظهر قدرة فائقة على الترتيب والتنظيم ، وموهبة عالية في وضع كتابه المسمى « بالمسالك والممالك » والذي لم يبق منه إلا جزء في صفة المغرب الاقصى ، والبكري في كتابه هذا يذكر الطرق التي تؤدي من ناحية الى اخرى ، ويصف المدائن والقرى التي تربطها ويضمن كلامه اخباراً غريبة فيها كثير من الفوائد العلمية والأدبية .

لقد قدر للمستشرق كاتومير بترجمة الجزء الخاص بالمغرب ، كما قدر للبارون دي سلان نشر الاصل العربي في سنة الف وتسعمائة واحدى عشرة ، والترجمة الفرنسية في سنة الف وتسعمائة وثلاث عشرة، الا انه من المؤسف حقاً ان يفقد الجزء الخاص بالاندلس .

أما الكتاب الثاني الذي خلفه البكري ، وحظي بعناية النقاد والمستشرقين فهو « معجم ما استعجم » الذي يقول فيه دوزي : اننا بينما نجد

غيره من الجغرافيين يقعون في خطأ بعد خطأ ، ويناقضون انفسهم بين موضع وموضع ، اذ بنا نجد معلومات البكري واضحة ناصعة ، وكتاباته توصف بعبارة واحدة : « انها صادقة » .

الى جانب محمد بن يوسف البكري ، يأتي بين جغرافيي الانـدلس : الادريسي ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي وهو من رجالات القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر للميلاد . نشأ الادريسي في الاندلس ودرس في قرطبة ثم زار كثيراً من نواحي شبه الجزيرة والمغرب ومصر ، وآسيا الصغرى ، ثم زار صقلية حيث اعجب به ملكها رجار الثاني النرماني ، وكان من هـواة علم الفلك فوجد في الادريسي خير معين له على اشباع رغبته من ذلك العلم ، ولما كان ملك صقلية يرغب في ان يكون له كتاب في صفة الارض ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة غير مستخرج من الكتب ، فقد تصدى الادريسي لوضع هذا الكتاب وانتخب نفراً من اذكياء الرجال وبعثهم في شتى النواحي يصاحبهم الرسامون وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولاً فأولاً .

لقد فرغ الادريسي من اعداد كتابه سنة خمسمائة وثمان واربعين للهجرة ، الف ومائة واربع وخمسين للميلاد وسماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كما يعرف بالكتاب الرجاري « نسبة الى ملك صقلية صاحب الفكرة الأولى » .

لقد حظي كتاب الادريسي بعناية كبار العلماء والنقاد وذلك عن طريق موجز له طبع في روما سنة الف وخمسمائة واثنتين وتسعين ، كما قام عالمان مارونيان هما سيونيتا وهزرونيتا بترجمة هذا المختصر الى اللاتينية ونشره في باريس سنة الف وستمائة وتسع عشرة باسم « جغرافية النوبة » هذا وقام المستشرق دوزي ، ودي خويه بنشر الجزء الخاص بافريقيا والاندلس من نزهة المشتاق معتمدين على مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس وارفقا النص بترجمة فرنسية لها نشرت في ليدن سنة الف وثمانمائة وست وستين كما نشره مصححاً ومعدلاً في مدريد سنة الف وثمانمائة واحدى وثمانين المستشرق سافدرا .

الى جانب هذه العناية التي لقيهـا الكتاب من المستشـرقين لقي عنايـة فائقة من العـالم المصري يـوسف كمال اذ اخرج الكتاب اخـراجاً علمياً مع التصاوير والرسوم التي خلفها الادريسي . هذه الـرسوم والخـرائط التي تشير الى ان الادريسي لـم يكن بعـد قد تـوصل الى تحـديد ثـابت في وضـع تلك المصورات فهو في ما ترك لنا من خرط وصور يعتبر الشمـال جنوبـاً ، والشرق غرباً وفي ذلك ما فيه من الخطل بالنسبة الى حقيقة علم الجغرافية اليوم ، الا ان الـذي يحمد في هـذه الخرط والمصـورات ان الادريسي كاد يعـطي واقع الكرة الارضية الرسم القريب من واقعها اليوم ، وفي ذلـك ما فيـه من الفضل والعلم والدقة على قلة الوسائل في ذلك العصر .

ليس من شك في ان الادريسي ابا عبد الله محمد بن محمد يعتبر اكبر جغرافي اطلعته العصور الوسـطى ، ونحن وان كنا نجـد في كتابـه اخطاء في حساب المسافات والابعاد والاوصاف ، ولكن لا ينبغي ان يغيب عن بالنـا ان الادريسي وضع كتابه في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميـلاد، ولان موت ملك صقلية وما اعقبه من الاحداث والفوضى في دولـة النورمـان حالت بينه وبين ان يدخل على كتابه التعديلات الاخيرة الواجبة ، وكتاب الادريسي وان كان يضم بعض الخرافات المنتشرة في عصره على نطاق واسـع ، فلقد كـان وافر المادة عن البلاد الاوروبية دقيق الملاحظة .

في ضـوء هذه الحقائق العلمية اسهم الاندلس العربي في تـطوير علم الجغرافية ، واقام الدليل على جدارته في ان يتبوأ مركزاً مرموقاً في تاريخ الفكر الانساني .

□□□

التاريخ العربي في الأندلس

كان فتحُ العربِ للأندلس حدثاً تاريخياً بالنسبة لتلك البقعةِ الساحرةِ الضاحِكَةِ من الجنوبي الغربي لأوروبا ، المطوقةِ بالبحر والغارقةِ فيه لولا تلك الجبالُ التي تشدُها من الشمال الى الأرض .

قلت كان هذا الفتحُ حدثاً تاريخياً تلاقى فيه الشرقُ والغربُ على عتبة الأرض الخضراء عند اقدامِ جبل طارق . كما قُدِّرَ لحضارةِ العالم القديم ان تجدَ من بعدُ في هذا الفتحِ سبيلاً الى قلب اوروبا ، وان تتفاعَلَ وتقيمَ علاقات ثقافية واجتماعيةً وسياسية ، وتعملَ على بناءِ حضارة ذاتِ مفاهيمَ إنسانيةٍ يعملُ الفكرُ الحديثُ على ابرازِ حقيقتِهَا ودراسةِ اهميتِهَا ، وتحديدِ خصائصها ، ودوافعِ استمرارها .

هذا ، وبالرغم من النتائجِ الخطيرة التي كانت لهذا الفتحِ العربي بالنسبة للعالم لم يحفِلِ الأندلسُ العربي بتأريخِ هذه الظاهرةِ السياسيةِ إلا في عهدِ الخلافةِ الأمويةِ بالأندلس وبعد حِقبةٍ من الاستقرار والأمن والهدوء . لقد كان شأنُ الاندلسُ في ذلك شأنِ المشرقِ العربي الذي لم يفرغْ لتأريخ الحياةِ العربيةِ وظواهرها الاجتماعيةِ والسياسيةِ بعد الدعوة الا في العهدِ العباسي الذي قدِّر فيه للدولة ان تكف عن الفتحِ ، وتعملَ على تثبيتِ قدمِها في حقولِ العلم والأدبِ والفنِ جميعاً . وكان من ذلك ثورة عنيفةٍ على الأدب العربي القديم وحقيقتِهِ أثارها ابنُ سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء ، ثم

حملها ادباء ومستشرقون معاصرون ، كما كانت ثورة عنيفة في تحديد شروط الاسناد وواقعه ، ومن ذلك نتجت انواعٌ ثلاثةٌ للحديث .

وإذا كان الحديثُ وقد جُمع بعد قرنٍ واحد من بدء الهجرة قد قُسم في نظرِ الفقهاءِ إلى انواعٍ ثلاثة : الصحيحِ ، والضعيفِ ، والموتور فما هو واقعُ كتبِ التأريخ العربي في الأندلس للفتح ، وبالنسبة لتلك الظاهرة التاريخية والسياسية .

ان باكورة هذه الكتب المحفوظة كتابُ (اخبار مجموعة) لم تعرف الا بعدَ قرنين من الفتح ، ومما لا شَكَّ فيه ان ذلك مما دفع المستشرقُ الاسباني خوليان ربيرا الى تقسيمِ كتبِ التاريخ العربي في الأندلس الى اقسام اربعة :

كتب متأثرةٍ بعناصِرَ مشرقية تفيضُ بأساطيرَ تدورُ حول الفتحِ ، كمؤلفات ابن حبيب والرازي .

كتبٍ تنقلُ الرواياتِ الأندلسية المحلية على صورةٍ ادقَ واحكمَ بعضها يأخُذُ جانبَ بني أمية ، ويمثله كتابُ (اخبار مجموعة) وبعضُها نلمحُ فيه الميلَ الى اسرة غيطشة صاحبِ البلاد قبيل الفتح ، وهو كتابُ تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي .

وكتبٍ اخذ بعضُها عن الطبري في مايتعلقُ بأخبارِ المشرقِ منذُ سنة مائتين وتسع وثمانين للهجرة ، تسعمائة واثنتين للميلاد ، حتى سنة ثلاثمائة وتسعَ عشرةَ للهجرة ، تسعمائة واثنتين وثلاثين للميلاد وأضاف اليها اخبارَ المغربِ والأندلسِ كما فعل عُريبُ بن سعيد من مؤلفي القرن الرابع الهجري ، العاشر للميلاد .

وكتبٍ بعضُها مبتكرٌ ككتاب ابي عامر بنِ شُهيد الذي يقعُ في مائة جزء والذي جعلَه على طريقةِ الحوليات ، وروى فيه الحوادثَ سنة فسنة منذ وفاة الإمامِ علي بن أبي طالب الى ايامه هو .

إلى جانبِ هذه الكتبِ يجب ان نؤكِدَ ان الأندلس عرفَ الشعرَ التعليمي

كوسيلةٍ لتأريخ اخبارِ واحداثِ الاندلسِ العسكريةِ والسياسيةِ وكان صاحبُ هذا النوعِ من التاريخ هو الشاعرُ الأديبُ الفقيهُ احمدُ بن عبد ربه صاحبُ كتابِ العقد الفريد. من رجالاتِ القرنِ الثالثِ للهجرة، التاسع للميلاد ، الذي خَصَّ كتابَ العسجدَةِ الثانيةِ بالخلفاءِ واخبارِهم اذ اوجز اخبارَ الخلفاءِ الراشدين والأمويين في الشرق والأندلس الى ايام عبد الرحمن الناصر والذي تحدث في هذا الكتابِ وبقصائدَ طوالٍ عن الحملات السنوية التي قام بها الناصرُ عبدُ الرحمن .

هذا ومهما يكن من امرِ هذه الكتب وانواعِهَا فهي لم تعرف منهجاً علمياً مرتبطاً بأصول علمِ التأريخِ الذي هو في، نظر ابن خلدون « مظهرٌ لا يزيد عن اخبارِ الأيامِ والدول ، غير ان في باطنه نظراً وتحقيقاً ،وتعليلاً للكائنات ، وعلماً بكيفيات الوقائع واسبابها » .

في ضوءِ اتجاهات طلائعِ هذه الكتب التاريخية في الأندلس ، والتي ما زالت محفوظةً ومتداولةً نستطيعُ ان نؤكدَ ان كتابيّ ، اخبار مجموعة الذي لَمْ يُعْرف مؤلفُهُ ، وتاريخُ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي هما اهم ما بقي لنا من هذه الكتب التاريخية التي تصورُ وتعرضُ رواياتٍ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية العلميةِ والتاريخية التي اعتمدها المؤرخون العربُ والاسبانُ على حد سواء ، كما اعتمدها كبارُ المسْتَشْرقينَ في دراسة تلك الحِقبة الغامضة من تاريخِ الاندلس . فكتابُ (اخبارِ مجموعة) هو بنظرِ المستشرق ريبيرا « مجموعةُ مذكراتٍ » وفقراتٍ تاريخية سجلها صاحبُها شيئاً فشيئاً ، دون ان يقصدَ الى رَبْطِ الحوادث ربطاً منهجياً او يرتبُها وفقاً للسنين .

« ان هذه المذكرات التي يتألفُ منها الكتابُ تعرض بإسهاب الفتحَ العربي وما رافقه ، كما تعرضُ كثيراً من الأحداثِ السياسيّةِ من بدءِ الفتح حتى خلافةِ عبدِ الرحمن الناصر ، والكتابُ ابعدُ ما يكونُ عن الأساطير الخيالية التي تصور بعضَ الخوارق التي يعتبرها بعضُ المؤرخين عوناً سماوياً وحدثاً دينياً في تاريخ الدعوة والفتح الاندلسي » .

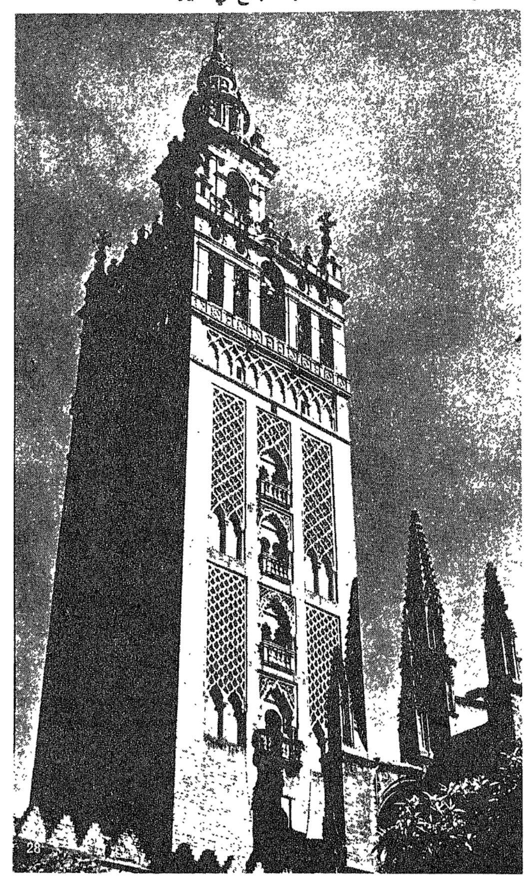
اما كتابُ تاريخ افتتاح الاندلس لأبي بكر محمدٍ بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية من رجالاتِ القرن الرابع الهجري ، العاشِرِ للميلاد ، العالِمِ بالنحو ، الحافظ للغة المتقدم على اهل عصره ، الـذي لا يشق غباره ولا يلحق شأوه كما يقول ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الأندلس) .

اما ذلك الكتابُ فهو صورةٌ لواقـع البلادِ من الفتـح العربي حتى نهـايةِ امارةِ عبد الله بن محمد سنة مائتين وتسع وتسعين للهجرة ، تسعمائـة واثنتي عشرة للميلاد . والكتاب على ما يرى خوليان ريبيرا الذي ترجمه الى الاسبانية بعد ان نشره المستشرق جيانجوس ليس من انشاءِ ابن القوطية نفسه ، انما هو اقربُ لأن يكونَ سماعاً دوّنه عنه بعض من حضر مجلسَه من تـلاميذه ، وهـو اخبارٌ متفـرقـةٌ قد يعـارضُ بعضُها بعضـاً ، وتُظْهِـرُ ميلَ صـاحِبِها وهـواه كما تتخللُها الرواياتُ والأساطيرُ الشعبيةُ ذاتُ الروحِ الشاعرية تقوم على اساس من التاريخ لا يؤلفُ بينهما رابطٌ او يجمعهما تناسق .

إن لكتابِ تاريخ افتتاح الاندلس قيمةً علميةً كبيرةً إذ يحملُ طابعاً قومياً اندلسياً ، وهي ظاهرةٌ على جانبٍ عظيم من الأهميةِ اذ تصورُ طرفاً من حياةِ بلدٍ كانت تعيشُ فيه اجناسٌ مختلفةٌ ذاتُ اديانٍ متباينة ، وقد اغْفَلَ هذا الجانبَ غيرُ ابن القوطية من المؤرخين فضلاً عن انه يعرض اخباراً تُظْهِرُ العـربَ الفاتحين بصورةٍ ادنى من اهلِ البلادِ اصحابِ المواهِبِ العظيمَةِ والخُلُقِ اللطيف .

هذه الألوانُ من الكتبِ التاريخية هي الركيزةُ العلميـةُ لدراسـةِ الظواهـرِ السياسيةِ والاجتماعيةِ للفتح العربي ومـا رافقه من تـطورٍ في مُخْتَلَفِ مجالاتِ الحياةِ العامة ، إذ تصورُ لنا الاندلسَ الجميلَ القشيب، الذي أعْجِبَ الشعراءُ بـأرضه وسمـائهِ ، طيـرِهِ ونباتِـهِ ، وتاه فيـه الادباءُ وحـارَ في دراستـه العلمـاءُ والمؤرخـون ، عاريـاً من تلكَ الالوانِ الحضـاريةِ ، وذاك الـزُخْـرفِ والـطلاء العجيبين اللذين اضافهما العربُ الى واقعِ البـلاد ، واقعِ ايبيـريا ، انـدلسِ العرب فيما بعد .

«لا خيرَلدا» La Giralada مئذنة المسجد الجامع في اشبيلية



معركة الزلّاقة

ان من أهم المعارك التي خاضها العرب على الأرض الأندلسية للحفاظ على الجنة التي آلت إليهم بحكم الفتح ، والإدارة ، والسياسة كانت معركة الزلّاقة نسبة الى بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس في غرب الاندلس العربي .

لقد تحولت الأرض هناك الجنة الوارفة المترامية على ابعاد شبه جزيرة ايبيريا ، وعلى اطراف الأنهار عند الوادي الكبير حيث تندفع المياه تشق الحقول الخضراء وتروي المرج ، او تبعث الحياة في الأرض التي استحالت الى حدائق غناء تطوق المدن العربية وتمدها بالثمار والعطايا .

قلت لقد تحولت الأرض الى معسكر عربي يغلي بالإيمان والثورة للدفاع عن الحضارة العربية ،وعن الدولة التي طوقت بقوات الدولة الاسبانية .

تؤكد كل المصادر العربية والاجنبية على حد سواء ان معركة الزلاقة التي خاضتها جيوش دولة بني عبّاد زعماء ملوك الطوائف في اشبيلية في الثاني عشر من شهر رجب سنة اربعمائة وتسع وسبعين للهجرة الف وست وثمانين للميلاد كانت اعظم معركة حربية تألبت فيها كل القوى ، وتطاحنت فيها كل امكانات الدولة العربية مدعمة بقوى المرابطين في المغرب العربي .

يرجع النقاد اسباب معركة الزلاقة التي خاضها المعتمد محمد بن عبّاد قبالة ادفونش بن فردينالد ملك قشتالة الى سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية في

دولة بني عبّاد ، وعجزها عن تأدية الضرائب للملك الاسباني الذي كان يهادن العرب ليوم فاصل في تاريخ الجزيرة .

ان تأخر المعتمد محمد بن عبّاد صاحب اعتماد الرميكية المرأة التي رآها على ضفاف شاطيء الفضة والتي اجازته على شطر بيت بعد ان عجز شاعره ابن عمار أن يجيزه عندما قال :

صنع الريح على الماء زرد

فأجازته بقولها :

ايُّ درع لقتال لو جمد

قلت ان تأخر المعتمد محمد بن عبّاد في دفع الاتاوة لملك قشتالة الذي كان يلاعب ملوك الطوائف على أرضه ليضرب بهم بعد ان تفرقت كلمتهم واصبحوا شيعاً وجد ان الفرصة سانحة ليشتط في طلب بعض الحصون العربية زيادة على الضريبة، وراح يمعن في التجني ، فقد طلب بواسطة رسوله الى الملك العربي ان يُسمح لملكة قشتالة ان تضع حملها في جامع قرطبة ، كما رغب ان تنزل زوجه الملكة في مدينة الزهراء لتختلف منها الى المسجد الجامع .

الحقيقة ان وزير الملك السفير لم يحسن التحدث بين يدي الأمير العربي ظناً منه ان وضع المعتمد اضحى تحت سيطرة مملكة قشتالة بينما كان المعتمد قد ايأسه في كل طلبات السفارة التي قَدَمَ لها . وعندما اغلظ السفير القول وشافه الملك العربي بما لم يحتمله « اخذ ابن عبّاد محبرة كانت بين يديه فضرب بها رأس السفير فقتله ، وامر بصلبه منكوساً بقرطبة » .

ضجت المدينة للحادث فاستفتى ابن عبّاد الفقهاء بعد ان سكت عنه الغضب فبادره الفقيه احمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة ، وقد بنى الفقيه فتواه « خوفاً ان يكسل الملك ابن عباد عمّا عزم عليه من منابذة العدو آملاً ان يجعل الله في عزيمته لعرب الجزيرة فرجاً ونصراً» .

بلغ الخبر اذفونش بن فرديناند فأقسم ليغزون ابن عبّاد في اشبيلية

ويحصره في قصره وجرد لهذه الغاية جيشين جعل احدهما يتجه نحو كورة باجة من غرب الأندلس ثم يمر على لبلة الى اشبيلية على ان يسير هو في جيش آخر يسلك به طريقاً غير طريق الجيش الأول على ان يجتمع الجيشان على النهر الأعظم قبالة قصر ابن عبّاد .

كان ابن عبّاد فيما يؤكد الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الاقطار قد ارسل وفداً الى يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين في مراكش يضم قاضي القضاة بقرطبة ابا بكر عبيد الله بن ادهم وكان اعقَلَ اهل زمانه ، وقاضيّ بطليوس وغرناطة ووزيره الشاعر ابا بكر بن زيدون .

هذا ويؤكد الرواة ان ابن تاشفين عندما انتهت رسل ابن عبّاد إليه اقبل عليهم ، واكرم مثواهم واستجاب لنداء الأندلسيين فعبر مع قواته المضيق حتى اتى الجزيرة الخضراء فخرج اليه اهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات .

لم يلبث يوسف بن تاشفين اياماً في الجزيرة حتى انتقل الى اشبيلية على احسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، واميراً اثر امير ، وقبيلاً تلو قبيل وبعث المعتمد ولده وولي عهده الى لقاء امير المرابطين يوسف بن تاشفين ، كما خرج المعتمد في اشبيلية في مائة فارس من وجوه اصحابه فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم، وركضوا نحوه فبرز اليهم يوسف وحده ، والتقيا منفردين فتصافحا وتعانقا .

لما تحقق ابن فرديناند من موقف المعتمد واصراره على مجابهته في قعر داره كتب له متودداً مؤكداً « انه يكفي يوسف بن تاشفين العناء في ما بقي وانه لا يكلفة تعباً غير ان الفرصة في ما يؤكد المؤرخون كانت قد ضاعت، واعلنت الحرب عندما لم يقبل ملك قشتالة بالشروط التي املاها امير المرابطين يوسف ابن تاشفين .

كان اول من وافى ابن عبّاد من قواد ابن تاشفين وقد وقعت الحرب بين الأندلسيين من جهة وجحافل القشتاليين من جهة اخرى داود بن عائشة وكان

بطلاً شهماً فنفّس بوصوله عن ابن عبّاد ، ثم اقبل يوسف بعد ذلك وطبوله تصدع الجو ، فلما ابصره ابن فرديناند قصده بمعظم جنوده فبادر اليه يوسف وصدمهم بجمعه فردهم الى مراكزهم وانتظم به شمل ابن عبّاد ووجد ريح الظفر ، ثم صدقوا جميعاً الحملة ، واظلم النهار يومئذ بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ثم تراجع ابن عبّاد الى يوسف وحمل معه حملة نزل معها النصر .

هذا ويؤكد الرواة ان ابن عبّاد أُثخن جراحاً في هذه المعركة وضرب على رأسه ضربة فلقت هامه وهو الملك الشاعر كما جرحت يمنى يديه ، وطعن في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس وهو يقاسي حياض الموت، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً تركه بأشبيلية عليلا اسمه العلاء وكنيته ابو هاشم فقال والمعركة في اشد اوارها وهو الأب الرحيم :

ابا هاشم هشمتني الشفار ولله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكرُهُ للفرار

ان معركة الزلاقة التي انتصر فيها العرب في رجب سنة اربعمائة وتسع وسبعين للهجرة ،الف وست وثمانين للميلاد اخرت سقوط دولة بني عبّاد خمس سنوات فقد اقدم يوسف بن تاشفين الذي ناصر المعتمد في معركة الزلاقة الى خلعه سنة اربعمائة واربع وثمانين للهجرة، الف واحدى وتسعين للميلاد بعد ان فشل الملك العربي في تنظيم مملكته واحتاج ثانية لمساعدة امير المرابطين ليصد بجيوشه قوات قشتالة التي اخذت تضايقه . كما اخرت سقوط الأندلس العربي في ايدي الاسبان نحواً من ثلاثة قرون .

الحقيقة ان معركة الزلاقة كانت اعظم معركة عربية خاضها العرب في الأندلس ألعربي نفسه حفاظاً على الدولة والمجد ، والتراث ، إلا انها لم تكن معركة المصير العربي في الأندلس الخالد ، لأنها لم تعبء القوى العربية لبناء الدولة ، إنما استعانت بقوى اسلامية لتؤخر المصيرَ المحتم .

ليس من شك في ان المعتمد الذي رغب في مساندة يوسف بن تاشفين كان يدرك مصير مملكته وقد نهاه اصدقاؤه من ملوك الطوائف عن استدعاء ابن تاشفين ونصحوه بالتفاهم مع ابن فرديناند، إلا انه كملك عربي كان يسعى لمرضاة الله احب ان يرعى جمال ابن تاشفين على ان يرعى خنازير ابن فرديناند.

بلى ان معركة الزلاقة كانت معركة عربية للحفاظ على المجد العربي في الحرب ، والحب ، والشعر في تاريخ اندلسيا العرب ، التي ضاعت وبكاها ابو البقاء الرندي ، كما بكاها كل العرب وكل المسلمين :

[دهى الجزيرةَ أمَرٌ لا عزاء له هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثَهْلان]
اصابها العَين في الاسلام فامتحنت حتى خلت منه اقطار وبلدان
فأسأل بلنسية: ما شأن مرسيةٍ وأين شاطبة ، أم أين جيّان ؟
وأين قرطبة ، دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأين حمص ، وما تحويه من نُزَه ونهرها العذب فياض وملآن ؟

□□□

سقوط غرناطة

في المدينة وجل ، وقد أُغلقتِ الأبوابِ ، والحرس الملكي يرابط على شرفات الأسوار، محملاً بالإيمان، مدججاً بالسلاح، والطبيعة من حوله حزينة باكية، والسماء مكفهرة واجمة، او كذلك ترى ، اما السهل المنبسطُ حولَ مدينة غرناطة فلقد بدى فاحماً اسود تحت طبقة كثيفة من الثلج ، لقد احرقه العدو وسوّده بالنار فأتى على كل شيء ، إلّا على بقايا حفر الخيل ، وآثار المشاة ، وبقايا معركة الأمس القريب التي دارت حول اسوار المدينة الشامخة .

ونودي بالجند ، فانفرج بابُ البيرة ، واطلت كوكبة من الفرسان وعلى رأسها أبو القاسم عبد الله حاكمِ غرناطة، واجتمع الناس ، وتعالت الأصواتُ ، واشرأبت الاعناق وكثر الهمس ، والحاكم مطرق في طريقه الى الحمراءِ ، القصرِ الرابض المطل من عليائه على نهر شنيل ، وجبل شلير وكأنه كان يتحدى كل شيء ، حتى الطبيعة والقدر .

ودخل ابو القاسم على ابي عبد الله محمد ملكِ غرناطة وهو في مجلس من كبار الضباط والفقهاء والاعيان ، وعرض عليه شروطَ التسليم التي توصل اليها مع فردينالد الخامس ملك قشتالة . « عندئذ لم يملك كثير نفسه من البكاء والعويل » وتعالت اصواتٌ تطالبُ بالدفاع والجهاد ، إلاّ انها كانت اصواتاً خافتةً نحيلة هدّها الحربُ والجوع والفاقة ، وبكى الملك وصاح « الله اكبر لا

اله الآ الله محمد رسولُ الله ، ولا مرد لقضائه ، تاالله لقد كتب عليّ ان اكون شقياً ، وأن يذهبَ الملك على يدي .

وتعالى من اعماق التاريخ صوت الشاعر :

لكل شيء اذا ما تمّ نقْصانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ ـ كما شاهدتها ـ دُوَلٌ من سَرَّه زمنٌ سَاءَته أَزْمَانُ
وهذه الدارُ لا تُبْقي على أحدٍ ولا يَدوُمُ على حالٍ لها شان
أين الملوكُ ذوو التِّيجانِ من يَمنٍ ؟ وأينَ منهم اكاليلٌ وتيجانُ
بالأمسِ كانوا ملوكاً في مَنَازِلِهم واليومَ في بلادِ الكُفْرِ عُبدان
[ولو رأيتَ بُكاهم عند بَيْعِهِم لَهَالَكَ الأمرُ واستهوَتْكَ أحزانُ]
يا رُبَّ أُمٍّ وطفلٍ حيل بينهما كما تفرّقَا أرواحٌ وأبدَانُ
وطفلةٍ مثلَ حُسْنِ الشمس إذ طَلَعَتْ كأنما هي ياقوتٌ ومرجان
يقودها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْران
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ ان كانَ في القلب اسلامٌ وايمانُ

وفي اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة ، الثاني من كانون الثاني سنة الف واربعمائة واثنتين وتسعين للميلاد، ومع الفجر غادر ابو عبد الله محمد قصرَ الحمراء ، موطنَ عزّه وخرج للقاء عدوّه الظافر في سرية من الفرسان ، فاستقبله فرديناند في محلته على ضفة شنيل ، وهَمَّ ابو عبد الله ان يترك جوادَه ليحيي الملك المنتصر ، ولكن فرديناند منعه ، وعانقه وكانت لحظة حاسمة سلّم خلالها الملك العربي مفاتيح الحمراء قائلاً : « إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخيرُ لدولة العربِ في بلادكم ، لقد اصبحت ايها الملك سيدَ تُراثنا ، هكذا قضى الله فكن في ظفرِكَ رحيماً عادلاً » . واتجه الملك مع فرديناند إلى حيث كانت زوجته الملكة ايزابيلا فقدم لها خضوعه ، ثم انحدر مع اسرته الى البشرات ليحكمها باسم ملكِ قشتالة وفي طاعته ، واتخذ قرية اندرش مركزاً لحكمه ، وانتشر في الناس النبأ ، فغضب الشعب وسخط على ابي عبد الله ، واعتبره مصدرَ الهزيمة وسبب النهاية .

ومع كل ذلك لم يقو الملك العربي ان يحكم تلك المقاطعة باسم ملك قشتالة ، فلقد أبت عليه مروءته ان يخضع للرجل الذي قاتله على ارضه ، فقرر ان يتجه نحو المغرب العربي .

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هما ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وَصْلُكَ إلّا حُلُماً ... في الكرى او خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

كوكبة من الفرسان تنحدر في وادي المرية متجهةً نحو البحر من باب المرسى ، وعلى الشاطىء عدة سفن كان فرديناند قد اعدها لأبي عبد الله محمد هبةً منه وعطاء ، وعندما وصلِ الملك ، وأخذت السفن تمخر عُباب الأزرق متجهة الى الملية وراحت ارضُ الأندلس تتصاغر ، وتتباعدُ عن عينيّ الملك ، راودته عبرة لم يقو على ردها فبكى وسمعته امه عائشة فقالت له : « أجل ابكِ بكاءَ النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال» .

والقيت حجب كثيفة على اعين الملك ، وعلى اعين الحاشية إلّا انها لم تقو هذه الحجب ان تسدل على التاريخ .

وانتهى المطاف بأبي عبد الله محمد الى مدينة فاس ، وتقدم الى ملكها الشيخ الوطاسي مستجيراً به ، مستظلاً بلوائه ، ويحدثنا المقّري في نفح الطيب فيقول بأن ابا عبد الله محمداً بسط دفاعه الى الشيخ الوطاسي بكتاب اسماه « بالروض العاطر الأنفاس في التوسل الى المولى الامام سلطانِ فاس » . وقد دبجه الكاتبُ ابو عبد الله محمد بنُ عبدِ الله العربي العقيلي ، ويبتديءُ الكتاب بقصيدة في الشكوى والاعتذار مطلعها :

مَولَى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ ... رَعْيـاً لِمَا مِثْلُهُ يُرعى من الذِمَمِ
حُكْمٌ من اللّهِ حَتْمٌ لَا مَرَدَّ لـه ... وهل مَردٌّ لحكمٍ منه مُنْحَتِمِ
كُنَّا مُلُوكاً لنا في أَرْضِنَا دُوَلٌ ... نِمْنا بها تحت أفنانٍ من النِّعمِ
فَلَا تنم تحت ظِلِّ المُلْكِ نَوْمَتَنَا ... وأيُّ مَلْكٍ بظلِ المُلكِ لم يَنَمِ

إلى أن يقول نثراً بعد المقدمةِ التقليدية .

« بيد أني اقولُ لكم ما اقولُه لربي ، واجترائي عليه اكثرُ ، واجترامي اليه اكبر اللهم لا بريءُ فاعتذر ، ولا قويٌ فانتصر ، لكنّي مُسْتَقِيلٌ مُسْتَعْتِب ، مُسْتَغْفِر ، وما أُبَرِّيءُ نفسي ان النفس لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ . هذا على طريق التنزّل والانصاف بما تقتضيه الحالُ ممن يتحيز الى حيِّز الانصاف ، وأمّا على جهة التحقيق ، فأقولُ ما قالته الأمُّ ابنةُ الصديق : « واللهِ إني لا اعلمُ أنّي إن أقْرَرتُ بما يقوله الناس ، واللهُ يعلم أنِّي منه بريئة لأقولنَّ ما لم يكن ، ولئن انكرتُ ما تقولون لا تصدقونني فأقول ما قالَه ابو يوسف : صَبْرٌ جميلٌ واللّهُ المستعانُ على ما تصفون » .

ويقول المقّري : « بعد ان انتهى المطافُ بالملك الى مدينة فاس ، وأقام فيها في ظل الشيخ الوطاسي بنى بعض القصورِ على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمه الله بمدينة فاس عام اربعين وتسعمائة هـ ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة ، وخلّف ولدين احدهما يوسف ، والآخر احمد ، وعقِبَ هذا السلطان بفاس الى الآن ، وعهدي بذريته الى سنة الف وسبع وثلاثين للهجرة يأخذون من اوقاف الفقراء والمساكين ويعتبرون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم .

أَدْرِكْ بخيلك ، خيلِ الله أندلسا ... إنّ السبيلَ الى منجاتِها دَرَسَا
وَهَبْ لها من عزيز النصر ما التمستْ ... فلم يزلْ منكَ عِزُّ النَّصرِ مُلْتَمَسَا
يا للجزيرة أضحى أهلُها جَزَراً ... للحادثاتِ وأَمسَىٰ جَدُّها تَعِسَا
وفي بلنسيَّة منها وقرطبةَ ... مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ او ما يَنْزِفُ النَّفَسَا
مَدَائنُ حلَّها الاشراكُ مُبْتَسِماً ... جَذْلانَ وارتحَلَ الايمانُ مُبْتَئِساً
يا للمساجِدِ عادت للعدى بِيَعاً ... وللنداءِ غدا أثناءَهَا جَرَسا

وهكذا طوى التاريخ امجادَنا وعجزنافي الاندلس ، ولم تجد كُلُّ المساعداتِ التي قدمها الحفصيون والمرابطون والموحدون ، فلقد اضاع البلاد ، استئثارُ ملك ، وانانيةُ حاكم ، وخداع امرأة ، وتعصبُ عالم .

□□□

كيف سقطت غرناطة
وهل كان سقوطها سبباً
في طي صفحة العرب في الاندلس
وهل من اثر لها على الأدب العربي

وجه الينا القسم العربي في اذاعة الـ B.B.C سؤالاً في برنامج « لكل سؤال جواب » حول سقوط غرناطة فأجبناه بما يأتي :

كان زواج فرديناند الخامس ملك ارغون بايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة سنة الف واربعمائة وتسع وستين للميلاد آخر سلسلة في توحيد قوى الاسبان تجاه السلطة الاسلامية الحاكمة في غرناطة .

ان الخلافات الداخلية بين سلطان غرناطة ابي الحسن علي بن الأحمر وبين اخيه ابي عبد الله الملقب بالزغل (الشجاع)، ومن ثمة بين السلطان نفسه وبين ولده محمد ابي عبد الله الذي خرج عليه سنة الف واربعمائة واثنتين وثمانين للميلاد بسبب ولاية العهد التي قدم لها السلطان احد ابنائه من زوجته الاسبانية الاصل عجلت بالقضاء على المعقل العربي الأخير في الأندلس .

لقد تمكن محمد ابو عبد الله من الاستيلاء على الحمراء بمؤازرة حامية غرناطة ولم يلبث ان اصبح سيد الدولة ، الا ان حكمه لم يدم طويلاً اذ وقع اسيراً في ايدي الاسبان حينما غزا بعض بلادهم ، فاجمع اهل غرناطة عندئذ على اعادة الوالد ملكاً عليهم وكان قد لجأ الى مالقة فأبى الملك وقدم اخاه ابا عبد الله المعروف بالزغل الذي كان يخاصمه على حكم البلاد .

في هذه الفترة بالذات استغل الاسبان اسيرهم محمد ابا عبد الله

واستعملوه اداة لنكبة مملكة غرناطة بعد ان زودوه بالمال والرجال ، فقدر له سنة الف واربعمائة وست وثمانين للميلاد ان يحتل جانباً من عاصمة محمد وان يدفع البلاد مرة اخرى الى حرب اهلية طاحنة .

لم يكد يطمئن محمد ابو عبد الله الى حكم غرناطة بعد ان خرج محمد الى بر العدوة وقصد تلمسان حتى اخذ الاسبان يتهددون صنيعتهم ويطلبون اليه تسليم البلاد .

في سنة الف واربعمائة واحدى وتسعين للميلاد حاصر فرديناند الخامس غرناطة وراح يطبق عليها ، واشتد الحصار ورغب العدو في تجويع المدينة وحمل اهلها على التسليم «الى ان حل فصل الشتاء، ونزل الثلج ، وتوقفت المرافق،وقلَّ الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء واستولى العدو على اكثر الاماكن الزراعية في فحص غرناطة فضاق الحال » وكان لا بد للحامية من التسليم في مدة شهرين ان لم يصلها العون ، ثم كانت النهاية المؤلمة .

في الثاني من كانون الثاني سنة الف واربعمائة واثنتين وتسعين للميلاد غادر ابو عبد الله محمد قصر الحمراء وخرج للقاء عدوه الظافر في سرية من الفرسان فاستقبله فرديناند وكانت اللحظة الحاسمة التي سلمه فيها مفاتيح الحمراء الأثر الاخير لدولة العرب في اسبانيا .

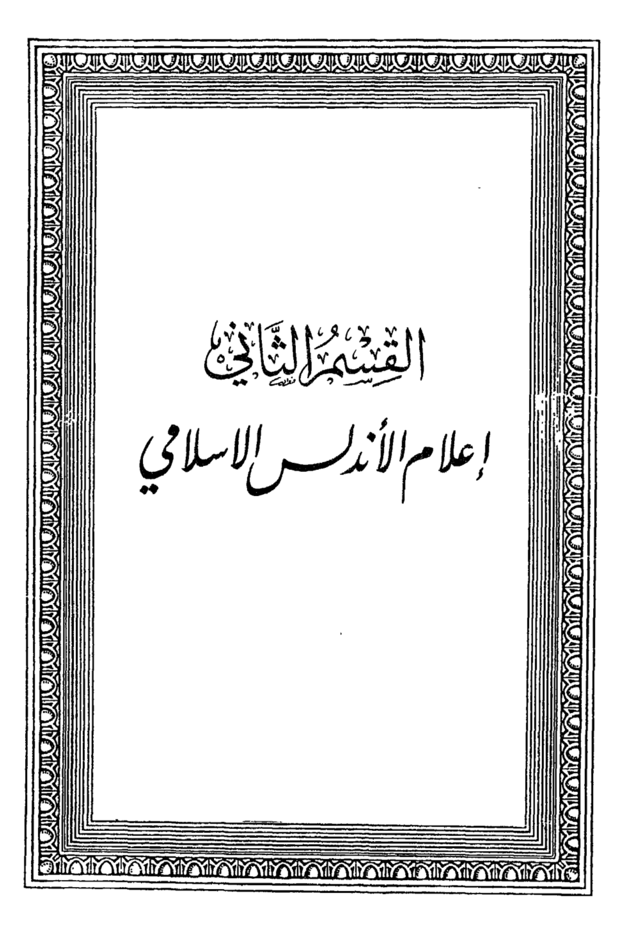
ان سقوط غرناطة كان ايذاناً بطي صفحة العرب هناك فالملك العربي لم يقو ان يعيش في « البشرات » تحت حكم الملك الاسباني فغادر البلاد الى المغرب واستقر في مدينة فاس كما ان الاسبان لم يحترموا نص المعاهدة فاخذوا العرب بضروب الشدة والقسوة حتى اجبروهم في النهاية على مغادرة الاندلس .

الواقع ان سقوط غرناطة بالذات لم يتميز في تاريخ الأدب الاندلسي ، الا ان مملكة غرناطة وان خضعت في اكثر ايامها لنفوذ البرابرة فقد حفلت بعدد غير قليل من الشعراء والكتاب في طليعتهم الرحالة ابو حامد الغرناطي والشاعر ابن زمرك ، والعالم والأديب الوزير لسان الدين محمد بن الخطيب .

ليس من شك في ان اوضاع مملكة غرناطة في عهدها الاخير الهبت نفوس كثير من شعرائها وفي مقدمتهم وزيرها ابن الخطيب .

هذا، اما بالنسبة الى الأدب العربي عامة، فان لم يتميز سقوط غرناطة بالذات بمؤلفات خاصة فيكفي مؤلف المقّري « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » الذي خص قسماً كبيراً منه بوزيرها العالم وسقوطها المريع . فضلاً عن الدراسات والبحوث المختلفة التي قام بها الباحثون والمستشرقون للكشف عن معالم الحضارة الزاهية التي اقامها المسلمون في الجنوب الغربي من اوروبا .

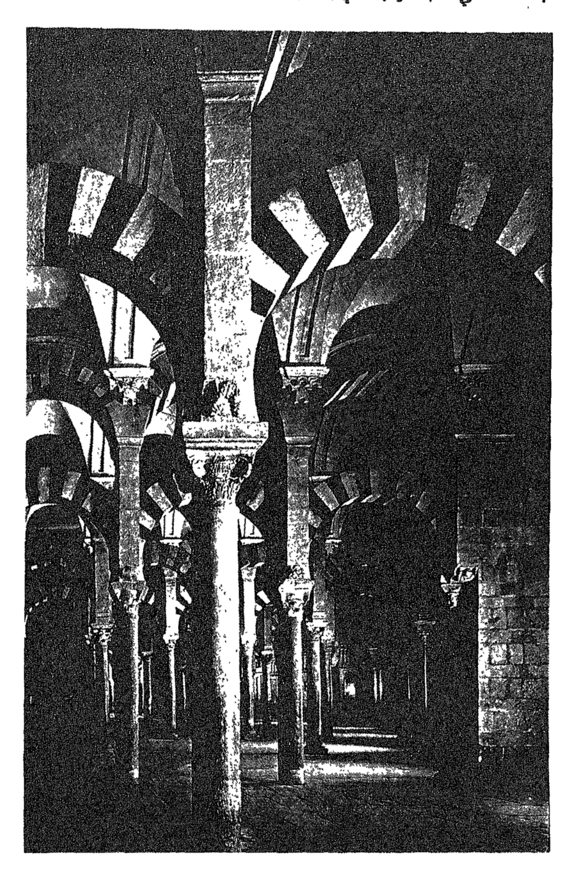
□□□



القسم الثاني

إعلام الأندلس الاسلامي

غابة الأعمدة في مسجد قرطبة الذي بناه عبد الرحمن الداخل



عبد الرحمن الداخل

مؤسس الامارة الأموية في الأندلس

فَرَّ من المشرق ١٣٣هـ/ ٧٥٠م اسس الامارة في قرطبة ١٣٩هـ /٧٥٦م

عرف النصفُ الأخيرُ من القرنِ الثاني للهجرة ، الثامنِ للميلادِ احداثاً جساماً بالنسبة للامبراطورية العربية ، فالشرقُ العربي شهدَ قيامَ الدولة العباسية على انقاضِ دولة بني امية ، بينما شاهد المغربُ العربي والأندلسُ خاصة قيامَ الدولةِ الاموية على انقاض حكم الولاة ، بعد فترة طويلة من الفوضى والظلم والاستبداد ، وفي هذه الفترة من تاريخ الدولتين ، العباسية في المشرق ، والأموية في المغرب عرف الحكمُ العربي في كلتا الدولتين نوعاً جديداً من الادارة والحنكة ، والتوجيه من أجل بناءِ افضل للدولة . ولعل الواقع الطبيعيّ للاحداثِ السياسية في الشرق العربي كان يحتم على رجال الدولة العباسية ان ينهجوا منهجاً جديداً في اقامة دولتهم الفتية بعد ان اغتصبوا الحكمَ بالقوة ودعموه بأفكارٍ سياسيةٍ وعقائِدَ دينية تناقض الى حد بعيد الأسس والمبادىءَ التي قامت عليها دولةُ بني امية في دمشق . ومن الطريف ان يسلك عبدُ الرحمن بن معاوية بعضَ السبلِ وعينَ الطرائق التي سلكها العباسيون ، في اقامةِ دولته في الأندلس ، وتشاء الظروفُ كما يؤكدُ ابن حيّان اكبرُ مؤرخي العرب الأندلسيين بأن كلا الحاكمين ، ابا جعفر المنصور في بغداد ، وعبدَ الرحمن الداخل في قُرطبة يتشابهان من حيثُ قوةِ الشخصية ، واساليب الحكم ، والمرونة الادارية ، ويرى ان مردَّ ذلك قد يكونُ على اغلب الظن الى ان وَالدةَ كُلٍّ من الرجلين كانت سبيةً من قبائل البربر ، فوالدةُ ابي جعفر المنصور بربرية من الشمال الافريقي ، و« راح » والدة عبدِ الرحمن

بربرية من قبيلة نفرة ، وهذا ما اضفى على الرجلين نوعاً من الهيبة ، وقوةِ الشكيمة ، وقد يكون للاحداثِ السياسية في الشرق العربي والمغربِ يدُ في خلق تشابهٍ في صفات الحاكمين .

وليس من شك في ان الصفات التي امتاز بها صقرُ قريش مكنته من ان يتغلب على كلِّ الصعوبات التي اعترضت سبيلَه لبناءِ دولةٍ في الأندلس ، فقدر له ان يمهد بقوة شخصيته ، ونفاذِ عزيمتِهِ الطريقَ الى قُرطبة ، وان يهدم كلَّ الأسوارِ الماديةِ والمعنويةِ التي ضُربت حوله ، واقيمت في طريق زحفه السريع الصاعقِ على البلاد وهو الأميرُ الذي لا يملك قوةً ولا سلاحاً . وبينما كان اهل الجزيرة الخضراء واقليمي شذونة وطرش وغيرهما يبايعونه سيداً من سادات البيت الأموي ، الحكم والامارة والطاعة ، تـرامى النبأ الى يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفهري ، آخرِ والٍ اموي في البلاد ، وكان قد نهضَ لملاقاةِ بعضِ الخارجين عليه بقيادة القُرشيّ العامري ، فارتد يريد اشبيليا ونزل حصنَ نَيْبة ، واحتاط القائدُ البطلُ لتنقلات خصمه فعدّل عندئذ من خُططه ورغب في احتلال عاجلٍ صاعقٍ لمدينة قُرطبة مما اجبر يوسفُ الفهري ان يُسْرع لملاقاته دون ان يكونَ قد وحد صفّه ، وجمع شمله .

هذا وتشاء الظروفُ في هذه المعركة الفاصلة ان تقيم التشابه والصلاتِ التاريخية وتعيدَ الذكريات القديمة بين المشرق والمغرب ، بين القائد الداخلِ حفيدِ مروانَ بنِ الحكم ، وبين الوالي الاندلسي المدافعِ عن البلاد حفيدِ الضّحاك بنِ قيس الفهري قائدِ عبد الله بن الزبير ، كما اقامت تشابهاً بين ابي جعفرِ المنصور وعبدِ الرحمن الداخل ، ويحدثنا ابنُ القوطية القرطبي فيقول : (بأنَ عبدَ الرحمن سأل خاصتَه قبيلَ يومِ المعركةِ في اي يوم نحنُ ؟ فقيل له في الخميس ، وهو يومُ عرفة ، فقال :اليومَ عرفة وغداً الأضحى والجمعة ، وأمري مع الفهري ارجو ان يكون كيوم مرجِ راهط) . ومعركة مرجِ راهط كما هو مؤكد كانت في يوم جُمعة ويومِ اضحى ، وكان النصرُ فيها لمروانَ بنِ الحكم على عبدِ الله بن الزبير .

ان الرواية العربية تثبت في كثير من تفصيل وقـائعَ المعـركة التي دارت رحاها بين الرجلين قبالة قُرطبـة في موقعـة المَصَارَة ، والتي كـان النصرُ فيهـا للداخل صقرِ قريش ، تلك المعركة التي غيرت من مجرى التاريـخ الأندلسي وارست المدماك الأول في بناءِ الدولـة الأمويـة في الأندلس سنـة مائـة وثمانٍ وثلاثين للهجرة ، سبعمائة وخمسٍ وخمسين للميلاد .

لقـد كـانت حيـاةُ مؤسسِ الـدولـةِ الأمـويـةِ في الأنـدلس سلسلةً من المؤامـراتِ والمعارك ، والاحقـاد ، والدسـائس ، والمناورات السيـاسيـةِ ، والخلافات القبلية ، والشعوبية ، وإذا كان الخلافُ القبليُّ المنتشر في طـولِ البلادِ وعرضِها ، والمستَحكِم بين القيسية واليمنية من جهةٍ وبين العرب والبربر من جهة اخرى ، وبين الشاميين والبلديين هو الذي مكّن عبدُ الرحمن الداخل من احتلال الاندلس ، فإن هذا الخلاف عينَه هو الذي نغّص عليه ايام حكمه الى جانب ما كانت تعده الدولةُ العباسيةُ من مؤامـرات للنيل من حكم الأميـر الفتي ، وما الجيشُ الذي بعث بـه ابو جعفـرٍ المنصور بقيـادة العُلا بنِ مغيث الجُذامي ، والذي انهزم على ارض الاندلس ، او تلك المحالفاتُ والسفاراتُ التي قامت في ما بعد بين هارون الرشيد في العراق وشارلمان حفيدِ شارل مارتل الـذي هزمت قـواتُهُ جيشَ عبـدِ الرحمن الغـافقي في فرنسـا ، ما هـذه كلّهـا إلا مكائد مرسومة اعدتها الدولة العباسية للاطاحةِ بـالدولـة الأمويـةِ الفتية في المغرب .

والحقيقـة ان شخصيةِ عبـدِ الرحمن الـداخل الفـذة اغرت كبـارَ النقّادِ والمهتمينَ بالأبحاث الأندلسية ان ينصرفوا الى دراسةِ العوامِلِ والظروفِ التي احاطت بالأمير الأموي ، وان يتصلوا بعصره ويقرروا النتائج التي تكشفُ عن جانبٍ كبير من القيمة العلمية ، فالمستشرق الهولندي دوزي الذي سمي عبدَ الرحمن بالطاغيةِ ، والغادر يقول : (إن الرجل قد دفع ثمن ظفرهِ غالياً ، وان قلبَه لم يعرف الرأفَةَ نحو خصومهِ السياسيين ، وأنّه لم يبق زعيمٌ عربي او بربري يرغبُ في خدمته ، ولكن من العدل ان نصرح بأن مَلكاً لا يستطيعُ ان يحكمَ العَرَبَ والبربَرَ بغير هذه الوسيلة ، واذا كان العنفُ والطغيانُ في ناحية ،

ففي الناحيةِ الأخرى يوجدُ الاضطرابُ والفوضى) .

امام هذه الحقائقِ العلميةِ والتاريخيةِ التي يثبتُها ويؤكدُهَا المؤرخون لا بد من اثبات حقيقة اخرى ، وهي ان الأمير الأموي كان من ذوي القلوبِ الكبيرةِ الرحيمةِ، ومن ذوي النفوسِ الطيبة النبيلةِ ، وان كان واقعُ الحكمِ قد فرضَ عليه ان يكونَ مستبداً للحفاظ على رأسه ومُلْكِهِ ، فالرجلُ كثيراً ما كان يسوءه الوضعُ القائم ، فيحنُ الى ملاعبِ شبابه في دمشقَ ، وفي جنباتِ أرضِهَا فَيَطُلُّ من اندلسِهِ الصاخِبِ على حقيقةِ ذاتِهِ ويتغنى بهاتيك الأرضِ من وراءِ وفودِ قومِهِ النازحين الى ملكِهِم الجديد .

أيهـا الـراكبُ الميمُ ارضي ... إقْرَ من بعضيَ السلامَ لبعْضِي
ان جسمي كما عَلِمْتَ بأرضٍ ... وفـؤادي ومـالِكَـهُ بـأرضٍ
قـدّر البينُ والنـوى فـافتـرقنـا ... وطوى البينُ عن جفوني غَمْضي
قـد قضى اللهُ بالفِـراقِ علينـا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

لقد كان عبدُ الرحمن في نظر نفسه بعيـداً بقلبه عن الأنـدلس الشامـخ الذي اقامه عزيزَ الجانب على ركائزَ من القوةِ والعلمِ ، والعُمْرانِ مع انه كان يبني امجاداً حقيقية كانتِ الواقعُ الطبيعي لامتداد الدولة الأموية .

ومهما يكن من امر فالدولة التي اسسها صقرَ قريش في قـرطبة وضعت اتجاهاتٍ جديدة في الحضارةِ الانسانيةِ ومفهومِها ، وكانت مع كل ما وجّه اليها من نقد، البابُ الكبير الذي عبرت منه حضاراتُ العالم القديم الى اوروبا قلبِ المدنية الحديثة .

إن البحثَ العلمي عندما يأخذُ بدراسة التطورات التي طرأت على اوروبا منذُ القرنِ الخامسِ عشر يذكر ابداً قُرْطبة ، ويذكـر عبدَ الـرحمن الداخـل ، مؤسسَ الدولةِ الأموية وخلفاءَه الأعلام من بعده .

□□□

عبد الرحمن الداخل

في عرض البحر ، وعلى الأفق البعيد ، سفينة تقترب من الشاطىء، دون ان تحس حركةً قويةً تدفعُها اليه ، وقد لاح عن بعد كخيط ابيضَ على طرف السماء الدّاكنة ، وكان الموجُ هادئاً ساكناً ترتعش صفحتُهُ لتلك النسماتِ البليلةِ التي تداعبُهُ فتبعث فيه طرفاً من حياة فينفرجُ في رفقٍ كلما شق حيزومُ السفينةِ عبابَ اليم الرّاكِدِ الذي تضارَبَ لونُهُ بين الزرقةِ القاتِمَـةِ بعضَ الشيء ، وبين الخضرةِ الباسمةِ ابّانَ تفتحِ الربيعِ ، وعلى الشاطىء نفرٌ من الرجال كأن هناك موعداً بينهم وبين القدر فهم يمدون النظرَ في الأفق كأنهم كـانوا يبحثـون عن شيءٍ في عُرض اليم ، وتقترب السفينةُ مع الفجر وتظهرُ على اطرافِ السمـاء اضواءٌ باهتةٌ لا تلبثُ ان تقوى كأن يداً خفـيّة اخذت تلعبُ في ذبالِ المصباحِ فتوقدُهُ ، فينتشرُ الضوءُ قوياً على جوانب السماءِ حتى يأخذَ طريقَه الى الأرضِ فيبدو الساحلُ جلياً امامَ ذلك الفتى القوي الذي هُيء لتلك الجـزيرةِ الملقـاةِ الى شاطىء بحر الظلماتِ غرباً ، والأبيضِ المتوسطِ جَنُوبـاً ، فينهضُ ، او كان المجدَ الذي كان ينتظره اهاب بـه ان يتطلع الى البلدِ الـذي اعد ليكـون امتداداً لحكم ذويه في المشرق فإذا هو مع صغر سنه وكمال رجولته يتهيبُ لهذا الواقِعِ الجديدِ فيقطبُ الجبينَ الا ان ابتسامةً ظاهرةً تطفو على ثغرهِ فيبتسمُ ، ويبتسمُ له من في السفينةِ من حرس ، كما يبتسمُ له مولاه بدر وابو فريعة وتمام ابنُ علقمة من سادات الشاميين في الأندلس ، اللذين هبطا الشّمال الافـريقي ليكونا ممثلين عن اهلها الذينَ بايعوه اميراً على أيبريا أندلسِ العربِ .

وتـلامس السفينةُ رمـالَ المنكّب المـرفـأ الصيفي البـاسِم الملقى على الحصى بين البيرة والملية من اقليم مُرسية ، ويتلقاه وفدٌ من البـرجالات وعلى رأسهم ابو عثمان ، وعبد الله بنُ خالد فيرحبون به ثم يتـوجهون بـرفقته الى طرش حيثُ ينزلون في ضيافة عبدِ الله على الرحب والسعة .

وما يلبث الفتى عبدُ الرحمن بنُ هشام بنُ عبد الملك بن مروان في هذا البيت رَدَحَاً من الزمن حتى يرتفعَ عن عينيه ستارٌ كثيفٌ وتتراءى له من هناك من آخـر الأرض دمشقُ الفيحاء ، ابتسـامةُ الأرض الخضـراء على اقدام قـاسيونَ الجبلِ الحارِسِ ، ويتراءى له بـردى نهرُهـا الخالـد الذي يتفجـرُ من اعماق السهل الفسيح بين القـرى المنتشرة عنـد سلسلة جبال لبنـان الشرقيـة، فيهزه شعورٌ عميقٌ ، وتبدو لناظريه بقايا المعركة عندمـا تألب العبـاسيون بجيـوشهم على ملك بني امية في دمشق ، في احيائهـا الضيقة الملتـوية حـول المسجدِ الأموي الكبير وعند بابِ البريد ، وفي السوق المنحدرة الى ساحة النوفرة الى الغربِ من قصر معاوية بنِ ابي سفيان مؤسس الدولة الأموية ، وانه ليذكرَ بعدَ ذلك كيف التجأ مع أخيه الصغير الى شمال سُوريا متربصاً خائفاً حتى داهمته الراياتُ السود ذاتَ يوم ، والشمسُ تلملم عن الأفق بقايا اضـوائِها المبعثـرة، فلم ير بداً من ان يلقي بنفسه في اعماق الفرات ليعبرَه الى الضفة الأخرى بعد ان خدع الجندُ اخاه الاصغر فارجعوه إلى الشاطىء وقتلوه دونما رحمة، وكيف انه قضى اياماً طوالاً مختبئاً بين الغابات متوارياً عن الأنظار ، مدبراً امـر فراره الى المغرب وكان هو الفتى ما زال يذكُرُ نبوءةَ مُسلمة بنِ عبد الملك الذي توقّع له ملكاً في الأندلس ، فيجد في ذلك دافعاً واملاً ليقطعَ هاتيك الفيافي الممتدة بين سوريا ومصر ، ويجتازَ الصحاري حتى يصلَ إلى طـرابلس ، فينزلَ عنـد اخواله من بني نفرة ويكونَ موضعَ ملاحقةِ اميرِ البلد عبدَ الرحمن بنِ حبيب، الذي كلّف كعاملٍ للمنصور ان يقتل الأمويين وانصارَهم جميعاً ، وكـان عبدُ الرحمن قد بلغه مقتلَ ابنيّ الوليد بنِ يزيد بن عبد الملك على يديه ، فلم ير بداً من ان يَفرَّ الى مكناسة ومن ثمة من ان يلتجيء الى قوم من زناته وهم اشدُ بربر السّاحلِ اكراماً للضيف ، واماناً للخائف حتى إذا ضاعَ عن اعينِ العامِلِ

ورجالِهِ لحقَ بملية اقربَ منطقةٍ على الساحل الأفريقي من البحر المتوسط .

وكادت هذه الصورُ الحزينةُ ان تُطْبِقَ على قلب الفتى فتدفعُ اليأسَ ان يتسربَ الى نفسه لو لم يتطلعْ إلى ملك آبائه في الأندلس ، فيبعثُ مولاه بدراً إلى موالي المروانيين واشياعِهِم ، فيجتمع اليهم فيبثوا له الدعوة في البلاد ، ويؤلبوا له الرأي ، ويجمعوا حولَه الكلمة ، وكان الاندلسُ في ذلك الحين شيعاً فالخلاف على اشده بين اليمنيةِ والمضرية ، هذه التي شدت من ازره وأرادت له الامارة على خصمها وولي الأمر يومئذ عبدِ الرحمن بن يوسف الفهري ، آخرِ والٍ في الأندلس كان يمالئُ رجالاتِ البلاطِ في العراق فيدعو للخليفةِ العباسي على المنابر .

ويعود الرسولُ من الأندلس بعد ان مهدَ امامَ سيدِهِ الطريقَ الى قُرطبة مركزِ الولايةِ وقاعدَةِ الخلافةِ الامويةِ في ما بعد ، حاملاً له نتائجَ مُبَاحَثَاتِهِ مع رجالاتِ الأمويين ، معدداً اسماءَ الشخصياتِ التي بايعتهُ اميراً ، عارضاً عليه ما تم الاتفاقُ حولَه مع الصميل بنِ حاتم ، وزيرِ عبدِ الرحمن بنِ يوسفَ الفهري من ان يشاركَ الأميرُ الأموي الفهريَ الحكم كزوج لابنته .

الا ان عبدَ الرحمن الداخل يأبى ان يشارك الفهري الحُكْمَ ، كما يأبى مع ثقته بكل من بايعه ان يدخل البلادَ وحيداً ، فيبعثُ مولاه ثانيةً ليعودَ بوفدٍ من انصاره يرافقه في دخوله الى قرطبة ، ويرجعَ بَدرُ ثانيةً وبرفقته ابو فريعة ، وتمامُ بنُ علقمة وهما من سادات الشاميين كما ذكرنا .

ويطمئن الأميرُ في مجلسه ، وتأخذ وفودٌ من طرش بزيارته ، ويُلقى الستار مرة اخرى امامَ عينيه فتغيب كلُّ الخيالاتِ التي كانت تراودُهُ واشدُّها تأثيراً على نفسه ساعةَ قُتِلَ مروانُ بنِ محمد بنُ مروان بنُ الحكم ، آخرُ خليفةٍ اموي في دمشق ، وينهضُ عبدُ الرحمن الذي عُرِفَ بالدّاخل لأنه اولُ اميرٍ اموي من البيت الحاكم دخل الأندلسَ بعد انهيار حكمهم في المشرق ، قلت ينهضُ عبدُ الرحمن لاستقبال الوفود ، كما ينهضُ بعدئذ بأعباء الامارة ، ليخوضَ معركةً ليست بينه وبين عبدِ الرحمن بن يوسفَ الفهري فحسب ،

وإنما معركةٌ فاصلة في تاريخ الاندلس ، معركةٌ عسكرية على الميدان الحربي ، ومعـركةٌ في الِاصـلاح على مرافق الـدولة ، ومعـركة في العلم على بيـوتات الاقطاعية والحكم المستبد ، ومعركـةٌ في الحضارة تلك التي اقـامها شـامخةً على الدهر ، ثابتة امامَ العاصفَةِ ، باقية بقاء الأرض .

ليست العظمةُان يخوضَ القائدُ معركةً حربيةً فينتصر فيها ، إنما العظمةُ ان ينتصر القائدُ في معركِة السلام ، معركةِ البقاء .

□□□

ابن عبد ربه

اول مؤلف في الأندلس

٢٤٦هـ/٨٦٠م ٣٢٨هـ/٩٣٩م

في طليعة الكتاب الموسوعيين في الأندلس اشراقة ديباجة ، ووضوح عبارة ، ودقة تصنيف وسعة اطلاع ، الكاتب ، الشاعر ، الأديب ، والمؤرخ ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه، من اعلام القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

يعتبر الكاتب احمد بن عبد ربه في تاريخ الفكر الاندلسي في مقدمة الاعلام الذين اثاروا مشكلة تبعية الاندلس العربي الفكرية الى المشرق العربي ، فيؤكد المستشرق الاسباني الياس تريز سدبا ان ابن عبد ربه هو اول من اثار الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين ، حتى كان عهد ابن حزم فانعتق الفكر الأندلسي من تبعية المشرق الذي لم يعد يقوى ان يمد العبقرية الاندلسية بمفاهيم تكشف ماهية الانسان .

ولد ابن عبد ربه في الاندلس سنة مائتين واربعين للهجرة، ثمانمائة وستين للميلاد وقدر له كمولى لبني امية ان يتصل بالبلاط في قرطبة وان يمدح نفراً من امراء الدولة الحاكمة كان آخرهم عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الأموية في الأندلس سنة ثلاثمائة وست عشرة للهجرة وتسعمائة وثمان وعشرين للميلاد الذي ترك فيه قصائد قد لا ترقى الى منزلة الشعر الاندلسي .

الدارسون لقيمة شعر ابن عبد ربه يؤكدون وفي طليعتهم المستشرق

الاسباني انخل كونتالت بالنثيا ان شاعرية الأديب الاندلسي لم تكن ممتازة، سواء في قصائده الطوال التي تحدث فيها عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر او في مقطعاته التي قالها في مدح بني امية كقوله :

بـا لمنـذر بن محمـد　　شـرفت بلاد الأنـدلس
فـالـطيـر فيهـا سـاكن　　والوحش فيها قـد انس

امام هذا الرأي للمستشرق الاسباني بالنثيا لا بد من الاشارة هنا الى ان شاعرنا ابن عبد ربه كان اول من وضع الشعر في خدمة التاريخ فأرجوزتـه في وصف معارك الناصر لدين الله الخليفة الأموي الأول في الأنـدلس تعتبر ذات قيمة علمية وتاريخية على جانب كبير من الأهمية ، فضلاً عن انها سجل لكل الأحداث العسكرية التي تمت في عهد مؤسس الخلافة فهي تسمي المواقع ، وتحدد التاريخ ، وتذكر القلاع ، واسماءها والقواد وبلادهم .

من هذه الأرجوزة بالذات يؤكد النقاد المعاصرون عنـد دراستهم للشعر التعليمي ان العرب عرفوا هذا النوع من الشعر ليس فقط في الشعر الأندلسي وحسب بل في الشعر العربي عامـة ، وان ابن عبد ربـه الشاعـر الأندلسي لم يسمـح للشعـر في انـدلسيـا العـرب ان يقصـر عن فنـون الأدب العـربي في المشرق .

واذا كانت الحقيقة في نظر بالنثيا كما اشرت، فإن شعر ابن عبد ربه لم يرق الى مستوى الشعر الأندلسي فبعض اشعاره الغـزلية تنبيء عن ذوق وحسـاسية تفوق ما يبدو في فنونه الشعرية الأخرى .

جمع ابن عبد ربه اشعاره في ديوان سماه « الممحصات » اتبع فيه كل قطعة غزلية بأخرى في الحكمة والزهد ، رغبة منـه في ان يدفـع شعر الـزهد اوزار الأفكار الدنيوية ومن غزله قوله :

مـا ان رأيـت ولا سمـعـت بـمـثـلـه　　دراً يـعـود من الـحـيـاء عـقـيـقـا
واذا نـظرت الى محـاسن وجهـه　　ابصـرت وجهـك في سناه غـريقـا

الواقع ان ابن عبد ربه احتل مكانة مرموقة بين اعلام الأدب العربي عامة ويرجع ذلك الى تصنيفه لكتاب العقد الذي اتبع في وضعه منهاجاً معيناً رسمه في مقدمة الكتاب، هذا وبالرغم من ضخامة الموضوعات التي عرض لها في كتابه لم يبتعد عن الخطوط الرئيسة التي رسمها لنفسه .

ان الدارس لكتاب العقدالذي يعرف عادة بالعقد الفريد لنفاسته يجد ان الكاتب الاندلسي كان واسع الاطلاع ، غزير الفكرات ، مطلعاً على الأدب والفلسفة والتاريخ والاجتماع وان كتابه جاء شاملاً لموضوعات عصره وصورة حقيقية لثقافة الاندلسيين الذين درسوا تاريخ المشرق العربي في جميع مظاهره ومن هنا كان العقد الفريد صورة لتبعية الأندلس الفكرية للمشرق ذي المفاتن والسحر والجمال والاعجاب الذي تملّك هذا النفر من ابناء المغرب فشهدوا بكل مآثره .

إذا كان النقاد قد اعتبروا كتاب العقد صورة لتبعية الفكر الاندلسي للمشرق لأن الصاحب بن عبّاد عندما اطلع على الكتاب قال هذه بضاعتنا قد ردت الينا ، فالعقد كما اشرت هو اول من حمل الخصومة الأدبية بين المشرق والمغرب العربيين ، فابن عبد ربه كأديب اندلسي كان يدرك بالرغم من اعجابه بالمشرق وثقافته ان الاندلسيين وهم في مطلع حياتهم الفكرية قادرون على ان يجاروا هذا الأدب العربي .

لقد اشار الكاتب الأندلسي الى هذه الناحية في مقدمة الكتاب بقوله : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور » .

يبدو جلياً ان الكاتب الاندلسي كان يريد ان ينوه بأن للمغرب العربي بالرغم من انقطاعه وبعده عن مواطن الثقافة العربية في بغداد ودمشق له حظ من النتاج الفكري قد يجاري الى حد ما الأدب العربي في مواطنه الأولى .

لم يعد من المهم ان ندرس منهاج ابن عبد ربه في كتابه العقد فنشير الى

ان يضم خمسة وعشرين كتاباً ينقسم كل منها الى قسمين وأنه قد جعل عنوان كل باب من ابواب كتابه باسم جوهرة مما تنظم منه العقود، إنما المهم ان نؤكد ان ابن عبد ربه كان يدرك اهمية عمله وصعوبة منهاجه في قوله: «وقد الفت هـذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخيـر جواهـر الآداب ومحصول جـوامع البيـان فكـان جوهـر الجوهـر ولبـاب اللبـاب وإنمـا لي فيـه تـأليف الاختيـار وحسن الاختصار » ، الى ان يقول : « واختيار الكلام اصعب من تأليفه » .

لكتـاب العقـد اهميـة علميـة كبيـرة اذ يـطلعنـا على احـوال الحضـارة الاسلاميـة في عصـره كمـا يقول المستشرق الاسباني انخل بالنثيا لأنه يعرض علينا ما كان ينبغي ان يحيط به المتحضر المتعلم في ذلك العصر من معارف، اما قيمته بالنسبة لتاريخ الأندلس فتنحصر في انه اول كتاب من نوعه كتب في الأندلس ووصل الى ايامنا وفيه اقدم عرض لتاريخ بني امية الاندلسيين .

ان لم يكن ابن عبد ربه في طليعة شعراء الأندلس فهو في ذؤابة اعلامه الموسوعيين حضور بديهة ، واتقاد ذهن ، وسعة اطلاع .

□□□

زرياب ، الطائر الاسود الغرد

من رجالات القرن الثالث للهجرة ـ التاسع للميلاد

عرف الغناءُ العربي طريقه الى الأندلس يوم حمله اليه ابو الحسن علي ابن نافع بعد ان قدّر لهذا الغناء ان ينـطلق من مواطنـه الأولى في المدينـة ، والطائف ، وخيبر ، ووادي القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة ويستمر ردحاً من الزمن في بغداد العاصمةِ العباسيةِ المطلة على دجلة المزهوةِ الضاحكة للنخيل ابداً .

قلت حمل الغناءَ العربي الى الأندلس ابو الحسن علي بن نافع ، زريابُ الطائرُ الغرد الذي قدر له ان يَحُط على ضفاف دجلة من بلاد فارس ، وان يقيم في بغداد ، ويتصلَ باسحق بن إبراهيم الموصِلي استاذِ الغناء العربي ورائـدهِ في حاضرة الرشيد .

لقد غنى زريابُ بعد ان حذق الغناءَ على يد استاذه الموصلي الخليفـةَ هارون الرشيد ، غناء عذباً مزيجاً من الغناء العربي جميعاً لا هو النَصْب ، ولا هو السِنَاد ، ولا هو الهزج ، إنما هو ضرب خليطٌ من هذه الألحـان ربط بينها في دقة فتمازجت في فن وصنعة، ومدها في صوت رخيم مـع ضربـات عوده الذي صنعه بيده بدعاً بين الآلات ، فردد الرشيد بعد ان طرب ، وردد الناس من حوله ترجيع الصوتِ الشجي :

يـــا أيهـا الملكُ الميمــونُ طـائــرُهُ   هـارونُ راح اليك النـاسُ وابتكـروا

لم يكتب للطائر الغردِ الذي هزّ اعماقَ الخليفة ، واثار حسد استاذه ان يقيم على ضفاف دجلة ، وان يصبح علماً من اعلام الغناء العربي في المشرق فلقد ارغم في ما يقول المقّري على مغادرة بغداد بعد ان هدده استاذُه ورغبه في الهجرة ، وزوده بالطعام والمال والكسوة .

خرج زرياب من البلد الذي سما فيه نجمه ولم يبزغ ، وترك بغداد عاصمةَ المشرق العربي ، وحمل نفسه الى الاندلس الى مغرب الشمس ، حيث كانت تترك وراءَها بابَ السماءِ محروقاً مضرجاً باللهب الذهبي .

بعد رحلة طويلة شاقة اطل زريابُ من طنجة على الجزيرة الخضراء ثغرِ الأندلس الباسم بعد ان خلف وراءه في القيروان نقمةَ زيادة الله بن إبراهيم الاغلب يوم شاء له ان يغنيَه ، ويوم كُتب له ان ينشده شعر عنترة ، ويجعل نفسه في مقام الحاكم فيسخط هذا ويتهدده ويمهله ثلاثاً وإلاّ قتله .

ولولا فرارك يومَ الوغى   لقدتك في الحرب او قدتني

وينطلق الطائر الغردُ في الأندلس ، وقد تكسرت الحانه الآ من شجو قليل ، وتماوت الصوت الغرد ، وتعب جناحاه وقد شلهما الزمن يوم حملت اليه انباءُ قرطبة خبرَ وفاة الحكم ، الأمير الذي رحب بمقدمه ، وافسح له بين كبار حاشيته في بلاطه .

وكاد زرياب ان يعود بأهله الى المشرق ، لو لم يكن مع المجد ، والخلود في قرطبة على موعد فيثني من عزيمته منصور المغني رسولُ الحكم اليه الذي استقبله عند بحر الزقاق يوم حط في الجزيرة الخضراء ، ويُرغبه بعبد الرحمن الأوسط ولد الحكم ، والقائم بالأمر من بعده الذي رحب بمقدمه ، وكتب الى عمّاله فيما يذكر المؤرخون ان يحسنوا اليه ، وان يوصلوه الى قرطبة ، وقد امر له بدار من احسن الدور حُمِلَ اليها جميعُ ما تحتاج اليه من اثاث ورياش .

في إحدى ليالي سنة ماءتين وست للهجرة ، ثمانمائة واحدى وعشرين

للميلاد والليل يلف قرطبةَ المدينة المتكئة على هضبات السيرا مورينا والممتدة مع شاطىء نهر الوادي الكبير ، في كبريائه وجلاله وخشوعه للصوت المنبعث من اعماقه يرتل نشيد الحياة الأزلي ، وهو ينسكب لجيناً يتجاوب مع الشذى العابق من جنان الأرض ، اخذت قافلة من خيل الأمير عبد الرحمن بن الحكم سيد الاندلس الجديد ، ووارث البيت الأموي تؤم الساحة الكبيرة من باب الجزيرة الخضراء احدِ ابواب المدينة السبعة ، محملةبالمتاع .

كان لوقع حوافر الخيل على الأرض المعبدة صوتٌ افاق له النيام من سكان المدينة في الساحة الكبيرة وما جاورها في الزنقات الضيقة ، واخذت رؤوسهم تُطِل من بين قضبان النوافذ الحديدية ، وقد هلعت قلوبهم لهذه القافلة تدخل العاصمةَ مع الظلام الحالك .

مدّ زرياب عينيه في هاتيك الأزقة الضيقة وكأنها قد اطبقت على ذاتها ، وفي تلك النوافذ العريضة المطلة على الدروب الملتوية ، والورود والريحان ، والياسمين يكاد كل هذا يمتد ويجلل بكساء سندسي اخضر مزهر جوانب الجدران والنوافذ ، ويفرك زرياب عينيه ويتساءل وكأنه في حلم ، اهذه دمشق ابنة بردى ، ام قرطبةُ ابنة نهر الوادي الكبير .

لقد كانت العين الدعجاء ، وبؤبؤها الأسود الحالك يرمي قلبَ الطائر الغرد بسهام كان يُحِسها هو من دون عائلته جميعاً كلما تقدمت به القافلة نحو البيت الذي أُعد له ، وكان زريابُ مطمئناً لهذه السهام تستقر في سويداء قلبه . فلقد اخذ يُحِسُ الحياة تدب من جديد في صوته الرخيم ، وفي جناحيه المذهبين .

بعد ايام من قدوم زرياب إلى قرطبة رحب به الأمير عبد الرحمن بن الحكم في قصره ، واستمع اليه ينشُدُه الحاناً شرقية افاق معها حنينهُ وحبه الى المشرق العربي والى دمشق كرسي خلافة عائلته ،وهي غافية بين خمائل الغوطة الفيحاء .

ويطمئن الأمير الى الطائر الغرد الذي توسم فيه الرجولة والمروءة وكثيراً

من مزايا الرجال واخلاقهم ويفرض له عطاء شهرياً قَدْره مائتادينار،وثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين ، وخمسمائة دينار للربيع اذا لبس وشاحـه في جنان المدينة الخالدة .

عاش زرياب في كنف الأمير الأموي ، في قصره وقد اخـذ ينقل اليـه عادات المشارقة في الظرف واللياقة وادب الطعام والشراب واللباس ، واخذت المدينة العاصمة في بيوتاتها الرفيعـة العماد تحس تجـاوباً مع ظرف زرياب، وتفسح له في اعيـادها وليـاليها ، ومـا اجمل الليـل ينسكب هادئـاً في مدينـة الأندلس قرطبة ، سيدةِ البلاد وقاعدة الامارة .

كان زرياب بدعاً في اللحن والشعر والغناء فكان يدعي « ان الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة الى صوت واحد ، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود عجلاً الى مضجعه » .

انشأ زرياب في الأندلس مدرسة فنية جعل لها قواعد ومناهج خاصةً بها وكانت له اساليب يختبر بهـا هواة الفن، والغنـاء فكان اذا تنـاول الالقاء على تلميذ يعلمه امره بالقعود على وساد مدوّر ، وامره ان يشد صوته جداً اذا كـان قوياً ، فإن كان لينَ الصوت امره ان يشدّ على بطنه عمامةً لتقوي الصوت فلا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم .

هذا ، وأما اذا كان التلميذ الصَ الأضراس لا يقدر على ان يفتح فاه او كانت عادته زمَّ اسنانه عند النطق راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضُها ثلاثة اصـابع يبيتهـا في فمه ليـال حتى ينفرج فكـاه، وكان اذا اراد ان يختبـر المطبوع الصوت من غير المطبوع امـره ان يصيحَ بـأقوى صـوته يـا حجام او يصيحَ آه ويمدَ بها صوتُه ، فإن سمع صوتَهُ بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ، ولا حبسة ولا ضيقُ نفَس ، عرف انَه سوف يُنْجِبُ واشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

إلى جانب هذه الاصول اضاف زرياب الى العود وتراً خامساً ، وكان إلى

ايامه اربعة اوتار فحسب تقابل الطبائع البشرية الأربع ، عرف بالوتر الأوسط الدموي الأحمر ، كما اخترع مضرابَ العود من قوادم النسر معتاضاً بها عن مرهف الخشب فأبدع في ذلك للطف قشر الريشة ، ونقائه وخفته على الأصابع ، وطولِ سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه .

هذا ، وبالرغم من ان رجال الدين في الأندلس لم يكونوا ينظرون الى الموسيقى بعين الرضا ، وبينما كان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها امراً محطاً لا يَليقُ الّا بالمواليّ والاماء ، ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني او المغنية او النادبة ، ولم يسمحوا بأن تباع كتب الموسيقى والاناشيد علناً ، فان سوقَ الفن نفقت في الاندلس بالرغم من ذلك كلِه حتى ان زريابا يعتبر ركيزةً اقام عليها الناصر عبد الرحمن في ما بعد صرح الحضارة العربية في هاتيك الأرض الساحرة .

سيظل زريابُ الطائر الغرد الذي حمل في طيرانه البعيد ، وفي قلبه وعلى شفتيه الى الأندلس الخالد اللحن الشرقي الذي تمازج مع الحان الأرض هناك ،فكان علوياً طلقاً آسراً للروح وللقلب جميعاً .

بلى سيظل زرياب حيث هو وحيث كان من الفن والغناء والشعر العربي سيداً تتجاوب نفسه على اوتاره ، وعلى شفتيه وفي الحانه ، ليبقى غرداً بقاء الدهر . بالرغم من سواد بشرته .

□□□

أبو علي القالي
وأول سفارة ثقافية مشرقية

٢٨٩هـ/ ٩٠١م ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م

في قرطبة حياة، فالمدينة المتكئة على هضبات سيرا مورينا، تشهد في عهد عبد الرحمن الأوسط، مؤسس الخلافة الأموية في الأندلس أول سفارة ثقافية مشرقية، تؤم الدولة بدعوة من الناصر لدين الله.

لقد خرج الحكم المستنصر ولي العهد باسم الخليفة، وفي رهط كبير من الوزراء والوجوه والأعيان والعلماء ليستقبل في قلب الدولة أبا علي اسماعيل القالي، بعد أن استقبل بحفاوة بالغة ومن الجزيرة الخضراء من وجوه الرعية، ومن بياض كورة المدينة ورجالاتها العظام يتقدمهم عامل الدولة ابن رماحس.

نشأ أبو علي القالي في بلدة بمنازجرد من أعمال ديار بكر، وأقام فيها حيث تلقى ثقافته ثم رحل إلى بغداد سنة ثلاثمائة وثلاث للهجرة، تسعماية وخمس عشرة للميلاد مع أهالي قالي قلا الذي نسب إليهم.

في بغداد أكب القالي على الدرس، وجدّ، في التحصيل على علماء الحديث، وجهابذة اللغة والرواية فسمع البغوي، والعدوي، والسجستاني، وأبي محمد يحيى بن محمد بن صاعد، والقاضي، والمحاملي، وأبي عبيدة، وأبي بكر بن مجاهد المقرىء.

كان القالي طلعة في النحو، والعربية، والأدب الى جانب تعمقه وفهمه

للحديث وأصوله، ويرجع في ذلك إلى النخبة من الأساتذة الذين درس عليهم أمثال درستوية، والزجاج، والأخفش الأصغير، ونفطويه، وابن دريد، وابن السراج، وابن الانباري، وابن أبي الأزهر، وابن شُقير، والمطرِّز، وجَحْظة، وابن قتيبة وغيرهم، وهم الذين تكررت روايته عنهم في كل ما كان يمليه من المحاضرات.

نبغ أبو عالي القالي في العلوم التي برع فيها نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه، أو تأخر عنه، وعدّه المؤرخون إماماً ثبتاً، وحجة فوصفه الضبي في كتابه « بغية الملتمس » « بأنه كان علماً في اللغة، متقدماً فيها، متقناً لها فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه، واتخذوه حجةً في ما نقله، وكانت كتبه في غاية التقييد، والضبط والاتقان. وقد ألف في علمه الذي اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته ».

عاش القالي في بغداد خمساً وعشرين سنة، فبلغ فيها أوج مجده، وذروة شهرته، فكان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين وما عتّم أن استدعاه الخليفة الناصر إلى الأندلس لنشر علمه، والاستفادة من معارفه وعلومه، فلبى الدعوة وحط الرحال في قرطبة.

إن في استدعاء القالي من بغداد إلى الأندلس، وفي عهد عبد الرحمن الناصر الذي رفع منار العلوم والفنون أكثر من معنى، فجده سلمان كان مولى للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وولاء القالي للأمويين في تأدية رسالة الثقافة والعلم في الأندلس الأموي، حفظ لعهد بني أمية فَنشَرَ رسالتهم وتحدث عن أمجادهم، وتاريخهم العظيم في المشرق والمغرب العربيين.

هذا، ومن المؤرخين من يؤكد أن الرجل بالرغم من مركزه العلمي العظيم في بغداد فإن الحظ لم يبسم له في كنف الدولة العباسية، ومن هنا كان ولاء أبي علي القالي للمبدأ وللدولة التي رعت جدّه الأول وعرفت مركزه.

من الثابت أن أبا علي القالي كان أستاذاً جامعياً من طراز رفيع وفي مرتبة كبار المحاضرين الثقاة الذين يقدرون الرسالة الجامعية، ويعون قيمة البحث

العلمي، وأصول النقد والاثبات، والموازنة والحكم، تلك الأحكام الأدبية التي يطلقونها بعد دراساتهم للنصوص، والتي هي قيمة وغاية الدراسة الجامعية الحديثة.

على هذا المنهج من البحث والدرس والتقرير كان يحاضر عالمنا في أيام الأخمسة بقرطبة، وفي غير هذه الأيام في المسجد الجامع بالزهراء أمام علماء الأندلس وأدبائها فكان يملي من حفظه «ما أعمل نفسه في جمعه، وأشغل ذهنه في درسه، حتى حوى خطيره، وأحرز رفيعه، وروى جليله وعرف دقيقه، وعلق شارده وروى نادره، وعلم غامضه، ووعى واضحه».

في حدود هذا الواقع العلمي أملى العالم الجليل الثقة محاضراته اللغوية والأدبية التي استوعبها كتابه الأمالي الذي قال فيه محمد بن حزم: إن كتاب نوادر أبي علي مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرّد، ولئن كان كتابُ أبي العباس أكثرَ نحواً وخبراً، فإن كتاب أبي علي أكثرُ لغةً وشعراً.

إلى جانب كتاب الأمالي ألف القالي كتاب الممدود والمقصور الذي رتبه على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق، مُستقصىً في بابه، وكتابَ الابل، وكتاب حلى الانسان والخيل وغيرها.

هذه الكتب التي يعتبرها النقاد ذخيرة علمية كبيرة، والتي يرجع الفضل فيها إلى الحكم المستنصر التلميذ الذي وعى علم أستاذه، وأحب الأدب عن طريقه، واشتدت رغبته في اقتناء الكتب بسببه فأسس أكبر مكتبة في الأندلس، لقد أجمع المؤرخون «على أن الحكم كان يحث أستاذه على التأليف، وينشطه بواسع العطاء».

بلغ أبو علي القالي أستاذ الحكم الخليفة الأموي، وأستاذ النخبة من العلماء والأدباء والفقهاء في الأندلس مبلغاً عظيماً من الرفعة والشهرة فما زاده ذلك إلا تواضعاً واحتراماً للعلم وتقديراً لأترابه من العلماء، فلقد سأله الحكَم المستنصر ذات يوم: من أنبلُ من رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال محمد بنَ القوطية.

لقد كان شرفاً عظيماً للعالم الكبير أن يهدي مؤلفه الأمالي إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وأن ينوه بفضله على العلم والعلماء فيقول في مقدمة كتابه :

« لقد جعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأُبْديه لمن يعلم فضلَه، وأجلبه لمن يعرف محله ،وأنشره عند من يشرُفه، وأقصد به من يعظمه وبقيت مدة أبتغي له مشرفاً، حتى تواترت الأنباء بأن مشرفه في عصره أفضلُ من ملك الورى، بذّال الأموال، محقق الآمال، مفشي المواهب، معطي الرغائب أمير المؤمنين، وابن عم خاتم النبيين « عبد الله بن محمد » محي المكارم، ومتبني المفاخر» .

وبعد فإذا كان المستشرق الاسباني أميليوغراسيا كومس يعتبر القالي أول سفير للثقافة المشرقية في الأندلس، فلا شك بأن القالي كان أول أستاذ جامعي في قرطبة كرسي الخلافة، وحاضرة الثقافة في الأندلس العربي .

□□□

عبد الرحمن الناصر

أول خليفة أموي في الأندلس

ولايته ٣٠٠هـ/٩١٢م - ٣٥٠هـ/٩٦١م

مع الفجر الندي المثقل بأريج الزهر من صباح العاشر من ذي الحجة سنة مائتين وتسعٍ وتسعين للهجرة ، تسعمائة واحدى عشْرة للميلاد ، أطل الأميرُ الأندلسي عبد الرحمن بن محمد من باب الساباط على جواده الأشهب ترافقه كوكبةٌ من الفرسان الأشداء ، وقد شَهَرت السلاحَ تحيةً للأمير الأموي .

كانت اطلالة الأميرِ في هذه الساعة المُبْكرة ، والليلُ يحاول أن يلملم أطرافَه عن المدينة وهو في طريقه الى المسجد الجامع ليؤدي صلاةَ العيد باسم جده الأمير عبدِ الله بنِ محمدٍ بن عبد الرحمن الثاني سيد الأندلس العربي .

قلت كانت اطلال الأمير مع الفجر المشبع بالندى والمثقل بالأريج ايذاناً للشعب المحتشد لتحيته أن يشق أَعْنَانَ السماءِ بالتكبير ، وبالتحية للأمير المرتجى .

ورفع الأميرُ يده في تؤدة وفي قوة ، وتعالت الأصواتُ من جديد ، واندفعت الجماهيرُ في زنقاتِ قرطبة الضيقة ترافق موكب الأمير ، وكأنها كانت تحاولُ أن تعلنَ منذ اليوم ولاءَها وبَيْعَتَها للامارة المرتقبة .

بعد أشهرٍ أربعة وفي يوم الخميس مُسْتَهلِ شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة للهجرة، السادسَ عشرَ من تشرين الأول سنة تسعمائة واثنتي عشْرة للميلاد أعلن الأندلسُ العربي بيعةَ عبدِ الرحمن بنِ محمد بنِ عبد الله بنِ محمد بن

عبد الرحمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد تلقب بالناصر لدين الله.

كان الأميرُ عبدُ الله بن محمد قد أخذ حفيده الفتى منذ حداثته، ويوم قُتِل أبوه غدراً بضروب من العناية والرأفة والحنان، فنشأ الأمير في القصر وقد أتقن أساليب التربية الحديثة وألم بالمعارف والعلوم الشرعية على يد نخبة من رجالاتِ الأندلس أمثالِ أحمد بن بيطر، ومحمد بن الزرّاد وغيرهما، كما برع في فنون الحرب والتّدرب على حملِ السلاح، وركوبِ الخيل على يد أبي العباس بن أبى عبده، أحد قواد الأمير الأعلام.

الواقع أن الأمير عبدَ الرحمن الناصر وفّق الى انقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية الزاهرةِ مما كان يتهددها من الأخطار الخارجية، والخلافات الداخلية في ما يقول المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا، إذ أن الناصر كان ذا سياسةٍ حازمة مكنت له من أن يُخْضِع جماعات العرب لسلطانه، وأن يقضيَ على الفكرة القبلية التي كانت تضعفُ كيانَ الجيشِ الأموي في الأندلس، الفكرةُ التي كانت تحملُ القبائلَ على حضور المعارك باعلامها والويتها، والتي عرفها الأندلسُ مع دخول موسى بنِ نصير على حد قول الرازي في كتابه «الرايات».

أخذ عبدُ الرحمن الناصر لنفسه المبادرة في كلِّ قضايا البلاد، فقضى على العناصر التي كانت تؤازر عمرَ بن حفصون، الرجل الذي خرج على طاعة الدولة وارتد عن الدين، وعاث في البلاد فساداً فقدر له أن يصبح سيدَ الأندلس الجنوبي، حتى أن الأمير عبد الله لم يَجْسُرْ في عهده أن يعيّن والياً على تلك المناطق التي سيطر عليها العربيُّ المرتد.

أنشأ الناصرُ لدين الله جيشاً قوياً من خيرة شباب الأندلس الذي كان مخلصاً لشخصه، مؤمناً بقيادته الحكيمة، ورجولته الفذة، كما أضاف الى عداد الجيش جماعاتٍ من الموالي الجدد كونها من عناصر أجنبية، وهي التي

تعرف بالصقالبة وكان معظمُها من أوروبا الوسطى .

بلغت هذه الجماعاتُ مركزاً مرموقاً في جسم الدولة الفتية حتى أن أحد النقاد ألمح إليها مؤكداً بأن رجالاتها كانوا ينشؤون في قصر الخلافة، وأن العناية كانت تبذل في تأهيلهم بعلم طيب، ومن هنا انفتح أمامَهم الطريق وأصبحوا يكوّنون الصفوف من الموظفين الإداريين ، والنخبةَ من القادة العسكريين .

بهذه القوى غزا الناصرُ ممالكَ الإسبان في الشمال وأخضعها لنفوذه، كما تدخل في مهارةٍ فائقة في الخصومات القائمة بين سكان مدن ليون، وقشتالة ونبرة من الإسبان، وتمكن بذلك أن يسوس شؤونهم وينفذ مآربه السياسية الكبرى.

بعد حقبة من الحكم العادل وفق الناصر لدين الله سنة ثلاثمائة وست عشْرة للهجرة ، تسعماية وثمان وعشرين للميلاد ، وبعد أن دب الوَهَنُ في كيان الدولة العباسية في المشرق أن يعلن الخلافة الأموية في الأندلس ، وأن ينادى به أولُ خليفة في قرطبة .

أضفى عبدُ الرحمن الناصر على الأندلس العربي النظامَ ، والرخاءَ ، ونشر في أرجائه المدارسَ والمؤسساتِ العلميةَ والثقافيةَ ، واهتم بمكتبة القصر التي كانت أعظمَ برهان على درجة ثقافته العالية ، والتي تكونت منها ومن مكتبتيّ الأميرين محمد والحكم مجموعة الكتب العظيمة التي كانت موضعَ فخرِ الحكم المستنصر وأكبرَ دليل على مستوى الأندلسَ الثقافي .

الى جانبِ هذه العناية بالشؤون الداخلية هيأ الناصرُ الاحترامَ والتقديرَ لبلاده في الخارج مما ساعد على زيادة موارد الثروة القومية ، والاهتمام بالحياة التجارية والزراعية والصناعية ، هذه الحياة التي بلغت الأوجَ ، والتي دفعت الخليفةَ الى توسيعِ قرطبة حتى أضحت تنافُس بغدادَ في عظمتها وقصورها .

كان من الطبيعي أن يواكبَ هذه المظاهر الحياتية المادية في عهد عبد

الـرحمن الناصـر تطورٌ في الحيـاة الفكريـة والعلمية، فكـانعصره زاهيـاً في مجالات العلوم والآداب جميعاً.

فابن عبد ربه صاحبُ كتاب العقد ترك لنا أرجوزةً شعرية في معارك الناصر ومواقفه ، على جانب كبير من القيمة التاريخية والعسكرية سجل فيها كل الأحداث التي عاشها البطلُ أميراً وقائداً .

مع اسم الشاعـر ابن عبد ربـه، يبرز اسم الشـاعر ابن هـانىء الأندلسي متنبي الغرب، والزبيدي فضلاً عن طبقة من المؤرخين الأعلام كالرازي، وابن القوطية القرطبي صاحب كتاب تاريـخ افتتاح الأنـدلس ، فضلا عن صـاحب كتاب أخبار مجموعة الذي لم يوفق العلمـاء بعد إلى تحـديد اسمـه ، والذي حفظ لنا في كتابه وقائع التاريخ الأندلسي من الفتح الى خلافـة عبد الـرحمن الناصر .

لقـد عرف الأنـدلس في عهد النـاصر بـوادر علم الفلسفة على يـد ابن مسرة ، كما عرف نفراً من أبنائه أخذوا يهتمون بالدراسات الرياضية والفلكيـة حتى بـرز فيهـا في عهـد الحكم المستنصـر أحمـدُ بن نصـر ، ومسلمـة بن القاسم .

كان الناصر لدين الله شغوفاً بالعلم محباً للعلمـاء، وهو الـذي استدعى نخبةً منهم كان في طليعتهم أبـو علي القـالي الذي جلس لتـدريس الحديث واللغة العربية وآدابها في المسجد الجامع في قرطبة وفي مسجد الزهراء، ثم عهد إليه أمير المؤمنين تأديب ولده وولي عهده الحكم المستنصر .

ساعد الناصر على تلقيح الفكرِ العـربي بالفكـر اليونـاني ويؤكد النـاقدُ الفرنسي هنري بريس ذلك ، فيشيرُ الى أن الراهب نقولا مُوفَدَ أمبراطور بيزنطة الرومانيـة إلى عبد الـرحمن ليشـرح ويترجم كتـاب « Dioscorides » . تمكن خـلال إقامتـه في قرطبـة من أن يتعرف إلى العـالم ابن شهيد أحمـد بن عبد الملك ، الذي عُرف بصاحب الوزارتين وكان شغوفاً بالعلم والأدب فتمكن من أن يطلع على المؤلفات اليونانية ، هذه الموضوعات التي أحياها فانتقلت الى

ابنه ومن ثمة إلى حفيده مع روح النقد وحدة الذكاء .

هذا فضلاً عن رعاية الناصر للترجمة ومنها كتاب « تفصيلُ الأزمان ومصالحُ الأبدان » وهو تقويم فلكي مناخي زراعي فيه ذكرُ منازلِ القمر وما يتعلق به ومن الثابت أن مؤلفه هو الأسقف ريكيموندو الذي عمل في خدمة الناصر وحظى بعطفه ورعايته ، وعرف باسم ربيع بن زيد الأسقف .

أن الأندلسَ العربي مدينٌ للناصر بجهاز حكمه الاداري والعسكري، فلقد انشأ فيه سنة ثلاثمائة وسبع وعشرين للهجرة، تسعمائة وتسع وثلاثين للميلاد منصب صاحب الوزارتين فضلاً عن اهتمامه بوظيفة الكاتب أو صاحب الرسائل وهي من مناصب الوزراء ، وقد بلغت أربعاً في عهده إلى جانب الصلاحيات الواسعة التي أعطاها لوظيفة صاحب المدينة أو صاحب الليل وهو قائد الشرطة بحيث كان باستطاعته أن يحاكم المجرمَ ويقتُلَه .

بلى إن عبد الرحمن الناصر وفّق إلى انقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية كما يقولُ بالنثيا وعملَ على بناء دولة حديثة، وأنشأ الزهراء وبنى مسجدها العظيم ونشر السلام، وأوجد التعايش السلميَ الحقيقي بين الديانات الثلاث الكبرى في الأندلس، وأقام صرحاً حضارياً شاهداً على نبوغه الإداري، وعظمته العسكرية.

« إن الناصر هو الذُرْوَة العليا في خلفاء بني أمية ، طال عمره ، واتسع سعده ، واشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرتُ بالعُدْوة الغربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته ، بعد أن استنزل الثوار ، وشيد القصور ، وخلد الآثار» .

سيبقى عبد الرحمن الناصر مشعلَ هداية، ونبراس حضارة بعد أن أدى دوراً انسانياً بارزاً في بناء الأندلس العربي الخالد.



ابن درّاج القسطلي

متنبي الغرب

٣٤٧هـ/٩٥٨م ٤٢٢هـ/١٠٣٠م

لقد ملك الحبُ عليه قلبَه، وكاد يسلُبه الأناة والصبرَ بعدما استبدّ به ، فشاقه وهو في حضرة الحاجب المنصور ابن أبي عامر أن يذكرَ وداعَه لزوجه وطفله الصغير وهو يعارض قصيدةَ أبي نواس التي مدح بها الخصيب، أو أنه أحب أن يثير عاطفةَ سيدِ قرطبة ليدركَ بدوره مبلغَ مكانته في نفسِ الشاعر :

ولما تَدانت للوَداع وقد هَفَا ... بصبريَ منها أنَّةٌ وَزَفيرُ
تُنَاشِدُني عهدَ المودَّةِ والهوى ... وفي المهد مبغُومُ النِّداءِ صغيرُ
عييٌّ بمرجوعِ الخِطابِ ولفظُهُ ... بموقعِ أهواء النفوس خبير
عَصيْتُ شفيعَ النفس فيه وقادني ... رَواحٌ بتدْآب السُّرى وبكورُ
وطار جَناحُ البَيْن بي وَهَفَت بها ... جَوانِحُ منْ ذُعْرِ الفِراق تَطِيرُ

إنه متنبي الغرب، أبو عمر أحمد بنُ محمد بنُ درّاج القسطلي، أحدُ شاعرين في الأندلس تنافسا على هذا اللقب وظفرا به لأنه كما يقول ابن حيان : «سباقُ حلبةِ الشعراءِ الأندلسيين ، وخاتمةُ محسِني أهله أجمعين » .

ولد ابنُ درّاج في المحرم ٣٤٧هـ مارس سنة تسعمائة وثمان وخمسين للميلاد على ما يذكر ابن بشكوال ، وفي قرية قسطلة درّاج من عمل جيان في ما يؤكد ابنُ سعيد أقدرُ جغرافيي الأندلس على التحقيق .

ان الدارسَ لحياة الشاعر قد لا يظفرُ بشيء عن طفولتِه وصباه وأساتذتِه

الأوائل لأن كَلَّ المراجعِ التي ترجمت له لم تحفِلْ به إلّا عندما سطع نجمُه، وعلا كعبُه في بلاطَ المنصور بن أبي عامر، قاهر الملوك، وسيد الأندلس أنذاك.

غير أن المطّلع على تاريخِ الأندلس في تلك الحقبة التي برز فيها الشاعر يستطيعُ أن يؤكدَ أن اطلالتَه على البلاد كانت نتيجةً طبيعيةً لبلوغ الأندلسِ أوجَ عظمتِه السياسيةِ والاجتماعِية والأدبية، وأن شاعرَنا كان ثمرةً من ثمار الأرضِ الطيبة، حضورَ بديهة، وسَعةَ خيال، ومتانةَ سبك، وبلوغَ غاية.

فالممالك الاسبانية في الشمال ذهب ريحُها بعد أن تحكم بالبلاد ومصيرِها عبدُ الرحمن الناصر وابنُه الحكم المستنصر بحيث أجبرا أمراءَ البلاد الأصليين على أن يحتكموا اليهما ويؤموا قرطبة دارَ الخلافة عن رضا وهم صاغرون.

أما المجتمعُ الأندلسي فقد أصبحَ بفضل هذه السياسة الحكيمة مجتمعاً متكاملاً مما ساعدَ على انتشار الرخاء وازدهارِ الحياةِ الاقتصادية على نحوٍ لم تعرفْه البلادُ قَبلَ عصر الخلافة الأموية في قرطبة.

وكان من الطبيعي أن يصلَ الأندلسُ الإسلامي إلى مكانٍ بالغِ الرفعةِ في الحياة الفكرية والأدبية نتيجةً للاستقرارِ السياسي، والازدهار الاقتصادي، وقد أصبحت قرطبةُ في مصاف العواصم الكبرى لا يتأخرُ مكانُها عن مكانِ بغدادَ أو دمشقَ أو القاهرة.

في هذه الحقبة بالذات والأندلسُ مركزُ تفاعلٍ بين الشرق والغرب يأخذ ابنُ درّاج على غرار أبناءِ عصره حظَه من العلم فيتقن القرآنَ الكريم ويتفقّه بالدين، ويجيدُ النظم ويحسنُ العربيةَ وآدابَها.

قد يكونُ ابنُ درّاج واحداً من الذين استهوتهم قرطبة بمكانتها العلميةِ ومركزها الثقافي فزارها زياراتٍ عابرة، إلا أننا لا نستطيع أن نأخذَ برأي الأستاذ بلاشير الذي درسَ الشاعرَ مؤكداً عزمه على الانتقال إلى العاصمةِ والاقامةِ فيها من

أجل تولي منصبٍ كتابي للحكم المستنصر إذ ليس في شعر ابن درّاج ما يدل على أنه اتصل بحاكم قبل المنصورِ بن أبي عامر.

لعل اجماعَ النقاد وفي طليعتهم الحميدي على أن قصيدتَه الهائية وهي أولُ قصيدةٍ له في المنصور وفيها يقول:

ولله عزمي يوم ودعت نحوَه نفوساً شجاني بينُها وشجاها
وربةَ خدر كالجُمان دموعُها عزيزٌ على قلبي شطوطُ نَواها
وبنت ثمانٍ ما يزال يروعني على النأي تذكاري خفوقُ حشاها

قلت لعل اجماعَ النقادِ على أن قصيدَته هذه تؤكدُ ما ذهب إليه خلافاً لرأي المستشرق بلاشير، على أن الشاعرَ لم يتخذ قرطبةً مسكناً دائماً له إلاّ بعد اتصاله بالمنصور، إذ ليس من صدق الشعور في شيء والشاعر لأول مرةٍ بين يدي سيدٍ عظيم يرجو نوالَه أن يدفعَه الخيالُ الى تلفيقِ مثل هذه الصورةِ التي تستدرُ الحب ، وتثيرُ كوامنَ النفس .

مما لا شك فيه أن قصيدتَه الهائية هذه لم تكن أولَ محاولةٍ منه على قولِ الشعر ، وإن له قبلَها شعراً قليلاً أو كثيراً قد فُقد ، إلا أننا نلمحُ فيها آثاراً من تقليد الفكرة ، ومظاهرَ من ضعف البناء في السبك يدفعنا إلى الجزم من أن القصيدةَ من نتاجِ الشاعر المبكر ، وإنها مع ذلك تنم عن قدمٍ ثابتة في ميدان الشعر .

لا غرو أن شاعرنَا ابنَ درّاج في تحنانه لزوجه وأولاده،وديوانُه صورةٌ صادقةٌ لهذه العاطفة الأبوية الكريمة قد أفاد من تحنانٍ وشعور الحطيئة بخاصة في أبياته التي بعثَ بها إلى عمر بنِ الخطاب يستعطفه بعد أن أمر الخليفةُ بسجنه وقد أساءَ الى الزبرقَان بنِ بدر في قصةٍ طويلة أمّا مطلع القصيدة :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مرخٍ زغب الحواصل، لا ماء ولا شجر
القيت كاسِبَهم في قَعْر مظلمةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمر

قد تكون رسالةُ الشاعر إلى سليمان بنِ الحكم والتي يحتفظُ بها ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة يستعطفُه فيها ويذكره بأولاده وينهيها بأبيات يفتتحها ببيت الحطيئة الآنف الذكر :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجر
ما أَوْضَحَ العُذْرَ لي لَوْ أَنّهم عَذَروا واجْملَ الصَّبْر بي لو أنَّهم صبروا
لكنَّهم صَغُرُوا عن أزْمةٍ كَبُرت في اعتذاريَ عمَّن عذُره الصِّغَرُ

قلت قد تكون رسالةُ الشاعر إلى سليمان بنِ الحكم أصدقَ دليل على إفادتِه من شعورِ الحطيئة الأبوي .

من المؤكد أن ابنَ درّاج شق طريقَه الى البلاط العامري في قرطبة وهو بعد شابٌ غضُ الايهاب، لينُ العود، رقيقُ الحواشي إلا أنّه استطاع بفضل موهبته الشعرية واجتهاده أن يرسخَ قدمَه في الديوان، وأن يزاحم، عدداً كبيراً من الشعراء الذين كانوا قد سبقوه إليه فيتعرضون له بالنقد والتجريح، ويتّهمونه بأنه كان منتحلاً لشعر غيره، متلبساً بغير ثوبه الحقيقي .

الواقع أن ابنَ د راج، الشابَ والأديبَ، والشاعرَ، والزوجَ، والوالدَ لم يقدر أن يجدَ لنفسه في البلاط العامري مكاناً يسكنُ اليه ، ويأمن فيه العَوَزَ ، ويقوى أن يتغلبَ فيه على كل خصومِه من النقدة والشعراء الفحول إلا بعد أن اجتاز امتحاناً أدبياً عسيراً أمامَ المنصور بن أبي عامر الشاعر والقائد . اجتازه مطمئن القلب ، واثقاً من الفوز .

لعل الغاية الأساسية من هذا الاختبار أن يدفع الشاعر التهمة التي قذف بها وهي السرقة والانتحال.

هذا ويذكر الحميدي أن ابن درّاج القسطلي حقق الرجاء فرد التهمة عن نفسه ، واستحق أن يكون في عداد شعراء الأمير الكثر ، يجري عليه راتب منتظم بعد أن أثبت اسمه في ديوان العطاء .

ستة عشر عاماً قضاها ابن درّاج في معية المنصور وولديه عبد الملك

وعبد الرحمن نظم خلالها اثنتين وثلاثين ما بين قطعة وقصيدة تعتبر بحق أروع شعره، وأجوده وأحق بالتقدير والاعجاب، هذه القصائد التي يجد فيها النقاد أجل مرجع لتأريخ وتقويم أعمال المنصور العسكرية الباهرة على الأرض الأندلسية .

لقد ظل ابن درّاج القسطلي في ظل الدولة العامرية شاعرها الأكبر ، وكاتبها الأوحد حتى تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه فأخرجته المحن من الظل الوارف، وسالت به الفتن مع القرن الحادي عشر للميلاد فضاع بين البلاد، وتاه عند العباد حتى وفاه الأجل في دانية على أغلب الظن ليلة الأحد في الثاني والعشرين من يونية سنة ألف وثلاثين للميلاد ، وبموته انطفأ السراج الذي أضاء الجوانب الغامضة من دولة بني عامر، أعزّ حكم عربي في الأندلس.

□□□

ابن درّاج القسطلي
مؤرخ الدولة العامرية

يعتبرُ ابنُ درّاج القسطلي أوفرَ شعراءِ الأندلس اهتماماً بتأريخ الأحداثِ التي عاشتها البلادُ في أواخِر عهدِ الدولةِ الأموية وقبيلَ اندلاعِ الفتنة، وقيامِ الجماعة الارستقراطية بالحكم.

ان الدارسَ لتاريخِ الفكرِ في شِبه جزيرة ايبريا قد لا يجدُ شاعراً أوقفَ جُلَّ اهتمامِه، وغايةَ عنايَتِه لتدوينِ دقائِق هذه الأحداثِ كما دوَّنَها شاعرُنا القسطلي حتى غدا ديوانُه وثيقةً تاريخيةً يرجِعُ إليه المؤرخون للوقوف على خاصةِ هذه الدقائق وأسبابِها.

قد تكون ملازمةُ الشاعرِ للمنصور ابن أبي عامر، ومرافقتُه له في الحربِ والسلم، وإقامتُه في معيَّة دولتِه مدةَ ستةَ عَشَرَ عاماً سبباً جوْهرياً ساعدَه إلى حدٍ بعيد على استجلاءِ غوامضِ هذه الأحداث، إلا أن البراعةَ الأدبية، والأسلوبَ الطلي، وحسنَ العرض، ودقةَ الوصف وعُمْقَ الخيال، وَسَعَةَ المعرفةِ في العلم والتاريخِ والأنسابِ وحسنَ المقارَنةِ، قد أكسبت هذا التأريخَ الى جانِب دقتِه، واستجلاءِ أسبابِه، جمالَ الصورةِ، وقوةَ التأثير.

ربما لم يكِ ابنُ درّاج أولَ شاعر أندلسي لازمَ أميراً من أمراءِ البلاد وأرّخ له، فكتابُ «العقدِ» الموسوم «بالفريد» يحفظُ لنا أرجوزةً طويلةً لمؤلفه ابن عبد ربه في تأريخ غزواتِ عبدِ الرحمن الناصر أولِ خليفةٍ أموي في البلاد، فضلاً

عن أن كثيراً من الشعراءِ والكتاب أمثالِ أبي عبد الله بن الأبّار، وأبي البقاء الرندي، وابن الخطيب وغيرهم قد تركوا لنا نماذجَ من القصائِد التأريخية في مواضيعَ شتى. غير أن شاعراً أندلسياً واحداً لم يبلغْ ما بلغه ابنُ درّاج في كَثْرَةِ ما تَرك من هذا اللونِ المزيجِ من حياتِه وشعورِه، وعلمِه وعقلِه، وأدبه وبلاغتِه، صورةً حيةً لأزهى حقبةٍ عاشها الأندلسُ العربي تحتَ ظلِ الرماحِ وفي عنفوانِ وكبرياءِ العزِّ والمجدِ والسلام.

من هذه الحقيقةِ بالذاتً يعتبرُ النقادُ ديوانَ الشاعر وثيقةً تاريخية تَعْرِضُ في كثيرٍ من شَغَفٍ أخبارَ الغزواتِ والحروبِ التي خاضها المنصورُ على الأرضِ الأندلسية، والتي بلغت نحواً من اثنتين وخمسين غزوة، أخضع فيها كُلَّ الممالك لارادة حكمه العربي ولعظمة دولتِه الفتية، وبدّل بها من وجه التاريخ في شبه الجزيرة، وثبت دعائمَ الملكِ العربي على قواعدَ من الأمنِ والاستقرارِ، حتى غدا العلم الأوحد والسيدَ الأول.

من أولى مظاهرِ هذه العزةِ التي أثلّها المنصور وخلدها شاعرنا القسطلي قدومَ ملك البشكنس شانجة بن غرسية الى قرطبة في الثالثِ من رجب سنة ثلاثمائة واثنتين وثمانينِ للهجرة، الرابعِ من أيلول تسعمائة واثنتين وتسعين للميلاد زائراً ومستصرخاً كما يقول ابن الخطيب، مثبتاً كُلَّ العهودِ التي سبقَ له ونقضها من قبل، محكّماً المنصورُ في مُلْكه وعرْشِه بعد أن أوقع به العامريُ في معاركَ عدّة، قتل في احداها ابنٌ له، مقدماً له احدى أجملِ بناته التي أعتقها المنصور، وتزوج بها فأنجبت له ابنَه عبدَ الرحمن:

ألَا هكذا فليسْمُ للمجدِ من سما	ويَحْمِ ذِمارَ الملكِ والدينِ من حَمى
وحَقٌّ لمن لاقى فأَقدمَ سيفُه	على غَمراتِ الموتِ أن يتقدّما
ومن حَقَرَت مستعظمَ الهولِ نفسُهُ	اذا الخيلُ كَرَّت أن يكونَ المعظَّما

إلى أن يصف الشاعرُ حالَ الملك الاسباني، وواقعَه المؤلم، وقد جاءَ يلتمسُ من الأمير العربي الأمنَ والرجاءَ، ويتعهدَ له بالوفاء في العهود المبرمة.

والقسطلي من بعدُ أرخَ لِنا وفي السنة ذاتِها قدومَ وليِ عهد ملك قشتالة شانجة بن غرسية بن فرديناند Sancho Garcia موفداً من قبل أبيه غرسية قومس على المنصور بن أبي عامر مقدماً له خضوعَ دولته مرتقباً أمرَه فيها :

اليـك منك فِـرارُ الخـائفِ الـوجـلِ   وفي يـديك أمـانُ الفـارسِ البَـطَلِ
وقـد تيمّم شنـجُ مِنْـكَ عـائـدةً   تُجيرُه من سيوفِ الكرْب والوهـلِ
وقـاد نحـوَك والتـوفيقُ يَقْـدُمُـهُ   جيشاً من الذُّلِ ملءَ السهلِ والجبلِ
خـاضوا اليـك بحارَ المـوت زاخـرةً   يمـور فيهنّ مـوجُ النَّقـع كـالـظُّلل
لـلَّه يـومٌ مـن الأيـامِ فُـزتَ بـه   فـرداً من المِثْلِ فيهـا سائـر المَثَـلِ

هذا ويحفظ لنا الـديوانُ قصيـدةً أخرى، أرخ فيهـا الشاعـرُ وقوعَ ملك قشتالة أسيراً في يد المنصور، اذ أن الملك الاسباني كما يبدو لم يدرك المعنى العميقَ لحُسنِ وفادة المنصور لولي عهده فراح يناوئه ويناصبه العداء من جديد، مما أجبر الأميرُ العربي على اقتحامِ مملكة قشتالة سنة ثلاثمائة وأربع وثمانين للهجرة، تسعمائة وأربع وتسعين للميـلاد، واحتلالِ حصـونِها المنيعـةِ وايقاع هزيمةٍ منكرةٍ بالجيش القشتـالي ، غير أنَ الملك وكـان أشدَ أعـداءِ المنصور صلابةً عاودَ الحملةَ على الثغورِ العربية، فجـرّدَ المنصورُ عنـدئذ جيشـاً على خصمه انتهى بايقاعه أسيراً في يد العـرب وَذلك في الخـامس عشرَ من ربيـع الثاني ٣٨٥، التاسع عشر من أيار ٩٩٥ م عندها أمر المَنصورُ بنقله الى قرطبة، غير أنه لم يلبث أن توفي بعد أيام .

تنـاضـل عنـك أقـدار السـمـاء   وتبـطِشُ عن يـديـك يـدُ القضـاء
فمـا قصـرت رمـاحُـك عن عـدوٍّ   ولـو أعـيـا بـه أمـدَ التـنـائي
فيـا فتـحـاً لمـفـتـتـحٍ وبُشـرى   لـمـنـتـظر ويـا مـرْأىً لـراءِ

ثم يتابع الشاعر عرضه لأحداث المعركةِ ووقائِعها الى أن يصف الملكَ وقد وقع أسيراً .

بعد ستةٍ أشهرِ من هذا النصرِ المؤزرِ الذي أرخه ابنُ درّاج في ما أرّخ وفي

شوال سنة ثلاثمائة وخمس وثمانين للهجرة، تشرين الثاني تسعمائة وخمس وتسعين للميلاد يُكْتَبُ لشاعرِنا أن يرافِقَ الأميرَ العامري على رأس الحملةِ التي قادها المنصورُ لتأديب مملكةِ «ليون» في الشمال الغربي من شبه جزيرة ايبريا والتي كان يحكمها برمند الثاني ابن اردون، والذي حاول الثورةَ على المنصور بعدَ أن آوى عبدَ الله بنَ عبد العزيز الأموي خصمَ الأمير وشجّعَه من قَبْلُ على عِصْيَان أوَامِره.

في هذه القصيدةِ يبلغُ ابنُ درّاج القسطلي شأواً بعيداً في دِقّةِ الوصف، وصدقِ الشعور حتى لكأنه تِرْبُ المتنبي حقا بخاصة في المطلع الذي ينم عن ايمانه العميق، واعجابِه الكبير بالأمير العامري :

أن تفخَرِ الدنيا فأنت فخَارُها	أو تختَرِ العليا فأنت خِيارُها
المجد ممنوعٌ بسيفك عِزُّه	والأرض معمورٌ بملكِك دارُها
زُهِيَتْ بذكرك أرضها وسماؤها	وجرى بسعدِك ليلُها ونهارُها
هُدِيت بهديك في الظلام نجومُها	وسرَت بنورِك في الدجى أقمارُها
يا عامِريين اعْمُرُوا رُتَبَ العُلا	فلكم سَنِيُّ سنائِها وفخارها

بعد أن يمتدحَ القسطلي الأميرَ العامري يأتي على وصفِ المعركة وأحداثِها فيطالعُنا هنا بصورتين ممتزجتين عن معركتين عربيتين « فتح عمورية » لأبي تمام، و «الحدث الحمراء » لأبي الطيب مع الفارق في المستوى بين أدب المشرق وأدب المغرب .

بلى لقد كان ابنُ دراج شاعراً عظيماً في مقدمة شعراء الأندلس ، بارعاً في صوره ، دقيقاً في تأريخِه ، وكأنه كان واحداً من الشعراء العرب المعنيين بالقول : « الشعر ديوان العرب » وهكذا اعتبِرَ ديوانُه بحق وثيقةً تأريخية في الدولةِ العامرية ، تعتمدُ كمرجعٍ بالغِ الأهمية في دراسةِ امارةٍ اخضَعَتْ كُلَّ الممالك الاسبانية لنفوذِ الحكم العربي في ازهى حقبةٍ من حياة الأندلس العربي .

ابن درّاج القسطلي
مؤرخ الدولة العامرية « ٢ »

إذا كان التأريخُ هو الكشفُ عن الوقائع وأسبابها كما يؤكـد ابنُ خَلْدون في مقدِّمته، فشاعرُنا أحمدُ بن محمدٍ بن درّاجٍ القسطلي في ديوانِه الذي يعتبرُه النقادُ وثيقةً تاريخيةً في الدولةِ العامرية قد يُقَصِّر عن مُهمة المؤرخ الذي يحاولُ درسَ الوقائِع وأسبابِهـا، غير أنّـه في كثيرٍ من شعـره يُفْلحُ وإلى حدٍ كبيرٍ في تحديدِ الخطوط العريضةِ لمظاهرِ التأريخ .

ليسَ من شك في أن المؤرخَ والشاعـرَ على طرفيّ نقيضٍ فبينـا يعتمدُ المؤرخُ على الناحيةِ العلميةِ الموضوعِية الصـرفة، يتجـهُ الشاعـرُ إلى الأخِيلَة والابتكار والشعور، غير أنَّ ابنَ درّاج القسطلي قـد زاد في شِعْره من الـدليل على العلم بالخبر واللغة والأنساب، فضلاً عن سَعَةِ صَمدْره، وجَيْشَةِ بحـره، وراحتِهِ في ما يتعبُ النـاس، وطولِ نفسـه في ما يضيّقُ الأنفـاس كما وصفَـه بذلك ناقدُ الأندلس أبو عامر بنُ شهيد .

من هنا وفّق ابنُ درّاج في أن يكونَ مؤرخَ الدولة العامرية كشاعرٍ من أكبرِ شعراء الأندلس يمزجُ بين الموضوعية والخيال ، ويبرع في المدحِ براعةً لا يقدرُ عليها إلاّ من أوقَفَ كلَّ شعره على لونٍ واحدٍ من العطاء وقد استنفدَ له كل مقوماته من مظاهِر العزّة والنصر ، والمجد والكرم ، والآباءِ والسؤدد حتى جاء هذا اللونُ الواحدُ من المديح وباجماعِ النقاد وكأنه ألوانُ الشعر جميعاً يبرزُ

أول ما يبرز هذه الوقائع التاريخية التي سمت بشاعِرنا الى رتبة مُؤرخِ الدولة العامرية .

لقد أ رخ ابنُ درّاج وفي كثيرٍ من دقةٍ واسهابٍ كما أسلفنا في حديثٍ سابق وفودَ ملوك البشْكنس وقشتالة ونبارة على المنصور بن أبي عامر ، كما عرض صورةً حيةً لمعركة «ليون» التي قادها العامري بنفسه والتي ارتفعَ بها شاعرُنا الى مصافِ الشعراء الأبطالِ الذين يقحمون أنفسَهم المعارك ايماناً برسالة ، وتمجيداً لقائد أمير.

الحقيقةُ أن معركةَ «ليون» لم تكنْ الوحيدةَ بين المعاركِ التي رافقَ بها القسطلي قائده العظيم ، فالديوانُ يحفظُ لنا كثيراً من قصائد الشاعر في غزوات العامريين ، والتي قد تكون معركةُ «شنت ياقوب » Santiago de gompostela أجلّها وأعظمها خطراً في التاريخ العربي الأندلسي عامةً ، لأن قوةً عربيةً واحدةً خلالَ قرونٍ ثمانيةٍ من احتلالِ العرب لاسبانيا لم تقوَ على اقتحام هذه المعاقِل النائية للاسبان الخلص في شبه الجزيرة ، فضلاً عن أنها أقدس البقاع الاسبانية والأوروبية على الاطلاق في القرون الوسطى .

يجمع المؤرخون وفي طليعتهم الحِمْيري « أن كنيسة شنت ياقوب » في اعتقادِ أهلِ المدينة قد بنيت على رُفات يعقوب الحواري الذي قتل في بيت المقدس ونقل تلامذته جثمانه سراً في موكب حتى انتهوْا به إلى موضعِ الكنيسة على البحر المحيط في ثغور ماردة ، فبنيت ليوم معروفٍ جُعِلَ عيداً لها ، وأصبحت منذ ذلك الحين من أول مراكز الحج بين الأوروبيين جميعاً .

لهذا يُعْتَبر فتحُ « شنت ياقوب » على يد العامريين أَجَلّ فتح عربي وأخطَره في عُمْقِ معاقِل القشتاليين حيثُ تَفِيضُ كتبُ التاريخِ الأندلسي بذكر أحداثِه وتتضارُبِ آرَاءِ النقاد حولَ شَخصيةِ القائد العربي ، فبينا يذكر الحميري في « الروض المعطار » أن عبدَ الرحمن بن المنصور هو الذي قد غزا المدينة وأوسع أهلَها قتلاً وأسراً ، وقُراها وأسوارَها هدماً واحراقاً ويؤيده في ذلك ليفي بروفنسال نقلاً عن كتاب « مفاخر البربر » يؤكد الحميدي في الجُذوة عن استاذِه

ابن حزم بأن المنصور استدعى عَقِبَ الفتح شاعرَنا القسطلي وعبدَ الملك الجزيري وكلّفهما انشاء كتاب الفتح الى الحضرة والى سائر الأعمال .

الواقع أننا لا نحاولُ هنا أن ندرس رأياً تاريخياً ونَفْصِلَ فيه بقدر ما نريدُ أن نؤكدَ بأن ابنَ درّاج استمهلَ يومين أو ثـلاثة ليتمكنَ من انشاء كتابِ الفتح وهذا ما دفعنا إلى التأكيد « على أنَ الارتجالَ ليس ميدانَ الشاعر » بينا انفذ الجزيري الأمر .

الدارس لقيمة هاتين الرسالتين يجدُ في الجُذوة قول الحميدي فيهما : « أما ابن الجزيري فقال : سمعاً وطاعة ، وأما ابنُ درّاج وكان معروفاً بالتنقيح والتجويدِ والتؤدةِ فأخذ وقتَه ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح ، وقد وصف الغزاةَ والمعركة من أولها إلى آخِرها ومشاهدَ القتال وكيفية الحال بـأحسن وصف ، وأبدع رصف فاستحسنت ووقع الاعجاب بها ، ولم تزل منقولةً متداولةً وإلى الآن ، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح عينٌ ولا أثر » .

من الثابت أن ابن درّاج الى جانب رسالة الفتح في مدينة «شنت ياقوب» لم ينظمْ قصيدةً واحدةً كما جاء في الروض المعطار فديوان الشاعر يحفظ لنا قصائد ثلاث ، الأولى في المنصور بن أبي عامر ، والثانية في ولديه عبدِ الملك وعبدِ الرحمن . والثالثة في عبدِ الرحمن خاصةً .

لعل هذه القصائدَ الثلاث تكشف عن غموضِ الرواياتِ التاريخيةِ وتضارب الآراء في حقيقة شخصيةِ قائد المعركة فتثبتُ دونَ مجالٍ للشك بأن المنصورَ بنَ أبي عامر كان على رأسِ الحملةِ في ما كان يعاونُه فيها ولداه عبدُ الملك وعبدُ الرحمن ، بينا أبلى عبدُ الرحمنِ خيرَ البلاء كما يؤكد الحميري في الروض المعطار ، وليفي بروفنسال نقلاً عن كتاب مفاخر البربر كما أشرت .

أن ابنَ دراج القسطلي بعد أن يزيلَ هذا اللبسَ حولَ الروايات

التاريخية يمدحُ المنصورَ عَقبَ الفتح بقصيدتِه الأولى في هذه الغزوة ومطلعها .

اليومَ أنكَصَ إبليسٌ على عَقِبه مُبرّءاً سَبَبُ الغاوين من سَبَبه
واستيقنت شِيَع الكفار حيث نأت في الشرق والغرب أن الشِّرك من كذبه
«بشنتياقةَ» لما أن دلفت له بالبيض كالبدر يَسْري في سنا شُهُبِه

والشاعرُ إذ يعرضُ صورةً صادقةً للأعمال الحربية الجليلةِ التي قام بها القائد العامري ويصفُ المعركةَ وأرضَها ، والقومَ وأوضاعَهم يخلص إلى المنصور فيشيدُ بعظمتِهِ وقُدْرَته العسكرية والإدارية .

فالله جازيك يا «منصورُ» دعوته بسعي ماض لنصر الدين محتسبه
وعن كتائبَ للاسلام قُدْت بها الى رضا اللّٰه حتى كُن من كتبه
وعن حُسام هدى لم تجل صفحته إلا أسلت دماء الشِّركِ في شُطَبه

وأما قصيدتُه الثانيةُ في معركة «شنت ياقوب» هذه، فهي كما أسلفت في مدحِ ولديْ المنصور عبدِ الملك وعبدِ الرحمن ، والتي لا تخرج في موضوعها عن تمجيدِ بطولتِهما وجهادِهما فهو يذهبُ فيها مذهبَ قصيدتِه الأولى في والِدهما والمعركةِ وموقعِها والعدوِ وفلوله وإن خَصَّها بالأميرين القائدين لينفذَ من ورائها الى مدح الوالدِ القائدِ السيد والتي يقول فيها :

لك البشرى ودمت قرير عين بشأْوَيْ كوكبيك الثاقبين
مليكَيْ حِمْيَرٍ نشآ وشَبّا بتيجان السَّناء متوّجين
هما للدين والدنيا مَحَلّاً سُوَيْدا وَاهُما في المقلتين
نذرتهما لدين الله نَصْراً فقد قاما لنَذْرك وافِيَيْن

وابن درّاج بعد أن يسْهبَ في تعدادِ خِصَالِ القائدين البطلين يُلْمِحُ الى المعركة وبلائِهما عند نهريّ كورونيو وبوغو قرب حدود البرتغال .

وقد خَسَف «كُرُنَّةَ» بالعَوَالي و«بوغةَ» بادئين وعائدين

[illegible] الهُـدى يـومَ استـطارا الـى الأعـداءِ أيْـمَـن سـانـحيـن
وشـام الـكـفـر يـوم تـيـمـمّـاه بـجـنـدِ الـحـقِّ أشْـأمَ بـارقـيـن

ثم يختمُ قصيدتَه هذه مهنئاً المنصور بولديه الأميرين القائدين .

فـقـرُة أعْـيـن الاسـلام ألاّ تـزال بـمن وَلَـدْتَ قـريـر عَـيْـنِ

هذا وأما القصيدة العظيمة فهي مدح عبدِ الرحمن بن المنصور وتعدادِ مفاخرِه، وتخليد مآثِره العسكرية في بلائه العظيم، وفي مواقِفِه المشرفة التي غَـطت على مـا يبـدو على مـواقفَ مَنْ سِـواه من رجـالِ العـامـريـة وقـادتها في معـركـةِ « شنت يـاقب » وكـانت تحجُبُ بـلاءَ المنصـور القـائـد حتى أوقعت بعض المؤرخينِ وفي طليعتهم الحـميـري فـي اللبس فـأثبـت في كتابه «الروض المعطار» أن عبدَ الرحمن هـو صاحبُ هـذا الفتح المؤزر. واتبعـه في ذلك المستشـرق ليفي بروڤنسـال كما أسلفنـا معتمـداً على كتـاب «مفاخر البربر» .

أن شاعرَنا القسطلي بعد المطلع الـذي يصفُ فيه عبدَ الرحمن بـالبدْر الذي يدورُ في فلك المجد .

هـو البـدرُ في فلك المجـد دارا فـمـا غـسق الـخـطب إلاّ أنـارا

قلت بعد المطلع يعرض لصفات القائد وأخلاقه وشجاعته ويعدد مواقفه حتى ينتهي إلى تصويرِ الفتح الذي هو اشبه ما يكون بـالنور ، محـدداً منزلـة معركة « شنت ياقب » من أمجاد العرب ومعاركهم جميعاً :

تـجـلّى لـنـا فـأرتْـنـا الـسـعُـودُ عيـوبَ المنى فـي سناه جـهَـارا
وحـلّ فـحلّت جـسـامُ الـفـتـو ح تبـأى اختيـالا وتُـزْهى افتخـارا
ومـن يـسـمُ فـي ذروتـيْ حِـمْـيَـر ويـحـتـلُّ مـن يـمـن الـمـلك دارا
وحـسـب الـخـلـيـفـة ايـثـارُهُ لـكم دون هـذا الأنـام اقـتصـارا
وعَـمّ بهـا فَـتْـحُـك الأرضَ نـوراً كمـا ذرّتِ الشمسُ فيهـا النّهـارا

في ضوء ما تقدم في مفهومِ التأريخ وحقيقتِه في رأي ابنِ خلْدون، فابن درّاج القسطلي قد بذّ في كثير من شعرِه وخاصةً في تأريخه لمعركةِ « شنت ياقب » المؤرخين الأندلسيين الأفذاذ وكانت شهادة أبي عامر بن شهيد فيه بأنه قد زادَ في أشعاره من الدليلِ على العلم بالخبر واللغة والنسبِ شهادةَ حقٍ وتقديرٍ واعجاب ، انزلّته منزلةَ مؤرخ الدولةِ العامرية في رأي كثير من النقاد .

وهل عبثاً ان يحظى ابن دراج القسطلي يلقب المتنبي بعد أن جاراه في «الحدث الحمراء» وماشى ابا تمام في «فتح عمورية» ، والأندلس الاسلامي في مجابهة خصومه من الطامعين ، ومناوئيه من المتزمتين احوج ما يكون الى شاعر كبير يرد عنه سهام الحقد ، فيعرض لمن حمل هذه السهام فارتدت اليه واوقعته اسيراً في ايدي العرب ، ولم يلبث من بعدها ان مات وكأنه لم يكن بالأمس ملك قشتالة المناويء :

أسيرٌ ما يُعَادَلُ في فِكاك — وعانٍ ما يساوَى في فداءِ
هو الداء العياءُ شفيت منه — فما للدين من داءٍ عَيَاءُ
حمى شيعَ الضلال فأهّلته — الملك الرِّقِ منها الولاءُ
وأتبع فَلَّ «غرسية» عُجَالاً — يسوقُهُمُ الرّدى سَوْقَ الحُداءِ

ومن شعره البطولي في معركة « ليون » :

يا قائد الخيل العتاقِ كأنما — عزماته ارماحُها وشفَارُها
أوطأت ارضَ المشركين كتائبًا — فيها وشيكُ فنائها وَدَمارُها
وتركت ارض «ليون » وهي كأنها — لم تَغْن بالأمس القريب ديارها
مرفوعة لك في العلا اعلامُها — لما غدت بك عافياً آثارها
والخيل والابطال تجهد خلفها — ألّا يشطّ على الخليل مزارها
حتى قدمت بمفخر الفتح الذي — احيا المنى بقدومه استبشارها

ابن الفرضي
ومعجمه تاريخ علماء الأندلس

٣٥١هـ/٩٦٢م   ٤٠٣هـ/١٠١٣

في ما كان الناسُ يطوفون بالبيت العتيق، وقد تعالت أصواتُهم في دعاءٍ رحيم ، وترنحت أعطافُهم ، وخَشعت قلوبُهم ، وعَلِقَتْ أبصارُهم بالسماء ، كان أبو الوليد عبدُ الله بنِ محمدٍ بن يوسف الأزدي القُرطبي ، المعروف بابن الفرضي يتعلقُ باستار الكعبة ، ويسألُ اللهَ في شيءٍ من رجاء ، وكثيرٍ من تَضَرُّعٍ ، الشهادةَ والمغفرةَ .

غير أنّ الرجلَ لم يَلْبث بعدَ هذا التضرعِ الحار أن انحرفَ عن الكعبةِ بعدَ أن شاقه ذكرُ أهلِه في قرطبة إلاّ أنه ندم ، وهمّ أن يرجع ليتعلقَ بأستارِ الكعبة من جديد ويستقيلَ اللهَ على ندائِه فيستحي ، ويبكي ،وَيَحِنُّ إلى موطنه وزوجِه ويسترجِعُ الذكرى :

مَضَت لي شهورٌ ـ منذ غُبْتُمْ ـ ثلاثةٌ
وما خِلْتُني : أبقى ـ اذا غِبتُمُ ـ شهراً
وما لِي حياةٌ ـ بَعدَكُمْ ـ استَلِذُّها
ولو كان هذا: لم أكُنْ في الهَوَى ، حُرًا
ولم يُسْلِنِي طُولُ التَّنائي ، هواكُمُ ،
بَلى : زادَني وَجْداً ، وجَدَّدَ لي ذِكْرى

فإذا ما استعاد العالمُ المرجعُ كُلَّ ذلك ، راودَتْه أطيافُ عِذابٌ على نفسِه شَدَّتْهُ الى الأرض ، وكادَتْ أنْ تُبْعِدَه عن السماءِ اخلاصاً لمن أحب ، ودفعه الشوقُ والحنينُ إلى أن يعيشَ أهلَه أملاً ، فـاذا سُدَّت عليه السبلُ الى العينِ التي أعجب ، والى القلبِ الكبير الذي أخلص ، راح يعلّلُ النفسَ في لقـاءٍ قريبٍ ، مُستَعْتِبَ الدَّهرَ على ما أصابه .

يـمـثـلكـم لـي ، طـولُ شـوقـي الـيـكُـمُ
ويـدنيـكُـمُ : حـتـى أنـاجِيَـكُـمْ سِـراً
سـأسْتَعْـتِبُ الـدَّهـرَ الـمُفـرِّق بيـنـنـا ؛
وهـل نـافِعي : أن صِرْت استعتبُ الـدَّهـرا
أُعَـلِّلُ نَفْـسي : بـالـمُنى في لِقـائِكـم ؛
واسْتَسْهِـلُ البَـرَّ الـذي جُبْتُ ، والـبَحْـرا

ويرضى الشاعرُ الفقيهُ الثقةُ بالمصيرِ الذي آل اليـه ، ويرجـو لو يـطوي الأرضَ راضياً غير كاره ، ويقطَعُ البحر جاداً غير عابث ، وينْتَقِـلُ من بلد الى آخر سعياً وراء الانسان الذي أحب ، بعد أن حُتِّمَ عليه أن يغادِرَ بيتَه ، ويفارِقَ أنِيسَه :

ويـؤنـسُـنـي طـيُّ الـمـراحـلِ دُونَـكُـمْ :
أروح عـلى أرضٍ ، وأغْـدو عـلى أُخْـرَى
وتَـاللّهِ : مـا فـارقْتُكمْ : عن قِلى بـكمْ ؛
ولكِنَّهـا الأقـدارُ : تجـري كـمـا تُجـرَى
رَعَـتْكُـمْ من الـرَّحـمنِ : عَـيْـنٌ بـصـيـرةٌ
ولا كَـشفَـت أيْـدي الـرَّدى عنكُمُ سِتْـراً

ويعودُ علاّمتُنا ابنُ الفرضي الى الأندلسِ ليلقى زوجه ويطمئِن اليها بعد أن سَمِعَ في مكةَ من أبي أيوب يعقوب ابنِ الصيدلاني المكي ، وفي مصرَ من

أبي بكر أحمد المهندس ، وأبي محمد الضّرارِ ، وبعد أن عَـرَّجَ في طريقِ عودَتِه على القيروان ليسمعَ العالَمَ المحققَ أبا عبد الله النَّفَرِيَّ ، وأبـا الحسن علي ابنَ خَلَف ، المعروفَ بالقابسي .

ويقفُ الرجلُ الصالحُ ذاتَ غروبٍ بباب السمـاءِ ، وقد تَـرَكَتْهُ الشمسُ محروقاً مضْرجاً باللهب ، لِيَرْفعَ نحوها دعاءً أشدَ رجاءَ ! وأقوى عاطفة ، على ذنبٍ اقترفه ، وسرٍ كاد أن يُعْلِنَـه في الكَعْبَـةِ ، وراح يَبْكي وَيَسْتَـرْحِمُ الإلـه الأعظم :

أسيـرُ الخـطايـا عـنـدَ بـابِـك واقفٌ
على وجـلٍ مـمـا أَنْـتَ بـه عـارِفُ
يَـخـافُ ذنـوبـاً لم يَـغِبْ عـنـك غَيْبُهَـا
ويـرجـوك فـيهـا ؛ فـهـو راجٍ وخـائـفُ
ومـن ذا الـذي يـرجـو سـواك ويـتّـقي
ومـا لـك في فصـلِ الـقضـاءِ مـخـالِفُ

فاذا استلهم ابنُ الفرضي عـاطِفَتَه الـدينيةَ الصـادقةَ ، وابتهـلَ الى اللهِ بأبياتٍ زُهْدِيّة تفيضُ بالتقوى والايمان نادى ربَّه من جديد وفي كثيرٍ من أملٍ أن يُحْسِنَ عاقِبَتَه ، ويغفرَ ذنبَه ، ويُكْرِمَه يومَ الحساب ، وكأنه عادَ اليه يـرجُوه أن يُكْرِمَه بالشهادة :

فـيـا سيـدي لا تُـخْـزِني فـي صحيفتي
إذا نُـشـرت يـومَ الحـسـابِ الصحـائِفُ
وكن مؤنسي في ظُلْمَـة الـقبـر عـنـدمـا
يـصـدُّ ذوو القُـربى ، ويجـفـو المـؤالِفُ
لئن ضـاق عني عفْـوُك الـواسـعُ الـذي
أُرَجّـي لإسـرافـي فـإنـي لـتـالـفُ

وتستجيب السماء لدعاءِ العالِم الورعِ فتكتبُ له الشهادةَ ويقْتَلُ على يدِ

البربر في ثورتهم على قرطبةٍ في السادس من شوال سنة أربعمائة وثلاث للهجرة ، الحادي والعشرين من نيسانَ سنة ألف وثلاث عشرة للميلاد وهو يردد فيما يؤكدُ ابنُ حزم عمّن رآهُ بين القتلى قوله : « لا يُكْلَم أحدٌ في سبيلِ الله ، واللهُ أعلمُ بمن يُكْلَمُ في سبيله ، الاّ جاء يومَ القيامة ، وجرحُه يُثْعَبُ دماً ، اللونُ لونُ الدّم ، والريحُ ريحُ المسك » . ويوارى العلاّمةُ الشهيد متغيراً من غير غسلٍ ، ولا كَفْنٍ ، ولا صلاة .

ولد أبو الوليد ابنُ الفرضي في قرطبة سنة ثلاثمائة واحدى وخمسين للهجرة ، تسعمائة واثنتين وستين للميلاد وبها نشأ ، وعاش ، وأتم دراستَه على نُخْبَةٍ من جهابذةِ علماء زمانِه ، أمثالِ أبي زكريا يحيى بن مالك بن عائذ ، ومحمد بنِ أحمد بنِ يحيى القاضي وأمثالِهما كما يؤكدُ الحافظُ الذهبي في كتابه العبر في خبرَ من غبر .

كان ابن الفرضي فقيهاً محدثاً خطيباً جمّاعاً للكتب حتى صار له فيها خزانةٌ عامرة ، وقد قرضَ الشعرَ وقال فيه أبياتا تفيضُ بعاطفةٍ دينيةٍ ظاهرةٍ كما يؤكد المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا بينا يعتبرُه ابنُ بسامِ صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » شاعراً مُقِلّاً هو الى العلماء ادخلُ منه الى الشعراء .

وضع ابنُ الفرضي كثيراً من الكتب مثلِ ، تاريخِ شعراء الأندلس ، وكتابِ أخبار شعراء الأندلس، في ما جمع في المؤتَلَف والمختَلَف كتاباً حسناً ، غير أن شهرته طارت بمعجمِ أعلامِه المسمى « تاريخُ علماء الأندلس » أو تاريخُ العلماءَ والرواةِ للعلم بالأندلس وهو أقدمُ معجمِ رجال عامٍ في المكتبة الأندلسية بلغ فيه الغايةَ والنهاية، فنشره المستشرق الاسباني كوديرا في سلسلة المكتبة العربية الاسبانية في سنتيّ ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ .

اعتمد ابنُ الفرضي في وضعِ كتابِه الذي رتَّبه على حروف المعجم على مؤلفين سابقين عليه منهم ابنُ الطحان أبو الأصبغ عبدُ العزيز بن علي الاشبيلي من أهل استجة ، وعليُ بن معاذ بن سمعان بن موسى ، في ما وضع تلميذُه أبو

بكـر بن مهلب ذيلاً على الكتـاب أسمـاه « تعليقٌ على تـاريـخِ ابن الفـرضي واستلحاق » .

هذا وقُيِّض لمعجمِ ابن الفرضي عـددٌ من العلماء والنـابهين فوضع ابنُ بَشْكَوال ذيلاً عليه باسم « كتـاب الصلة » كما وضـع ابنُ الأبّار تكملةً لكتـاب الصلة أتم به تراجمَ علماءِ الأندلس حتى القرنِ السادس للهجرة، الحادي عشر للميلاد .

الحقيقةُ أن عنايـةَ الناسِ بـالأندلس بلغت الغـايةَ في تصنيفِ معـاجمِ الأعـلام وفهارسِ الكتب وذاعت بينهم ذيـوعـاً واسعـاً ، وهي وإن دلت على شيء فعلى مستوى المعارفِ واتساعِ آفاقها عندهم حتى مست الضـرورةُ إلى وضعِ المعاجِم لطوائفِ الرجال وفروعِ العلم جميعاً . غير أنّ معجمَ ابنِ الفرضي الذي جمع فيه ألفَ وستمائة واحدى وأربعين ترجمة لجهابذة العلماءِ الأنـدلسيين في الفقه والحـديثِ ، والقِراءة ، والفتـوى يأتي على رأسِ هـذه المعاجم جميعاً ، مكانةً علمية ومرجعاً .

سيبقى ابنُ الفرضي العالمُ ، الثقةُ ، الحجةُ في تاريخ الأندلس الفكري أولَ مؤلفٍ لمعـاجمِ الرجـال ، وسيبقى معجمُه تـاريخُ العلمـاءِ في الأندلس مصدراً موثوقاً يُعتمد عليه ، ويرجع اليه .

□□□

ابن هانيء الاندلسي
متنبي الغرب
٣٢٦هـ / ٩٣٧م - ؟

منـذ ان عـرفَ الأنـدلسُ العـربي في القـرنِ الثـالث للهجـرة ، اوجهـاً للخصومة الأدبية بينه وبين المشرق العربي يوم أثار هذه المشكلةَ ابنُ عبد ربه في مُقَدِّمَة كتاب العقد بقوله : « وقرنت بها غرائبَ من شعري ليعلمَ الناظرُ في كتابِنَا هذا ان لمغربِنَـا على قاصيتـه ، وبلدِنَا على انقـطاعه حـظاً من المنظوم والمنثور»، وهو يحاولُ تكوينَ شخصيـةٍ أدبية مستقلةٍ تتميـز عن أدبِ المشرقِ وثقافته . فقدّر له ذلك مع اطلالةِ القرنِ الرابعِ للهجرة بعد ان هضمَ ثقافاتِ العالم القديم ولقَّحَ بها امكاناتِهِ الفكرية .

هذا ، وبالرغم من الاستقلالِ الفكري الذي حققه الأندلسُ ظل يعاني مركبَ نقصٍ امامَ المشرق العربي ومدارسِهِ المختلفة وقد كان ذلك واضحاً في كثيرٍ من مظاهرِ حياته الاجتماعيةِ والثقافية .

يؤكد نكلسون الناقدُ الانكليـزي « ان تقديس الانـدلسيين لكل مـا هو شرقي يكادُ يحسُّه كُلُّ مُطَّلع على تاريخهم في شتى المواضيع ، فلقد تغالوْا في ذلك حتى كانوا ينظرون الى الشرق نظرةَ اجلال وتقدير » .

فلقَبوا نوابـغَ شعرائهم وكتـابهم وكبارَ المغنين عنـدهم بالقـابِ واسماءِ نوابغِ المشرق العربي فابنُ هانيء متنبي المغرب ، وابنُ زيدون البحتـري ،

فلقد كان اقصى ما يطمح اليه نابهٌ عندَهم ان يلقب باسم شرقي عظيم .

لقد تبوأ محمدٌ بنُ هانيء عرشَ الشعر العربي في المغرب لفخامة ديباجته ، ودقة وصفه ، وقوةِ تراكيبه ، وجمالِ معانيه ، وتلقب بالمتنبي تيمناً بشاعرنا الخالد ابي الطيب .

من الثابت عند بعضِ النقاد ان ابنَ هانيء ولد سنة ثلاثمائة وعشرين للهجرة ، تسعمائة واثنتين وثلاثين للميلاد بينما يرى آخرون انه ولد سنة ثلاثمائة وست وعشرين للهجرة ، تسعمائة وسبع وثلاثين للميلاد . هذا وكما اختلف النقادُ في تحديدِ مولده اختلفوا ايضاً في تحديد موضع ولادته وان اخذ بعضُهم بالرأي القائل انه ولد في اشبيلية مدينةِ الغناء واللهوِ والمجونِ .

يرجع بعضُ الدارسين لترجمةِ ابن هانيء نسبه إلى يزيد بنِ حاتم بنِ ابي صُفرة الأزدي بينما يرى آخرون أيضاً أنه من ولد روح بنِ حاتم الأزدي وأن والدَه سعدون نشأ في إحدى قرى المهدية في شمال افريقيا وعُرف بدعوته للاسماعيليين ، ثم انتقل الى الأندلس لنشر الدعوة وتعليمِ العقيدة .

نهض ابنُ هانيء في الأندلس على مذهب ابيه فأخذ عنه اسرارَ وتعاليمَ الاسماعيلية وهو بالرغم من اتصاله بصاحب اشبيلية الذي اكرم وفادته ، واحسن له وقرّب منزلتَه اضطر إلى مغادرةِ البلاد الى المغرب بعد ان حقد سكانُ المدينة على الأمير ، ونقموا عليه لتأثره بمذهب الشاعر ودعوتِهِ الى امامةِ الفاطميين وهم من المالكية المتشددة .

ما ان استقرَ الشاعرُ في المغرب ، وكان ارضاً خصبة للاسماعيلية حتى بزغ نجمُهُ ، وعلا كعبُهُ ، وقدر له ان يتصلَ بجوهر الصقلي قائد المعز ، ثم وفق الى ان يتصل بالمعز نفسِهِ ، فمدحه وتقرب منه ، فعلت عند الخليفةِ الفاطمي منزلتُهُ ولم يلبث ان اضحى شاعرَه الأول .

كانت سيرةُ الشاعر وما عرف من عقيدتِهِ الاسماعيلية ودعوتِهِ للفاطميين سبباً في وضع حد لحياته على يد خصومه الأمويين في ما يؤكد الرواة .

لقد وُجِدَ الشاعرُ قتيلاً في مدينة برقة من بلاد طرابلس غداةَ عودته اليها ليهيء نفسَه وعائلتَه ، ليلحق بركب مليكه المعز الذي سار الى مصرَ وقد خضعت لدولته .

يحدث ابنُ خلكانِ في كتابه (وفيات الأعيان) فيشير إلى ان رجلاً من اهل برقةاستضاف الشاعر فأقام عنده في مجلس أُنس ، ويقال إن جماعةَ المجلس عربدوا عليه وقتلوه . بينما يؤكد ابنُ الأثير ، وابو الفداء وابن خَلْدون انه مات مخنوقاً على يد اعدائه الأمويين ،في مايرى ابنُ الخطيب وابنُ الأبّار انه قتل في برقة على صورة غامضةٍ دون ان يذكرا شيئاً عن خصومه الأمويين .

لقد ساءَ مقتلُ ابنِ هانيء الخليفةَ المعز ، فحزن عليه لأنه كان يأمل ان يفاخر به شعراء المشرق في ما تؤكد الرواية العربية .

قضى ابنُ هانيء غيلة على يد خصومه فانطفأت تلك الشعلة المتوقدة من النبوغ والعبقرية ، والشاعرُ لا يزال ربيعاً ، وكما شاء الشاعرُ ان يقلد ابا الطيب في بعض مظاهر شعره وان يتلقب بلقبه قلده مكرهاً بالنهاية المؤلمة وعلى يد عدو من خصومه والحاقدين عليه .

ان من الصعوبةِ بمكان ان يفهم الدارسُ حقيقةَ شعر ابن هانيء في الخليفة المعزّ وفي بعض الموضوعات الأخرى التي تمتّ إلى عقيدته بصلة قبل ان يدرس جوهرَ المذهبِ الاسماعيلي والمرامي البعيدة التي اذاعها في المغرب ، وكنَه الأهدافِ السياسية والاجتماعيةالتي نادَى بها الشاعرُ وهو يمدحُ الخليفةَ ويدعو لمذهبه .

كان ابنُ هانيء طلعةً بين شعراء الاندلس فصطع نورُه في المغرب العربي وقد بهر شعرُه النقادَ والأدباء فاجمعوا على مكانتِهِ الأدبية يومَ انشد في كل فنون الشعر المعروفةِ في عصره ولم يحبسْ نفسَه للأمراء كما فعل سميُّهُ ابو الطيب .

في ضوء هذه الحقيقةِ الأدبية نفاخر بابنِ هانيء متنبي الغربِ وننوه

بجمال غزله ودقة وصفه ، خاصةً لشاعريته الخصبة المتدفقة ولاحساسه الغريب المتفاعل مع نفسيته المُلْهَمَةَ وشخصيتِهِ الفذّة ونرددُ معه .

ألـؤلؤٌ دمـعُ هـذا الـغيـثِ ام نُـقَطُ ... مـا كـان احسَنَـه لـو كـان يُلْتَقطُ
بين السحـاب وبين الـريـح ملحمـة ... فقـاقِـعٌ وظبي في الجـو تَخْتَـرِطُ
غمـائمٌ في نـواحي الجـوّ عـاكفـةٌ ... جُعْـدٌ تحـدّر منهـا وابـلٌ سَبِطُ
كـأن تَهْتَـانَهـا في كـلِّ نـاحيـةِ ... مَـدٌّ من البحـر يعلو ثمَّ يَنْهَبِطُ

بلى هو ذا الشاب الشاعر يودع الدنيا في صخب وفي مجون ، وتودعه الحياةُ في حزن وفي أسى لأنه ذوى في مقتبلِ عطاءِ خير قبل ان يسموَ به إلى ذؤابة الأعلام ، وهو ان تبوأ في الحياة وفي نظر الأندلسيين خاصةً مرتبةَ كمرتبةِ ابي الطيب فلقد خلد ذكرُهُ مع الخالدين من الاعلام .

□□□

المعتضد
الشاعر الملك

؟ - ٤٣٤هـ - ١٠٤٢م

مع اطلالة القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد اخذت الدولة الأموية في الأندلس التي قدر لطارق بن زياد عامل الدولة العربية في طنجة ان يخضعها للنفوذ العربي سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، سبعمائة وعشرة للميلاد ، كما قدر لعبد الرحمن بن هشام صقر قريشٍ ان يقيم على جنان الأرض المزهوة الضاحكة للشمس الامارة الأموية سنة مائة وثمان وثلاثين للهجرة ، سبعمائة وخمس وخمسين للميلاد ، وان يعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة الأموية في قرطبة وينشيء حضارة زاهية سنة ثلاثمائة وست عشرة للهجرة ، تسعمائة وثمان وعشرين للميلاد .

قلت مع اطلالة القرن الخامس للهجرة تناثرت اجزاء الدولة الأموية في اندلسيا العرب ، وخفت الضوء الذي بهر الغرب خلال قرنين من الزمن بعد ان اقام فيها اعلام الدولة ، قصر اشبيلية ، وجامع قرطبة ، وحمراء غرناطة ، والزهراء ، آيات الفن العربي ، ومثلاً اعلى للحضارة والترف الانساني .

كانت الدولة الزيرية نسبة الى مؤسسها زاوي بن زيري اول دولة بربرية قامت في الأندلس سنة اربعمائة وثلاث للهجرة ، الف واثنتا عشرة للميلاد واتخذت مدينة غرناطة القمة المحاطة بنهر شنيل والمطلة على جبال سيرا نفادا قاعدة لها .

هذا ، وكما كانت غرناطة اول كرسي لحكم مستقل عن الدولة الأموية

كانت ايضاً آخر دولة عربية سقطت في ايدي الروم سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للميلاد ، وخرج منها ابو عبد الله بن الأحمر وقد اغرورقت عيناه بدموع حرّى .

في هذه الفترة بالذات بين قيام اول دولة مستقلة في الأندلس وسقوط آخر معقل عربي فيها قامت في اشبيلية مدينة الفن والغناء في الأندلس دولة بني عبّاد اقوى ملوك الطوائف .

عرفت الدولة العبّادية رجالاً عظاماً في الحكم والادارة والدهاء السياسي يعتبر عبّاد بن محمد ابو عمرو الذي لقب بالمعتضد من اعظمهم مرونة وحزماً ، حتى خافه الناس لكثرة بطشه وظلمه .

كان المعتضد ذا مزاج غريب متناقض ولعل اوضاع بلاده والحالة التي آل إليها الاندلس العربي جميعاً فرض على الأمير الحاكم ان ينهج في سياسته نهجاً متقلباً بعيداً عن سياسة القادة المرسومة المتزنة .

من هنا كان المعتضد يجمع بين الدهاء والقسوة ، وبين الاحساس المترف والعلم الواسع ، وبين الذوق الرفيع النفاذ وبين الظلم ، الى جانب ذاكرة واعية ، واخيلة شاعرية طيبة ، وبطش اسطوري رهيب لا يتوافق ورقة شعوره ، ومزاجه الشعري الملهم .

يؤكد النقاد وفي طليعتهم المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا ان المعتضد عبّاد بن محمد كان نظير سميه المعتضد العباسي استبداداً وظلماً ، ويذكر ابو عبد الله بن الأبّار في كتابه الموسوم « بالحلة السيراء » ان المعتضد بلغ في فتكه وظلمه مبلغاً عظيماً فقد قتل اول من قتل وزير ابيه حبيب طعنة ، وانه اقام في قصره خزانة اودعها هام الملوك الذين قتلهم ، ويروي غير واحد ان المعتضد اتخذ من جماجم اعدائه أصصاً زرع فيها الزهور والرياحين .

إلى جانب ما عرف عن المعتضد من الظلم والقسوة فلقد كان مسرفاً في

لهوه وعبثه ، محافظاً في مجالسه على مركزه كملك مهيب ، وهو مع ذلك لم يرعو في بعض خمرياته التي كانت الغاية في رقة الذوق ، وجمال الاسلوب ان يأتي فيها على بعض المعاني التي تمس العقيدة ومن شعره :

اشـرب على وجه الصبـاح   وانـظر الـى نـور الاقـاح
واعـلم بـأنـك جـاهـل   ان لـم تـقـل بـالاصـطبـاح

الواقع ان عبّاد بن محمد كان طموحاً ولم يأل جهداً في محاربة كثير من الدول التي قامت على اطراف بلاده وضم بعضها الى ملكه ، ونراه بالرغم من حكمه المتناقض ، ومن بطشه الاسطوري يرى نفسه خير ملوك الأرض قاطبة اذ يقول :

هذي السعادة قد قامت على قدم   وقد جلست لها في مجلس الكرم
فإن اردت الهي بالورى حسناً   فملكني زمامَ العرب والعجم
فإنني لا عدلتُ الدهر عن حَسَنٍ   ولا عدلتُ بهم عن اكرم الشيم
اقارعُ الدهر عنهم كُلَّ ذي طلبٍ   واطـرد الـدهـر عنهم كُـلَّ مـا عرم

ليس من شك في ان المعتضد الذي تسلم عرش اشبيلية سنة اربعمائة وثـلاث وثـلاثين للهجـرة ، الف واحـدى واربعين للميـلاد كـان بـدعـاً بيـن حكام الأندلس فلقد اتخذ كثيراً من النساء وخلط بين اجناسهن حتى كان له سبعون جارية وكان كما يؤكد ابن حيان اكبر مؤرخي الأندلس في عصره :

«إن سياسة القوة والبطش التي نهجها المعتضد في حكم مملكته الى جانب مجونه واسرافه في اللهو ، وانغماسه في الملذات ، والابتعاد عن حكم اشبيلية حكماً مرسوماً عادلاً افسد عليه تربية وليّ عهده محمد بن عبّاد المعتمد وافسح له أن يدفع بالدولة الى نهايتها المؤلمة » .

الدارس لحياة المعتمد وعلاقته مع ابن عمّار يوم ولاّه ابوه على شلب يدرك المصير الذي دفع المعتمد إلى الأندلس نتيجة لحياة الترف واللهو

المتفشية في البلاد ، الى جانب طموح العبّاديين الى توسيع رقعة دولتهم على حساب جيرانهم من ملوك الطوائف ، واقحام البلاد في معارك جانبية كانت بغنى عنها في تلك الظروف العصيبة .

نحن لا ننكر ان طبيعة الأندلس واوضاع العرب في شبه الجزيرة جعلت من المعتضد شخصية غريبة افسدت عليه تهيئة ولي عهده لحكم البلاد ، وإنما ننكر على الدولة العبّادية اسرافها في التوسع على حساب العرب انفسهم وتسخير الدولة لمآرب حكامها ونزواتهم ، وللاسراف في تبذير اموال الدولة حتى عجزت في عهد المعتمد عن دفع الإتاوة لادفونش بن فرديناند ملك قشتالة .

مع كل هذا فلقد جمع المعتضد بين كل هذه المتناقضات وبين شاعرية متدفقة حلوة المعاني ، قوية السبك ، جميلة الألفاظ امدتها طبيعة الأندلس بالمفاتن والصور البديعة والأوصاف الحلوة ، والتشابية الرقيقة فجعلتها في ذؤابة المخيلات الأندلسية قوة عطاء ، وجمال صور .

ان ظروف الأندلس العصيبة دفعت بالمعتضد ان يسلك طريقاً وعرة للحفاظ على ملك محفوف بالمخاطر مهدد بالسقوط ، وهو وان اقام ملكه على اطراف الأسنة كما يقول ابن الأبّار فلم يقو ان يحافظ عليه طويلاً لأنه لم يهيء له ملكاً مدبراً حاكماً ، فلقد سقطت الدولة العبّادية في عهد ولده المعتمد يوم بكى الاندلسيون شاعرهم وقائدهم وهو مسوق بين ثلة من رجال يوسف بن تاشفين الى اغمات اسيراً .

لقد سيج المعتضد الدولة بالظلم والقوة ولكن سرعان ما سقطت على اطراف نهر الوادي الكبير نتيجة حتمية للظلم والقوة . وان ظل المعتضد كشاعر في طليعة شعراء عصره ، روعة وصف ، وابداع صور ، وتدفق خيال ، محباً للشعراء ، حتى كان بلاطه موئلاً لعدد كبير منهم في مقدمتهم ابو الوليد بن

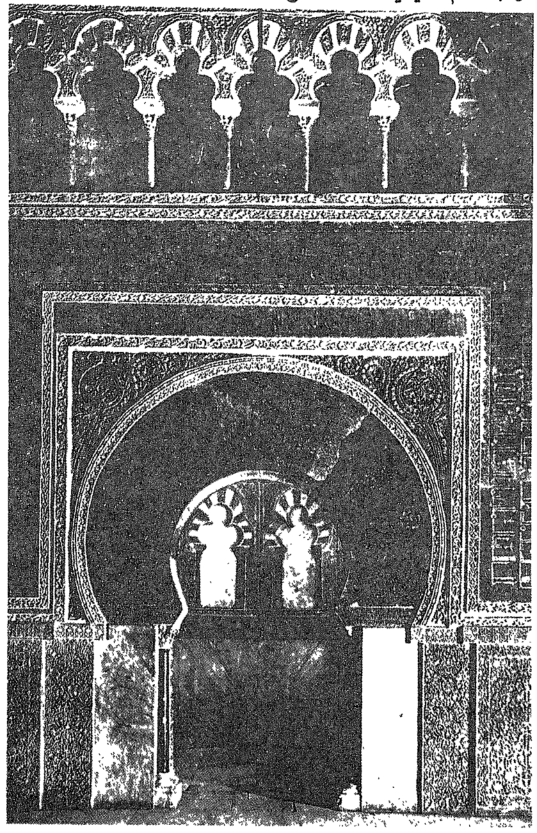
حبيب وزيره وكاتم اسراره ، وابو بكر بن القوطية الذي اضحى في ما بعد نديم ابنه المعتمد ،وعلي بن حصن الذي يعتبره المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا في قمة شعراء الـوصف ابداعـاً ، ورقة ، ومن شعـره في وصف « فرخ الحمام » .

وما هاجني إلا بن ورقاء هاتف على فنن بَيْنَ الجزيرةِ والنّهرِ
مُفستقُ طوْقٍ لازورديُّ كَلْكَلٍ موشى الطُّلى أحوى القوادمِ والظّهرِ
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤٍ وصاغ من العقيان طوقاً على الثغرِ
حديدُ شبا المنقار داج كأنّه شبا قلم من فضة مُدَّ في حِبْرِ
توسد من فرع الأراك أريكة ونام على طيٍّ الجناح مع النَحْرِ
ولما رأى دمعي مُراقاً أرابــه بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه ، وصفق طائراً وطار بقلبي ، حيث طار ، ولا ادري

وبعد كيف لا يجتمع هؤلاء واضرابهم حول المعتضد ، الملك الشاعر الذي ترك لولي عهده مجدين ، الحكم والسلطة ، ودولة الشعر ، فخانه الحظ في المجد الأول، في حين رافقه وحتى القبر المجد الآخر !

□□□

محراب الحكم الثاني في المسجد الجامع بقرطبة



ابن حزم القرطبي
أعظم مصنف أنجبه
الاسلام في الأندلس

٣٨٣هـ / ٩٩٣م - ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م

لـم يعرف الأندلسُ الاسلامي في أواخرِ عهدِ الدولةِ الأمويةِ في قرطبة، كابن حزم العالم والفيلسوف والمؤرخ والوزير علماً ثقةً مُثْمِرَ الدراسةِ والجدل، ومؤلفـاً في مختَلَفِ نواحي الفكـر البشري من الفقـه والحديث والأصـول الى المَنطقِ والفَلسفة والكَـلام، الى تاريـخ الديَـانات في عقـائدهـا وبدعها، الى الدروس النفسية، الى التاريخ والأدب والشعر والخطابة والأنساب في أسلوبٍ بليغ رصين.

ولد ابن حزم في اليوم ِ الأخيرِ من رمضانَ سنةَ ثلاثمائةٍ وثلاثٍ وثمـانينَ للهجرةِ وقد أطلق عليه أبوه عمرُ بنُ أحمدَ بنِ سعيدٍ اسم «علي».

أحب ابنُ حزم ٍ وهو لا يزال يافعاً فتاةً تمنعَتْ عليه فطَوَى نفسَه على أَلَم ِ الحبِ والشوقِ والرجاء مما دفع دوزى المستشرقَ الهولندي الى أن يعلل موقفَ ابن حزم هذا الى طبع ٍ متأصل ٍ في جنسه ليؤكدَ أنه ينحدرُ من أصل ٍ نصراني ٍ اسباني ٍ بينما نقضَ هذا الرأيَ المستشرقُ الاسبانيُ بلاثيوس بعد أن استعرض أمثلةً كثيرةً من الحب العذري والعِفَّةِ الزوجية عند عربِ الأندلس ِ مثبتاً أن هذه الظاهرةَ عند ابنِ حزم ترجعُ الى ما في الاسلام من نوازع زهديةٍ.

هـذه الحقيقةُ في أصـل ِ نسبِ ابنِ حزم ٍ تـدفعنا الى الأخـذِ بما أورده العلماءُ وفي طليعتهم ياقوتُ الحموي الذي يؤكدُ في كتابه «معجمُ الأدباء» أن

ابنَ حزم يرجعُ في نسبهِ إلى يزيدَ الفارسيِ مولَى يزيدَ بـنِ أبي سفيان وأنه نشأ وعائلتَه في قرطبةَ واصلَهُ من اقليم الزاوية في غربِ الأندلس.

درس ابنُ حزم الحديث على ابي عمرَ احمد بن الجسور فتهيأ له بذلك ادراكٌ طيبٌ لتاريخِ البشر والأديانِ كما تعلم المنطقَ على يد الشيخِ الكتاني ، واخذ الأدبَ والشعرَ عن ابي القاسمَ عبدِ الرحمَن بنَ يزيدَ الأزدي وكان قد درس الفقهَ على يدِ المتشرع الأندلسيِ النابهِ عبدِ الله بنَ يحيَى بنِ دحونَ وكلُّهم من جهابذةِ علماءِ عصرِهِ .

مال ابن حزم منذ مطلع الشبابِ وبعد ان قرأ مُوَطّأَ الامامِ مالكٍ على يدِ أستاذه ابن دحونَ الى مذهبِ الامام محمدٍ بنَ ادريسِ الشافعي غير أنه لم يظل شافعياً الا حـقبةً قصيرةً من الزمنِ اذ استَحسنَ المذهَبَ الظاهرِيَ الذي أنشأه داودُ الأصبهاني والذي كان يأخذُ بالنصِ الحـرفي لآي الذكـرِ الحكيم وينفي القياسَ العقلي.

أنكر فقهاءُ المالكيةِ في الأندلس على ابنِ حزم مذهبَه ومنعُوه واستاذَه أبا الخيار مسعوداً بنَ سليمانَ من التدريس في جامع قرطبةَ، فكان لموقف الفقهاءِ منه وتتبُعِهم اياه أثرٌ عميق في خُلُقِهِ ونفسِهِ .

كان ابنُ حزمٍ يؤمنُ بأن سلامةُ العقيـدةِ والشرف فـوقَ الحياة نفسِهـا، ومن هنا كان مخلصاً لأصدقائِه يتفانى في سبيلِهم، لدوداً في خصومتِه، ولوعاً بالسخرية من مناهضيه، شديدَالاعتدادِ بما أوتيَ من عِلمٍ ، فضلاً عن أنه كان في ايمانِه أقربَ إلى العقليينَ منه الى العاطفيين.

يعللُ العالم الاسبانيُ آسين بلاثيوس كـلَ ذلك في شخصيـةِ ابن حزمٍ بقوله « إن الرجلَ قد عاينَ من ألوان الظلم ما أنضبَ معه معيَن الرِّقة واللينِ في نفَسِه، كما شاهد من مساءاتِ الفوضى السياسية التي ضَربت الأندلسَ ما نفّر نفسُـه، وقد أوذِيَ في شخصـه وكرامتِـه بما لَقِي منَ الاضـطهاد ورأى النـاسَ يُنكِرون قدرَه، ويتهجمون عليه ويقاطعون مذهبَه الديني، ويحرّمونَه فاستقر رأيُه

على أن يعتزلَ الدنيا وينزويَ في موطِن أسرته « ست ليشم » التي ودّعت العَالِمَ ، والوزير ، والفقيهَ ، والأديبَ والشاعرَ يومَ وفاتِهِ في شعبانَ سنة أربعمائة وستٍ وخمسينَ للهجرة وهو يردد :

تقــر لـي الـعــراقُ ومَـن يـليـهَــا   وأهــلُ الأرض الاّ أهــلُ داري

ألف ابنُ حـزم في الفقهِ والمنـطِق، والتاريـخ واللغـةِ والأدبِ، وكـان صاحبَ علمٍ في كل فن حتى قيل أن كتبه بلغت أربَعمائةَ مجلدٍ في نحو ثَمانينَ ألفَ ورقة أهمها كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل» الـذي يعتبر بحقٍ تاريخاً نقدياً للأديان والفرقِ والمذاهب ، وقد نقله الى الإسبانية العالمُ الأسباني بلاثيوس .

حاول ابنُ حزم في دراساتِه هذه أن يوفقَ بين العقلِ والعقيدةِ سـابقاً في هـذا المنحى الفيلسـوفَ ابنَ رِشدٍ، كمـا اجتهـدَ أن يـطبقَ على الالهيـات أصـولَ المذهَب الظاهري الذي اعتقده متبعاً قواعدَ عَامةٍ هي الأخذُ بالمعنى الحرفي للقرآن الكريم، والاجتهادُ في تفسيرِ آيه تفسيراً عقلياً معتمداً على اللغةِ ومعانيَ مفرداتها المقررةِ في المعاجِم، وَعَدَمُ تقليدِ مذهبٍ سندُه عِن الصحابةِ، أو ما قرره اجماعُ المسلمين.

الى جانب أهمية كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل» يأتي كتابُه في الدروس النفسية والأدب «طوقُ الحمامةِ في الألفة والألّاف » وهو رسالَة في الحبِ والمحبينَ مؤلفةٌ من ثلاثينَ فصلاً يدورُ كلٌ منها حَول موضوعٍ واحدٍ من موضوعاتِ الحب.

ويعتبرُ هذا الكتاب وهو أولُ تصانيف ابنِ حزم أدقَ مـا كَتَب العربُ في دراسة الحب وتعدُد أسبابه، وَتَنَوع مَظَاهِره وتطوراتِهِ .

استمدَ أكثرَ مواد الكتابِ من اختباراتِه الخاصةِ واختباراتِ معاصريه فقدم تفاصيلَ عظيمةً عن حياةِ الأندلسيين في بيـوتِهم خلالَ القـرنِ الحاديَ عشـرَ، ولقيَ الكتابُ في رأيِ النقادِ المعاصرينَ استحساناً كبيراً لأهميتِه العلمية وقيمةِ

مَوضوعه الانساني وكان آخرَ من اهتمُ به ونقَله الى الاسبانية وقدم له باسهابٍ المستشرق الاسباني اميليو غرسيا كومس .

لقد عَرَفَتْ أسبانيا الحديثة ، قدْرَ الفيلَسُوفِ النَابغ فأقامت له تمثَالاً عظيماً تخليداً له في مدخلِ مدينةِ قرطبَة عندما احتفلت مع العالم العربي بذكرى مرورِ ألفِ سنةٍ على مولده .

أن ابنُ حزم سيظل سيداً من ساداتِ الرأيِ والعلمِ والتاريخِ لا يدانيهِ في العظمةَ سوى مصنفِ الاسلام الأولِ أبو جعفرٍ الطبري .

يرى آسين بلاثيوس في ما اورده عنه بالنثيا في كتابه تاريخ الأدب العربي الاسباني : « ان ابن حزم يقسم الناس من حيث موقفهم من أمر العقيدة ـ الى ستة أقسام يرتبها بحسب بعدها او قربها من الاسلام ، وهي :

أولاً : « شك السوفسطائية ، الذين يبطلون الحقائق .

ثانياً : الحاد الفلاسفة ، الذين ينكرون وجود إلآه خالق ويقولون : « ان العالم قديم ، وليس له مدبر» .

ثالثاً : كفر الفلاسفة ، الذين يقولون : « ان العالم لم يزل ، وله مع ذلك فاعل» . . اي ينكرون وجود إلآه خالق للعالم الأزلي .

رابعاً : ثنائية الإلّه التي يقول بها الزردتشتيون والمانويون وتعدد الآلهة الذي يقول به النصارى المؤمنون بالثالوث .

خامساً : توحيد البراهمة والعقليين ، الذين يؤمنون بوجود إلآه واحد ولكنهم ينكرون النبوة والملائكة .

سادساً : توحيد اليهود ومن انكر التثليث من النصارى ، ومذهب الصابئة ومن أقر بنبوة زردشت من المجوس وانكر ما سواه » .

□□□

ابن رشيق القيرواني

اول ناقد انجبه الشمال الافريقي

٣٩٠هـ / ١٠٠٠م - ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م

لم يعرف الشمال الافريقي علماً ثقة ، وشاعراً ملهماً ، واديباً فذاً وناقداً بـذ اقرانَـه في المشرق والمغـرب العربيين ، دقيق المـلاحظة ، واسَع النظرة النقدية ، متضلعاً باللغة ، عارفاً بأسرارها ، متقنـاً لدقـائقها كمـا عرف الشـاعر والناقد ابا علي الحسن بنَ رشيق القيرواني الأزدي صاحبَ التصانيف الغريبة ، والرسائلِ البديعة والكتبِ الفريدة النادرة .

ولـد ابنُ رشيق سنة ثـلاثمائـة وتسعين للهجرة، الف للميـلاد في مدينـة المسيلةِ او المحمدية من مقاطعة الزاب في الجنوب من الجـزائر حيث تُـطِل بلدتُهُ المتحضرة على اكتافِ الصحراء من الجنوب وعلى الحدائقِ في الشمال وكأنها الحدود الفاصلة بين البداوةِ والحضارة في الجزائر، او الجسرُ الذي يربطُ واحاتِ الصحراء الشاسعةبالمروجِ الخضراء والجنات الضاحكة المبعثـرة في شمال الأرض الطيبة .

هـذا ولعل البيئـة التي وعت مناغـاةَ الطفـل وحضنتـه وليـداً يتنقـل في ارجـائهـا ، ويتعلم على بعض رجـالاتهـا ، ويلتقي ببعضِ الشعـراء الكبـار الـوافدين عليهـا جعلته بين بين في شخصيتـه واخلاقـه وديانتـه وعلمه وادبـه وتصرفاتِهِ جميعاً فلم يَطِبْ له المقام في مدينته بعد ان تعلم على ابيه صناعة الصياغة وما يتصل بها يومئذ من علوم ادبية ودينية وقد اتقن القرآن الكريم على قاضي البلدة وعالمها طاهر بن عبد الله الذي ظلت صلاتٌ من الـود الخالص

والحب المتبادل تربطُ بين الاستاذِ العالِمِ الفقيه والتلميذِ الشاعرِ الأديب حتى بعد ان غادرَ مسقطَ رأسه فبكاه يوم وفاته .

أمَا لئن صحَّ ما جاء البريدُ به ... ليَكثُرَنَّ من الباكين اشياعي
ما زلْت افزعُ من يأسٍ ومن طمعٍ ... حتّى ترفّعَ يأسي فوق اطماعي
فاليوم انفقُ كنزَ العمر اجمعَه ... لمّا مضى واحدُ الدنيا بإجماع
توفي الطاهرُ القاضي فواسفاً ... ان لم يوفِّ تباريحي وأوجاعي

وفي القيروان قاعدةِ الحكم العربي في الشمال الافريقي والأندلس ابان الحكم الأموي ادرك ابن رشيق وهو بعدُ فتى غضُّ الايهاب وفاةَ ناصر الدولة ابي مَناد باديس المنصور سنة اربعمائة وست للهجرة، الف وثماني عشرة للميلاد كما حضر بَيْعَة ولده المعزّ بن باديس الملقب بشرف الدولة فرثا الشاعرُ على غرار ابي تمام الأمير الراحل ومدح الأميرَ الجديد موطداً صلاتِهِ بذؤابة البيت الحاكم ، محب العلم ، ومكرم الشعراء :

لَدْنُ الرِّمَاح لِمَا يَسْقِيَ أسنَّتها ... من مهجة القَيْلِ أو من ثُغْرةِ البَطَلِ
لو اثْمَرَتْ من دَمِ الاعداءِ سُمْرُ قَناً ... لأورقت عنده سُمْرُ القنا الذُّبُلِ
اذا توجّه في أُولى كتائِبِه ... لم تَفرقِ العينُ بين السهل والجبلِ
فالجيشُ ينفضُ حوليه أسنَّتَهُ ... نفضَ العُقَابِ جناحيهِ من البَلَلِ
يأتي الأمورَ على رفقٍ وفي دَعَةٍ ... عجلان كالفلك الدّوار في مَهَلِ

الحقيقة ان اقامةَ ابن رشيق في القيروان وهي المدينة الزاخرة بالحياة اتاحت له ان يتتلمذ على النخبة من علماء العصر وادبائه وفي طليعتهم عبد الكريم النهشلي الذي تأثر ابنُ رشيق بآرائه النقدية واثبت كثيراً منها في كتبه ، كما تتلمذ على أبي عبد الله عبد العزيز الخشني الذي عرّف به في كتابه النموذج ذاكراً سعة اطلاعه في النحو واللغة مؤكداً : « ان لا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه اخذاً للعلم واقتباساً للفائدة» .

الدارس لابن رشيق القيرواني يدرك ان الرجل كان متعدد جوانبِ الثقافةِ فهو شاعرٌ وناقدٌ وفقيهٌ ويبدو له انه اخذ عن جماعة من فقهاء العصر امثال ابي الطيب عبد المنعم بن خلدون ، وابي حفص عمر بن العطار ، وابي اسحق ابراهيم المعافري التونسي صاحب التعليقة على المدونة الذي حضر جنازته يوم وفاته والمعز وابن رشيق بالنظر لأحكام ذات اهمية له في القضاء .

هذا ويحدث غير واحد عن الحصري صاحب زهر الآداب انه اراد في عهد ابن رشيق ان يؤلف كتاباً في طبقات الشعراء يرتب فيه اسماءَهم على حسب سنهم وكان ابن رشيق اصغر هؤلاء الشعراء سناً فخاف ان يضع اسمه في آخر الاسماء فهدده بقوله :

رفقاً ابا اسحاق بالعالم   حصلت في اضيقَ من خاتم
لو كان فضلُ السبق مندوحةً   فضل ابليس على آدم

ولابن رشيق شعر جيد كان موضعَ اهتمام النقاد والدارسين ويبدو انه قال في الغزل والهجاء والدُعابة والمِلح والمديح الذي كان في المعز ومنه قوله :

دُمَّت لعَيْنِكِ أعينُ الغِزْلَانِ   قمرٌ أَقَرَّ لِحُسْنِهِ القمرانِ
وَثَنُ المَلَاحَةِ غير ان ديانتي   تأبى عليّ عبادةَ الاوثانِ

الى ان يقول :

يابن الأعزَّةِ من أكابرِ حِمْيَرٍ   وسُلَالَةِ الأمْلَاكِ من قحطانِ
من كُلِّ أبْلَجَ واضحٍ بلسانِهِ   يضعُ السيوفَ مواضِعَ التِّيجَانِ

اما غزله فهو الى النسيب اقرب منه الى هذا الفن كما حدّده الزجاجي ويغلب عليه الوصف والتأنق وتنعكسُ فيه صورةُ الحياة المترفة التي كان يعيشها في القيروان في ظل أميره المعز ، وفيه يصور ليلة لقاء :

ومن حسناتِ الدّهر عنديَ ليلةٌ   من العمر لم تتركْ لأيّامها ذنباً
خَلَوْنا بها ننفي القذا عن عُيُونِنا   بلؤلؤةٍ مملوءَةٍ ذهباً سَكْبا
وملنا لتقبيلِ الثُّغورِ ولَثْمِهَا   كميل جَنَاحِ الطّير يلتقط الحبَّا

غير ان هذه الليلة على ما يبدو كانت حداً لأيام مشرقة ضاحكة مع الأمير المعز بعد ان وقع بينهما الجفاء عندما دخل على الأمير وكان قد انتقل الى المهدية والأديبُ ابنُ رشيق قد انحشر في زمرته المحروبة وتحيز الى فئته المكتوبة كما يقول ابن بسام في الذخيرة وقد غشي المهدية في ما بعد اسطول الروم فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا فدخل الشاعر على الأمير وقد وضح الفجر وقام ينشده قصيدته التي مطلعها :

تثبت لا يخامرك اضطرابُ   فقد خضعت لعزتك الرقاب

فغضب المعز وقال له متى عَهِدْتني لا اتثبت ثم امر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فأحرقت وخرج ابن رشيق يومئذ من حضرة الأمير على غير هدى وكانت وجهته صقلية الاّ انه لم يركب البحر اليها وبقي متخفياً بالمهدية حتى رضي الامير عنه فجاء اليه وانشده قصيدة مطلعها :

اليك يخاضُ البحر فعماً كأنه   بأمواجه جيشٌ الى البحر زاحف

ومن ليلتها عادت الى ابن رشيق ايامُهُ الضاحكة ، ولياليه الجميلة وانطلاقة ثغره الباسمة .

بعد هذه الحادثة توجه ابن رشيق الى صقلية واتصل بأميرها ابن مطكود الذي احسن وفادته وقرب مجلسه وقرأ عليه كتبه وفي بلاطه عاد فاتصل بزميله ومنافسه القديم ابن شرف وبينهما جفوة ، ويعود الأديبان الى المودة والصفاء وقد تناسىٰ كلّ منهما ما جاء في رسالة ابنِ رشيق « ساجور الكلب في نقد ابن شرف » غير ان ابن شرف لم يستقر به المقام في صِقِلّيةِ حتى عزم على الارتحال إلى الأندلس وأبى ابن رشيق ان يرافقه .

ويبقى ابن رشيق في صِقِلِّية حتى يوافيه الأجل سنة اربعمائة وست وخمسين للهجرة ،الف واربع وستين للميلاد وبموت ابن رشيق ينطفيء النبراس الذي حول ظلام الفكر في الشمال الأفريقي ضياءً بهر به عيون النقدة في الأدب والبلاغة ودفع عدداً كبيراً من العلماء إلى دراسة انتاجه الفكري وتحليل معطياته الأدبية .

ترك ابن رشيق نيفاً وثلاثين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة اهمها « العمدة » في صناعة الشعر ونقده وهو الكتاب الذي جعله في مصاف اعلام النقد وفيه يقول ابن خلدون : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ولم يكتفِ فيها احد قبله ولا بعده مثله » .

وكتاب العمدة يقع في جزئين لا فاصل موضوعي بينهما وإنما يتتابع الكلام فيهما متسلسلاً منْ مئة وسبعة ابواب على غير تصميم سابق ولا تقسيم ضابط على غرار النقد واصول الأدب وقواعد الانشاء كما يقول الدكتور فؤاد البستاني في دائرة المعارف . والكتاب يتناول اصول الشعر وقواعدَه وانواعَه نظرياً وعملياً وهو من المؤلفات الاساسيةِ في نظرة ادبائنا الى الفن الشعري والانشائي .

قد يكون البحث في قضية اللفظ والمعنى من اهم الابحاث التي يتناولها كتاب العمدة حيث ترك فيه ابن رشيق آراء صائبة على جانب كبير من الأهمية النقدية .

ومن الكتب التي تركها ابن رشيق قراضة الذهب في نقض اشعار العرب وهو رسالة كثيرة الفائدة بالغة المنفعة في الشعر وتاريخه الى جانب عدد من مؤلفات اخرى امثال : انموذج الزمان في شعراء القيروان ، الشذوذ في اللغة ، نسخ الملح وفسخ اللمح ، وسر السرور ، شرح موطأ مالك ، والمساوىء في كشف السرقات الشعرية . وغيرُها .

سيظل ابن رشيق حيث هو وحيث كان في نقد الأدب شعراً ونثراً ومن الشعر والنثر شاعراً واديباً مرموقاً وسيظل كتابه العمدة مرجعَ الباحثين والنقاد يرجعون اليه ويعتمدون عليه كلما شاقهم الدرس والبحث في صناعة الشعر ونقده .

□□□

ابن زيدون
الشاعر والوزير

٣٩٤هـ/١٠٠٣ - ٤٦٣هـ/١٠٧٠م

في منتصف رجب سنة اربعمائة وثلاث وستين للهجرة ، الثامن عشر من نيسان سنة الف وسبعين للميلاد ومع الغسق المطبق على اشبيلية ، قاعدة دولة بني عبّاد قضى الطائر الغرد ابو الوليد احمد بن زيدون .

بزغ نجم الشاعر في قرطبة مع انهيار الحكم الأموي ، بعد ان اقتسم قواد البربر في ما بينهم جنوب شبه الجزيرة ، فحكم الصقالبة الشرق ، وصار ما تبقى بعد ذلك من اندلسيا نهباً بين الطارئين المتوثبين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة التي جابهت الضربات القوية التي وجهت للارستوقراطية العربية في البلاد .

مع موات الدولة الأموية تكوّن في المدينتين الكبيرتين ، قرطبة قاعدة العلم، واشبيلية مدينة الفن والغناء حكومتان شوريتان كتب لهما في ما بعد ان تتحدا وتلعبا دوراً عظيم الخطورة في حياة الأندلس السياسي والفكري ، كما كتبا لهما ان تبكيا معاً التاريخ العربي الضاحك في تلك البقعة من العالم ، يوم قضى امير المرابطين يوسف بن تاشفين على دولة بني عبّاد ، والقى بالمعتمد اسيراً مكبلاً في اغمات .

في هذه الفترة بالذات ومع قيام اول حكومة شورية في الأندلس ، وقد استولى الوزير ابو الحزم بن جهور على اعنة الحكم اطل الرجل العبقري ابن

زيدون على مجتمع قرطبة ، بعد ان هيأته الثورة ودفعت به إلى موكب القيادة ، وعاش ايام المحنة ، وآلام الشعب ، واشترك في صفوف المؤيدين للوزير ابي الحزم بن جهور .

لم تكن العشرون ربيعاً التي حملها ابن زيدون في اطلالته على الشعب القرطبي لتحول بينه وبين الوزارة التي دعي اليها وتبوأ فيها المركز الرفيع الى جانب الوزير ابن حزم الذي اضحى سيدَ الدولة الجديدة .

ما كاد الشاعر السياسي يؤدي بعض الواجب في حقل الخدمة العامة حتى استجاب لنداء عميق كان يلح عليه بعد ان وجّه اليه ضربات قوية ان يجعل من المنصب الكبير مركزاً لنفوذه .

احب ابن زيدون ولّادة ، ابنة الخليفة المستكفي « التي كانت في نساء اهل زمانها واحدة اقرانها ، حضور شاهد وحرارة اوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر » كما يقول ابن بسام ، وعاش شاعرنا الوزير في الدولة الفتية نغم شعرها ، ولحاظ اهدابها ، وقد تكسر قلبه الرقيق يوم نادته من اعماق ذاتها .

وفي أجواء مشبعة بالأريج والشذى وبالرغم من الليل الذي كان يلف هذا الحب الجارف ، تتألب قوى الحسد ، والحقد على القلبين النشيدين ، والنغم بعد ما يزال طرياً يتعالى من القيثارة البرعم ، ويفلح الوشاة مع الرئيس الحاكم فيلقي بصديقه الشاعر في السجن .

وبينما يتوقع الوشاة مواتاً للنغم في محبسه يصدر ابن زيدون عن شعر يجاري فيه شعراء الحكمة في المشرق العربي .

ان قسا الدهر فللما ... ء من الصخر انبجاس
ولئن امسيتُ محبو ... ساً فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى ... مقلةَ المجد النعاس
ويفتّ المسك في التر ... ب فيوطا ويداس
واغتنم صفو الليالي ... انما العيْش اختلاس

وتسلو ولّادة حب الوزير الشاعر ، وكانت قد أحسّت فتوراً في القلب الذي وعى ، يوم ترك غصناً مثمراً بجماله وجنح كما يقول ابن بسام الى غصن لم يثمر ، وقد علق بجارية لها .

وتحول السبل بالرغم من صداقات الوزير مع الرئيس الحاكم وابنه ابي الوليد دون العفو عنه ، فلا يجد الطائر الغرد بدأ من الفرار ، وينطلق ليغني من بعيد مرابع المدينة التي شهدت تألق سعده ، والاماكن التي وعت نشيد حبه ، والانسان الذي كفر بآماله .

ويتيه الشاعر بعد هربه في احواز قرطبة شريداً مؤملاً ان يلقى ولّادة ، المرأة التي احب علها تشفع له عند الوزير ابن عبدون الذي خاصمه على قلبها فهجاه شاعرنا هجاءً مقذعاً ادى به الى غياهب السجن .

ويقف القدر بينه وبين ولّادة ، وتتفجر عبقرية الشاعر عن اقوى قصيدة غزلية غناها المبدعون من شعراء الأندلس التي قال فيها المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس : « انها اجمل قصيدة حب نظمها الاندلسيون المسلمون ، وغرة من ابدع غرر الأدب العربي كله عارضها شعراء كثيرون ولا زالوا يعارضونها الى اليوم » . وفيها يقول :

حالت لفقدكم ايامنا ، فغدت سوداً وكانت ـ بكم ـ بيضاً ليالينا
ان الزمان ـ الذي ما زال يضحكنا انساً بقربكم ـ قد عاد يبكينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيرنا ان طالما غير النأي المحبينا

وكأن قرطبة التي سمعت نشيد الشاعر الحزين حنت لطائرها الغرد فعفى الحاكم عنه ، بينما راح يقرض المدائح في ابي الحزم ابن جهور ، ويستضيء بنور من احب ليل المدينة البهيم .

ويعود شاعرنا الوزير الى خدمة الحاكم ابي الوليد بن جهور الذي خلف اباه في حكومة قرطبة الشورية ، وقد « اوسع راتبه وجلّله كرامة لم تقنعه في ما زعموا » ثم بعثه رسولاً الى ادريس امير مالقة « فأطال الثواء هنالك ، واقترب

من الأمير ، وخف على نفسه ، واحضره مجالس انسه ، فعتب عليه ابو الوليد وصرفه عن ذلك التصرف قبل قفوله ، ثم عاد الى جميل رأيه فيه وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس» .

ذهب ابن زيدون سفيراً الى بلنسية ، وبطليوس ثم استقر به المقام في اشبيلية حيث اطمأن الى المعتضد صاحب دولة بني عبّاد ، واعتلى في الدولة منصب الوزارة ، وقد اشاد الشاعر بالاعمال الجليلة التي قام بها المعتضد ونظم فيه قصيدة من روائع شعره .

قدّر لابن زيدون بعد وفاة المعتضد ان يحتل من دولة ابنه المعتمد نفس المكانة التي احتلها من دولة والده حتى اصبح من خواصه وصحابته يجالسه في خلواته ، وكان ذهابه الى ابن عبّاد سنة ٤٤٢هـ (١٠٥٠م) ، والمعتمد قد انتقل الى قرطبة بعد ان استولى عليها ، فاصطحب شاعرنا ابن زيدون معه الى البلد الذي اطل عليه في مطلع شبابه .

ما ضرَّ لو انك لي راحم وعلّتي انت بها عالم
يهنيك يا سؤلي ويا بغيتي انك مما اشتكي سالم
تضحك في الحب ، وابكي انا الله ـ فيما بيننا ـ حاكم
يا نائماً ايقظني حبّه هب لي رقاداً ايها النائم

وتضج نفس الشاعر الملهم ، ويضيع بين الجمال المنسكب في ارض الاندلس الذي آل إليه سلطانه ، ويضيع بين الجمال المتكبر الذي اخذ يصغر بين يديه فيستجيب للنداء العميق ، وقد رابه تواضع الكبرياء .

تِهْ أحتمل، واستطل اصبر، وعزّ اهن وولِّ أُقبل، وقل اسمع، ومُرّ أطِع

وكان تجاوبٌ مع سيدة قرطبة يوم مات ابوها فنزعت عن الحريم في ما يقول المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا، وخرجت الى مجامع الادباء والعلماء في شيء من تحفظ وخفر ، ونادت شاعرها الذي كان قبلة الدولة ، وذؤابة الشعراء في عصره :

تـرقـب اذا جنّ الـظلام زيـارتـي   فـإنـي رأيت الـليـل اكتـم للسـرٌ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح   وبـالبدر لم يـطلع وبالنجم لم يسـر

لم يلبث الشاعر في البلد الذي احب حقبة في خيـال يعاوده ، وظـلال تراوده ، واحلام تطالعه ، وانغـام تشجيه وتحـزنه حتى دفـع به المعتمـد الى اشبيلية ليهديء ناراً شبت ، واحداثـاً تفاقمت « فيخـرج على بقية وعـك كان متألماً منه » وهناك يستقر به وجعه ويتلاشى على ضفاف نهر الوادي الكبير قرب مـرج الفضة الصـوت الذي مـلأ الأندلس غنـاء وصلاة ونشيـداً ، وقـد خنقـه الأجل .

ان ابن زيدون الشاعر ، والوزير ، والعالم ، والأديب كان عطاء خيراً في ارض عربية خيرة لا زالت تردد مع الزمان بقايا الاصداء الحلوة :

لسنـا نسميـك ، اجـلالاً وتكـرمـة   فقـدرك المعتلى عن ذاك يـغنـينـا
كـأننـا لم نبت والـوصـل ثـالثنـا   والسعد قد غضّ من اجفان /واشـينا
سـران في خاطـر الـظلمـاء يكتمنـا   حتى يكـاد لسـان الصبـح يغشينـا
يـا جنـة الخلد أبـدلنـا بسلسلهـا   والكـوثـر العـذب زقـومـاً وغسلينا
إنّـا قَرأْنَـا الأمس يَـوْم النّـوى سـوراً   مكتـوبـة وأخـذنـا الصبـر تلقينـا

□□□

المعتمد بن عبّاد
الشاعر الملك

٤٣٢هـ/١٠٤٠م - ٤٨٨هـ/١٠٩٥م.

لم يكتب التاريخ في الاندلس العربي صفحة زاهية قاتمة ، ومشرقة حزينة ، فيها كلّ مقومات المجد والسؤدد ، والخلود ، وكلّ مظاهر الحزن والذل والاسى كصفحة بني عبّاد ، زعماء ملوك الطوائف الذين لعبوا دوراً حاسماً في مصير اسبانيا الاسلامية .

اقام بنو عبّاد دولتهم في اشبيلية ، المدينة المترامية على ضفاف نهر الوادي الكبير عندما قدّر للقاضي ابي القاسم محمد بن عبّاد ان يتسلم زمام الأمور فيها بعد انهيار الحكم الأموي في قرطبة .

كان المعتمد على الله محمد بن عبّاد الذي وليَ الملك بعد ابيه المعتضد سنة اربعمائة واحدى وستين للهجرة ـ الف وثمان وستين للميلاد زعيم هذه الدوحة التي التقت عندها كلّ الاماني العربية ، وقدّر لها ان تتحدى القدر والمصير في هسبانيا على حد تسمية القوط ، يوم اطل المجد مع بزوغ نجمها، ثم بكى يوم خرت الدولة امام جيوش ابن تاشفين .

يؤكد ابن الأبار في كتابه الموسوم بالحلة السيراء ان جدّ هذه العائلة دخل الاندلس في طليعة بلج القشيري ، وانه لخمي النسب واصل عائلته في حمص العريش بين مصر والشام ، بينا يمدحهم ابن اللبانة شاعرهم مؤكداً انهم من نسب النعمان بن المنذر بن ماء السماء :

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخره بنو عبّاد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد

بدأ المعتمد حياته السياسية عاملاً لأبيه على « ولبة » ، وقد عرف بدماثة اخلاقه ، وحلو حديثه فكان على نقيض والده في بطشه وجبروته غير أنّه كان مولعاً بالشراب ، منغمساً في الملذات ، محباً للراحة ، عاكفاً على البطالة .

بالرغم من هذه الصفات التي يجمع النقاد على انها اصل بلائه وشقائه فقد قدّر له بما أوتي من حنكة ودراية في الأمور السياسية ان يستولي سنة اربعمائة واربع واربعين للهجرة ، الف واثنين وخمسين للميلاد على مدينة شلب Silves بعد حصار لم يدم طويلاً .

في المدينة التي غزاها تعرّف الأمير الاندلسي على ابي بكر بن عمّار وكان شاباً جميل الطلعة ، شاعراً وتشاء الظروف ان تتوطد الصداقة بينهما ، ومن هنا ضمت المدينة ذكريات شُباب الأمير ومرحه الصاخب فأكثر من ذكرها في شعره .

لم تلبث الصداقة بين المعتمد وابن عمّار ان تقوضت لما كان يخالط نفس الصديق من خوف ، بينما كان المعتمد الأمير الملك يتغاضى عن هفوات الشاعر الذي احب :

سأوليك مني ما عهدت من الرضا واصفح عمّا كان، ان كان من ذنب
فما اشعر الرحمن قلبيَ قسوة ولا صار نسيان الأذمّة من شِعبي

مع هذا الحب الذي كان يعلنه المعتمد لصديقه ابن عمّار بعد ان رفعه الى مرتبة الأمراء ، لجأ الشاعر الصديق الى جليقية لاحقاً بادفونش ابن فرديناند مستجيراً به على سيد نعمته ، غير ان القدر لم يمهله طويلاً عندما القى به ضاغراً بين يدي المعتمد الذي سجنه ثم قتله بيده . ويؤكد ذلك عبد الجليل ابن وهبون صديق ابن عمّار وشاعر المعتمد بقوله :

عجباً لمن ابكيه ملء مدامعي واقول لا شُلت يمين القاتل

ان الدارس لحياة المعتمد الأمير والشاعر والملك يدرك ان حياة ابن عمّار كانت تعكس جانباً مهماً من تاريخ الاندلس السياسي والاجتماعي خلال حكم بني عبّاد في اشبيليا ذلك ان الرواية العربية تجمع على القول : « ان ابن عمّار اعان المعتمد على ما كان بسبيله من توسيع رقعة الدولة ، وخاصة في الاستيلاء على مرسية وانتزاعها من يد صاحبها ابن الطاهر ، وقد تم لابن عمّار الوصول الى ذلك بالاتفاق مع كند برشلونة رمون بيير نجوير الثاني لما كان من دهائه وذكائه» .

الحقيقة ان ابن عمّار كان على جانب عظيم من الحذق السياسي والمرونة ، والخبرة وانه استطاع كما تقول الرواية العربية ان يفك الحصار الذي ضربه ملك قشتالة ادفونش على دولة بني عبّاد بعد ان ربح عليه بلعبة شطرنج ، وفرض عليه حكمه .

كلُّ هذا الذكاء ، وكلّ هذه الخدمات التي اداها ابن عمّار لم تشفع له عند المعتمد يوم لجأ إلى عدوه ، فلقد كان الأمر يدعو الأمير الاندلسي الى ان يحطم ما في قلبه من حب ، وان يقضي بيده عليه، يوم قتل ابن عمّار الذي كان محور دولة بني عبّاد في حياة المعتمد على الله .

لقد سحر المعتمد بالاندلس ارضه الخضراء الممتدة الى اللانهاية على اطراف الانهار التي تشق السهول الفيحاء في شيء من بطء ، وكثير من تؤدة وما لبث ان تجاوب مع حب عنيد جارف رفعه الى مصاف كبار شعراء الاندلس كما يقول المستشرق الاسباني اميليو غراسيا كومس ، وانه كان في طليعة الخالدين من امرائه وملوكه العظام .

احب المعتمد جارية اجازته في عجز من بيت ، ويحكي الرواة ان الأمير كان مع صديقه ابن عمّار يتنزهان قرب مرج الفضة على شاطىء نهر الوادي الكبير فاعجب بمنظر الماء المتموج فقال :

صنع الريح على الماء زرد

ثم طلب الى ابن عمّار ان يجيزه فأبطأ وكان على الشاطىء جوار يملأن

جرارهن فردت احداهن :

ايُّ درع لقتال لو جمد

فردد المعتمد البيت الذي كان فاتحة حبه :

صنع الريح على الماء زرد ايّ درع لقتال لو جمد

كانت الجارية التي اجازت الأمير اعتماد الرميكية التي تزوجها الأمير في ما بعد واحبها ، والتي كان حديثها على حدّ قول الرواة يفيض عذوبة وطلاوة كما كانت طلعتها مسعدة ، حاضرة الجواب ، بارعة الرد الى جانب رقة طبيعية غالبة ، ومرح لطيف تشوبه سذاجة الطفولة ، غير انها كانت تسرف في دلالها ونزواتها الى حد يضيق عنه صبر المعتمد .

امام هذه الحقيقة نجد ان الأمير المحب المدعو في تلك الحقبة الفاصلة من تاريخ الاندلس الى المحافظة على الدولة المهددة بالانهيار يسعده ان يتخذ من اسم المرأة التي احب لقباً رسمياً لنفسه في تاريخ دولة بني عبّاد ، فكان المعتمد على الله نسبة الى اعتماد بعد ان عرف بالظافر ، او المؤيد وفي ذلك يقول :

دسست اسمك الحلو في طيه والفت منه حروفَ « اعتماد »

لقد كان الاندلس العربي في عهد ملوك الطوائف محفوفاً بالمخاطر ومهدداً بغزو صاعق من قبل سكان البلاد الاصليين ، وكان المعتضد متخوفاً من ناحية المرابطين ، الدولة الفتية في المغرب الاقصى ، ويشاء القدر وقد اشتد ضغط الاسبان على العرب ان يستنجد المعتمد محمد بن عبّاد بزغيم افريقيا يوسف بن تاشفين فيهب لنجدة عرب الاندلس ويدحر جيوش الاسبان في معركة الزّلّاقة ، ويجمد الوضع العربي الى حين ، وفي المعركة هذه يقول ابن جهور :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصمّمةً يومَ العروبة ، أن اليوم للعرب

لم يلبث المعتمد بعد حقبة من الزمن ان يُخلع عن العرش بعد ان فشل

في سياسة الدولة وادارتها ويودع اشبيليا مدينة طفولته ، ومركز دولته ويساق مكبلاً الى سجنه في اغمات جنوبي مراكش ، وفي المحبس لم يعد الطير يصدح بالغناء .

ويظل الشاعر الامير رهين محبسه وقد ضاع ملكه ، وتشردت عائلته وقسا الدهر دونما رحمة ، ويستفيق ذات مرة مع العيد ليستعيد ذكريات كانت حلماً ضاحكاً سرعان ما خبا .

فيما مضى كنت بالاعياد مسروراً فساءك العيدُ في اغمات مأسورا

بعد اربعة اعوام من سقوط اشبيليا وفي شوال سنة اربعمائة وثمان وثمانين للهجرة ، يناير الف وخمس وتسعين للميلاد قضى المعتمد على الله ابو القاسم محمد بن المعتضد عبّاد بن القاضي محمد بن اسماعيل اللخمي الاندلسي .

لقد اختلف النقاد في تحديد منزلة الملك الجليل ، والعالم الذكي والشاعر المحسن الذي مثل ذؤابة الأرومة العربية في الاندلس وكان علم ثقافة فكرية وقومية قدر لها ان تنطوي قبل ان تؤدي دورها الحاسم في مصير شبه جزيرة ايبريا .

الحقيقة ان المعتمد لم ينطو تحت ظل المرابطين كما يقول دوزي ، بل كان انهيار ملكه نتيجة حتمية لشعب افسد الترف طبعه ، ولسوء الوضع السياسي والاداري في البلاد التي كتبت صفحة خالدة في التاريخ العربي .

ولننشد مع الوزير الوفي لسان الدين بن الخطيب وقد وقف على قبر المعتمد :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا ازورك يا أندى الملوك يداً ويا سراج الليالي المدلهمات
كَرمت حيّاً وميتاً واشتهرت عُلىً فأنت سلطان احياء واموات

ابن حمديس الصقلي
شاعر الدموع

٤٤٧هـ / ١٠٥٥م - ؟

لم تعد عيناه تُقَدِّر الجمالَ أو تُحِسُّه ، بعد أنْ انطفأ فيهما الضوءُ ، وسوَّدَ الظلامُ أمامَهما كُلَّ شيء ، فاستحالت أرضُ صِقليةَ الجميلةِ القشيبةِ ، وبساتينُها الخضراءُ اليانعةُ ، وحدائقُ اشبيلية ومرابِعُها ، وجناتُ المغربِ ودنياه حيثُ قضى الشاعرُ طفولتَه وشبابَه ورجولَته اطيافاً تراوِدُه ، وتزيّن له الماضي البعيد ، وقد انتهت به الأيامُ الى ميورقة احدى جزر البليار .

لقدْ كَلَّ ابنُ حمديس الحياةَ في الجزيرةِ أو كاد ، ولم يَعُدْ يعبأُ لصوتِ النهرِ يندفعُ قوياً أو ضعيفاً ، ولزقزقةِ الطير يشدو مغنياً ، ولأريجِ الزهر يفوحُ عبيراً فقد أضحى كلِفاً بهذه الثمانين يحملُها بَرِماً بها ، متعباً منها ، حتى إذا أحسَّ أنه أخذ يذوي كزهرةٍ ذابلةٍ ، وتنطفىءُ فيه الحياةُ وتتلاشى ، أدرك أنه غريبٌ في الأرضِ ، ولربما استعاد بيتاً قاله في مواطنٍ له غريب .

هو ابنُ بلادي ، كاغترابي اغترابُه   كلانا عن الأوطانِ ازعجَهُ الدهرُ

ويموتُ ابن حمديس في ميورقة ، ويستكينُ جسداً لا حراكَ فيه ، ويشاءُ القدرُ أن يجمَعَه ميتاً بصديقه وزميله الشاعِر ابن اللُّبانة علّه يجدُ في لقائِه عَزاءً وسلوى ، بعد أن جمعَه به حياً فعاشا معاً في بلاط المعتمدِ بنِ عباد شاعرين مقربين ، وتلازما في الأسر صديقين مخلصين .

هو أبو محمدٍ عبدِ الجبار بنِ أبي بكر بنِ محمد بن حمديس ولد في مدينةِ سرقوسة الثغرِ الضاحكِ على الساحل الشرقي لجزيرة صقليةِ سنة أربعمائة وسبع وأربعين للهجرة ، ألف وخمس وخمسين للميلاد من أصلٍ عربيٍ ازدي ، وان كان الشاعرُ منذُ حداثتِه يَفْتَخِرُ بانتسابِه الى « بني الثغر » اعتزازاً منه بوطنه ، وافتخاراً ببلده .

نشأ شاعِرُنا ابنُ حمديس في عائلةٍ محافِظَةٍ جمعت بين التدين ، وبين الثقافَةِ الدينية والحكمية ، ونحن اذ لم نجد في المصادرِ شيئاً عن اساتذته الأوائلِ فمن المؤكد أن الشاعرَ أتم ثَقافتَه الأولى ، وبرعَ في الأدبِ ، وقالَ الشعرَ قبلَ أن يغادرَ بلدَه سرقوسة الى الأندلس .

لعل هِجرةَ الشاعر المبكرةِ من موطنِه الأولِ بعد أن سقطت الجزيرةُ في يدِ النورمانيين جرحت نفسَه في عمق ، وصقَلت طَبعه وهذَّبَت شِعْره ، فأصبح شاعرَ المعاني البديعة ، والخيالِ الخِصْب ، والنَّفْسِ الحزينة المتألمة المعذبة ، التي كانت تَحِنُّ أبداً الى الوطنِ الذي غادر ، والى الأهلِ الذي بكى ، والى البيت الذي ابتنى في توطس .

ذكرتُ صقلّيّةَ ، والأسى ... يُجدّدُ للنفس تذكرها
فإن كنتُ أُخْرِجْت من جنّة ... فإني أحدِّثُ أخبارَها
ولولا ملوحةُ ماءِ البكا ... حَسِبْتُ دموعيَ أنهارَها

ولا يفتأ ابنُ حمديس بالرغمِ من الجاه العريض ، والمكانةِ المرموقة والتوفيقِ الذي حالفه في بلاطِ المعتمدِ بنِ عبّاد في اشبيلية ، يَحِنُ إلى صقلية ويسترجِعُ ذكرياتِها ، وينشد ربوعَها الضاحكة ، وملاعبَ طفولتِه الحالمة ، ويبكي أبداً الوطنَ الذي ضاع ، وكأنه يبكي كُلَّ شيءٍ من حولِه :

ولِلّهِ أرضٌ إن عَدِمْتم هواءَها ... فأَهواؤكم في الأرضِ منثورةُ النَّظْم
وعِزّكُمُ يُفْضي الى الذّلِّ والنّوَى ... من البينِ تَرْمي الشملَ منكم بما تَرْمي
فإن بلادَ الناسِ ليستْ بلادَكُمْ ... ولا جارُها والحِلمُ كالجار والحِلْمِ

أَعَنْ أرضِكمْ يُغْنِيكُمُ أرضُ غيـركم وكم خـالـةٍ جَـدّاءَ لم تُغْن عن أُمِّ
تَقَيَّـدْ من القِـطْر العـزيـز بمـوطنٍ ومُتْ عند رَبْعٍ من ربـوعِكَ أو رسم
وايّـاكَ يـومـاً أن تجـرّبَ غـربـةً فلن يستجيزَ العقـلُ تَجـربـةَ السُّمِ

فاذا تغنى ابنُ حمديس بالوطنِ شاقَهُ الحبُ الى أهلِه ، وتراءى له والدُه فاستعادَ صورتَه يومَ الوداع ، وهو يَشدّ من عَزْمه ـ وَيُمَحِضْهُ النُّصح ، ويُرْشِدُه سِواءَ السبيل ، وكيفَ بالشاعرِ أن يلقى أباه بعدَ اليوم ، وقد جاءَه نَعِيُّه ، فليسَ له إلاّ الدموعُ سبيلاً إلى ماضيه علّها تَشُدُّه اليه من جديد ، وتَدْفَعُه أن يلامِسَ قلبَه المحِبَ من قريب بعد أن أضحى رجاءً وذكرى .

ومـا أنسَ لا أنْسَ يَوْمَ الفـراق وأسـرارُ أعـينِنَـا فـاشـيـة
ومَـرّتْ لتـوديعنَـا سـاعـةٌ بـلؤلـؤِ ادْمُـعِـنَـا حَـالـيَـة
ورحـتُ إلـى غُـرْبَـةٍ مُـرَّةٍ وراحَ إلى غُـرْبَـةٍ سـاجيـة
وقـد أوْدَعَـتْـنِـي آراؤه نجـومـاً طـوالعُهـا هـادِيَـة
وانـي لـذو حَـزَنٍ بـعـده شؤونُ الـدمـعِ لـه داميَـة
ومـا خمـدتْ لـوعـةٌ تلتـظي ولا جَمَـدتْ عَبْـرةٌ جـاريـة

ولربما برح الشوق مرة بالشاعر ، وقد الح عليه الأهل في زيارتِهم ، ويلبي الشاعرُ النداءَ البعيدَ ، وينزلُ عند رَغْبَة الأهل ورجائِهم ويَشُدُّ من عزيمتِه ايمانُه بالله وحبُه لهم ، ويركبُ ابنُ حمديس البحرَ بعد أن تمردَ عليه في عنفوان شبابه ، ولكن الى أينَ يذهب وقد تفرّقَ الأهلُ في أرضِ الله بعد أن ضاعت بلادُهم ومُلكت عليهم الأوطانُ ، أثلى صقلية ، أم صفاقس ، أو الى بجاية ؟ .

لست أدري ، ولكن الذي أدريه أن الشاعرَ يؤكدُ أن المركبَ الذي أقلّه لم يقوَ أن يَقِفَ في وجهِ العاصفةِ فتلاشى ، وغرقت جاريَتُه جوهرة ، ولـولا الأجل لكان ابنُ حمديس من الموتى . . . ؟

وسابِحٍ لاعب في بحـره مَرَحـاً تُشيـرُ كفّاه تعـويـذاً من الغَـرَق

يدعو ولم يكُ مُضطراً : خذوا بيدي وعنـده الفـرْق بين الأمن والفَـرَقِ
فـان بكيتُ فاني قـد ذَكـرْتُ بـه من جُرِّعتْ منه كأسَ الموتِ بالشَّرَق
رُدّت على البحـرِ من كفيِّ جـوهـرَةٌ ثـم انْقَـلَبْتُ بِقَلْبٍ دائـمِ الحُـرَقِ

ولا يلبث الشاعر أن يرزأ بزوجته أمِّ ولديه أبي بكر وعمر ، وهو الشاعر الذي تذوبُ نفسُه حسراتٍ ، فيبكي الـوفاءَ والإخـلاصَ ، ويستعيدُ المـاضي الجميلَ ، ويتأملُ المصابَ الجَللُ ، والرزَء الفادح فيذرفُ الدمعَ على الزوجِ بلسانِ ولدهِ عمر ليأتي تفجعه أقوى في النفس ، وابعث على الحزن .

بـدرَ الـمـوتُ كُـلَّ طـائـرِ جَـوٍّ فـي مَفَـازٍ وكُـلَّ سـابـحِ يَـمِّ
لـو بَكَى نـاظـري بِصَـوْبِ دِمَـاءٍ مـا وَفَى في الأسى بِحَسْـرةِ أُمي
كنتُ أَخْشى عليـك مـا أنت فيـه لـو تخيّلتُ في مـصـابِـك همـي
دوحـةُ المجـدِ بـالفخار جنـاهـا يـافـعٌ فهي في البلى تحتَ رَدْم
فسقـى التـربـةَ التي هـي فيهـا عـارضٌ منـه رحمـةُ الـلهِ تَهـمي

وإذا بكى ابن حمديس زوجه ، وقد خبا بعدها ضوءه كشاعـر فلزم بيتَه في الغربة حزيناً ، وانقطعَ عن الدنيا وحتى عن كريمتِه البعيدةِ عنه ، وكان قد أُرْجِف أنّه مات ، وبَلَغ الخبرُ ابنتَه فأقامت عليـه مأتمـاً وبكتْه بحـزنٍ عميقٍ ، ولكن تشاءُ الأقدارُ أن تموتَ هي لتجرحَ قلبَه بعمق وتقْضي على بقيةِ الرَّجاء في النفسِ الملهِمَةِ الشاعرة .

أرَاني غـريبـاً قـد بَكيتُ غـريبـةً كـلانـا مَشُـوقٌ للمَـواطِن والأهـلِ
بـكتْـني وظـنّت أنّـني مِـتُّ قبْلَهـا فعشتُ ، وماتَتْ وهي محزونةٌ قبلي

ويبكي ابن حمديس الشبابِ ، واللهوِ ، والحياةِ بعـد أن بكى الوطنَ ، والوالدَ ، والزوجَ والولد وتتعطلُ قيثـارَتُه ويمـوتُ لحنُه الحـزين المفجعُ قبـل موتِه ، بعد أن ضاعت شاعريتُه ، فراح يعتمدُ الاساليبَ الصنـاعية ، والحنينَ الى صقلية موردِ الشاعرية الخصبة في الأمس القريب .

ضحكتُ ابنَ عِشرينَ من صبوةٍ بكيتُ ابـنَ ستـيـن اوزارَهـا
فـلا تَعْظُمَنَّ لـديكْ الـذنـوب فـمـا زال رَبُّـك غَفَّـارُهـا

ابن قزمان
ومدرسته الزجلية

٤٦١هـ/١٠٦٨م - ٥٥٥هـ/١١٦٠م

عرف الاندلس الاسلامي ، الارض الطيبة المترامية في جنوب شبه جزيرة ايبريا ، سهولاً فيحاء تعبق بالشذى والاريج ، وتضج بالسنابل الذهبية ، وتتفتق انهاراً تشق اعماق الحقول ، وتتهادى هضبات متكئات في رجاء ودعة على اقدام الجبال الشامخة المتعالية ، او الى اطراف الاودية السحيقة التي تجرح احشاء الأرض .

قلت عرف الاندلس الاسلامي نوعاً من الشعر كان جديداً بالنسبة للأدب العربي عامة ولمظهر القصيدة الكلاسيكية التي نشأت في الجزيرة واتاح لها الاسلام ان تصبح ابرز مظهر لأدب الامة الحاكمة ، وتقوى على مجابهة خصومة الشعراء المولدين في العصر العباسي .

بالرغم من هذه الحقيقة فالقصيدة العربية لم تقو امام عطاء الاندلس الفكري وواقع اهل البلاد الذين كانوا يستعملون العربية الفصحى كلغة رسمية ولهجة من اللاتينية العجمية في شؤونهم اليومية واحاديثهم ان تجابه هذه الخصومة الجديدة ، فلانت وخضعت لطراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية سرعان ما شاع في اواسط العامة واتخذ من الأدب الشعبي صورتين هما « الزجل » و« الموشح » .

الواقع ان الزجل والموشح فن شعري واحد ، يطلق الأول على الشعر

السوقي الدارج بيد ان الموشح لا يكون الا في العربية الفصحى . ويرى المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا انه يصح ان نطلق لفظة الموشح على المهذب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى ، او ينظم في اسلوب ارفع من اسلوب الازجال .

الدارس لجوهر هذا الطراز الشعري الجديد يجد ان الزجل يصاغ في فقرات تسمى ابياتاً وان المقطوعة الزجلية تبدأ ببيت يعرف بالسمط اوبالمركز، ثم تليه اغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد ، والغصن عادة يتكون من ثلاثة اشطار او اكثر ، ثم يعقب كل ذلك بيت في نفس وزن المركز وقافيته وهكذا الى ان تتم القصيدة جميعاً .

هذا ، ويرى المستشرق مندذ بدال ان الطابع العربي الرومنسي للزجل دليل على امتزاج الثقافتين وان الزجل في اصل نشأته عربي بلغته،وان كانت هذه اللغة سوقية وحشية كثيرة الاخطاء ، وهو عربي بالتزامه قافية واحدة تراعى في ابيات الزجل الواحد كلها ، وعربي ايضاً بالنسبة الى موضوعية العامين وهما الغزل والمديح .

مع عروبة هذه الأصول في الأزجال نستطيع ان نؤكد بأن الزجل ليس عربياً في نظمه على طريقة الفقرات التي هي ولا شك طريقة غربية تخالف القصيدة العربية الكلاسيكية من حيث الوزن الواحد والقافية الواحدة فضلاً عن ان الزجل لا يبدو عربياً في استعماله « الخرجة » وهي لفظة على وزن واحد وقافية واحدة عند نهاية كل فقرة .

هذا ، واذا التزم الزجل موضوعين من موضوعات الشعر العربي فليس معنى هذا انه عربي بالنسبة الى الموضوعات المختلفة التي حفل بها الأدب العربي . وفي ضوء هذه الحقيقة يرى منددذ بدال ان الزجل اسباني الموطن لانه يتحدث عن اعياد ومواسم لا توجد الا في التقويم اللاتيني ، وبالتالي فهو يستعمل الفاظاً وعبارات من اعجمية الاندلس مختلطة بلغته العربية الدارجة ، والزجل عامة حافل بصور الحياة اليومية المختلفة لمسلمي الاندلس ، وهو

صورة لعادات المستعربين وتقاليدهم . .

من الثابت ان هذا الطراز الجديد من الاتجاه الشعبي في الشعر لم يحفل باهتمام الدارسين والمؤرخين وهم المتعصبون للفصحى وآدابها غير ان المستشرق خوليان ريبيرا وفّق بفضل ابحاثه الى العثور على ثروة غنية من الازجال ، هي صورة للمستوى الحياتي في الاندلس الاسلامي قبل افول نجمه .

لقد اضحى من المؤكد ان سعيد بن عبد ربه وهو ابن عم صاحب « العقد » كان في طليعة ناظمي الزجل بالاندلس وان نفرا من بعده بذلوا جهداً عظيماً في تجويده وترقيته حتى قدّر لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان ان يرفع سماكه ويقيم بنيانه ، ويضيء مناره .

لم يكن ابن قزمان شاعراً زجلياً وحسب وإنما كان ناقداً فنياً لهذا الاتجاه الجديد في الأدب الشعبي فلقد اكد في مقدمة ديوانه انه وجد في الاندلس ضربان من الزجل « ضرب شعبي خالص جاف سمج يستعمل الزجالون ، فيه اللغة الدارجة وعجمية اهل الاندلس ، وكان يجد تجاوباً من العامة واقبالاً ، وضرب مصقول مهذب فيه صناعة وزخرفة وتكلف يستعمل الناس فيه حركات الاعراب التي تجري على السنتهم عفواً ، وان الضرب الأول لم يبق له من اثر لان مصنفي الكتب ابتذلوه وضربوا عنه صفحاً ، بينا من الثاني اطراف تخلوا من الجاذبية وسهولة الطبع التي امتاز بها النوع الأول» .

الحقيقة ان ابن قزمان لم يصل الى هذه الناحية النقدية في دراسة ازجال الاندلس الا بعد ان درس من سبقه من شعراء هذا الاتجاه ثم شق لنفسه طريقاً وسطاً بين ضربيَّ الأزجال وعرف كيف يحتفظ باحسن خصائصهما « فرأى انه من فساد الذوق والتكلف ان تستعمل حركات الاعراب في شعر يُغنى جماعة ومن ثمة فلا مفر من استعمال لغة الكلام الدارجة حتى يقرب من افهام الناس على ان يكون ذلك في اسلوب متخير رشيق ، فضلاً عما يراه من ضرورة تخير الموضوعات الحافلة بالفكاهة والحيوية مما يستأثر بعواطف الناس واهتمامهم .

على الرغم من ان ديوان شاعرنا ضم مائة وتسع واربعين مقطوعة زجلية تنهج على الموضوعية والقالب الفني الذي اشرنا اليه ، وعلى اساس مقرر موضوع او مصقول فالطابع الشعبي الذي تميزت به هذه الأزجال وزجل الاندلس عامة يدل على انها انما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الاسواق، او الجائلون المتسولون في المرابع والحانات .

هذه الاسس الفنية التي اقامها ابن قزمان لهذا الطراز الجديد من الشعر اضحى لها في الاندلس الاسلامي اتباع ومريدون انصرفوا الى صناعة الزجل حتى عرفوا بهذا الطابع وكأنهم تلامذة خلص في مدرسة ابن قزمان التي قدِّر لبعض اعلامها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ان يتوجهوا الى المشرق العربي وان يحملوا معهم هذه الصناعة الْجديدة المبتكرة التي غزت القصيدة العربية الجاهلية في عقر موطنها وكادت ان تسيطر الى حين على موسيقى وايقاع شعر الصحراء .

ويُكتب للاندلس ، الدنيا الضاحكة ، الغارقة في الضياء الضائعة في الجنة الوارفة ان تطل على المشرق العربي وان تسبقه الى الزجل والموشح ، انشودتين عذبتين في الحب والطبيعة والجمال ، وكان المشرق قبلُ يمد الاندلس بالعطاء الكفري .

ان ادباً يعيش في جنبات الأرض فكراً ولحناً وموشحاً وغناءً لهو صلاة قدسية ترفعها الأرض العربية للسماء شكراً .

□□□

القاضي عياض

وأزهـــار الريـــاض

٤٧٦هـ - ١٠٨٣م

لم يدافِع المستشرقون الاسبان عن حِقْبة من تاريخِ العرب في بلادهم دفَاعَهم عن العهدِ المرابطي أمام الحملةِ المركـزةِ المسْعُورةِ التي شنهـا على المُرابطِين وحُكْمِهم في الأندلس المستشرقُ رَايْنهارت دوزي شيخُ المستشرقين الهولنديين واستاذُ العربيةِ وآدابها في جامعة ليدن خلال النصفِ الثاني من القرن التاسعَ عشَرَ.

يؤكد المستشرقُ الاسباني انخل كونثالث بالنثيـا في كتابِه «تاريخ الأدب العـربي ـ الاسباني» أن مبـالغاتِ دوزي ومـواقِفَه العنيفـة من تـاريـخ الفكـر الأندلسي خلال هذه الفَتْرة دفعت بأستاذ المستعربين الاسبان،فرنسيسكو كوديرا الى أن يردَ عليه ويستخرجَ بدقته المعهودة العددَ الضخمَ من العلماءِ، واعـلامِ الأدب الذين برزت أسماؤهم خِلال العهدِ المرابطي مؤكداً من وراءِ ذلك خطأ وصفِ دوزي لهذه الحِقَبة بفترة الركودِ الفكري في الأندلس العربي.

إلى جانب المستشرق قوديرا يقف تلميذُه خليان ريبيرا فيحاولُ أن يؤرِخَ لعلماءِ العصر المُرابطي،فيسمي أبـا الفتح ابنَ خـاقان، وأبـا الحسن بنَ بسام كأبرز مَنْ ظَهَرَ من علماءِ النقد الأدبي،في ما يذكرُ ابنَ قُزْمان معتبراً ديوانَه مظهراً للشعـر الشعبي الدّارج وصـورةً لانتاج جميـع الزجّـالين الأندلسيين الـذين لا يحصيهِمُ العَدُّ.

أما في مَيْدان التاريخ ، وتواريخِ النواحي فيؤكدُ ريبيرا على اسميّ ابنِ بَشْكَوَال والضَّبِّي ، وفي حقل كُتّاب التراجِم فيذكُرُ ابنَ خَيْر ، وفي الجغرافية وقد اتسعت الدراساتُ فيها وكثرت المؤلفاتُ في موضوعِها فيبرزُ اسميّ ابنَ حامد الغَرناطي والأدريسي ، وفي مجالِ الفلسفة فيذكرُ ابنَ باجة وفي الرياضيات ابنَ مسعود وابنَ سهل الضرير ، وجبرَ بن أفلح الاشبيلي ، وفي الطب نراه يختار أبا الصَّلْت الداني ، وابنَ باجة ومعاونَه سُفْيان الأندلسي كما يؤكد على أن نجمَ أبي مروان ، وأبي العُلا ابنيّ زُهْر بدأ يبرزُ ويتألق فيه .

هذا ولا يتوانى خوان ريبيرا أن يسمي في علم الفِقْهِ كأبرز رجالِه، وأَنْبَه فُقَهائِه، وأكْبَرِ أعلامِه القاضي عياضَ بنَ موسى بـنَ عيـاض اليَحْصَبيُّ السَّبْتي قاضِي الأئمة، وعَلَمَ الأعلام، وعُمْدَةَ أربابِ المحابر والأقلامِ الشهيرَ الصيت في كُلِّ قطر، والذي قال فيه المقَّري في كتابه «أزهار الرياض في أخبار عياض» الذي صنفه فيه :

فهـو الامـامُ الـذي سَـارتْ مـآثِـرُه   في الشَّرْقِ والغَرْبِ سَيْرَ الشَّمسِ والقمرِ
وكم لــه من تـآليفَ قـد اشتهـرت   بكـل قُـطْر فَسَـلْ تنبيـك عن خَبَـرِ

قلت أن المستشرق خوان ريبيرا لم يتوانَ عن ذكرِ اسم القاضي عياض ابنِ موسى اليحصبي السبتي في عدادِ عظماء رجالاتِ الأندلس الذين أطلعهم العهدُ المرابطي تأكيداً على ازدهار النتاج الفكري في كل ميادينـه في مجتمع كان مدركاً لنفسه، فخوراً بثقافتـه الأدبية المهـذّبة، رغم تَفَـرُّقِ أمرِه وضَيَـاعِ وِحْدَتِهِ.

ولد عياض في مدينة سبتة، الثغرِ الرابضِ على ساحل المغرب الأقصى قُرْبَ بَرْزَخِ جبلِ طارق وذلـك في شهر شعبـان سنة أربعمـائة وست وسبعين للهجرة، كانون الثاني ألف وثلاث وثمانين للميلاد وكأنـه في مولـده في سبتة، وفي بيت عريقٍ من بسطة، المدينةِ الأندلسية المتـطلعة على وادي آش قُـرْبَ غرناطة أحبَّ أن يُوَفِّقَ بين كلام الأديب أبي الحسن البسطي : « لو طُبِعَتْ على الزهد لحملني حسنُ بلادي على المجون والتَّعَشُقِ والراحات » . وبين تاريخِ

سبتة ومجدِهـا التاريخي من عهـدِ الفينيقيين الى عهدِ طـارق بنِ زياد فـاختار عالمُنا الزهدَ وعظمةَ التاريخ .

كان القاضي عيـاض اليحصبي حافِظَ عَصْـرِه في علومِ الدين وقـاضي المغربِ الأجل، ومرجِعَه الأكبر صاحِبَ كتب : «الشِفـاء، ومشارقُ الأنـوار، والالماع في أصول علم الحديث ومبادئِه، وترتيبُ المـدارك لمعرفـة أصحابِ مـالك » الكتـابُ الذي جمـع فيـه أخبـاراً عن الكثيـرين من فقهـاءِ المغـربِ والأندلس وعلمائهما .

يقول شهاب الدين أحمد بن محمد المقّري التلمساني خاتمةُ أدباءِ المغرب إن الذي حدا به إلى وضع كتابه « أزهار الرياض في أخبار عياض » رغبةُ أهالي بلَدِهِ تِلْمِسان في التعريف بالقاضي عياض عالِم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر .

يعتبر كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض كصنوه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في أخبار لسان الدينِ بن الخطيب» لأن كلًا من الكتابين قد تضمن ترجمةً وافيةً شاملةً مانعةً لعَلَم فَذٍّ من أعلام رجالات المغربِ والأندلس حيثُ وفّق المقّري في كتابيه كليهما إلى أن يجعلَ كلًا من صـاحبيّ الترجمـة مركزاً لدائرة معارفٍ تاريخية وأدبية تحوي أخبارَ عصـرِه ومِصْره ، الى جـانب أخبارِ الأجيال التي تعاقبت في الأندلس والمغربِ الى زمانه هو. ومن هنا كان الكتابان جديرين بأن يُعدًا من أعظمِ الأركان التي يقومُ عليها تاريخُ تلك البلاد إن لم يكونَا المرجعين الأساسيين لدراسة الأندلس والمغرب العربيين.

ألف المقرّي كتابَه في مدينة فاس بعد أن نزح عن وطنِه لأسبابٍ سياسيةٍ وذلـك خـلال سنتيّ ألف وثـلاث عشرة، وألف وسبـع وعشـرين ١٠١٣ ـ ١٠٢٧ للهجـرة ـ ألف وستمائـة وأربع، ألف وستمـائة وسبـع عشـرة ١٦٠٤ ـ ١٦١٧ للميلاد متأثراً تأثراً واضحاً بمنهج لسان الدين بن الخطيب في كتابه : « الاحاطة بتاريخ غَرناطة » . خاصةً من حيثُ العناصِر الرئيسة التي تتألفُ منها الترجمةُ ومن حيثُ الأسلوب الانشائي أيضاً وإن كان لسانُ الدين في كتابِه أبعدَ

عن الاستطراد الذي فشا في أزهار الرياض وفي جميع تواليف المقرّي.

يمتازُ أزهارُ الرياض فوقَ اشتمالِه على ترجمـةِ القاضي عيـاض بطائفـةٍ كبيرةٍ من الأخبارِ والنصوصِ المَغْربية والأندلسية التي لم تَرِدْ في نفـح الطيب ولا في غيرِه من الكتب المطبوعة حتى الآن وقد بادت أصولها أولا زالت سرّاً مَطْوِياً في خزائنِ الكتب، لذلك يعتبرُ كتابُ أزهار الرياض من أجل الكتب التي يُرْكَنُ إليها بالنسبة الى هذه النصوصِ النادرة.

قسم المقرّي كتابَه في دراسةِ القاضي عياضٍ الى ثمـاني روضات تتفق مع تسميته للكتاب، خَصَّ الأولى منها، وهي روضةُ الورد في أولية هذا العَالِم الفرد،في ماذكرفي روضـةِ الأُقْحُوان الثانية حالَ القاضي في المنشأ والعُنْفُوان، أما روضةُ البهار فذكـر فيها جملةً من شيـوخه الـذين فضلُهم أظهرُ من شمس النهار.

في ضوءِ هذه الخُطّة الواضحـة للترجمـة رتّب المقرّي عنـاصرَ البحثِ ترتيباً حسناً ثم راح يتغلغلُ ويتعمقُ ويتتبعُ أخبارَ القـاضي الأعظم فعـرض في روضـات المنثور، والنِّسـرين، والآس، والشقيق، والنَيْلَوْفَر عن بعضٍ مـا للقاضي من منظومٍ ومنثـور، وعن تصانيفـه التي لا يعادِلُهـا نَظِيـرٌ ولا قرين، وبالتالي عن وفاتِه وما قابله من الدهر الذي ليس لجرحه من آس،ثم يختِمُ في ثناء الناسِ عليه، وذكرِ بعضِ مناقبِه التي هي أعطرُ من المِسْكِ وأطيبُ.

الـدارسُ لكتاب أزهـارِ الريـاض في أخبار عيـاض يدرك مـدى اعتـزازِ وإعجابِ المقّري بشخصية القاضي ومكانَتِه ليس في نَفْسِه وحسَب، وإنما في نفوسِ كُلِّ الذين عرفوا فضلَه ووقفوا على مَـآثِرِهِ وتـواليفه، فضـلاً عن اعتزازِ المؤلف بكتابه الذي خصه بترجمة عياض حيث يقول:

« دونَك أيها الناظرُ روضاتِ أزهار، وجنـاتٍ تجري من تحتهـا الأنهار؟ أبوابُها ثمانية، وقُطوفها دانية تَعَطَّر منها نسيمُ الصَّبَا بـزهر الآداب، وسمـا إلى محاسِنها من تعلّق من التاريخ بأهداب؛ لم أُسْبَق الى مثلهـافي ما رأيت،وإن

بَعُدْتُ فيها عن المطروق ونأَيتُ، والانسانُ مُغْرَمٌ ببُنَيَّاتِ أفكاره، وإن قُوبل ما صَدر منه بأنكاره؛ وقد أنشدَت بلسان حالها:

سَــرِّح جُفـونَــك في الحـدا ئق واجنِ أزهــارَ الـريــاضِ
مــن وردٍ أحــمــرَ أو شــقــا ئــقَ أو بَـهــارٍ ذي بــيــاض
واشــرب بِكــاســات الـرقــا ئـقِ من عـيــونٍ أو حـيــاض
وانــظر منــاقب ذي الـحقــا ئِقَ عــالِم الـدنيــا عِيــاض

الفتح بن خاقان
أديب الأندلس

٤٨٠هـ؟ / ١٠٨٧م ؟

وتعالى صوتٌ لم يلبث أن ماتَ على ذاتِه في ما كان نداءُ المُؤذِّنِ يرتفعُ قوياً رخيماً في منارةِ جـامعِ الكتبيّـة ليبلغَ اسماعَ المؤمنين في أرجـاءِ مَرَاكش التي أخذتْ تستيقظُ مستجيبةً للنداء مع خيوطٍ نحيلةٍ من الفجر تُطِل من وراء جبالِ الأطلسْ ليعمَ عاصمةَ المرابطينَ، وقاعدةَ حكمِهِمْ، ومركزَ سُلطانِهِمْ.

معَ الضوءِ الذي أخذ يشتَّدُ ويقوى كلما راحتِ الشمسُ تتخطى قممَ الأطلس بدا لنزلاءِ فندقِ الحاضرة في المدينة دَفْقٌ من دمٍ يَصْبغُ أدراجَ الفُنْدُقِ وصَحْنه بلونِ الأُرْجُـوان، عندئـذ لم يشكُوا البتـة في أن جماعـةَ السلطان يـوسفَ بنِ تاشفين قد تمكنوا من أبي نصر الفتحِ بـن خاقان، الأديبِ الأندلسي لما عرفوا من أمورِهِ ومواقفِهِ من رجالاتِ المغربِ والأندلسْ.

هذاوفي ماكانَ الناسُ يَسْتَجْلونَ حقيقةَ موتِ الشاعر الكاتبِ المؤرِّخ ألقيَ على أسبابِ مصرَعِهِ وخِلافِهِ معَ سَيِّدِ المرابطين، ومؤسّسِ دولتِهِمْ غِطَاء ولكنَّه كانَ كثيفاً بحيث لم تتسرَّبْ منهُ حتى ولا كلمات مبهمة عن جوهرِ العداوةِ بين الحـاكِم المستبدِ بـأمر الـدولةِ بتشجيـعٍ من زوجتـه زينبْ بنتِ اسحق، وبين الكاتب الفاسدِ الأخلاق، البذيءِ اللسانْ في هجاءِ الناسِ، والنَّيْلِ منهمْ.

ماتَ أبو نصر الفتحُ بنُ عبيد الله بنُ خاقان القيسي الاشبيلي عن ثلاثٍ وخمسينَ سنةَ تبوَّأ فيها عرشَ النقدِ الأدبي في عصر من اشدِّ العصورِ الأدبيّة في

الأنـدلسْ غموضـاً وتكهّناً وتَضَـارُبـاً بين المستشـرقين على تبـاعـدِ ميـولِهمْ، واختلافِ أهوائِهمْ.

يؤكّد المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا في كتابه تـاريخِ الفكـرِ الأندلسي دعماً لـرأيِ أستاذِه خوليان ريبيرا بأنَّ شعَراءِ العصـرِ المرابـطي في الأندلس وإن لم يتفوّقُوا على غيرِهمْ غير أن فُنوناً أدبية كبرى وصلتْ الى أرفعِ درجاتِ التطوّرِ خلاله حتى قُدِّرَ للفتحِ بنِ خاقانْ وابنِ بسّامْ مِمَنْ نبغَا في النقد أن يدرسـا شعرَ عصرِهما وشعر القرنِ الذي سبقه.

أمامَ هذا الواقعِ الذي يقررُه أكبرُ مستشرقيْن في اسبانيا يرى دوزي «أن أشدَ ما يَصْدُمُنا في العصر المرابـطي الشعرَ ومـا يسُودُهُ من روحِ الاستسـلامِ الديني معْ ما كانَ عليه الشعرُ الأندلسي من القوّة والحيوية قبل ذلِك حين كانَ دنيوياً خالصاً، يومَ كان الشاعرُ فخوراً بموهبةٍ يستثيرُ حرارةَ الخِصالِ التي كانَ العربُ يَروْنَ فيها نُبلاً وجمالاً» .

في هـذا العصرِ بـالذاتْ حيث تضـاربتِ الآراءُ واختلفتْ حول العصـر ومنزلته الأدبية برزَ الفتحُ بـنُ خاقان سيّداً من سادة النثرِ حيث أوْجدْتُه ظـروفٌ سائدةٌ يومئذٍ، ومن هنا كان كـاتباً يَميـلُ مع الهـوى، تارةً يلتـزمُ طابـعَ الجَدِّ، والاتزانِ، وتارةً أُخرى يطلق لميولهِ العِنانْ رغبةً في عطاءٍ أو منالْ.

وُلِدَ أبو نصْر الفتحُ بنُ خاقان في ما يؤكّد ابنُ خلكّـانْ في كتابـه وفِيّات الأعيـانْ حوالي سنـة أربعمائـة وثمانينَ للهجرة، ألفُ وسبعُ وثمـانينَ للميلاد، وأصله من صخرةِ الولدْ على مَقرُبَةٍ من قلعة يَحْصِبْ من أعمالِ غَرنَاطة آخِـر معقلٍ عربيٍ في الأندلس.

خرج الفتحُ الى الحياة فقيراً مُعْـدماً لا يملكُ من حُـطامِهَا شيئـاً فكانت حياتُهُ اضطراباً متّصلاً، وجوعاً وتشرّداً، وكانَ مع ذلكَ مُقبلاً على الخمرِ مُسرفاً في ملذّاتِه وقد طافَ بنواحي الأندلس متردّداً على من يتعاطَوْن الراحَ من أولي الأمر يسألُهمْ العَطاءْ.

في ضوء سيرةِ ابن خاقان ومسلكهِ الشخصي في حياتِـه وما قُـدِّر لَهُ أنْ يُبدِعَ في الأدب الأندلسي ويجدّد قال ابنُ دحية في كتابه «المطربُ في أشعارِ أهل المغرب» أنه كان خليعَ العِذار في دنيـاه لكنَّ كلامَـه في تآليفـه كالسحـر الحلالَ ، والماءِ الزلالْ » . الأمرُ الذي يدفعنا إلى القول بأن الأديبَ الأندلسي كان مُسْجَعَ الأسلوبِ رفيعَـهُ وإنّ الدارس لنمـاذجَ من أدبه يـدركُ سَعةَ علمـهِ واطلاعهِ ووفرة مفرداتِه، ومقدرتِهِ اللغويةِ الفائقةِ على قُوّة السّبْكِ ورَصْفِ العبارة بانسجامٍ ودقّة دونَ تَكلّفٍ أو صِنَاعة .

مِنْ هُنَـا كانَ الفتـحُ بـن خاقـان في أسلوبهِ وشِـدَّة أَسرِهِ لا يخـرجُ عن المحيطِ العامْ للكتّـابِ العربْ منذُ عهد المقاماتْ التي كانت مـظهراً للتـرفِ اللغوي والأدبي في حِقبةٍ سادَهَا الرخاءُ المـادي، وترفُ الحَضـارة ، ومباهـجُ المدنية المستورَدَةْ .

أمامَ هذا الواقع فالنقّادُ الغربيونُ لا يعدِلونَ بأدب ابن خاقـان في عصرهِ أدبَ غيره، حتى أنهم مع تقـديرهم لأسلوبِ ابنِ الخـطيب واعترافهم بـأنـه أسلوبٌ مرصّعٌ فخمٌ فهو في نظرِهِمْ لا يصلُ في هذا الباب إلى شأوِ أسلوبِ ابن خاقانْ .

شُهِرَ الفتحُ بكتابين في التراجمِ والمنتخباتِ الأدبيةْ : « قـلائدُ العقيـان في محاسن الاعيان » وجمعَ فيهِ من شعراءِ المغرب طـائفةً كثيرة وتكلّم على ترجمة كلٍّ واحدٍ منهمْ مع شيءٍ من مُنتَخَبِ شِعْرِه ، وكان قد ألّفهُ للأميـر أبي اسحقِ ابراهيم بن يوسفَ بن تـاشفين أخي أبي الحسن الذي أمـر بذبحـه، وطُبِعَ القلائـدَ سنة ١٨٦٠ في مـرسيليا ومن ثمّـة في بولاق سنـة الف ومائتين وثلاث وثمانين للهجرة .

أمَّا الكتابِ الثـاني : «مطمـحُ الأنفُسْ، ومسرحُ التّـأنسْ في مُلَحِ أهلِ الأندلسْ » . وهو على غِرار وطريقة كتابِ القلائد وتكملةً له قال فيه ابنُ خلّكان هو ثلاثُ نُسَخ كبرى، وصغرى ، ووسطى فضلاً عن أنه كثيرُ الفائدة .

لمَّا عزمَ الفتحُ على تصنيفِ كتاب «قلائدِ العقيانْ » جعل يُرْسِلُ الى كلّ واحـدٍ يعرفـه من ملوكِ الأندلسْ ووزرائِهَـا وأعيانِهـا من أهـلِ الأدبِ والشِعـر

والبلاغةْ عَزْمَه ويسألُهُ أنفاذَ شيء من نظمهِ ونثرِه ليذكُرَهُ في كتابِه، وكانوا يعرفونَ شَرَّهُ وثَلْبَه، فكانوا يخافونَهُ ويُنفِّذُونَ اليه ذلك وصُرر الدنانيرِ، فكلُ من أرْضَتْهُ صِلَتُه أحسنَ في كتابه وَصْفَهُ وصِفَتَهُ، وكلُّ من تغافَلَ عن بِرِّهِ هجاهُ وثَلَبَهُ.

لقـدْ بلغَ ابنُ خاقـان في كتابيـه الغايـةَ والنهـايـة في التبـويـب، وحُسْنِ العَرْضِ، وروعةِ الأسلوب مؤكّداً قُدْرَتَهُ عَلَى صياغـةِ الكلامْ حتى أنّـه عندمـا تعـرّض لابن باجه في القلائد نَالَ منه بلسانِه الحادّ كُلَّ منالْ ثُمَّ ألمَ بذكرِه في المطمحْ، بعد أن وصلَهُ ابنُ باجه وأكرمَـه بعباراتِ مـديحٍ جـوفاءْ تـطوي في ثَنَايَاهَا من الهجوِ اللاذعِ ما يربو على الهجاء الذي قالَه فيه قَبْلاً.

كان هدفُ ابنِ خاقان من تواليفهِ ايرادَ ما قاله من يلمُّ بسيـرهـم من النثرِ الرصينْ، والشعر البديعِ دون أن يقصدَ الى ايرادِ سِيَر حياتِهم بالذاتْ، ولهذا فتراجِمُهُ ناقصةٌ لأنه لا يذكرُ من تواريخِ الناس إلّا ما يتَّصل بما يورِدُ من نَظْمِهِمْ ونثْرِهِمْ، وقد خَلَطَ في بعض ما أورَدَهُ منَ الحوادث، وتَبِعَه في الخطأ نَفَرٌ ممنْ أَخَذَ عنهُ ممن أتى بعده.

إنْ كانَت القيمةُ التاريخية لكتابيّ ابن خاقان قليلةً كما يرى بعض المستشرقين فالواقعُ أن قيمتَها الأدبيةُ عظيمةً للغاية لأن هذين الكتابين الى جانبِ الذخيرةِ في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام في ما يؤكّد بالنثيا أحسنُ ما ألَّفه الأندلسيون من النثرِ المسجوعِ.

أنه بالرغمِ من منزلة الفتح ابن خاقان الأدبيـة التي تميَّز بهـا بين سائـر كُتّابِ وأدباء الأندلس العربي فالأديبُ والمؤرخُ لا زالَ يشكو سوءَ المصير الذي آلَ إليه لأنهم أرادوا خنق حرية القولِ فيه قبل ذبحه والقضاء عليه.

□□□

ابن بسام
الأديب والناقد

؟ - ٥٤٢هـ/١١٤٧م

في ليلٍ مدلهمٍ حالكِ الظلام ، وقد اطبق العدوُ على البلدةِ ، واقتحمَ على اهلِها الدروبَ والمسالك ، وسدَّ امامَهم منافذَ النجاةِ ، حملَ ابنُ بسام نفسَه واهلَه ، وهو بعدُ في مَيْعَةِ الصِّبا ، وَنَضَارَةِ الشبابِ ، وانحَدَرَ من شنترين البلدةِ القائمةِ على اعلى قمةٍ في البرتغال شمالي لِشْبُونة الى الرَّبْضِ الفسيحِ المنبسطِ على طولِ امتدادِ النهر هناك ، بعد ان تعرجَ في منحدراتها المخيفة ، وتجاوزَ حافاتِها الخطرة ومنزلقاتِها الوعرة .

هذا وقد وصف صاحبُ «الذخيرة في محاسنِ أهل الجزيرة» خروجَه من بلدِهِ مقهوراً بقوله في مقدمة الكتاب : « وعلم اللهُ تعالى انّ هذا الكتابَ لم يصدُرُ إلاَّ عن صَدْرٍ مَكْلُومِ الأحْناءِ ، وفِكْرٍ خامِدِ الذَّكَاءِ بين دَهْرٍ مُتَلَوِّنٍ تلوُّنَ الحِرْبَاء لانْتِبَاذِي من شَنْتَرِين قَاصِيةِ الغَرْبِ مُرَوَّعَ السِّرب بعد ان استُنْفِذَ الطريفُ والتِّلاد ، واتى على الظاهِرِ والباطِنِ النَّفاد» .

من الثابت ان ابا الحسن عليَّ بنَ بسام الشنتريني ، الأديبَ والناقدَ الاندلسي ما ان خَرَجَ من بلدتِهِ مُرَوَّعَ السِّرب ، حتى قَدِمَ الى قرطبة ، والفجرُ بعدُ ما زالَ غافياً وراءَ الأفقِ البعيد .

ستُ مراحل في ستةِ ايام قطعَهَا الرجلُ الأديبُ وعائِلَتَهُ مشياً على الأقدامِ بين ربضِ شنترين في اقصى الغرب من شبه الجزيرة وبين قرطبة أُمِّ المدائن

في الأندلس ، وهم لا يحملون على دابتِهم الوحيدة المفردة التي تندفع امامَهم ببطء إلاّ قليلاً من مَتَاعٍ انتزعوه من بين يَدَيْ عدو لاَ يَرْحَم .

في قرطبة حيثُ حَطَّ ابن بسام رحالَه في المدينةِ العظيمةِ راح ينفِقُ فيها ما حملَ معه من مال ، وهو يتلمسُ عملاً يَسُدُّ به رمَقَ عيالِهِ او رزقاً يأمَنُ به شَرَّ العوز ، لأنَ سوقَ الأدَبِ في العاصمة الكبيرة كانت بائرةً خَاملةً .

يصور ابنُ بسام واقعةَ المؤلم هذا فيقول : « فوصلت قرطبة بنَفْسٍ قد تَقَطَّعَتْ شَعَاعاً وذهب اكثرُها التياعا ، وليْتَنِي عِشْتُ منها بالذي فضلاً ، فتغرَّبتُ بها سنواتٍ اتبوأُ منها ظلَّ الغَمامة ، وأعيا بالتَّحوُّلِ عنها عِيَّ الحمامة ، ولا أُنسَ إلاّ الانْفِرَادِ ، ولا تَبَلُّغَ إلاّ بفَضْلة الزاد ، والأدبُ بها اقلُّ من الوفاءِ ، حاملُه اضْيَعُ من قَمَرِ الشِّتاء وقيمةُ كلِّ أحدٍ مالُه ، وأسْوةُ كُلِّ بلد جُهَّالُه » .

الواقع ان ناقدَ الاندلسِ الكبير ابا الحسن بنَ بسام لم يقوَ على الاقامةِ في قُرْطبة ، عاصمةِ السياسةِ ، والتجارةِ ، والمالِ فتحولَ عنها الى اشبيلية حيثُ استقرَّ بها ، وعاشَ فيها يدبجُ التراجمَ وَيَكِيلُ المدائحَ لمن يَجْزِيه عنه بالمال ، وكانت هذه المهنةُ صناعةً رائجةَ السوقِ شائعةً ، طرق بابَها من قبلُ ابنُ خاقان وغيرُهُ من افذاذِ الاندلس الاعلام .

لقد اضحى من المؤكَّد ان ابن بسام الَّف كتابَه المشهور « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » في اشبيلية وفي حدود سنة خمسمائة واثنتين للهجرة ، الف ومائة وتسعٍ للميلاد وقد قسمه اربعةَ اقسام .

خص ابنُ بسام القسمَ الأولَ في كتابه لاهلِ حاضرةِ قرطبة وما يصاقِبُها من بلادِ متوسطةِ الاندلس ، اما القسمُ الثاني فحصرَ فيه تراجمَ اهلِ الجانب الغربي ، وذِكْرِ حضرة اشبيلية ، وما اتصل بها من بلادِ البحرِ المحيطِ الرومي ، في ما افرد القسم الثالث لأهلِ الجانب الشرقيّ من الأندلسَ ومن نَجَمَ من كواكبَ العصر في افقِ ذلك الثغرِ الأعلى الى منتهى كلمةِ العرب هنالك .

هذا ويبدو ابنُ بسام ثَاقِبَ النظر ، واعيَ القلب عندما افردَ القسمَ الرابعَ

من كتابِهِ لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدّةِ الأخيرةِ من اديبٍ شاعر ، وأوى الى ظلِّها من كاتبٍ ماهر واتسعَ فيها مجالُه ، وحُفِظَتْ في ملوكِها اقوالُهُ ، ووصلَ لهم ذِكْرَ طائفةٍ من مشهوري اهلِ تلك الآفاق ، ممن نجمَ في عصرِهِ بأفريقية والشامِ والعراق .

الدارسُ لكتابِ الذخيرةِ في محاسن اهلِ الجزيرة يدركُ ان ابنَ بسام لم يُرَتِّبْ تراجِمَه وفاقاً للسنين إلاّ في الجزء الخاص ببطليوس وما يصاقِبُها ، اما بقيةُ التراجِمِ فقد رتّبها وفاقاً لمكانة المترجمَ في رأيه ، مما يدفعُ بالناقد إلى ان يؤكدَ أنَّ ابنَ بسام ومن عاصَره من نقدةِ الأندلس النابهين لم يعرفوا بعدُ اصولَ النقد الحديث ، وأنّهم كانوا يقوّمون النص ومكانَتَه من الأدبِ بالاعتماد على ميولهم الخاصة واذواقِهِم الشخصية .

لقد كان ابنُ بسام يبدأُ دراستَه بترجمة العلمِ المرادِ بنثرٍ بديعٍ مسجوعٍ ، ثم يحاولُ ان يَذكُرَ مؤلفاتِه ويُطْري مواهبَه الأدبيةِ ، ويورِدُ في خاتمةِ دراستِه مقتطفاتٍ من شعْرِه ونَثْره . غير أنه في دراستِه هذه لم يحاولْ ان يبيّنَ مكانَةَ المترجَمِ له بينَ الأدباءِ ولا قيمةَ أَدَبِهِ في ضوءِ انتاجِ امثالـه ، ويقررُ بالاضافة الى كلِّ ذلك رأيَه فيه كناقدٍ ثاقبِ النظر ، ضليعٍ ، بعيدٍ عن الهوى .

لعل حاجةَ ابنِ بسام الى استرضاءِ هؤلاء السروات من الأغنياءِ والوجهاءِ هو ما يبررُ سلوكَه لهذا الأسلوبِ الشخصي في دراسةِ شعراءِ الأندلس وكتّابِها ، وهو بالتالي ما دفع دوزي الى تقدير هذه الظروف بالذات عندما اكد « بأن ما كان يصيبُهُ ابنُ بسام منِ المال من اولئك السروات يشبه الأتعابَ التي يتقاضاها المؤلفون اليومَ من الناشرين » .

إنّه مع كُلِّ ما يقالُ في كتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة »، فالكتابُ يعتبرُ من ابرزِ كتبِ النقدِ الأدبي في الأندلس فضلاً عن ان ابنَ بسام ، وابا الفتح بنَ خاقان كانا ابرَزَ من نبغَ في فنِّ النقدِ خلاَلَ عصرِ المرابطين ، فقد درسا شعرَ عصرِهما وشعرَ القرنِ الذي سبقه ، دون ان يعرضا للتيار الشعبي الدّارج الذي كان يمثله ابنُ قزمان وجميعُ الزجالين الآخرين الذين لا يحصيهم العدُّ . مما يؤكدُ النهجَ القديمَ الذي سار عليه علماءُ النقدِ في تقويمِ الفصيحِ

والبليغ من النثر والشعر .

الحقيقةُ ان كتاب «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » هو ثمرةُ اعجابِ اهلِ الأندلس بالمشرق ، وبالتالي مظهرٌ من مظاهرِ الخصومةِ الأدبيةِ بين المشرق والمغرب العربيين ، تلك الخصومة التي ظهرت بوادِرُها في مقدمةِ كتابِ العقد لابن عبد ربه ، والتي دفعت ابنَ بسام الى تأليف كتابِه هذا .

كان ابنُ بسام حريصاً في مقدّمة الذخيرة على ان يؤكد « انه ما زالَ في افُقِنَا هذا الأندلسيِّ القصيِّ الى وقتِنَا هذا من فُرْسان الفنين وائمّةِ النوعين ، قومٌ هُمْ ما هُمْ طِيبَ مَكَاسِر وصفاءَ جواهِر صبُّوا على قوالِبِ النجوم غرائبَ المنثور والمنظوم، نثرٌ لو رآه البديعُ لَنسِيَ اسمَه ، او اجتلاه ابنُ هلالٍ لولّاه حُكْمَه ، ونظمٌ لو سمعه كُثَيِّرٌ ما نَسَبَ وَلاَ مَدَحَ » .

مع كُلِّ هذه الخصومةِ التي كان يَحِسُها الاندلسيون نحوَ اعلامِ المشرقِ كان ابنُ بسامٍ مع ذلك معجباً بطريقة الثعالبي في يتيمة الدهر فألف كتابَه على منوالِهِ مصطنعاً منهجَه ، مقسماً كتابَه باعتبار الأقاليم ، وإن كان ابنُ بسام ادقَّ من الثعالبي ملاحظةً ، وابعدَ منه نظراً ، وانفذَ منه بصيرةً ، واعمقَ منه تفكيراً كما يقول طه حسين .

وبعد ومهما يَكُنْ من امرِ ابنِ بسام والخصومةِ الأدبيةِ بين المشرقِ والمغربِ العربيين فإن الشعورَ السائدَ بين الطبقةِ الواعية الموجِّهَةِ في الاندلس جعل نفراً من اعلامِ الفكر وفي طليعتِهم ابنُ حزم كما يذكر هنري بريس « انه كان حكيماً عندما رأى من العَبَثِ ان يندَفِعَ نحو ادبِ المشرق لأن هذا الأدبَ لم يكن كافياً ليقدم معرفةً تامةً عن ماهيةِ الانسان » .

بالرغم من هذه الحقيقةِ التي اعلنها ابنُ حزم فلقد ظل الأندلسيون يتطلعون بشيء من إيمان ، وكثيرٍ من خشوع واعجاب الى المشرقِ العربي موئلِ الحضارَةِ الأندلسية ومنتهى القدسية في نظرهم .

□□□

ابنُ زُهــر

الشاعر، والوزير، والطبيب

٥٠٧هـ/١١١٣م - ٥٩٥هـ/١١٩٨م

لم يبقَ من دنياه وقد تلاشى سمعُهُ او كاد ، وَوَهُن قلبُهُ ، واضطربت خفقاتُهُ ، وَشَحُبَ لونُه إلاّ ان يصوِّر نهايةَ حياتِهِ بشعرٍ فيه من رقةِ شُعُورِهِ ، ودقةِ وصفِه ، وروعَةِ بنائه ما جعله كبيراً بين الشعراء ، عظيماً في الاطباء ، انساناً فذاً في حياته وقُبيلَ مَوْته :

تَـأمَّـلْ ، بِحَقِّـكَ ، يـا واقفـاً   ولاحظْ مكـانـاً دُفِعنـا إلَيْـهِ
تُـرَابُ الضـريـحِ على وجنتيَّ   كـأني لم أمشِ يـومـاً عَلَيْـهِ
أداوي الأنـامَ حَـذَارَ المنُـون   وهـا أنا قـد صرتُ رهنـاً لـديْـهِ

ويموتُ الشاعر ، والأديبُ ، والطبيبُ والوزيرُ ابو بكر محمدُ بنُ ابي مروان محمدٍ بنِ زهر الحفيد فيبكيه الملكُ ابو يوسف يعقوب الموحدي ، ويرثيه لعلمِهِ وادبِه وذكائِهِ ، ويأمرُ بدفنه تكريماً له ، وتقديراً لمنزلته في قلبه ، في حديقةِ الأمراء بِمُرَاكِش .

وتطوي المَنُون بموت شاعرنا ابي بكر بن زهر واحداً من اعلامِ هذه العـائلةِ العريقـةِ من أُسَـرِ الأندلس النـابهـةِ في الطبِ والأدبِ ، والشِعـرِ ، والسياسةِ ، والتي يتصلُ نسبُها بإياد بنِ معد بنِ عدنان في الجزيـرة العربيـة ، منبتِ الاحساب ، ومَعْدِنِ الانساب .

ولد شاعرُنا ابو بكر سنة خمسمائة وسبع للهجرة، الف ومائة وثلاث عشرة

للميـلاد ، في اشبيلية ، وعلى نهـر الوادي الكبيـر ، وشاطىءِ نهـر الفضة ، وملاعبِها الغناء ، واشجارِها الوارفة ، ودنياها الضاحكة تفتحت عيناه ، وفيهـا وعى طفولته وفي معاهِدِهـا اكتسَبَ ثقافتَـه وجرى على سننِ آبـائه من التَثَقُّفِ بالطب والأدب ، حتى إذا برّز عظيمـاً بين الرجـال ، وطبيباً لا يُبْلَغُ شـأوه ولا تُرْتَجى منافستُه تمرس بخدمةِ الملوكِ والأمراء في عصره .

لقد كان شاعرّنا منذ حـداثَتِهِ طلعـةً ، قويَ البنيـة ، ذكيَ الفؤاد حاضَـرَ البديهة ، بارعاً في لُعْبِ الشطرنجِ غير أَنَّه لم يَحْفِلْ بالرغم من ذلك إلاّ بالطب وبخاصةٍ الناحيةِ العلميةِ منه متتبعاً خطا والِدِه الذي كان قد اضافَ فيه على قول « كولن » Colin اضافاتٍ لم يعْرِفها الطِبُ حتى في عهدِ جـالينوس ، فاكتشف الأورامَ الحـيزومية وخرّاجَ التامور ، فضلاً عن انه كان اولَ طبيب عربي اشـار بعملية شَقِّ الحُجُبِ ، وَشَرَحَ طريقةَ التغذيَةِ القسريـة او الاصـطناعيـةِ بطريق الحُلْقوم ، وترك كتاب : « التَيسيرُ في المداواة والتدبير» .

من هنـا نشأ شـاعرُنـا على سيرَةِ ابيـه بـارعـاً في الـطِّب ، حـاذقـاً في المعالجة ، حكيمـاً جيدَ التـدبير ، فـائقاً في التشْخِيص ، مبـرزاً في معالَجَةِ امـراضِ العيون ، مؤلفـاً في ذلك رسـائل كثيـرة . ولعل حـدودَ اختصاصـاتِهِ واهتمامِهِ بأهلِه ومحيطِه مع انصرافه الى الأدبِ والفقه لم تُتِـحْ له الشُّهـرةَ في اوروبا كما أُتيحت لوالِدِه من قبله .

عاش شاعرُنا في رعاية مليكه محاطاً بعطفه تغشاه منه هباتٌ سخيةٌ مع ما انعمَ اللهُ عليـه من عريضِ الجـاه ، وسامي الحسبِ وسَعَـةِ العيش ، وَوَفْـرَةِ الكرامة ، الأمرُ الذي أثارَ عليه حسدَ الوزيرِ ابي زيد عبد الرحمن فعمِلَ حتى دَسَّ السمَّ له ولابنة اختٍ له ، كان قـد علّمها الـطِّبَّ فمهرت في فَنِّ التـوليد وامراضِ النساء ، فتوفيا معاً في سنة خمسمائة وخمس وتسعين للهجرة ، الف ومائة وثمان وتسعين للميلاد .

الحقيقةُ أنَّ شُهْرَةَ ابي بكر بنِ زُهر لا تقومُ على نجاحِهِ كطبيب بقـدر ما تنهضُ على ابداعِهِ كشاعر ، وخاصةً في موشحاتِهِ المبتكرة التي يعتبِرُها النقادُ

مثالاً يحتذى في صناعَةِ التوشيح ، ولعل ثقافةَ ابنِ زُهر الفقهيةُ ، واللغوية ، والأدبية ، المتينة العميقة ، الى جانبِ ثقافتِهِ الطِّبية التي كشفت له ابعاداً جديدة في فهم الحياةِ الانسانية ، ومن ثمة معاناتُهُ في معالجة المرضى وادوائِهم كُلُّ هذا اكسبَهُ عُمْقاً في النظرة الانسانيةِ ، ورقةً في العاطفة ورهافَةً في الإحساس ، وتوفيقاً في التعبير اللطيفِ والصورةِ المستساغَةِ على حدِ قول النقادِ المحدثين في دراسةِ شعره .

لقد خَلَّدَ شاعرُنا ابو بكر بنُ زهر بموشحه المشهور « ايها الساقي اليك المشتكى » حتى ان بعض المشارقَةِ نحلَه ابنَ المعتز فظهر في طبعاتِ ديوانه ، وكأن نقدَةَ الأدبِ المشرقي ساءَهم ان يكون للاندلسيين مثلُ هذا التخيلِ والابداعِ ، والخلْقِ في الوزن والموسيقى ، وفي الصورةِ الواضحة المشرقة ، وفي العاطفة الصادقة المتألمةِ التي تعكسُ حياةَ الدَّعَةِ والأُنْسِ والهناءِ ، والطبيعةِ الضاحكة الآسِرَةِ بألوانها ، واصباغِها ، وطيورِها ، وجداولِها حتى أنها في هذا التصويرِ إنما تبدعُ حُبَّ الاندلسيِّ لوطنه ، واختلاطَ الطبيعةِ بروحه .

قلت لعل بعضَ النقادِ قد ساءَهم ان يكونَ للأندلسيين مثلُ هذا الشعرِ الضاحِكِ الحزين ، الفرحِ ، صورةِ الأندلس العربي في كل أفْراحِهِ ، وكُلِّ احزانه :

قد يكون موشحُ ابنَ زهر :

ايها الساقي اليك المشتكى ! قد دعوناك وان لم تسمع
ونديمٍ هِمْت به في غُرّته
ويشرب الراحَ من راحته
كلما استيقظَ من سكرته
جَذَبَ الزِّق اليه ، واتكى ! وسقاني اربعاً في اربع

قلت قد يكون موشحُ ابن زهر « ايها الساقي » هو المثلُ الأعلى على

الموشح المفْرَد المؤتلف ، وهو وان كان يدخُلُ في باب المخمسات من الشعر لأن البيتَ يتألف من خمسة اسماط ، ثلاثةٍ منها الدور وهي على روي واحد :

غُصنٌ بـان مـال مـن حيـث استـوى
بـات مـن يهـواه ، مـن فـرط الجـوى
خَـفِـقَ الاحـشـاء ، مـوهـونَ الـقـوى

ومن ثمة تُخْتَمُ الموشحةُ المفردةُ المؤتَلِفَةُ هذه بقفل يتألفُ من سمطين :

كلمـا فكـر في البين بكى ؛ ويحـه ! يبكي لمـا لم يقـعِ

هـذه الاسماطُ الخمسـةُ التي يتألفُ منهـا البيتُ جميعـاً ، إلاّ ان هـذه الموشحةَ المخمسةَ تخرجُ عن المخمساتِ التي عُرفت بضَعْفِ البناء عند نقدة الشعر ، لأن شاعرَنا قـد بدّل في قـوافي اسماط الأدوار جميعـاً ، مازجاً بين الصورةِ الشعريةِ والشعورِ المتدفق ، وبين الحبِ والشوق مبـدداً كلّ الـظلامِ الجاثِمَ على صدر الحبيب .

قد يبدو جلياً اتجاهُ شاعِرنَا في بيت آخر من موشحه هذا ، الذي يتألف من غصن وقفل :

مـا لعيني عَشيت بـالنـظر!
أنكرت ، بعدَك ، ضوءَ القمر
واذا ما شئت،فاسمع خبري :

عَشَيت عيناي من طولِ البُكا، وبكى بعضي على بعضي،معي

لم يقو شاعرُنا ابنُ زهر ، طبيبُ العيون ان يعالجَ مـا المّ بعينيه ، فلقـد انكرتـا بعدَ الحبِ ضوءَ القمر وتقرحتا من شِدَّةِ البُكَاء ، وهـو الذي كـان إلى الأمسِ القريب ، الطبيبَ الخبيرَ ، وشاعرَ الحب الذي يعترف بينه وبين نفسِه بالذنب ، ولا يُقِرُّ به امامَ الحبيب ، وان صوَّر له ذَوْبَ قلبه ، وَهُيَامَ نفسه .

كبـدٌ حـرّى ، ودمـعٌ يكفُ ؛

يعـرف الـذنبَ، ولا يعتــرفُ
ايهـا المعـرضُ عمّـا أصف
قد نما حبُـك عندي، وزكـا؛ لا تخَل ، في الحب اني مدعي!

قد يكون ابنُ زهر بالرغم من المركز العلمي المرمـوق الذي اشتهـر به اشـدَ شعراء الانـدلس رقّةَ قلب ، وقـوّةَ عـاطفـة ليس بـالنسبـة الى من احب وحسب ، بل بالنسبة الى الأندلس الوطنِ الذي نشأ فيه واحب ثم دفعه القدرُ إلى ان يغادِرَه ليكون في معية الملك الموحدي ، فيودّع اشبيليا لتظلَّ ابدَ حياته في قلبِهِ وخيالِهِ صورةً لكل شبه الجزيرةِ التي احبّها وغنّاها بشعر لا اجمل ولا احلى ؟

مـا لـلمـولّـه مــن سُـكـره لا يُـفِـيـقْ يـا لـه سـكــرانْ
مـن غيـر خمـرِ مـا لـلكئـيـب الـمـشـوقْ يـنـدبُ الأوطـان
هـل تـسـتـعـاد أيـامُـنـا بـالـخليـج ولـيـالـيـنـا
او يـسـتـفـادْ مـن الـنـسـيـم الأريـج مـسـكُ داريـنـا
او هـل يـكـادْ حـسـنُ الـمـكـان الـبـهـيـج ان يُـحَـيِّـيـنـا

لئن لم يكتبْ لشاعرنَا ان يستعيدَ ايامَه في الخليج ، وان يستنشِقَ اريجَ المسْكِ الذي كان يرُد إلى دارينا ، البلدةِ الساحلية في البحرين ، فإن الذين شُغِفُوا بشعره ، واعجبوا بموشحاته يستعيدون كلما ذكروا ابنَ زُهر اللحنَ الأزلي ، الذي غنى به الحبَ والحبيبَ ، واشبيليةَ والخليجَ ،الوطَنَ الباقي في نفسه وقلبِهِ وخيالِهِ جميعاً .

□□□

ابو بكر محمد بن باجه
اول مفكر فلسفي
انجبه الاندلس الاسلامي

؟ - ٥٢٢ او ٥٣٢هـ - ١١٢٨م أو ١١٣٨م

حينما نهضت اوروبا نهضتها الكبرى في الفلسفة والعلم والفن والأدب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، كان الأندلس الاسلامي من اكبر الركائز فيها تعمقاً في الفلسفة والفلك والطب والقصص وشعر الملاحم ، ولم تزل آثاره العميقة التي خلفها ، الا حينما ترددت في جوانب اوروبا هتافات النهضة الاغريقية .

ذلك ان اسبانيا الإسلامية منذ فجر التاريخ كانت بلد ثقافة وموطن علم وضع الفينيقيون اساسه وزاد عليه اليونان والرومان مظاهر خضارتهم وبحوثهم في شتى مجالات الفكر الانساني .

هـذه الحقيقة التـاريخية تفسـر لنا سـراً من اسرار الازدهـار الحضـاري السريع الذي حققه الفاتحون العرب في البلاد على حـداثة اتصـالهم بمنابـع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين الإسلامي والمسيحي آنذاك .

لقد عرفت اسبانيا مظاهر للحياة الفلسفية في دراسـات اكبر شخصيـات ذلك العصر مكاناً وابقاها اثراً هو القديس ايزادور الاشبيلي الذي يعتبر اعـظم مصنف موسوعي حاول ان يجمع في كتاب كل مـا انتهى اليه من علوم اليـونان والرومان معدلة تعديلاً يتفق ومـذهبه الـديني ، فهو من هـذه الناحيـة من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين وقد خص كتاباته بأصول الكلمات اذ وضع فيها

كتاباً هو بحق موسوعة اخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وفي الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب عالج الفنون السبعة وهي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك عين العلوم التي قامت عليها الفلسفة في القرون الوسطى والتي عرفت بالعلم الطبيعي .

فإسبانيا من هنا كانت على صلة وثيقة بالفلسفة وعلومها قبل الفتح العربي للبلاد فضلاً عن ان حظ الاندلسيين من العلوم في بدء نشاطهم كان يقوم على الدراسات الفقهية واللغوية ،غير انه قضي بعنف على كل الحركات الأولى التي رمت الى التجديد والتشريع في ميدان الفقه خاصة لأن هذه الحركات كانت تتسم في اغلب الظروف بطابع سياسي قومي ، فضلاً عن ان فقهاء الأندلس من المالكية كانوا اشد الناس خصومة لكل حركة ترمي الى التجديد بفضل تأييد الدولة لهم التي حرمت على مواطنيها كتب غير المذهب المالكي وقضت بذلك على كل محاولة مؤدية الى الفلسفة .

بالنظر لهذا الواقع كاد الفكر الفلسفي ان يقضى عليه في شبه جزيرة ايبريا بالرغم من ضعف الدولة الأموية عندما تظاهر المنصور ابن ابي عامر بالحمية للدين فأخرج كتب الفلسفة وعلوم اليونان من مكتبة الحكم المستنصر واحرقها امام مشهد من الفقهاء المتزمتين ، فأوقف تطور الدراسات الفلسفية في الأندلس الى حين .

غير ان سقوط الخلافة وانتشار امر الجماعة وقيام ممالك الطوائف اتاحت للتفكير الفلسفي ان يفلت من عقاله ويسير في الطريق التي رسمت له .

لقد ساد نواحي البلاد كلها خلال عصر ملوك الطوائف تسامح عظيم فتكلم اصحاب كل الآراء بما ارادوا دون ان يخشوا شيئاً ، ويعزو صاعد الطليطلي في كتاب طبقات الأمم هذا التجدد في كيان الدراسات الفلسفية الى اسباب سياسية سادت الاندلس في هذه الحقبة فاشتغل ملوك الحاضرة العظمى قرطبة

بهؤلاء الخصوم الذين سيطروا على اطراف الدولة ، عن امتحان الناس والتعقب عليهم .

الحقيقة ان الأندلس الاسلامي كان قد عرف بعض اتجاهات المذهب الافلاطوني الحديث منذ عهد محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي اول مفكر اصيل اطلعه الأندلس في القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد ، كما عرف آراء اخوان الصفا بعد ان قام الطبيب الفيلسوف الكرماني بنشر رسائلهم التي اتى بها الى البلاد مسلمة المجريطي ودخلت معها الافلاطونية الحديثة بالاضافة الى ما تكلم منها ابن مسرة من قبل .

إلى جانب هذا الاتجاه الأفلاطوني الحديث الذي بدأ بابن مسرة وانتهى بمحي الدين بن عربي ؛ من مفكري القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد والذي يمثل اعلى صورة وصل اليها التفكير الافلاطوني الحديث عند مسلمي الاندلس قامت في البلاد مذاهب الفلسفة المشائية وذاعت ذيوعاً واسعاً عندما بشر بها ابو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ الملقب بابن باجة السرقسطي .

عرف ابن باجة المتوفي سنة خمسمائة واثنتين وعشرين او خمسمائة واثنتين وثلاثين للهجرة، الف ومائة وثمان وعشرين، او الف ومائة وثمان وثلاثين للميلاد عند فلاسفة الاسكولاستيين باسم « افيمياثة » وهو تحريف لاسمه وقد عاش في ايام احمد بن يوسف بن هود الملقب بالمستعين آخر امراء هذه العائلة في سرقسطة . ولا يبعد ان يكون ابن باجة قد مارس الصياغة التي كانت صناعة اسرته ، ومن الفضة على اغلب الظن قد اكتسب لقبه (باجة) كما يقول ابن خلكان .

لقد اغفلت المصادر القديمة حياة ونشأة فيلسوف المذهب المشائي فلم تحدثنا بشيء عن ايامه الأولى وتعليمه وان اكدت ان ابن باجة نال ثقة المرابطين عند دخولهم الى سرقسطة واتخذه عاملهم كاتباً له وقد اشتهر امره في ذلك الحين بأنه اول مشاهير الفلاسفة العرب في الأندلس وانه انصرف الى

السياسة والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات والموسيقى والشعر والفلسفة والطب الذي برز فيه خاصة حتى اثار حفيظة زملائه فدسوا له السم فتوفي في فاس بعد ان كان قد غادر سرقسطة ونزح الى جنوب الاندلس وسكن المرية ثم غرناطة حيث كانت له ندوات ادبية تحدثنا عنها الكتب مبتعداً عن السياسة جملة ، منصرفاً الى التدريس والتأليف .

كان ابن باجة كغيره من مفكري العصور الوسطى ملماً بجميع علوم اليونان وهو اقدم مؤلف اندلسي تعرف عن يقين انه درس فلسفة المشائية ورجع إلى كتب الفارابي وابن سينا والغزالي فهو من هذا القبيل القاعدة التي سهلت من بعد لابن طفيل ولابن رشد الذي تتلمذ عليه ان يأخذا عنه بعض بنود فلسفتيهما، فضلاً عن ابن طفيل في مطلع قصة حي بن يقظان يشهد له بالتقدم والفضل عندما يؤكد بقوله « ثم خلف بعدهم خلف آخر احذق منهم نظراً واقرب الى الحقيقة . ولم يكن فيهم اثقب ذهناً ولا اصح نظراً ولا اصدق روية من ابي بكر ابن الصائغ غير ان الدنيا شغلته حتى اختارته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته » .

لقد تمتع ابن باجة بمنزلة رفيعة عند اصحاب كتب التراجم الذين اتوا على ذكره فابن خلكان والقفطي وابن ابي اصيبعة يكادون يجمعون على الاعتراف بفضله وتقدمه في الطب والفلسفة حتى ان الفتح ابن خاقان الذي حمل عليه في كتابه قلائد العقيان لخلاف وقع بينهما كان قد اشاد بعلمه وبمنزلته في موضع آخر .

هذا ويسرد ابن ابي أصيبعة في طبقات الاطباء اسماء ثمانية وعشرين مؤلفاً ينسبها الى ابن باجة تقع في ثلاث فئات مختلفة شروح على ارسطوطاليس ، فتآليف اشراقية ، فمصنفات طبية .

قام ابن باجة بشرح كتاب السماع الطبيعي الذي يسمى ايضاً بسمع الكيان لأرسطو كما شرح جزء من كتاب الكون والفساد وتاريخ الحيوان والنبات الى جانب الشرح الذي وضعه لمنطق الفارابي الذي لا يزال مخطوطاً في مكتبة

الاسكوريال كما شرح كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

ولعل من الكتب المهمة التي الفها فيلسوف الاندلس رسالة بعنوان اتصال الانسان بالعقل الفعال كما اورد عنوانها ابن ابي اصيبعة في كتابه والتي يذكرها الدكتور احمد فؤاد الأهواني في تلخيصه لكتاب النفس لابن رشد بعنوان اتصال العقل بالانسان ليحاول ان يصل الى عنوان يتفق وموضوع الرسالة فيؤكد ان التسميتين مختلفتان ومتعاكستان والحقيقة ليس للرسالة عنوان من وضع المؤلف .

لقد كانت هذه الرسالة موضع اهتمام المستشرقين والعلماء فلقد نشرها المستشرق الاسباني ميكل آسين بلاثيوس مع ترجمتها الى الاسبانية في مجلة الاندلس سنة ١٩٤٢ وذلك عن مخطوط مكتبة برلين رقم ٥٠٦٠، ومخطوط مكتبة بودلين باكسفورد رقم ٢٠٦ الى جانب اهتمام تلميذه ابن رشد بها اذ لخصها في مخطوط القاهرة لكتاب النفس .

هذا وليس من شك في ان رسالة الوداع لابن باجة التي ترمي الى اعادة العلم الى مكانه الحقيقي به وبيان فضل العلم والمعرفة والتأمل الفلسفي وكيف يؤديان وحدهما بالانسان الى معرفة الطبيعة، وكيف يعينانه بفضل من الله على ان يعرف نفسه وكيف يؤديان به الى الاتصال بالعقل الفعال ، قد وضعت ابا بكر محمد ابن باجة السرقسطي في طليعة مفكري الاندلس الاسلامي مكانة ووعياً وادراكاً للحقيقة العلمية .

□□□

ابن الأبّار وكتابه الموسوم بالحلّة السيراء

٥٩٥هـ/١١٩٩م - ٦٥٨هـ/١٢٦٠م

في شهر ربيع الثاني سنةَ خمسمائة وخمسٍ وتسعين للهجرة، فبراير ألف ومائة وتسعٍ وتسعين للميلاد، تفتحت في بلنسية المدينةِ العربيةِ على المتوسطِ عينان كانتا تتأملان كلّ ما حولهما دون أن تُحِسا بَعْدُ الجمالَ الآسرَ المختبيء في أرض تلك المدينةِ وعلى امتدادِ شاطئِها اللاّزُوردي .

إن الطفلَ الذي أخذ يناغي الفجرَ بصوته المتقطّع كان أبا عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعي، الذي لعب في إبّان رجولته دوراً هاماً في تاريخ بلاده، وترك في تاريخِ الفكر الانساني عامةً، وفي تاريخِ عربِ الأندلس خاصةً أثراً بارزاً، يرجِعُ اليه النقادُ والباحثون.

كان أبو عبدِ الله محمدُ بنُ عبد الله الذي عُرِف في ما بعد بابن الأبّار شاعراً يمزج العلمَ بالموسيقى والقافية، وكان أديباً يهتمّ بالفكرة قبل أن يهتم بصياغة الكلمة، وكان مؤرّخاً ينظر في السببِ قبل أن يسجل الخبر، وكان فقيهاً وقاضياً يفهم جوهرَ الدين، ولا يتشدّد الاّ في الأصوليات.

درس ابنُ الأبّار على جملةٍ نابهةٍ من رجالاتِ عصره حتى قفز الى موكب الطليعة، أرّخ للأفذاذ من رجالاتِ الأندلس والمغربِ في ضوء معرفته لتاريخِ المشرق ودراسة أعلامِه العظّام في الحُكْم، والقِيادة، والسيَاسةِ، والأدب والتاريخِ فكان في ثقافته انعكاساً لنبوغِهم ومظهراً لمجالاَتِ ابداعهم.

لقد كرّس ابنُ الأبّار حياتَه العلمية الأولى للتعمّق في فهمِ كُتُبِ الأولين، وتقديرِ قيمَتِها العلمية، ومن هنا كان في كُتُبه مرجعاً لهذه الكتب جميعاً لم يختص بلونٍ واحدٍ من ألوان العلم، وإنّما اختصَ بلونٍ واحدٍ من ألوان التأريخ، فأرّخ الأعلامَ وكتب تراجِمَهُم فجمع في ذلك بين مظاهر النبوغ المختلفة، وكأني به قد ألّف في جميع أبوابِ العلم، ودرس كلَّ مظاهرِ النبوغ .

على هذا المنوال عاش ابنُ الأبّار حياتَه الأدبية، التي تبرزُ واضحةً في مؤلَّفه القيّم « الحلة السيراء » الذي يعالج فيه جانباً مهمّاً من جوانب الحياة العربية في الأندلسِ والشمالِ الأفريقي، المنطقةِ التي كانت مجالا لأحداثٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ خطيرة، كان لها أبرزُ الأثر في التاريخ العربي، فضلاً عن الاتجاهات الأدبية والعلمية التي طبعت بها الأدب، ومناهجِ البحث العلمي .

كان أولُ من نبّه الى مخطوط الحلة السيراء مخائيل غزيري العالم اللبناني في القرن الثامن عشر، وذلك عندما استدعي الى اسبانيا حيثُ وضعَ باللاتينية فهرستَ المخطوطات العربيةِ المحفوظة في مكتبة الاسكوريال، وقد أسماها باللاتينية Vestis Serica، أي الرداء الحريري، وهي عين التسمية التي أطلقها المستشرق ليڤي بروفنسال على الكتاب اذ أسماه بالفرنسية Le Manteau bordé d'or .

إن حقيقةَ اللفظة العربية مشتقّةٌ من سيّر الثوبَ أو السهم، أي جعل فيه خطوطاً كالسيور وهي من سَيْر قَدّة من الجلد مستطيلة، السيراء بُرودٌ مخططةٌ، أو برودٌ يخالطُها حريرٌ، ولعلّ ابنَ الأبّار أسمى كتابَه كذلك لأنه جمعَ فيه بين النثر والشعر .

الحلةُ السيراءُ هي في الواقع مجموعةٌ لتراجمِ الشعراء الأمراء الذين حكموا الأندلسَ والشمالَ الأفريقي، وهي صورةٌ لتَاريخ العرب منذ بدء الفتوح في المشرق حتى سقوط بعض مناطق الأندلس في أيدي الروم، وقيامِ الدويلاَت الاسلاميةِ في الشمال الأفريقي.

من هذه الخاصةِ تنطوي الحلّـة السيراء على تاريخ الأمة العربية ، وعلى ما كان يَتُم في « الجزيرة ، وبلاد الشام ، والعراق ، وخراسان » مناطق التفاعل العربي ، من أحداثٍ سياسيةٍ ، وحركاتٍ فكريةٍ ، وتيارات فلسفية ، ومدارسَ فُقهية ، ومذاهبَ كلامية تعكس كلّ ذلك على أرض هؤلاء الأمراء الشعراء حيثُ كان مجالُ نفوذهم ، ودولةُ سلطانهم .

وهكذا فالحلة السيراء كما يبدو ليست تأريخاً للشعراء الأعلام فحسب ، وليست تأريخاً للمشرق العربي ، كما أنها ليست مظهراً للحكم الأموي الذي اعترف بالارستوقراطية العربية ودفع الى انشاء الأحزاب السياسية ، فضلاً عن أنها لا تجسّد واقع الخلافة العباسية .

فإذا لم تكن الحلةُ السيراء مظهراً لكل هذا ، فهي ولا ريبَ حقيقةُ التاريخ العربي في المشرقِ ندرسُ في ضوئه واقعَ الحكم العربي في المغرب جميعاً ، الذي كان مسرحاً لحركاتٍ سياسيةٍ ودينيةٍ ، واجتماعيةٍ ، ساعدت بغدادُ على نشأتها في الأندلس والمغرب ، وكان من نتائجها قيامُ الدولة الأموية في شبه جزيرة ايبيريا ، وانتشار التشيّع في أفريقيا .

لقد بلغ العلاّمة ابن الأبّار ، بعد أن ألّف الحلةَ السيراء ، ومجموعَةً كبيرة من الكتب المصادر . منزلةً رفيعةً بين العلماء والمؤرخين ، واعتبر واضعُ المدماكِ الأول في فلسفة علم التأريخ فسبق بذلك ابنَ خلدون .

هذا ومن الثابت ان ابن الأبّار ، العالم المؤرخ ، والأديبَ النابه والشاعرَ ، والناقد قد ألّف الحلة السيراء آخرَ كتبه في تونس الأرض التي شهدت موته قعصاً بالسلاح يوم العشرين من محرم سنة ستمائة وثمان وخمسين للهجرة ، يناير ألف وماءتين وستين للميلاد ، بأمر من السلطان المستنصر بالله الحفصي .

إن موتَ العلامة ابن الأبّار على النحو الذي ذكرته الكتب المصادر يعتبر خسارةً أدبيةً وتاريخيةً لا تعوّض .

بلى لقد مات ابنُ الأبار في تونس بعدَ عقود ستة من مولده في بلنسية غنى فيها قصيدته الخالدة التي رددتها اسبانيا الاسلامية فيما يقولُ المستشرقُ الاسباني بونز بويكز ، تلك التي ألقاها بين يدي السلطان يحيى أبي زكريا الحفصي لنجدة بلده ، وهي في ساعات الحصار ومطلَعُها :

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلُسا — إن السبيلَ الى منجاتها دَرَسا
وَهبْ لها من عزيز النصر ما التمست — فلم يزلْ منك عزُّ النصْر مُلْتَمسا
وحاشِ ما تعانيه حُشَاشَتها — فطالما ذاقت البلوى صباحَ مَسا
يا للجزيرةِ أضحى اهلُها جزَراً — للحادثات وامسى جدُها تَعِسا
كانت حدائقَ للأحداق مونقةً — فصوّح النضر من ادواحها وعَسَا
وحال ما حولها من منظر عجب — يستجلسُ الركبَ أو يستركبُ الجُلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحَربَا — عيثَ الدبَّا في مغانيها كبسا
فأين عيش جنيناه بها خضِرا — وأين غصن جنيناه بها سلِسا

الى ان يختهما بقوله :

يا ايها الملكُ المنصور انت لها — علياء توسِعُ اعداء الهدى تعسا

وتدمع عين يحيى ابي زكريا الحفصي ويأمر بالعون والمدد لانقاد بلنسية إلّا ان القدر كان اسبق إليها فتقع بيد السيد الكمبيطور مع وصول الاسطول الحفصي .

ويحزن ابن الأبّار ويجبر على ان يغادر الاندلس وخدمة جميل ابن زيّان ابن مدافع صاحب بلنسية ويلجأ إلى بجاية ليموت من بعد في تونس وعلى نحو ما تؤكد المصادر .

□□□

الصوفي الزاهد

عبد الله الششتري

٦١٠هـ/١٢٠٣م - ٦٨٦/١٢٦٩م .

ما إن اتجه التصوف في الإسلام الى تفسير التقى تفسيراً عقلياً، في أواخر العصر الأموي، وقد أضحى نظاماً شديداً في العبادة، ثم ابتعد مع مطلع العصر العباسي عن منابعه الأصلية في الزهد، واتسم بالرمز والشطح، حتى حمل لواءه في الأندلس أعلام كبار كان في مقدمتهم عبد الله النميري الششتري.

ولد قطب الرحى شاعرنا في قرية ششتر المطلة على وادي آش بالأندلس والمنسكبة حدائق وجنات، سنة ٦١٠ هـ (١٢١٢ م) في أسرة غنية موسرة يجمع النقاد على أنهم كانوا من حكام الأقاليم، حسن سمعة، وموئل عدل وإدارة.

بعد ثمان وخمسين عاماً، وفي السابع عشر من صفر سنة ٦٨٦هـ ، الحادي عشر من تشرين الأول (اكتوبر) سنة (١٢٦٩ م) توفي الششتري فقيراً معدماً في «الطينة» قرب دمياط بمصر، وقد خلّد هذه الناحية عندما أحس بدنو الأجل فقال « حَنَّت الطينةُ الى الطينة» .

وفي الدرب البعيد بين مسكنه ومرقده الأخير حمله اتباعه ومريدوه من الأتقياء والفقراء وقد أخذ منهم الإعياء وتهللت مع ذلك نفوسهم، وترنحت أعطافهم في ما كان نفر منهم يردد في دعاء خافت نشيد الشيخ ودوره المختار « ألف قبل لامين وهاء قُرة عين » فيجيب الحشد الضائع من الصوفية الذاهلة

الواعية ، وقد غمره نور سماوي : الله .... الله .... !

كـان الدعـاء طويـلاً واللحن عذبـاً رقيقاً يعـزف على الششتريـة، الآلة الموسيقية التي ابتدعها العلم الأكبر يوم كان يطوف في الأسواق مترنماً ، متعبداً ، ضائعاً مع الله .

شيـخ من ارض مِكْنَـاس   وَسَطَ الأسـواق يُـغَـنّـي
أيْشَ عَلَيْنَـا مـن النـاس   وأيْشِ عـلى النـاس مـني

بدأ الششتري حياته تاجراً متجولاً في الأندلس، وزار مراكش (المغرب) قبل أن يعتنق المذهب . فـي بجاية التقى بعبد الحق بن سبعين، أحد أعـلام التصوف الاسلامي واعتنق مذهب وحدة الوجود في صورته العارية مجاوزاً ابن عربي علوا ، متجهاً بكليته نحو التصوف الفلسفي .

صاح ابن سبعين بالشاعر ذات مرة: إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي مـدين[1] ، وإن كنت تريـد ربّ الجنة فهلم اليّ ، فـانجـذب الششتـري إلى « اكسير الذّوات » و« مغنـاطيس النفوس » كمـا يقول ابن عجيبـة ، وقد تبـع الشيخ وفَنِي فيه الفَناء الكامل .

بعد أن تخرج الششتري على ابن سبعين، وأعطاه علماً، طلب إليه أن يتجول في الأسواق منشداً :

بـديت بـذكـر الحبيب   وعـيـشـي يـطيـب

لم يستطع الششتري، وبعد أن طوَّف في الأسواق يغني زجل أستاذه أن يضيف عليه شيئاً حتى فُتح عليه وأكمل الزجل :

لـمـا دار الـكـاس   مـا بيـن الـجـلاس
عنهم زال الباس
سقـاهم بكاس الـرضا   عفـا الله عمّـا مـضى

---

(١) صوفي شهير قبره لا زال في تلمسان بالجزائر ، وإلى اسمه ينتسب كثير من الرجال تبركاً .

عندها تاه بمذهبه الفلسفي الجديد، وراح يترسم خطى أستاذه، يجول في الأسـواق، ينـظم المـوشحـات والأزجـال، يعـزف على الشـشتـريـة آلتــه الموسيقية، يشطح، يدور ويتحول من بعد الى كتلة من الـلاوعي وقد تصبب عرقه، وغاب نظره، وعلق البؤبؤ في أفق العين ساجداً.

جال الششتري مع شيخه ابن سبعين في كثير من المدن، ثم رحل وحيداً الّا من السر الأزلي الذي يحمل، والنور الالهي الذي يؤمن، وقد أدهش أهل عصره بعلمه الواسع ومعرفته العميقة بالفقه والسنة، وكثيـراً ما كـان يردد وقـد استبدت به النشوة الالهية .

رضي المتيم في الهـوى بجنـونـه   خـلوه يفْـني عـمـره بفـنـونـه

بعد هذه الحقبة من تاريخه قصد الششتري مصر ونـزل القاهـرة معتكفاً بالأزهر وقد اتخذ لنفسه المريدين الذين كـانوا يلقـونه تـارة بالمسجـد ، وتارة أخرى بباب « زويلة » .

لم يمكث الششتري طويلاً بمصر حى شـدّ الرحـال الى مكة المكـرمة ليؤدي فريضة الحج ، وليحتمي بقبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وليلقى من جديد استاذه ابن سبعين .

كان قطب الرحى خلال تجـواله في صحـاري مصر والشـام يتردد على الأديرة ويصادق الرهبان، ويقف على كثير من طقوسهم، وعـاداتهم، وتمتزج روحـه الخالصـة لله بأرواحهم المتبتلة للذات العليـة، الأمر الـذي أثار عليـه حفيـظة بعض الفقهاء ، والـذي دفع المتصـوف الكبيـر عبـد الغني النـابلسي إلى الدفاع عنه في رسالته : « رد المفتري عن الطعن في الششتري » .

بعد وفاة ابن سبعين منتحراً كما جاء في المصادر خلفه تلميذه في امامة الفقراء والزهاد ، والضعفاء والضائعين بالله ، وكان عدد كبير منهم يصحبه في أسفاره الطويلة وهم يرددون معه : ألف قبل لأمين وهاء قُرّه عين . . . الله . . . الله . . . !

الحقيقة أن الششتري كان رأس مذهب في النـظم، قصيداً، كـان، أم

موشحاً، أو زجلاً، حتى أن عبد الله بن الخطيب كان ينشد الزجل على طريقته وقد صاغه بمعنى عميق بذكر الله والفناء في ذاته العلية ، تودداً ، وتقرباً .

ستبقى الصوفية مسلكاً روحياً معبراً عن انعتاق الذات الانسانية في ظل الاسلام، الدين الحنيف من أحكام قد تجد نفسها غير ملزمة بهـا، وسيبقى أعلامها الكبار وشعراؤها في المشرق والمغرب العربيين مصابيح تضيء الطريق الى السماء. . . الى الله. . . !

ولئن ظلت الصوفية مسلكاً روحياً معبراً عن الانعتاق من الحياة الدنيا ، الى السماء . . . الى الله فلكم عبَّر عن هذا الانعتاق شاعرنا الششتري عندما غادر موطنه الأول في قريـة ششتر المطلة من علٍ على وادي آش ، المـدينة المخملية قرب غرناطة ، والتي ينصب فيها نهرهـا المتدفق الهارب من جبل شلير ، القائم الى الشـرق منهـا وهي على ضفتـه ، حيث كـان يؤمهـا ابنـاء وصبية ، وبنات وصبايا ششتر كأبنـاء القرى جميعـاً الذين يحجـون دائماً إلى قاعدة الاقليم ، او قصبة البلدة ، او ساحة القرية ، حيث كل المعالم ، وكـل الحياة . . . !

غير ان شاعرنا الممجد لاسم الله بعد ان زار وادي آش مع أبناء قـريته للمـرة الأخيرة لم يعـاود الزيـارة من بعد فلقـد خرج من الأنـدلس مـزوداً من المعارف لينشرها بعيداً بعيداً . . . ولينام معها من بعدُ في الطينة ، وقد حنت اليها الطينة .

إنه عبد الله الششتري صاحب النشيد الأزلي الباقي : « الف قبل لامَين وهاء » ! اليس ازلياً الله . . . ؟

□□□

ابن عربي
شيخ الصوفية الأكبر

٥٦١هـ/١١٦٥م - ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م

في طرف دمشق، الغرة الخضراء المسبلة في شيء من دعة وكثير من رفق على هضاب الأرض التي استحالت الى غوطة فيحاء طوقت المدينة العربية الخالدة، وطرزت جنباتها بالحقول النضرة، ورسمت في ماحولها شبه دائرة زمردية تتسع كلما انطلقت من محيطها حتى تضيع على جنبات الأرض حيث لا يقوى بردى نهرها اللجيني أن يمدها بدفق من سخائه بعد أن قهرته يد الانسان ومزقته جداول قبيل أرض الغوطة الفيحاء .

قلت في طرف دمشق الغرة الخضراء ينهض مقام الشيخ الأكبر، والبحر الزاخر في المعارف الالهية، ومحي الدين، أبي بكر محمد بن علي بن أحمد ابن عبد الله الطائي الحاتمي المشهور بابن عربي .

تُعرف المحلة التي ينهض بها مقام شيخ الصوفية القطب بمحلة الشيخ محي الدين، حيث تقوم في قلب دمشق حياة زاخرة بالحب الالهي والصلاح.

مع غروب شمس كل خميس يلتقي المتبتلون، والنازحون حول مقام الشيخ الأكبر في حلقات ذكر تمتد الى الليل، بعد طواف متتال حول المقام الأقدس، في شبه حركة ولا حركة وعلى صوت واحد عميق متفجر من أعماق النفس التي استكانت واستجابت في كثير من فهم ورجاء إلى هذه الأدعية المتعالية المطيبة بذكر الله .

لقد أحب الشيخ الأكبر الله وعشق ذاته الالهية عشقاً انتهى دون سائر الصوفية الفلاسفة الى تقرير وحدة الوجود واخراجها في مذهب فلسفي استمده من القرآن الكريم، والحديث وعلم الكلام، ومن مذاهب فلسفية مختلفة، كفلسفة المشائين، والأفلاطونية الحديثة، والعلوم الباطنية والرواقية، ومذهب الإشراق وغيرها، وطبع كل ذلك بما كان ينبع في أعماقه من حب وإيمان وقد امتزجا بعلم خالص أبدعه ابن عربي وجعله مثله الأعلى في حياته المتبتلة.

كأني بالمؤمنين الذين يطوفون بالمقام يذكرون الله ويذرفون الدمع، يبتهلون في أدعية حَرّى، كأني بهم وقد أساء أسلافهم الى العلم الاسلامي الشامخ يوم قتله نفر منهم، بعد شطحة من صوفيته المتدفقة «أنتم وما تعبدون تحت قدمي هذه». ولم يفهموا عنه ما يريد، كأني بهم في أدعيتهم وطوافهم وخشوعهم وتقواهم يكفرون عن الخطيئة التي ارتكبوها وهماً منهم وجهلاً. ليلتئذ في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ستمائة وثمان وثلاثين للهجرة، الف وماءتين وأربعين للميلاد أطبقت عينا الامام الأكبر وقد بدت على البؤبؤ من خلال انفراج يسير في الجفن المسبل صورة حزينة ضاحكة من هؤلاء الذين لم يفهموا بعد منهج القطب، شيخ الاسلام أبي بكر محمدبن علي الحاتمي.

ولد ابن عربي في مرسية مدينة في شرق الأندلس على ضفاف نهر خير، ونشأ في أسرة غنية موسرة، وفي بيت حسب وتقى وذهب به أهله وهو بعد طفل الى اشبيلية وهناك قضى سنوات طفولته وصباه ولا بد أنه درس علوم الدين والأدب دراسة شاملة كما يؤكد المستشرق الاسباني كونثالث بالنثيا، وفي أشبيلية أيضاً قرأ القرآن، والحديث، ودرس الفقه على يد أحد تلامذة ابن حزم صاحب المذهب الظاهري في الأندلس.

لم يعرف عنه وهو في شرخ الشباب أنه كان ميالاً الى الزهد والصلاح ويبدو أنه كان على غرار أبناء الأعيان والملوك، مترفاً في حياته، مقبلاً على الحياة حتى سمع صوتاً يهز أعماقه وقد أمسك بكأس من راح «يا محمد! ما لهذا خلقت». عندها يرمي القدح، ويخرج مدهوشاً وقد كتبت له حياة جديدة

بعد أن قضى أياماً أربعة في قبر مخسوف، قرب نهر جـار، لا يخرج منـه الا للصلاة.

يؤكـد النقاد وفي طليعتهم المستشـرق الاسباني آسين بـلاثيوس أن ابن عربي منذ أن تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون بـن عبد الرحمن الباجي تغير مجرى حياته الشخصي لأن امرأته ضربت له المثل الصالح في التقوى والورع.

من المؤكد أن ابن عربي عنـدما استكمـل عدتـه بعد أن لازم نفـراً من الصالحين، ومارس حياة التصوف مع شيوخ كثيرين، وأخذ عنهم من رياضات الصوفية وعلى الأخص من عجوز تدعى نونه فاطمة بنت ابن المثنى القـرطبية ولازمها خادماً ومريداً مدة عامين وشاهد بنفسه مـا كان يجـري على يدهـا من ظواهر التنبؤ الغريبة، طوف في بلاد الأندلس والمغرب وتونس وأقام في بجاية وهناك تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف كلها، وفي تونس ألف كتابه «انشاء الدوائر الاحاطية على مضاهاة الانسان للخالق وللخلايق». وفيـه شرح تصوره المعقد الملتوي للكون بواسطة اشكال هندسية.

في سنة خمسمائة وثمان وتسعين للهجرة الف ومائتين للميلاد توجه ابن عـربي الى مكة وجـاور فيها وأُسر بحب النظام ابنـة أبي خاشـه، أمام مقـام ابراهيم، الحب الذي أوحى اليه موضوع كتابه «ترجمان الأشواق».

ألّف ابن عربي كتباً كثيرة منها : « مشاهد الأسرار » ، و « رسالة الأنوار » و « السياسة الالهية » و « ذخائر الأعلاق » وهو شرح على كتابه ترجمان الأشواق الذي يعتبر من أشهر كتبه فضلاً عن كتاب « الحكمة الالهامية » الذي رد فيه على الفلاسفة ونقض آراءَهم على طريقة الغزالي في كتاب « التهافت » الى جانب نصوص الحكم ، والفتوحات المكية الذي ضمنه كل آرائه ومذهبه وقدم فيه فلسفته في الفقه والشريعة الاسلامية .

في دمشق، البلد الذي انتهى اليه ابن عربي قدر له فيه أن يرى الذات الالهية وفيها قدر للعالم الاسلامي الشامخ، أن ينتقل الى الملأ الأعلى، الى السماء.

لسان الدين بن الخطيب

نابغة عصره

٧١٣هـ/١٣١٣م - ٧٧٦هـ/١٣٧٤م .

لم يعرفِ الأدبُ الأندلسي قبيلَ انهيارِ مملكةِ غَرْناطة شخصيةً أدبية مرموقةً تركت آثاراً متميزةً في الأدب والتاريخ ، وبرزَت في الحياةِ السياسية ، ولعِبتْ دوراً عظيمَ الخطورةِ في الادارةِ والحكم كما عرف لسانَ الدين بنَ الخطيب .

ينتمي الوزيرُ لسانُ الدين في الأصلِ الى أسرةِ السَّلْماني التي اشتهرت في أولِ أمرها ببني الوزير، وكانت من أهلِ قرطبة ، ثم انتقلت الى طليطلة بعد هَياج الربضِ في عهدِ الحكم الأول سنة مائتين واثنتين للهجرة ، ثمانمائة وثماني عشرة للميلاد ، غير أن جدّه الأعلى سعيدَ السلماني عاد إلى لُوشة Lojé على مرحلةٍ من غرناطة واستقر فيها ، وَخَطَبَ بها وكان من أهلِ العلمِ والدينِ والفضيلةِ فلُقِّبَ بالخطيب ، الكنيةِ التي لازمت عَائلته من بعد .

من المؤكدِ أن جدَّةُ لسانِ الدين بنِ الخطيب لابيه كانت تَمُتُّ إلى زوج سلطانِ بني الأحمربنوة الخؤولة ، سببِ نباهةِ قدْرِ والده عبدِ الله الذي نشأ في كَنَفِ التّرفِ والنعيم ، واختصَّ بلقبِ الوزارةِ بالرغم من ضآلةِ حظه في العلم والاجتهاد .

عاش والدُ لسان الدين في رعاية السلطان أبي الوليد اسماعيل النصري من بني الأحمر ورافقه الى غرناطة ولازمه فيها عندما بنى عرشه بها بعد أن انهزَم

عنها خصمُه أبو الجيوش نصر بنُ الأحمر وذلك سنة سبعمائة وثلاث عشْرة للهجرة ألف وثلاثمائة وأربعَ عشْرة للميلاد كما لازمَ من بعده ابنه السلطان أبا عبد الله محمداً ، ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف ، مشرّفاً بلقب الوزارة حتى قتل بظاهر طريف في المعركة الكبرى بين العرب والاسبان سنة سبعمائة واحدى وأربعين للهجرة ، ألف ومائتي وأربعين للميلاد ، في ما كان لسانُ الدين ابنَ ثمانٍ وعشرين سنة .

من هنا نشأ أديبُنَا في محيط الدولة والحكم ، غير أنه بخلاف والدِه قد انكب منذ حداثته على طلب العلم ، فدرس القرآن الكريم تكتيباً وحفظاً وتجويداً على المقريء عبدِ الله بنِ عبد المولى العوّاد ، ثم جلس الى أبي الحسن علي الكناني فكان بشهادة لسان الدين في كتابه « الاحاطة بتاريخ غرناطة » أولَ استاذ انتفع به ، بعد أن درس عليه القرآنَ والعربيةَ وآدابَها ، كما درس على شيخ النحاة في الأندلس أبي عبد الله بن البيريّ ، وتأدبَ بالشيخ الرئيس أبي الحسن الجيّاب .

ينقل المقرّي في نفح الطيب أسماءَ عددٍ كبير من أساتذة ابنِ الخطيب ثم يقول : « ونكتفي بهؤلاء من مشايخ لسان الدين دون أن يذكر ما جاء في « الاحاطة » « والتاج المحلى » وغيرِهما من أن عالمَنا درسَ الطِّب ، والتعاليم ، والمنطق ، وصناعةَ التعديل على علامة عصره أبي زكريا يحيى بن هُذيل النجيبي .

لقد قدر للسان الدين ، الشاعرِ ، والأديبِ والمؤرخِ وهو ينهض بمثل هذه الثقافةِ الواسعةِ أن يتولى بعد وفاةِ أستاذِه ابن الجياب كتابةَ السرِ مُضافةً الى الوزارة وهو لا يزال شاباً يافعاً مما أدخل إلى نفسه شيئاً من الزهْو والاعتزازِ فكتب عن نفسه في الاحاطة : «فقلدني السلطان سرَّه ، ولما يُستكمل الشبابُ ويجتمع السنُ معززةً بالقيادة ورسومِ الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى اليَّ بخاتمه وسيفه ، واتمنني على صِوان حضرته وبيت ماله ، وسُجوف حرمه ، ومَعْقِل امتناعه » .

يبدو من سيرة ابن الخطيب أنه بالرغم من مقتل سلطانه أبي الحجاج بنِ الأحمر فقد ظل نجمُه صاعداً مع خليفته من بعده الغني بالله محمد الذي ضاعف خطوته، وأعلى مجلسَه، وقصرَ المَشورة على نصحه الى أن كانت عليه الكائنة فسجنه أخوه اسماعيل واستبد بالملك فأخذ نجمُ لسانِ الدين بالأفول ، وسَعدُه بالفتور ، ومجدُه بالخمول فسجنه بعد أن أمّنه وقربه ، فكبست عندئذ دوره وخُتِم على أغلاقها وانتهب ما فيها من كتب وثيابٍ وآنية ، وبيع كُلُّ ذلك بأبخس الأثمان .

الواقع أن كاتبنا لم يمكثْ في السجن طويلاً فقد أوفد سلطان المغرب أبو سالم المريني وفداً إلى غرناطة يشفع بالسلطان المخلوع الغنِي بالله محمد وبوزيره لسانِ الدين بنِ الخطيب ويسمحُ لهما بالوفادة عليه .

كان دخولُ السلطان المخلوع مع وزيره ابنِ الخطيب الى المغرب يوماً مشهوداً فقد خرج سلطانُ المغرب وحاشيتُهُ للقاء ضيفه الذي أدخله مجلسَ ملكه وأغدقَ عليه الهبات ، وأوسعَ له في منزله تكريماً له على منةٍ سابقة ، ورعايةٍ لود قديم كان سلطانُ المغرب قد حفظه لسلطان غرناطة يوم كان لاجئاً في الأندلس .

تُجْمِعُ كُتُبُ التاريخ على اعجاب ابنِ خَلْدون بلسان الدين وبخاصة عندما وقف في مجلس السلطان المريني وانشدَه قصيدته الرائية يستعطف بها لسلطانه حتى أبكى من كان في المجلس جميعاً وفيها يقول :

وهذا ابنُ نصرٍ قد أتى، وجَناحُه كسيرٌ؛ ومِنْ عَلْياكَ، يُلتمسُ النصرُ
غريبٌ يرُجى منك ما أنت أهلُه فإن كنت تبغي الفخرَ، قد جاءك الفخرُ!
فَعُد، يا أميرَ المؤمنين ، لبيعَةٍ موثَّقةٍ قد حَلّ عُقدَتها الغدرُ
وخذ يا امامَ الحقّ، للحقّ ثأرَةً ففي ضِمْنِ ما تأتي العزُّ والنصرُ

من الثابت أن أبياتِ لسان الدين قد ألهبت مشاعرَ السلطان المغربي وحركت فيه كوامِنَ المروءة ، أو كأنها قد أعادت اليه صورةً من حياته يوم غادرَ وطنَه ، وخلَّفَ عرشه بعد أن تغلب عليه أخوه أبو عنان المريني وبخاصة في

قول ابن الخطيب :

وأنت لها يا ناصرَ الحقِّ ، فلتَقُم   بحقّ فما زَيْدٌ يُرجّى ولا عمرو
أَعِدْهُ الى أوطانه عنك ثانياً   وقلِّدْهُ نُعماكَ التي مالها حَصرُ

كان من العسير على السلطان المريني أن يعيدَ ضيفه الى وطنه عزيزاً مكرماً ، وإن استجاب للشاعر فأكرم مثوى سلطانِه ، وأفسح له في مدينةِ فاس ، محفوفاً بالعز .

عندما استدعى ملكُ ارغون دون بطرة الى غرناطة ، حليفَ الأمس السلطانَ الغنيَ بالله محمد وذلك بعد أن قتل بيده السلطان اسماعيلَ الذي لجأ اليه دون عهدٍ منه إثْرَ معركةٍ وادي اش بينه وبين خصومه المحليين سنة سبعمائة وثلاث وستين للهجرة ، ألف وثلاثمائة واحدى وستين للميلاد عاد ابنُ الخطيب الى منزلته ومكانته في غرناطة .

في هذهِ الحقبة بالذات وقد ساءت الأوضاعُ وكثرت السعاياتُ بين رجالِ الدولتين في الأندلس والمغرب رأى ابنُ الخطيب أن من الخير له أن يمهد لعودته الى المغرب ثانيةً بعد أن تداخلته الظنونُ من موقف سلطانه منه ، الذي كان قد قرّب اليه العلامة ابنَ خلْدون اللاجيء الى غرناطة وجعله سفيراً له الى ممالك الغرب .

لم يمض زمنٌ قصير على وجود ابن الخطيب في المغرب حتى تولى السلطان أبو العباس الحكم في البلاد وكان حليفاً للغني بالله سلطان غرناطة فأمر باعتقال ابنِ الخطيب وسَجْنِه ، ولم يلبث أن حضر ابنُ زُمرك الوزيرُ الغرناطي وتلميذُ ابنِ الخطيب من قبل ليشهد على أستاذِه بالزندقة ويتأكدَ من مصرعه .

لئن فشل ابنُ زمرك وأعوانُه في اثبات تُهْمَةِ الزندقة على ابن الخطيب لما جاء في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » فقد تمكن التلميذُ ارضاءً لسلطانه وتنكراً لأستاذه من تحريض بعض الفقهاءِ على العالم الكبير فأفتوا

فيه ، ودخل سجنه ليلاً نفرٌ من الحاشية الحاكمة مع لفيف من الخدم وسفراء السلطان الغني بالله بن الأحمر وقتلوه خنقاً في أواخر سنة سبعمائة وست وسبعين للهجرة ، ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين للميلاد .

في ما كانت النارُ تأكلُ شعرَ ابنِ الخطيب وتسوّد بشرتَه كان صوتُ الوزير الخطير يردد من بعيد ومن داخل محبسه :

بَعـدُنا وإن جاورَتْنا البيـوت — وجئنا بـوعظٍ ونحن صمـوت
وانـفـاسُنـا سَكَنـت دفعـةً — كجهـرِ الصّلاةِ تـلاه القُنـوت
فمن كـان يفـرحُ منكم لـه — فقل : يَفْرَحُ اليومَ من لا يموت

ويموت ابن الخطيب بسعاية تلميذه ابن زُمرك ، ليظل علماً شامخاً وبراساً يضيء حتى الزوايا القاتمة الحاقدة من نفس التلميذ الجاحد .

□□□



المسجد الجامع في طليطلة

لسان الدين بن الخطيب
الشاعر
«٢»

عندما قُدّر للقتلة أن يخنقوا فيه النفسَ الأخير الذي كان يتعالى ببطء وثقل ، وقد سقط الوزيرُ متلاشياً في مَحْبَسِه ، لم يَفْطِنوا أنَّهم أَذِنوا لصوته أن لا يموت ، ولأدبه أن يخلد ، ولشعره أن يبقى ليردده الناسُ في كثير من جلال :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلاّ حُلُماً ... في الكَرى أو خلسةَ المختلسِ

وهكذا لم يكتبْ للسان الدين بنِ الخطيب ولو من بعيد أن يرى الأندلسَ الذي كان يحلمُ به ، ويحن اليه ، ولم يتأمل سُيّاحُ الأرضِ وزوّارَ الحمراء وهم يقفون أمامَ شعره وقد سُكِب في الجِص على جدران القصر ، أو كفت في النحاس على أبوابه يقرأون في رمز ، ويحللون عباراتِه في صبر ، ويستجلون معانيه في أناة فيدركون أن شاعرَ السلطان شاءَ تمجيدَ سيّدِه ، بعد أن عاد الى العرش الذي خُلع عنه ، لتكن عودتُه تصديقاً للمثل ، وعبرةً في الحياة .

وَظَعِنْتَ عن أوْطانِ مُلْكِكَ راكباً ... مَتنَ العُبابِ ، فأيُّ صبرٍ يَجْمُلُ
والبحرُ قد حُنِيت عليك ضُلوعُه ... والريح تُقَطِع للزفير وتُرسِلُ

ترى لو كُتب لابن الخطيب وهو يطبقُ جفنيه قَصْراً ، ويصعِّد النفسَ

الأخير قهراً أن يدرك أن سلطانه الغنيَ بالله الذي أخلص في خدمته ، وتلميذَه ابن زُمرك الذي أعطاه شيئاً من ذاتِـه ، وكثيراً من صفـاتِ رجولته ، وهباتٍ من شـاعريتـه ، وصديقَـه أبا الحسن النبـاهي قاضي غـرناطـة الذي منحـه ودَّه ، ومَحّضَه نُصْحَه وأعانه على مواجهة الحياة قد تألبوا عليه جميعاً ، وتآمروا مـع خصمِه اللدودِ سليمانِ بنِ داود وزيرِ ابنِ الأحمر .

قلت لو أَدْرَكَ ابنُ الخطيب كُلَّ هذا عندما كان سيِّداً مهاباً هل كان يَسْمَحُ لِشِعْرِه أن يُنْقَشَ على جدران الحمراء تمجيداً لسلطانٍ جائر ، وهل كان يـأذنُ لقلمه أن يقولَ في ابنِ زُمرك في كتابه « الاحاطة في تاريخ غرنـاطة » : « أنـه شعلةٌ من شُعَلِ الذَّكاءِ ، خفيفُ الروح ، حاضرُ الجوابِ ، كثيرُ الرِّقة ، فَكِهٌ ، غَزِلٌ مع حشمة وحياء » .

حَسْبي بالأديبِ الشاعـر أنّه كـان قَدْ بَـدَّلَ من رأيه في سُلْطَانِـه وتلميذِه وصـديقه ، وإنْ عـاشَ ابنُ الخطيب قَـدَرَهُ وزيراً مُقَـرّباً من السلطان وتَمَـرسَ بالحكم قادراً غَيْرَ جَبَان ، وعاش رسالَتَه استاذاً نابهاً بين الأعلام يؤدي رسالـةَ العلم برسالـة المعلمِ وقلبه ، ولكن أنى له يومئذ أن يُدْرِك حقيقةَ هؤلاء ، وكُلٌّ يَسْعَى اليه محتاجاً لشخصيته في الحكم ، ولعلمِـه في الدرس ، ولعـطفه في الصداقة .

فلا بأس اذن وهو لم يدرِك حقيقةَ هؤلاء جميعاً ، وقُبيلَ أن يُقْدِمَ الجناةُ على خَنْقِه في مَحْبَسه أن يموتَ جَسَدُه ليبقى شِعْرُه ، وأن يَبْتَعدَ عن رَبْعِه وإن ظَلَّ أسيراً في سِجْنِه ، وأن يَعِظَ قبل أن يَصْمُتَ ويحزنَ مع كـلِ ذلك مُـدركاً مقامَه في الادارة والرياسة ، مودعاً الحياةَ على غير ما يرجو .

بَعـدُنا وإن جـاورتنـا البيـوت   وجئنـا بـوعظٍ ونحنُ صمـوت
وانـفـاسُنـا سَـكَنَـتْ دفعـةً   كجهرِ الصلاةِ تـلاهُ القُنـوت
وكنـا عِظامـاً، فَصُرْنـا عِظامـاً   وكنـا نَقُوت، فهـا نحن قوت
وكنـا شمـوسَ سمـاءِ العلى   غَرُبنَ، فناحت علينـا البيوت

فقل للعدى: ذَهَبَ ابنُ الخطيـ ـبِ وفـاتَ مـن لا يَفُـوت؟
فمن كـان يَفْـرَحُ مِنْكُمُ لـه فَقُل: يفرحُ اليومَ من لا يموت

وكأني بالشّاعرِ الوزيرِ الذي كان يقضي النهارَ في الحُكمِ والادارةِ، والليلَ في الدرسِ والقراءةِ والتأريخِ، لم يحمل يوماً رسالةً سلطانِه محمد الغني بالله الى أبي عِنان سلطان بني مرين مدافعاً عن بلده، مستصرخاً لانقاذ وطنه من الخطر المُحْدَقِ، فيلقى في وفادَتِه العونَ الذي يسعى لنباهَةِ قَدْرِه وبلاغَةِ منطقه:

خليفةَ اللهِ، ساعدَ القدرُ عُلاكَ، ما لاحَ في الدجى قمرُ
ودافعت عنك كفُّ قُدْرَتِه ما ليس يستطيع دفْعَه البشرُ
وَجْهُكَ في النائبات بدرُ دجى لنا، وفي المَحْل كَفُّكَ المَطَرُ
والناسُ طرّاً بأرضِ أندلسٍ لولاك ما أوْطنوا ولا عَمَروا

وعلام يحزَن ذو العُمرين، وبالأمسِ القريب كان يقفُ على قبرِ المعتمد ابنِ عبّاد الشاعرِ والملكِ الذي انْتُزِعَ عن عرشه، واقتيدَ الى مَحْبَسه بعيداً عن ملكه ليبكي بناته الشقيات فيرى فيه شاعِرُنا أكرمَ حَيٍّ، وأعظمَ مَيْت مُتَأَسِفاً لأنَه لم يُدرِكه لِيَفخرَ به مَلكاً وسيداً عظيماً، وان اتعظ بحياتِه وموته.

قد زرتُ قَبْرك عن طوعٍ باغماتِ رأيْتُ ذلك من أُولى المهماتِ
لِمْ لا أزورُك يا أندى الملُوكِ يداً ويا سراجَ الليالي المدْلَهماتِ
وأنتَ من لو تَخَطّى الدهرُ مصرَعَه الى حياتِي لجادت فيه أبْيَاتي
أنافَ قبرُكَ في هَضْبٍ يُمَيِّزُه فتنتحيه حفِيّاتُ التحياتِ
كرمتِ حَيّاً وميْتاً واشتهرت عُلىً فأنْتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتِ

بلى لا بأسَ أن تكونَ نهايةُ العظيم فاجعةً لأنها أبقى في الدهر، وأخلَدَ في حادِثَاتِ الزمان ليظلَ الناسُ جميعاً يرددون كلما ذكروا الأندلسَ الضائعَ، والمجدَ الغابرَ، والتراثَ المرجعَ مع ابن الخطيب موشحتَه المثناة التي بزّ بها

كُلِّ الموشحاتِ الأندلسية لأنها الصورةُ الصادقةُ للأرض الخضراء ، والسماءِ الضاحكةِ ، والدنيا التي غَرُبَتْ في رَيْعَان حضارتِها المثلى وشاعرنا الشابِ لا زال يذكرُ خُطاه مع من يحب في ما كان الربيعُ يملأُ الأرضَ البكر .

اذ يقودُ الدهرُ اشتاتَ المنى تَنْقُلُ الخطوَ على ما ترسُمُ
زُمَراً بين فُرادى وثُنا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جَلَّلَ الروضَ سَنا فثغورُ الزهر فيه تبْسِمُ

حتى إذا ضاع شاعرُنا في هذا السَمْط الجميل الآسر عاد ليقفلَ الغصن .

وروى النعمانُ عن ماءِ السما كيف يروي مالكٌ عن أنسِ
فكساه الحسنُ ثوباً مُعْلَما يَزْدَهِي منه بأبهى مَلْبَسِ

وعندما يذكر ابنُ الخطيب كُلَّ هذا الجمالِ ويصورُ الحقيقةَ التي كانت تَخْتَلِجُ في أعماقِ ذاتِه نغماً خالداً وحنيناً دائباً يعودُ لعصور حَيَّة في بيت آخر باعثاً ذكريات عذاباً على نفسه إن لم تقو أن تطفِىءَ لَهيبَ شَوْقِهِ فقد كانت قادرةً على اضرامِ شوقِ الحبِ في كُلِّ النفوس .

ويقلبي منكُمُ مُقْتَرِبُ بأحاديثِ المُنى وهو بعيدْ
قمرٌ أطلعَ منه المَغْرِبُ شِقْوَةَ المُضْنَى به وهو سَعيد
قد تساوى مُحْسِنٌ أو مذنبُ في هواه بين وَعْدٍ ووعيد

وعلام لا يتساوى في نظره كُلُّ الناس وابنُ الخطيب يصورُ لنا هذا الحبيبَ في قفل البيت آية في الحسن ، أحورَ العين ، كرزيَ الثغر .

أحورُ المقلة معسول اللَّمَى جال في النَّفسِ مجالَ النَّفَس
سدَّدَ السَّهمَ فأصمى إذ رَمَى بفؤادي نَبْلَةَ المُفْتَرِسِ

سيظلُ الناسُ في مشرقِ الأرضِ ومغربِها وكلما تطَلَّعوا الى الأندلس

الخالد الغافي بين أشجار الزيتون في قـرطبة وجيـان ، وبين أشجار الليمـون وأزهار النرجس والنسرين في شاطبة ودانية وبلنسية والجزيرة الخضراء ، سيظلُ يرددون مطلع موشحة ابن الخطيب .

بلى سيبقى لسان الدين بن الخطيب الذي كانت تكمن مأساته في بخله وطموحه ، والذي عرف بذي العمرين لأنه اضاف بسهر الليل الى عمره عمراً ثانياً ، علماً بارزاً واديباً فذاً خالداً ، ومؤرخاً محققاً ، وشاعراً فخماً مبـدعاً ، تدل كتبه السبعة والثلاثون التي اتى على ذكرهـا والتعريف بهـا ، والتي تتميز باسلوبه الفخم المرصع ، الدليل على عظمة هذه الشخصية لا سيما منها كتابه (الاحاطة بتاريخ غرناطة) ، والذي جمع فيه سير العظماء والنابهين من اهل مملكة غرناطة ومن وفد عليها وسكنها .



أبراج القصر الأحمر



ابن زمرك

الوزير الوشاح

٧٣٤هـ/١٣٣٣م - ٧٩٧هـ/١٣٩٥م

امام قنديل خافت الضوء شاحب النور تتلاعب به بقايا الريح الهاربة من نوافذ القصر ، والليل مدلهم جاثم على غرناطة المدينة العربية الشامخة ، جلس محمد بن يوسف بن محمد ابي عبد الله بن زمرك منقبض النفس وقد هدته العقود الستة فبدا تحت وطأتها خائر القوى ، ضعيف العزيمة خائفاً مضطرباً .

كأني بالشاعر ابن زمرك في ليلة من ليالي سنة سبعمائة وسبع وتسعين للهجرة ، الف وثلاثمائة وخمس وتسعين للميلاد ، والهواء يعصف مجنوناً ، والثلج يتساقط كثيفاً لم يجلس من قبل،وفي عنفوان شبابه ومنتهى صولته ، وغاية قوته وزيراً مهاباً الى هذا القنديل بالذات يبثه النجوى ويقضي معه الليل تائهاً في من احب وقد اشعلت قلبه هياماً ، واذابت نفسه حسرات :

لقد زادني وجداً واغرى بي الجوى ذبال بأذيال الظلام قد التفّا
قطعت به ليلاً يطارحني الهوى فآونة يبدو وآونة يخفى
الى ان افاق الصبح من غمرة الدجى واهدى نسيم الروض من طيبه عرفا
لك الله يا اصباح ، اشبهت مهجتي وقد شفها من لوعة الحب ما شفّا

قلت وكأني بالشاعر ابن زمرك لم يجلس الى هذا القنديل من قبل شاباً طلق المحيا ، عريض الجاه ، نافذ الكلمة ، فقد بدا في هذه الليلة بعد ان

خبت ملامح رجولته خائفاً يتلو ما أُذن له من القرآن الكريم امام ضوء المصباح الخافت ، وبصوت متقطع حزين لا يكاد يبلغ السماء .

وتشتد العاصفة ويهبط البرد ويدلهم القدر ، ويعلو الصراخ ، ويفزع من في القصر من ولد وخدم على صوت الوزير المستغيث ، ويلقى ابن زمرك جثة هامدة لا حياة فيها امام القنديل الذي وعى بالأمس البعيد حبه ، والى لحظات دعاءه وتلاوته وقد مثّل به ويمن حاول انقاذه من اهل وخدم .

وينتهي ابن زمرك اشلاء مبعثرة ، وان ظلت عينه جاحظة من وراء الجفن المنفتح قليلاً ومن خلال السنين الماضيات ، في جثة لسان الدين بن الخطيب ، الوزير والمعلم الذي ادب ابن زمرك فجعل منه شاعراً، واتاح له بجاهه منصب الوزير والمكانة المرموقة .

حتى اذا كلت العين عن التطلع الى جثة الاستاذ الذي لقي حتفه بسعاية التلميذ العاق انحسرت على نفسها مؤمنة بالقدر الذي يلهو ، مدركة المعنى العميق في بيت ابي البقاء الرندي ، وان افتقدت القدرة على الانتفاع به :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان

ويموت ابن زمرك اكبر شاعر فحل انجبه الاندلس في عصره كما يصفه المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس ، بعد ان وصم نفسه بالعقوق والجحود، وادى دوره على مسرح الأحداث في اخر مملكة عربية في الأندلس .

يجمع الرواة وفي طليعتهم علي بن لسان الدين بن الخطيب في الحاشية التي علق بها على ترجمة والده لابن زمرك في كتابه « الاحاطة بتاريخ غرناطة » بأنه ابن حداد بالبيازين احد احياء غرناطة الشعبية ، وان كان اصل عائلته من شرق الاندلس .

هذا ومن المؤكد ان الشاعر درس في غرناطة وفاس على عدد من النابهين وفي طليعتهم الوزير ذو العمرين لسان الدين بن الخطيب الذي وصفه في كتابه « الاحاطة » فبالغ في الثناء عليه ، وانه شعلة من شعل الذكاء ،

خفيف الروح ، حاضر الجواب ، كثير الرقة ، فكه غزل مع حشمة وحياء وقد عرف بالعفة والطهارة ومشاركة الاخوان في ما نملك يده، وان شعـره مترام الى هدف الاجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني البديعة ، والالفاظ الصقيلة .

اتصل ابن زمرك وانقطع الى السلطان الغني بالله عندما خلع هـذا عن عرشه ونفي الى المغرب ، ثم قدر له ان يعود برفقته الى غرناطة بعد ان استرد ملكه ، فولاه عندئذ كتابة السر في كنف ورعاية لسان الدين بن الخطيب ، الا انه منذ ذلك الحين كان ضـالعاً مـع خصوم ابن الخـطيب ، حتى إذا انقضت العاصفة على الأستاذ الوزير واصابته المحنة كان في طليعة اعدائه الساعين الى هلاكه ، وكان قد خلفه في الوزارة بعد ان فر لسان الدين فتولى مهمة السعي به لدى بلاط فـاس ونجح في القضاء عليه في محبسه .

واقبلت الدنيا على ابن زمرك فعلا كعبه ، وقويت حظوتـه ، واشتد نفوذه فدفعه سوء الطالع لطغيانه وغطرسته وحـدة لسانـه ، وما اثـار حول نفسـه من البغض والخصومة الى نقمة سلطانه الغني بالله الذي اعتقله ونفاه ، غير انه لم يلبث ان عاد الى غرناطة في بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثاني الذي قلده الـوزارة فأسـاء السيرة ، واشتـد عبثه وطغيـانه الى ان قتـل غيلة على يد خصومه .

يعتبر ابن زمرك واحـد من أكبر الـوشاحين الـذين انجبهم الاندلس في عصر الموحدين فقد مال الى الموشح المنظوم على الأوزان الشعرية المألوفـة حتى ان جلَّ ما عرفه المقّري من موشحاته لينخرط في سلك المعرب وان اكثره من مخلع البسيط ، فضلاً عن انه تناول في موشحاته اغراضاً مختلفة وابرزها صبحياته التي يؤكد بعض النقاد انه بزّ بها موشحات استاذه لسان الدين .

لابن زمـرك كثير من الشعـر الـذي كفت في الجص ونقش على جـدر الحمراء وكوّن جزءاً لا ينفصل عن زخارف قصور بني نصر، ومنه الابيات التي نقشت على جدر بهو الأختين وهي من قصيدته التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها محمد الغني بالله ومطلعها :

سل الافق بالزُّهر الكواكب حالياً — فأني قد اودعته شرح حاليا
وحمّلت معتل النسيم امانة — قطعت بها عمر الزمان امانيا

إلى ان يقول :

ولله مبناك الجميل فإنه — يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه — تُجدُّ به نفسُ الحليم الامانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به — ولم تك في افق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا — به القصر آفاق السماء مُباهيا
سواري قد جاءت بكل غريبة — فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شفّ نوره — فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما اضاءت بالشعاع تخالها — على عِظَمِ الاجرام منها لآليا
به البحر دفاع العباب تخاله — اذا ما انبرى وفد النسيم مباريا

اما ان يكون ابن زمرك خفاجي النزعة على حد قول استاذه فلأن الشاعر كشاعر الأندلس الأول في وصف الازهار والأنهار ابن خفاجة مال إلى وصف الرياض والطبيعة ، هذا اللون الذي كان يصدر عن طبع فني اصيل ، وعن خيال متدفق رقيق ، صورة لنفسيته الشاعرة المرهفة والحساسة .

نواسم البستان — تنثر سلك الزهر
والطل في الأغصان — ينظمه بالجوهر
وراحة الاصباح — اضاء منها المشرق
تنشرها الأرواح — فلا تزال تخفق
والزهر زهر فاح — من عيون ترمق
فأيقظ الندمان — يبصرن ما لم يبصر
جواهر البستان — قد عرضت للمشتري

ولكن انى لابن زمرك ان يغني اليوم الرياض ، وقد اضحى اليوم بعيداً عن الروض الذي احب ، والأرض التي غنى تفترش قبره الضائع ازهار ورياحين غرناطة الناعسة قبالة سيرانافادا جبلها الحارس .

غـزيـري
لبناني في خدمة التراث الأندلسي

١٧١٠م - ؟

يـذكر الـدارسون لتـاريخ الفكـر العربي في الأنـدلس من بين الاسماء الاعلام المشرقة التي قدر لها ان تحفظَ التراثَ الاندلسي وتصونَه وتساعِدَ على خدمةِ الحضارة الانسانية اسمَ العالِم اللبناني الأب ميخائيل غزيري .

في يومٍ ضاحكٍ مزهو من ايامِ لبنانَ الحلوة البهيجة وصيفُ الفٍ وسبعمائةٍ وعشْـرةٍ يُطِلُّ على ارضنـا المعشوشبـة المتـدليـة من اعلى القمم الى اقـدامِ الساحل الـذهبي تفتحت في بلدة غزيـر عينان صغيـرتان على الـدنيا وراحتـا تتطلعان في ارجاءِ الغرفةِ المتواضعةِ وكأنهما تحاولان ان تنفذا الى كلِّ شيء ، الى الأرضِ البكر الثائـرة مع الصيفِ ، الى البحـر النائم قبـالَةَ غـزير ، الى السماءِ الزرقاء الصافية التي تتوجُ ارض كِسْرُوان .

بلى ان الطفلَ الذي اخذ يناغي الصباحَ مـع طيورِ الحقـل ووشوشـاتِ الفراشِ في غزير كان ابنَ القرية التي خلدها في ما بعد، وكان الكاهنَ والعالمَ والمؤرخَ والمكتبيَ الكبير الذي اختلف النقادُ في تحديـد مكانِ ولادتِـهِ فأكـد الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» نقلاً عن De la Roque انـه ولد في طرابلس الفيحاء بينما اثبتُ نقلاً عن ترجمته الخاصة وعن اسمه الذي عرف فيه بين العلماء انه ولد في غزير .

لقد عرفت مؤسساتُ الاستشراق في اوروبا وفي ايطاليا وفرنسا وهولنـدا واسبانيا خاصةً كما عرف العلماءُ من الباحثين والدارسين لآثار العـرب مكانـة

العالم اللبناني ميخائيل غزيري وذلك بما أدى من خدمات جلّى للتّراث الحضاري الاندلسي فقدروه ، ورجعوا الى تصانيفه في بحوثِهم ودراساتهم .

اكمل ميخائيل غزيري دروسَه في لبنان ثم رحلَ في بعثةٍ اكليركية الى روما وهناك اكبَّ على الدراسات اللاهوتية ، ونحن ان لم نستطع تحديدَ تاريخِ سفره إلى روما لفقدان الوثائقِ التي بين ايدينا حولَ هذا الموضوعِ فمن المؤكدِ ان العالمَ اللبناني قُدّر له ان يُمثل مطرانَ طرابلس في المجمع الكنسي اللبناني الذي عقد في اللويزة سنة الفٍ وسبعمائة وستٍ وثلاثين .

الحقيقةُ ان نجمَ عالَمِنَا لم يتألق إلاّ في مكتبة الفاتيكان اذ عُرِفَ كتلميذ نجيب للعالم اللبناني يوسف سمعان السمعاني ، ابرزِ شخصيةٍ انجبتها مدرسةُ اللاهوتِ المارونية في روما .

عُهِدَ إلى الأب يوسف السمعاني نَظَارَةَ وإدارَةَ مكتبةِ الفاتيكان فجعَلَ منها اغنى مكتبةٍ في العالم بالمخطوطات الشرقية وله يعودُ الفضلُ في وضع فهرست في اربعة مجلدات لمخطوطاتها السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية بعنوان « المكتبة الشرقية » وقد تم وضعُ هذا الفهرست خلال تسع سنوات فانتهى منه سنة الف وسبعمائة وثمان وعشرين .

لقد تدرب العالمُ ميخائيل غزيري في الأعمال المكتبية على يد الاب يوسف السمعاني وفي مكتبة الفاتيكان فكان نجيباً من كبارمكتبييها ثم اضحى في ما بعد مديراً لقسم المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال في اسبانيا، والاسكوريال في الواقع ديرٌ شهير على بعد ثلاثين ميلاً الى الشمال من مدريد العاصمة وقد بناه الملك فيليب الثاني سنة الف وخمسمائة وتسع وخمسين ليقتفي فيه أثَرَ والده في التنسك والاعتزال، كما قام في هذا الدير خزانة كتبٍ عظيمةٍ طولُها اثنتين وخمسين متراً .

تضم مكتبةُ الاسكوريال من الكتب والآثار، النادرَ والنفيس، فتضمُ كتبَ الصلاة التي كان يقرأ فيها شارلكان وفيليب الثاني ، ومخطوطاً اسبانياً يتضمن قصيدة فيرجيل الشاعر الروماني ، وقرآناً كريماً بخط مغربي مذهب كبيرٍ

الحجم حازته الدولةُ الاسبانية سنة الف وخمسمائة واربع وتسعين الى جانب عدد كبير من نفائسِ المخطوطات العربية .

هذا ويؤكد الناصري في تاريخ الاسْتِقْصَاء بأن احدَ المؤرخين الاسبان اثبت « ان قَرَاصِنَتَهُمْ غَنِمَت في بعضِ الأيام مركباً للسلطان زيدان صاحبِ المغرب فيه اثاثٌ نفيسة من جملتها ثلاثةُ آلاف سِفْر من كتب الدين والأدبِ والفلسفةِ وغير ذلك » .

هذه المجموعةُ النادرةُ من المخطوطات هي التي اكب عالِمُنا اللبناني ميخائيل غزيري على دراستها ونقدِها ووضع بها فهرساً باللاتينية بعنوان « المكتبةُ العربية الاسبانية الاسكوريالية » وذلك في مجلدين وقد صدر المجلد الثاني سنة الف وسبعمائة وسبعين .

درس غزيري في هذا الفهرست الف وثمانمائة مخطوطٍ في مكتبة دير الأسكوريال وذلك بدعوة من ملك اسبانيا آنذاك فحفِظَ عن حبٍ واخلاص وتفان، تراث امة اسهمت في بناءِ الحضارة الإنسانية . الحقيقةَ ان فهرست غزيري يعتبر اجلّ مَرْجِعٍ لدراسةِ وتقييم المخطوطاتِ العربية في الاسكوريال فضلاً عن انه اولُ تصنيفٍ علمي دقيقٍ لها .

هذا وبالرغم من المحاولات الجدية التي قام بها بعضُ المستشرقين امثال ليڤي بروفنسال لدراسة هذه المخطوطاتِ وتقييمها فعملُه لا يتعدى ان يكونَ تصويراً او ترجمةً للخطوط العريضةِ الرئيسة لعمل عالمنا ميخائيل غزيري .

ان المكتبيين الفنيين الدارسين لهذا الفهرست يجدون فيه المدماكَ الأول لعلم دراسةِ المخطوطات وتقييمِها فقد يبدو لهم جلياً ان الأصول الحديثةَ للفهرسة لم تكن معروفةً يومئذ، فالمعلم المكتبي لم يعطِ الباحثَ الإيضاحَاتِ الكافية عن حجمِ المخطوط ، وعدد الاسطر المكتوبة طولاً فيه ، أو عن عدد الكلمات المكتوبة عرضاً ، فضلاً عن انه لم يذكرْ شيئاً بالنسبة لجدّة المخطوط او قِدَمه ، ولا يثبت اسم ناسخه ان لم يكن المخطوطُ الأم بخط مؤلفه .

ليس من شك في ان العلماء المهتمين بمثل هذه البحوث يجدون اهميةً كبرى في تحديد مظاهر هذه الأصول اذ ان المخطوط يختلف عن الكتاب ، وتقييمه يقومُ اليومَ في ضوء اصول حديثه .

إذا كان العالمُ اللبناني قد اغفل ذكرَ مثل هذه القواعدِ الفنية التي لم تكن معروفةً في عصره فلقد قدم في فهرستِهِ ترجماتٍ واسعة لمؤلفي هذه المخطوطات وموضوعاتِها فأغنى بذلك المكتبةَ العربية وخدَمَ الفكرَ الاندلسي إذ قدم للمستشرقين دراساتٍ وافيةً عن الأعلام والمفكرين الاندلسيين وعن مؤلفاتِهِم واهدافهم،فنقل بذلك خلاصةَ الفكر الاسلامي الى اوروبا المعاصرة ومستشرقيها .

عن هذه الطريق التي مهدها السمعاني اولاً في فهرست المخطوطات الشرقية في مكتبة الفاتيكان وذللها غزيري في فهرست المخطوطات العربية خاصة في مكتبة الاسكوريال حُفِظَ تراثُ المشرق والمغرب العربيين في اكبر مكتبتين في اوروبا .

وفي هذه الطريق التي خطها غزيري وسلكها دوزي واماري ونلسون وبروفنسال ، وكوبانكوس وبالنثيا وكومس وغيرُهم من اعلام الاستشراق عرفت اوروبا الوجه الحقيقي للثقافة الشرقية ولروح الحضارة الاسلامية في الأندلس العربي .

لقد اضحى الفهرست الذي وضعه عالمُنا اللبناني نادراً ومفقوداً وان الدولة الاسبانية تعتبر النسخ القليلة التي تحتفظ بها في مؤسساتِها الثقافية الكبرى اثمنَ من اي مخطوط آخر لأنه أُمُّ المخطوطات جميعاً ومرجعُ البحثِ والدرسِ والاستقصاء .

ان عالماً من لبنان في عشر سنوات من البحث العلمي الرصين حفظ تراث امة منتجة ما كان لتراثِهَا ان يحفظَ على الزمن لولا مثل هذا الجَهْد العظيم ، وهذا لعمري الغايةُ من البحث العلمي والدراساتِ المكتبية .

ميكل آسين بلاثيوس
أكبر مستشرق انجبته اسبانيا الحديثة
لمرور مئة سنة على مولده

١٨٧١م - ١٩٠٤م

لم يعرف الاستيشراق الاسباني، خلال العصر الحديث علماً ثقة فذا أصيل الثقافة العربية والاسلامية، واعي النظرة النقدية العلمية، باحثاً متضلعاً بالفلسفة كاشفاً عن جوهرها محدداً لأصولها، مدركاً لأسرار العربية وعمقها دارساً للعقائد الدينية مقارناً بينها، عبقري الرأي في كثير من الأبحاث المرجع كما عرف العالم والمحقق المستشرق القمة ميكل اسين بلاثيوس .

مع فجر ضاحك من صيف سنة ألف وثمانمائة وواحد وسبعين والطبيعة ساجية في الأرض البكر المترامية حدائق مزيجاً من الألوان على ضفتيٍّ نهر أبرو المنسكب لجيناً من جنوب فرنسا ومن الروافد المتدفقة من جبل قلعة ايوب سُمع صوت طفل يناغي الحياة بلغة الحب، لم يلبث أن عرف باسم ميكل .

وأطل الفتى على مسقط رأسه، يافعاً والمدينة البيضاء ذات الأسوار الرخامية القديمة، والأبواب الأربعة النادرة: باب إذا طلعت الشمس من أقصى المطالع في القيظ قابلته عند بزوغها، فإذا غربت قابلت الباب الذي بازائه من الجانب الغربي، وباب إذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلي، وإذا غربت قابلت الباب الذي بازائه من الجانب الغربي ، والمدينة العظيمة في بنائها وعمرانها منسكبة تاء اعجمية كالصليب فوق سهلها الأفيح .

وكم حاول ميكل وهو لا يزال فتى أن يجتاز دروب المدينة حيث تلاقت الأشجار فوقها ليطل من نهاية الطريق على بقايا الباب الذي قابلته الشمس عند بزوغها يوم مولده، وأن يتأمل التلال المترامية في خشوع حول الدارسات من السور الرخامي الشامخ، آية الصنعة والبناء الهندسي، وأن يكحل ناظريه بالندى اللؤلؤي وقد انفرجت عنه الأزهار، وأن يستمع الى زقزقة الطير الحالم في أعشاشه، أو إلى سقسقة الجدول الهارب من أعماق نهر أبرو، وأن يتطلع إلى الأشجار المثقلة بالثمار، أو إلى هذه المصانع التي كانت على عهد العرب تحيك الثياب السرقسطية.

وقدر للفتى وهو الطلعة أن يجتاز الدروب كل الدروب تحت فيء الأشجار الباسقة وأن يتأمل كل شيء في المدينة البيضاء التي وعت مناغاته للحياة حتى راح يتأمل السماء، ويمد روحه وقلبه الى من أبدع الجبل والنهر والوادي بعد أن أحس أن ذاته، كلٌ ذاته تتجاوب مع قدرة خفية تملي عليه أن ينعتق لها.

واكب ميكل على الحياة مستجيباً للنداء البعيد الذي هزّ كيانه ذات مرة وهو يتأمل الجبل والنهر والوادي، ويمد روحه وقلبه إلى من أبدع الأرض والسماء وانخرط مع المتعبدين المنصرفين لله، وفي اكليريكية مدينته البيضاء تعمق في دراسة اللاهوت والفلسفة منكباً على التصوف والفلسفة الاسلامية وجوهرها، متعمقاً في فهم صوفية كثير من أعلام الأندلس الاسلامي واجداً في جوهر هذه الصوفية تضافر بعض العناصر التي أسهمت في تكوين هذه الحركة وقد استقرت في الفكر العربي اتجاهاً نفسياً وعقلياً، بعيداً عن أهدافه الأولى التي قام عليها وعن مفهوم الورع في الاسلام.

الحقيقة أن هذه العناصر هي حصيلة الفكر اليوناني، والمذهب الأيوني واراء فيثاغوراس وتفكير أرسطو والمذهب الاسكندراني ومعتقدات لاوتسه الفيلسوف الصيني ومظاهر التبتل، وتعذيب النفس، وترك السعي في الدنيا في الدين المسيحي، هذه العناصر جميعاً التي التقى عندها المتبتلون والمنصرفون الى الذات العلية كلٌ وفق عصره ومعتقده منذ عرف الانسان الزهد والعبادة والتقى.

ليس من شك في أن اعجاب القس ميكل اسين بلاثيوس بدعوة الفلاسفة المسلمين ومحاولتهم التوفيق بين العقيدة والفلسفة دفعه الى التعمق في دراسة الفكر العربي ونشأته فاتخذ أبا حامد الغزالي موضوعاً لرسالته الجامعية التي فاز على أثر مناقشتها بلقب دكتور وكانت منطلقاً الى بحوثه العربية والاسلامية المرجع .

كان ميكل اسين علماً ليس كالأعلام فكان عالماً صادقاً مخلصاً قويماً، ذا ديانة يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها، وكان متواضعاً في غير ضعة، عبقري النظرة النقدية متشدداً لا يقول إلا حكم العقل، لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة جعله ينأى عن الاستغراق في فيوض الحياة الروحية وحدها ودفعه الى أن يعلن اراء صريحة سليمة بالرغم مما في آرائه وهو القس من جرأة على دحض الاسلام واعلامه، كثير من الاراء الزائفة التي أملاها التعصب، لا الدرس التي كانت تسيطر على الفكر العربي، ان بالنسبة الى الاسلام واعلامه في الثقافة العربية والاسلامية لتفاعلهما على الأرض الأوروبية لاقامة حضارة انسانية .

تتلمذ ميكل اسين بلاثيوس في العربية وأدابها والاسلام ومعتقداته على يد المستشرق الاسباني الكبير خليان ريبيرا وراح يكتب أبحاثه، وموضوعاته عن الفكر الاسلامي في مجلة جامعة سرقسطة حتى إذا تخلى له العلامة الاسباني المستشرق كوديرا عن كرسي اللغات السامية في جامعة مدريد المركزية بزغ نجمه، وعلا كعبه كأعظم مستشرق اسباني عرفته اسبانيا الحديثة، وعلى يديه تخرج عدد كبير من علماء الاستشراق ، ليس في اسبانيا وحسب ، وإنما في كثير من دول أوروبا .

الواقع أن بلاثيوس لم يدع البحوث الاسلامية ضمن حدود الحرم الجامعي وفي اطار الطلاب المتخصصين ، بل انطلق بها بعيداً عندما أسس معهد الدراسات العربية في مدريد وجعل له فرعاً في غرناطة ضم كلٌ منهما أكبر مكتبة متخصصة في التاريخ الاسلامي وانشأ مجلة الأندلس التي حملت

أفكاره واراءه في الموضوعات التي أوقف لها نيفاً وخمسين عاماً من عمره حتى أصبحت مدار البحوث العربية والاسلامية فانتخب رئيساً للأكاديمية الملكية للغة، كما انتخب عضواً في أكاديمية التاريخ الملكية، والمجلس الأعلى للبحوث العلمية وعضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم الأدبية والسياسية .

بلغ ميكل اسين بلاثيوس بفضل عبقريته ونظرته النقدية الرصينة شأواً بعيداً حتى أضحى مثلاً لكبار المستشرقين الغربيين، ومرجعاً في البحوث العربية والاسلامية خاصة، فانتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً تقديراً لعبقريته الفذة وحياد ارائه النزيهة في كل الموضوعات، التي عالجها والتي بلغت نحواً من مائتي وخمسة وأربعين، بين كتاب ضخم، ودراسة متخصصة وترجمة للتوابغ من الأعلام .

عالج بلاثيوس وهو المعجب بروح الزهد عند أعلام الصوفية الاسلامية في الأندلس خاصة اراء كثير من هؤلاء الأعلام، كما ترجم الى الاسبانية مع مقدمات ودراسات موضوعية، العديد من اثار متصوفي وفلاسفة الأندلس الاسلامي ليطلع مثقفي اسبانيا على التراث الانساني الضخم الذي خلفته اسبانيا الاسلامية للمفكرين، وليؤكد بالتالي أن كثيراً من مظاهر الحضارة الانسانية اليوم انما قامت على هذه البذور الخيرة التي خلفها مفكرو الاسلام.

لعل أهم دراسة دل فيها بلاثيوس على هذه الاراء مؤلفه الضخم ، الأصول الاسلامية للكوميديا الالهية ، الذي نشره سنة ١٩١٩ ،مؤكداً أننا نجد في الأدب الاسلامي مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس، وما لم يستطيعوا تفسيره من المسائل المتعلقة بالكوميديا الالهية لدانتي اليجري، أي أننا نجد في هذه الآداب الاسلامية أصول بعض ما ذهب الدانتيون الى أنه أخذه عن مفكري النصارى السابقين عليه في الزمن، وبعض ما لم يجدوا له أصلاً فنسبوه الى عبقرية دانتي وخياله المبدع.

لقد أكد اسين الى أن الأصل الاسلامي الذي يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة الكوميديا الالهية، هو، أسراء الله برسوله ﷺ الى المسجد الأقصى،

وعروجه به الى السماء.

الدارس لأراء اسين في هذا الكتاب الضخم يدرك عبقرية النظرة النقدية عند المستشرق الاسباني الكبير الذي اعتمد على الأسلوب المقارن بين قصة الاسراء، وأناشيد الكوميديا مرجعاً بالجدل المنطقي، والبحث العلمي الى خيال مفكري الاسلام عبقرية الخيال عند الشاعر الايطالي القمة.

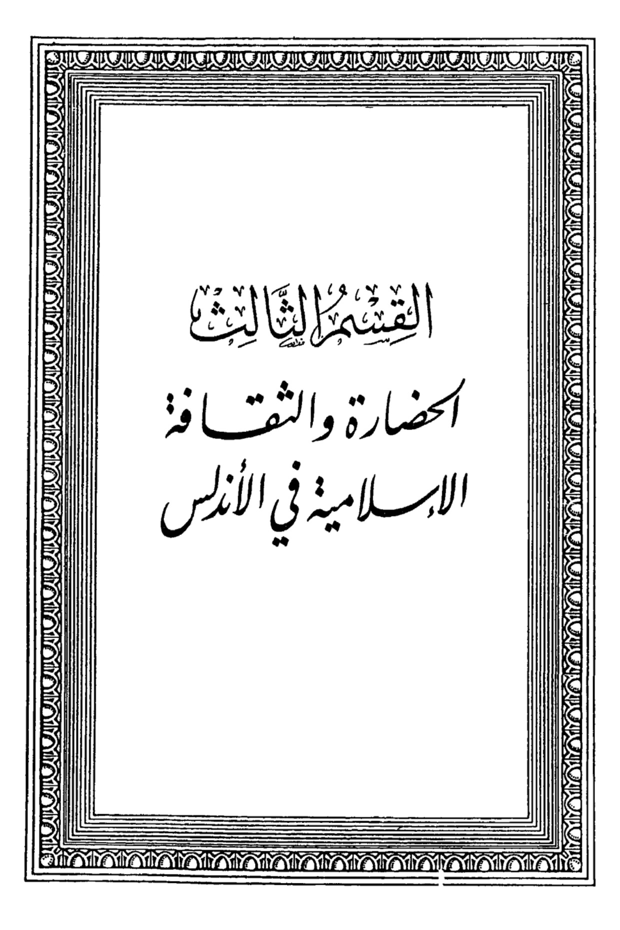
في مثل هذا الصيف قبل خمسة وعشرين عاماً وعلى التحديد في شهر آب سنة ألف وتسعمائة واربع واربعين انطفأ السراج المتقد ومات ميكل اسين بلاثيوس أعظم مستشرق اسباني عرفته نهضة الاستشراق في اسبانيا الحديثة.

بلى لقد مات العالم الكبير والقس المؤمن، والناقد الثقة وغيب في الأرض التي درس أدبها وتاريخها وتفاعل مع حضارتها نيفاً وخمسين عاماً، وهو ثابت الجنان، واعي الفكر، وأن من حق العالم الاسباني على أدباء العرب المعاصرين لا سيما الذين وعوا أدبه وعلمه أن يشيدوا بفضله.

مات ميكل اسين بلاثيوس، قبل خمسة وعشرين عاماً بعد أن أغنى الخزانة العربية، فأين هذا الحديث المقتضب من ترجمته وتاريخه، وأين هو من فكره وعلمه، أين هو من فلسفته وآرائه، أين هو من دراسته لابن السيد البطلموسي ولابن باجه وابن مسرة وابن حزم، أين هو من دراسته لابن عربي والغزالي، أين هو من دانتي والاسلام.

بلى هذا الحديث هو عنوان لعالم انساني، ومفكر عبقري للنظرة النقدية هو المستشرق ميكل اسين بلاثيوس.

□□□



القسم الثالث

الحضارة والثقافة الإسلامية في الأندلس

يومـــان في طليطلـة

لم يستطع الليلُ ذاتَ يومٍ من ربيعِ الف وتسعمائة وسبع وخمسين ان يطمئِنَ الى وجودِهِ طويلاً وقد احس على غير عادةٍ منه ان الفجرَ بكرٌ في اقتحامِ اطرافِ مملكته المهيمنةِ على جزءٍ كبير من الأرض ، في ما كانت الريحُ الشماليةُ تضـربُ نهايتـه بعنف ، وتقفُ سداً منيعـاً في وجه الأمـطار بينما كـان القطارُ يندفِعُ في اعماقِ السهل الأخضر .

وانبلج الفجرُ عندَ الأفق البعيـد عن سماءٍ زرقـاءٍ صافيـةٍ غسلها المـطرُ المنهمرُ وجَفَّفَ ثوبَها الهواءُ ، وزُينت بقـوس قزَح معلنـاً نهايـةَ الشتاءِ وقـدومَ الربيع ، ولم تلبث الشمسُ ان اطلت تَفِكُ ثغورَ الازهـار وقد ربـطها الـطَّلُ ، وتُفَجِّرُ اريجَ الأرض ممتزجاً بعبقِ الورد، وابتسمت الدنيـا تصغي الى زقزقـةِ الطير الحـالمِ في اعشاشـه ، المتأهبِ للسعي ، المرتجفِ من زمجرة القـطار وحَشْرَجَته .

وكان انفلاتُ النهـار من قبضة الليـل ، واطلالـةُ الربيـع من يد الشتـاء وصفاءُ السماء من قيد الغيوم ، وكان انبلاجُه بمثابة الأملَ الذي كان يراودُ زمرةً من الشباب وقد بكّروا في الخروج من المدينة الكبيرة ، وتجمعّوا في مركبة من الدرجة الثانية في القطارِ السريع الذاهبِ الى طليطلة ليكحلوا العينَ ويسعِدوا القلب ، ويثقفوا العقل بزيارة المدينةِ العربية النائمةِ في نهـاية السهـلِ الأفيح الذي يحيطُ بمجريط ويمدُها بالبقول والخضار ويسوّرُها بالجنان ويلفّها بالحنان .

وما ان اطلَ القطارُ على كتفِ الهضبةِ الشامخةِ المحصنة بنهر تاجه حتى اخذت الأرض تقص لهؤلاء الشبان العرب قصتها . فها هم على ارض المحطةِ ذاتِ النقوشِ العربيةِ والزخرفةِ الأمويةِ التي صبّت في الجِص ، فبدت تحكي قصةَ الحضارةِ الاندلسية في شبه جزيرة ايبريا .

وانطلق الرفاقُ سيراً على الاقدام وصُعُداً في الهضبة العالية ليقفوا امـامَ باب الشمس بفنه المدجن ، المنفذِ الجنوبي للمدينـة ويتأملوا دُقَّـةَ صُنْعه ، وإحكَام بنائه وقوسَها المرتفعِة والمشرئب نحو السماء لتدخلَ منه اشعةُ الشمسِ الى المدينة ، او لتدخلَ منه الشمسُ كلُّها الى اعماقِ الظّلام الذي كان قـائماً فيها .

من بعيـد اطلت الجسورُ المعلقـةُ فـوقَ النهـر بين احيـاء طيلطلةِ وبين منحدراتِ الهضبة واجرافِ الأرضِ الغائرةِ من جهاتِها الثلاث والمتـلاقيةِ من بعدُ مع سبلِ السيارات وطـرقِ المشاة ، وابتسمت الأرضُ عن طـرفِ حصنِ المدينةِ القائـم من جهة الشِّمال ، وعن حصنها الأزلي الطبيعي الملتفِ حولَها من جهاتِ ثلاث ، وقد تربعت طليطلة على عرشها لؤلؤةً في التاريخ ، ومجداً لادواره الكثيـرةِ التي عرفتهـا منذ عهـدِهـا القـديم حين ازدهـرت في العصـر الروماني ، وصمدت في حصِنها الطبيعي المنيع يومَ غزاها البربـر واجتاحتهـا قبائلُ الجرمان الى ان اصبحت قاعدةَ البلادِ ، وحاضـرتَها العـظمى في العهد القوطي قبل ان تطأها جحافلُ الجيش العربي بقيادة طارق بن زياد ، ومن ثمةَ تقتحمهُا القبائلُ العربيةُ بزعامةِ مـوسى بنِ نصير كمـا يؤكد الـرازي في كتابـهِ الرّايات .

قد يبدو الانسانُ العربي في طليطلة غريبَ الـوجهِ واليـدِ واللسان ولكن سرعان ما يَحِسُ وجودَه وتاريخه ومجده امام بقـايا الآثـار العربيـة وفي زنقاتِ المدينة الضيقةِ وفي انعكاسِ الوجوهِ الجميلة التي تحدثه خـطفاً بـالعين ، او وشوشةً بالرمز ، او خفقةً بالقلب عن تاريخٍ ضاحكٍ حزين ، تحدثهُ عن طاولة سليمان التي اخفى طارق بن زياد احدى ارجلها الأربعة ليؤكد للخليفة الوليد بن

عبد الملك عند عودته الى دمشقَ انه قهر المدينةَ قبلَ وصولِ قائده واميرِ افريقيا موسى بن نصير .

ليس غريباً ان تُحدِّث طليطلة زائرها ايضاً عن تاريخها الحافل بالثورات ضد العرب حتى قدّر للحكم الربضي سنة ١٨١هـ - ٧٩٧م ان يقهر اهلها بعد ان استخفوا بأمره، ولربما حدّثت عن الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وكيف قاتل اهلها قتالاً عنيفاً ، على وادي سليط بعد ان كَمُن لهم ، ولملكيّ جليقية والبشنكس ، ومع ذلك فطليطلة لا تخجل ان تؤكد انها انضوت تحت لواءِ عبد الرحمن الناصر سيد الاندلس ، ومسحت وجهها بزخارفَ قرطبة ، وازدهرت في عهد الخلافةِ، واضحت الثغر الشِّمالي الضاحِكَ للمدنية العربية قبالةَ اوروبا كلِّها .

ويقف الشبان والزائرون ذاهلين عما خولهم يمدون نظرهم في بقايا مسجد باب مردوم الذي بناه موسى بن علي سنة ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م بعد ان تبرع ببنائه احدُ اعيان المدينة احمد بن حديدي ، والذي وهبه الفونسو الثامن بعد استرداد المدينة الى احدى الجمعيات الاسبانية الدينية ، فاذا عَرَفَ الشبانُ كُلَّ ذلك ادركوا عظمة الفتح وفداحة التراجع ، كما عرفوا شيئاً عن تاريخِ المدينة في عهد ملوك الطوائف بزعامة أُسْرَة ذي النون البربرية .

الحقيقةُ ان هذه الزمرة من الشبان كانت تبحث ايضاً عن القصر الذي بناه المأمونُ يحيى ، أحدُ احفاد هذه الاسرة في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد وقد ابدع في بنائه واقام فيه بحيرةً ، وبنى في وسَطه قُبَّةً من الزجاج البلوري واجرى له فيها المهندسون بِحَذَقٍ بارعٍ الماءَ الى اعلى القُبة فكان يسيل ، والملك جالسٌ بداخلها لا يَمَسُّه شيءٌ منه .

فاذا حدَّج الشبانُ في الأرض ليروا القصر لم يَفُتْهم ان يبحثوا فيه عن قاعةِ المجلسِ المكرم التي كسيت جدرانُها بأُزَر من المرمر الأبيض ونُقشت جميعها بالتوريقات المحفورة حفراً عميقاً . ولربما بحثوا ايضاً عن قصر

المأمون الآخر الذي كان يُعرف بقصر الناعورة ، والذي بناه لقضاء فصل الصيف فيه، واجرى الماءَ حول قاعاتِه من بُركة نصبت عليها تماثِيلُ السباع تمر المياه من افواهِهَا فتلطِّفُ جَوَ القصر قبل ان تهتم المدنيةُ الحديثة بتكييف الهواء .

فاذا قدّر لهذا الشباب ان يرى ملامحَ القصر في بقايا قصر آخر عُرِفَ في ما بعدُ بقصر « جاليانا » اندفعوا الى وسط المدينة العريقة ليمدوا النظر بالمسجد الجامع الذي كان آيةً في البناء، وفناً في العمارة تطل مئذنته من خلالِ الآثار التي ضربت حولها وقضت على كثير من ملامِحها العربية على الأرض كلِّها ، الأودية والجروف السحيقة ، النهرِ العظيم ، معالم سُبُلِ المدن والقرى حول طليطلة .

بعد هذه الزيارات الخاطفةِ للمعالم العربيةِ في طليطلة الاثرية تبين الشبابُ عظمة الحضارة ، وجلال التاريخ ، ومبلغَ الغنى ، وعظمةَ الرفاه والاتقان ، ونهايةَ الاسراف ، وغلواء التفرقة ، إلاّ انهم مع كل ذلك اتجهوا شمالاً بشرق ليلتقوا بالسياح عند بابِ القنطرة والذي تمتدُ الى الغرب منه ساحةُ المدينة الرحبة التي لا تزال تحتفظُ الى اليوم باسمها العربي Zocodover «سوق الدّواب» القائمة داخل عِقْدٍ من البناء كبير على شكل حَذْوَةِ فرس، العقدِ الذي هو في الأصل من عقود اربعة كانت تحيط بالسوق المربع ، حيثُ كان ينفتِحُ في هذا السور بابان : بابُ القنطرة المودي الى وادي تاجة ، وبابُ شُقْرة ، والى جانبهما في الجهة الجنوبية من السور كان ينفتح بابان آخران يشرفان على نهر تاجة احدُهما بابُ الحديد ، والآخر بابُ الدبّاغين الذي لا يزال الى اليوم يحتفظ باسمه العربي ايضاً Puerta adabaquin .

في هذه الساحةِ الكبيرةِ رئةِ طليطلة الحديثة يلتقي سياح الأرض من كل لَسْنٍ وجنس في مقاهيها الرصيفية ، وعلى مقربة من حدائقها الانيقة ، ومطاعمها الكثيرة ليأخذوا لأنفسهم قسطاً من راحة ، او ليتذكروا اوطانهم وقد شاقَهم في هذه الفُسْحَةِ من الأرضِ اصواتٌ رقيقةٌ على نفوسِهم ، حبيبةٌ الى

قلوبهم فأحبوا ان يبعثوا لها صوراً عن طليطلة ذات التاج الأزلي ، والصولجان الخالد ، وقد امسكت بيدها اطرافَ الأرض تَشُدُّ اهلها الى دنياها .

فـإذا انهى الشباب تجـوالَهم في اليـوم الأول ، وقـد تـرنحت نفـوسُهم وتعطلت السنتُهم وانسوا في طليطلة الى مجدهم عزموا على ان يقضوا بها يوماً آخر او دهراً .

□□□

مع التاريخ في غرناطة

واطلت غرناطة ، من جنوبي الاندلس ، والقطار بعد ما زال في طريقه الى المدينة العربية الشامخة ، الغافية وسط الطبيعة الساحرة ، والمتكئة قبالة جبل الثلج الذاهب في السماء .

اطلت غرناطة وكأنها صورة انعكاس المدنية الخالدة التي اقامها العرب ، ومثل اعلى للحضارة الانسانية ، تحكي تاريخ امة واسطورة شعب .

ومع الفجر الغارق بلون الشفق ، وقد حرق اطراف السماء ، بدت هضبات غرناطة وسهلها الافيح الممتد امامها كالأمل ، العابق باريج الزهر ، واطل القصر الأحمر ، الرابض على هضبة مطلة على المدينة ، وكأنه يقصص سيرة بني الأحمر الذين نزحوا الى غرناطة من ارجونة قرب قرطبة ، والذين كانوا ينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، ويعرفون ببني نصر .

القصر الأحمر آية في البناء العربي ، مزيج مما عرفت اسبانيا خلال ادوارها السياسية والتاريخية ، من هندسة ونقوش ، وزخرف ، مع فارق واحد ، هو ان البناء الاسباني الذي مر في ادوار البناء الروماني ، والقوطي ، والعربي ، قد اتجه في اواخر ايامه الى منع النور ما امكن عن المعابد ، وابقاء داخلها مظلماً ما سمح البناء بذلك ، وهي ظاهرة متفشية في اكثر بيع اوروبا .

بيد ان طراز البناء العربي كان يكره الظلام ، ويسعى الى الاشراقة

السمحة في الطبيعة الضاحكة ، في ارضه المزهوة ، في بنائه الشامخ ، في ابوابه العريضة ، ونوافذه الكثيرة .

وصعدنا الى جنة العريف التي تكاد تطوق القصر ، المشرئب البناء وقد بدت عليه مسحة حزينة من بقايا المعركة الفاصلة بين العرب ، واهل البلاد بالرغم من ان القصر اصبح قبلة للسياح ومحجاً لرجال العلم، وغاية للبحث التاريخي .

وبعد صمت عميق مطبق كانت بقايا الابتسامة الصفراء هي الفكرة الوحيدة المعبرة عن الشعور بالعظمة بالرغم من النكبة ، سرنا في طريق ذهبت الاشجار عن جانبيه بعيدة في السماء ، وانتشرت الحدائق وكأنها تستمع الى سقسقة الجدول الهارب من اعماق شنيل ، نهرها المنسكب من دموع سيرانفادا جبلها الحارس . وعلى هدى الطير ، وعبق الزهر ، وخرير الجدول . دخلنا الى مشارف القصر من باب الرمانتين ، الذي اقامه كارلوس الخامس ، وكأنه كان يريد بهذه التسمية ان يؤكد اسم المدينة « كرانادا » مرتين كما عرف منذ عهد القوط ، وينفي عنها اسمها العربي المحرف غرناطة ، أو أغرناطة الذي عرفت به يوم احتلتها العرب سنة سبعمائة واحدى عشرة للميلاد .

وجزنا باب العدل تحت برج ساحق ، واذا نحن امام التاريخ ، نطل على الفحص الغرناطي ، السهل الفسيح الخصب ، واذا نحن امام القصر ، امام القصبة وامام برج الشمعة الذي ارتفع عليه علم قشتالة يوم خسر العرب المعركة .

وعلى مقربة من القصبة يقع القصر الملكي ، حمراء غرناطة الذي اقامه محمد ابو الأحمر بن نصر الملقب بالغالب بالله ، ثاني ملوك غرناطة ، والذي اغرم خلفاؤه بزخرفته واضافة بعض الاجنحة اليه ، ولا سيما محمد الثاني ، وحفيده محمد الثالث الذي انشأ مسجد الحمراء ، اما الامير الذي اتم القصر

فهو يوسف بن اسماعيل بن فرج ، وكان آخر ما انشأه البرج المربع ، وهو الآن المدخل الأكبر للقلعة ، وتدل النقوش على انه انشيء سنة الف وثلاثمائة وثمان واربعين للميلاد .

القصر الأحمر آية البناء العربي ، قوضت بعض اركانه التي تواجه القلعة ، او اتخمت بمبان حديثة ، كقصر كارلوس الخامس الذي اقامه ليحاكي به عظمة البناء العربي فما افلح ، اما القصر الداخلي فهو على حالة جيدة وقد خطت قاعاته على ان تكون سلسلة متناسقة البناء .

فالردهات والقاعات والسقائف ، والعمد ، والفسيفساء ، والحدائق ، وبرك الماء والازهار المختلفة الأشكال والاسماء كل ذلك يبرز من خلال سديم رشاش النافورات التي افتن العرب بصناعتها ، حتى كان لهم زمام الأمر يصعدون بالماء او يهبطون به ، حيناً يجلونه للعيون ، وحيناً يخفونه ، واحياناً يفجرونه في الهواء ليبدد وخيم الابخرة السابحة في الفضاء وليحيل جفاف الطقس رخاء . وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع ، فهناك كوات قريبة من السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد الذي يطرده الهواء النقي اسفل منه الى اعلى .

والقصر صورة ليست هي الفن ، وليست هي الابداع ، وليست الجمال ، انما هي صورة على الفن والابداع والجمال ، اخرجها العقل العربي بعد ان تفاعل مع عقول الرومان والفنداليين والقوط رمزاً للترف ، ومشعلاً للحياة .

فقاعة البركة التي رصفت ارضها بالمرمر الأبيض ، والتي انفرجت في وسطها عن حوض للسمك ، وبرج قمارش احد الابرجة الذي سمي باسم مهندسه العربي ، آيتان من آيات الزخرف والهندسة .

هذا إلى جانب قاعة الاسود حيث يربض فيها الاثنا عشر اسداً ترسل من افواهها الماء لجيناً لؤلؤياً ، وقاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال ، وقاعة السفراء ، وقاعة المشورة ، وجناح الحريم ، ومدخل

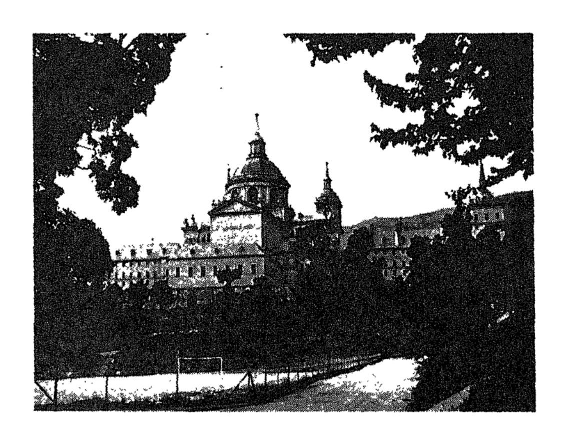
القرنة المذهبة التي تطل نوافذها على المدينة الهادئة الساكنة المتكئة الى اعتاب القصر الأحمر .

هذه الأجنحة طليت بالزخرف ، ورسوم هندسية ، ومصوغات مشبكة نزلت بالجص الملون ، وزينت بآيات قرآنية وشعار الملك المؤسس « لا غالب إلّا الله » .

كل هذا يدفع بالعين ان تتأمل ملياً ، وتحاول ان تخترق البناء الخالد لتقرأ حقيقة التاريخ العربي الضاحك الحزين في تلك الأرض في ذاك القصر ، قصر الحمراء صورة المدنية ، ورسالة الحضارة .



قصر ودير الاسكوريال



المسجد الجامع في قرطبة

على الأفقِ البعيدِ بقايا من ليلٍ طويلٍ مُتْعَب أخذت تنحسرُ في بــطء كلمـا حاولَ الفجـرُ المشربُ بلونِ الشفق أن يُـطِلَ جـاهـداً من وراء الجبـالِ المتراميةِ هناك على طولِ ساحل النهر المتدفق لجيناً، وكأني بالفجرِ في يـوم ربيع من سنة ألف وتسعمائة وثمـان وخمسين، أحب أن يوقِظَ الشمس بـاكراً لتتهادى في سماءِ قرطبة الزرقاء، وقد غشيَها وشاحٌ أبيضُ أوكاد .

كانت السيارةُ وهي تشرف على قرطبة قد اجتازت الأرض بين العاصمةِ مجريط على حد تسمِيةِ العرب وبين المدينةِ العربية التي طـوقها النعـاسُ بعد أفولِ مجد الأمويين، واندثارِ سلطانهم .

قلت كانت السيارةُ قد اجتازتِ الأرضَ بين العـاصمةِ، وقـاعدةِ الحكم العربي في الأندلس، ولو كنت يومئذ في بلادي لظننتُ أن السيارةَ قد اجتازت الدنيا وكادت أن تطِلَ على الآخرة.

وهرول الرفاقُ الى المدينةِ العربيـة الخالـدة وكأنهم في انـطِلاقتهم الى زنقاتِها الضيقـةِ كانـوا يحاولـون أن يتلمسوا النسمـاتِ البليلةَ المشبعةَ بـالندى الطري، بعد ساعات عشر، قضوها في الطريق، ثم لم يلبثُوا أن أسرعـوا الى المسجدِ الجامع، أبقى أثرٍ عربي قائمٍ في قرطبة.

وما ان أطلَ الـرفاق على سـاحةِ المسجـدِ حتى هبّ الربيـعُ يتفجرُ من

أعماقِها عبقَ زهر، وأريجَ عطر، وشذىً يطوقُ المسجد ويفوحُ من جنباتِها، وقد غرست أفنأؤها بأشجار الليمون.

من صحن الجامع يطالعك المسجدُ الذي بناه عبد الرحمن الداخل، فأنفق في بنائه في ما يقول المؤرخون ثمانين ألف دينار حتى غدا فذاً في نوعه .

لقد احتوى المسجدُ ثلاثمائة وستون طاقاً على عدد مدار أيام السنةِ حيث تدخلُ الشمسُ في كل يومٍ من طاق فتكشفُ عن ألف ومائتين وثلاث وتسعين ساريةٍ نُصبت بشَكلٍ عجيب يأخذُ بالألباب.

من أين تطلعتَ في المسجدِ طالعك المحرابُ الذي جُوِّفَ في وسطِه بشكل فني بحيثُ يتوزعُ صوتُ الامامِ في جميعِ أرجاء المسجد، وقد أُجرِيَ فيه الذهبُ المطعم وبالقرب منه يظهرُ بابُ المقصورةِ الذي صُنِع من الفضة، كما يؤكد علماءُ الآثار أن تفاحات الباب كانت من الذهبِ والفضة أيضاً.
الى جانبِ المحراب يقومُ المنبر الذي صُنِعَ من العاج ونفيسِ الخشبِ وهو مؤلفٌ من ستٍ وثلاثين ألفَ قطعة منفصلةٍ كُلُّ واحدةٍ عن الأخرى، وقد رُبطت جميعاً في ما بينها بصَنعة متناهِية في الدِقة، بعد أن رُصِّع أكثرُها بالأحجار الكريمةِ، وسُمِّر بمساميرَ من الذهب الخالص .

لقد كان عددُ بواكي المسجدِ تسعَ عشرةَ من الشرقِ الى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمالِ الى الجنوب وفيه واحدٌ وعشرون باباً كفتت بالنحاس وحفرت ورصعت بالآيات.

وأما الأعمدةُ والسقفُ فقد صنعت من المرمر، وخشب الصندلِ المنقوشِ بالزخارفِ الملونةِ والمذهبة.
هذا ويحكي المؤرخون أن خلالَ ساعاتِ العبادةِ كانت تضاءُ في المسجدِ أربعةُ آلاف مصباحٍ كلُّها مصنوعةٌ من الفضةِ والنحاسِ البراق، كما يؤكد المؤرخون أن مصحفَ الخليفةِ عثمانَ بن عفان المحلاّةِ أجزاؤه الخارجية بالأحجارِ الكريمةِ، والعقيقِ، واللؤلؤ، كان محفوظاً في المحراب .

يحيطُ بالمسجدِ الجامِع سـورٌ على جانبٍ عظيمٍ من الاتقان والهندسـة المعماريةِ، وما زالت كثيرٌ من الآياتِ الكريمةِ، والأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ تقرأُ على طولِ السورِ وهي مخطوطةٌ بعمقٍ وبلون أحمر.

إن السائحَ ليقفَ أمامَ هذهِ الغابةِ من السـواري القائمـةِ، والآثارِ الباقيةِ والآيـاتِ الكريمـةِ المرصعـةِ، والزجـاجِ الفاخِـر الذي لا يـزالُ يلمعُ لمعـانَ الجوهر، والمحرابِ بقبابهِ الداخلية المتلاقية، والمقصورة يملأ العينَ من كل هذا، والتاريخُ العربي يعاودُه بالمجد الغابر، ويعيدُ أمامَه صوراً ليست هي من التاريخ ، وإن كانت الصفحاتُ المشرقة فيه.

خمسةُ أيام قضيناها في المدينةِ العربيةِ ما عرفنا خلالَها النومَ إلا خطفاً، ساعاتٌ طوالٍ نقضيها على الجسْرِ، وأمام القناةِ العظيمـةِ التي بناهـا الناصـرُ لدين الله لري المدينةَ وضواحيهَا بدعةً في أساليبِ السقايةِ وطرقهـا، ساعـاتٌ طوال نقضيها في ملاهي المـدينـةِ الأصيـلةِ نسترجـعُ مع المغنيـن والمغنيـات اللحنَ العربي، وتجاوبَ الغنـاء اللذين نشرهمـا في تلك الأرضِ قبل قـرون عشرة زريابُ علي بن نافع ، الطائر الأسود الغرد .

بلى أيام في قرطبة قضيناها نمد العينَ في أبوابِها العربيةِ السبعة وفي بقايا السور العربي، وما أكثرَ ما كانت تَعْلَقُ العينُ ببابِ الجزيرة الخضراء، تطالعك منه أعلام المشـرق ومواكبُ الـرجال، وجحـافلُ الأبـطال، وتغادره تـواً، وقد نكست الـراياتِ، وخـرجت خائفـةً تحتَ جنحِ الـظلام، وكأن تلك القـرونُ الثمانية ليست من الزمانِ في شيء.

إن الانسان العربي في الأندلس جميعاً لا يَمَلُ التّطَلعَ الى الأزقة الضيقة، وإلى الزنقاتِ الملتوية ، والنوافذِ العريضةِ المكللة بالورد والياسمين ،وفي تلك الـوجوهِ الحلوةِ التي أضحت صـورةً للوجه العـربي، البؤبؤُ الأسودُ الحـالكُ، والوجنةُ الكرزيةُ السمـراء، والابتسامـةُ الصافيـةُ التي تلقاك على كـلِّ الوجـوه المليحة . غير ان الانسانَ هناك قد أضحى أعجمياً على حدِ قول البلغاء .

بلى لقد أضحى الانسان أعجمياً، إنما هناك يستطيعُ الانسانُ العربي أن يفهم بلحظِ العين وسهامِها أنها لحاظٌ وسهامٌ عربية، فيها مزيج غريبٌ من سحر الأرض الطيبة وروائها. يفهَمُ عن هذه اللحاظِ الجميلة الرشيقة الثاقبة ما يكنه القلبُ وما يختلجُ في أعماق الفؤاد من اعجاب وتقدير لهذه الأمة العربية العريقة التي بنت المجد الأندلسي الخالد .

لقد أضحت قرطبة في عهدها الذهبي قبلة العالم المتحضر يومذاك وكانت بجامعتها الكبيرة التي أقامها عبد الرحمن الناصر محجة رجال الدين وطلاب العلم من أوروبا بأسرها حتى أن التاريخ يحكي قصة البابا الذي هجر روما وجاء الى قرطبة ليتلقى العلم على القالي وعلى أعلام الأندلس العربي الكبار.

إن التاريخ وإن يغفلَ في كثير من الظروف عن صفحات مشرقة من تاريخ أمة فلن يغفل عن العبقرية العربية في الأندلس قاطبةً وفي قرطبة عاصمة الدولة ومركز الخلافة خاصة، فالمدينة الاسلامية الباقية آثارها الى اليوم تحكي حكاية التاريخ الضاحك الحزين في جيان ومالقة وأشبيلية وغرناطة بعد أن تجعلَ قرطبة عنواناً بارزاً لهذه الأسطورة الفذة التي وعاها العالم بأسره عن تقدير واعجاب واحترام.

ستظل قرطبة في مسجدها الجامع وفي القنطرة وفي الزهراء العنوان الخالد لمجد العرب الآفل في شبهَ جزيرة ايبريا .

□□□

في رحاب المسجد
الجامع بقرطبة
وحمراء غرناطة

كأني بالفجر مع كل مرّة أطوّف بها في «قرطبة» قاعدة الحكم العربي بالأندلس، كان يحاول أن يوقظ الشمس بعدما يطل ضوءاً مشرباً بلون الشفق أحمر، وقد ترك من خلفه باب السماء مشرعاً مضرجاً باللهب، لتنهض باكراً، وتتهادى في سماء المدينة الزرقاء، وقد أحاط بها وشاح أبيض أوكاد، فالغمام لم يهرب منها بعد، وكأنها كانت تريد به أن ترحب بالقادمين إليها من كل ناحية وكل مكان وأن تلفهم به رمز إلفة، واخوة، وسلام. . . ؟؟

المسافر من «مجريط» على حدّ تسمية العرب، إلى قرطبة، أم المدائن في الأندلس والتي طوّقها النعاس بعد أفول مجد الأمويين واندثار سلطانهم، لا بُدّ له من أن يجتاز الأرض، وإذا كان عربياً، ومن المشرق لخيل إليه أنه يجتاز الدنيا ليطل منها على الآخرة. . . على الجنة، فالطريق طويلة. . . طويلة، مستقيمة حيناً، ومتعرجة في صعود حيناً آخر، أو مستقيمة في تلوٍ قصير وانخفاض قوي تارة، أو منبسطة مع السهل، الأخضر، الأزرق البترولي، الأصفر، الأحمر، البنفسجي الذي جن قيه النبات زهراً، ونرجساً، ووردا، وشقائق، ونامت فيه البقول والخضار، وهَبَّ فيه ورق الشمندر، والتف فيه الخس بغلالة ذات طبقات، وانتصبت فيه الشجرة المباركة التي يكاد زيتها يضيء لو لم تمسسه نار، تارة أخرى .

وتقول الجميلة التي رهنت لها الحياة، وعقدت لها، وبالإيماءة، والكلمة، والرجاء، على ذاتي، بعدما مالت نحوي وتسمرت عيناها «الكتاب» في عينيّ ودون أن تسأل، وإن قرأتُ، وفي «العنوان»، البؤبؤ الأخضر الذي اختلست لونه من عشب البحيرات، والقابع في فلك العين، وانطبعتُ فيه لشفافة نادرة، وصفاء غريب فيه : « إنَّ الشوق برح بها، ليس لي، فأنا معها ولها، بل إلى قرطبة ... إلى النهر اللجيني... إلى القنطرة بدعة الفن المعماري ... إلى المسجد الجامع، قبلة مساجد المسلمين في الأرض ... !!».

ويهرول الرفاق إلى المدينة العربية الخالدة، كرسي الخلافة الأموية في شبه جزيرة ايبريا، وملتقى أعلام البلاد، وأعيان الرجالات الذين اشتهروا بصحة الدين، وطيب المكسب، وحسن الزي، إلى زنقاتها الضيقة، وإلى دروبها الضائعة، وحدائقها الفواحة الثائرة بالريحان، والصارخة بالعبق، يحاولون أن يتلمسوا النسمات العليلة البليلة المشبعة بالندى الطري، وشذى الطيب الذي صبّه على رأسه الحكم الأول يوم ثار الربض[1]، ليميزوه من بين جماجم القتلى؛ بعد ساعات عشر، قضوها في الطريق، أو يلملموا شيئاً أموياً عن أرضها، أو يلمحوا واحداً من رجالاتها العظام، صقر قريش، عبد الرحمن الناصر، محمد بن أبي عامر المعافري، الذي جُنت به، وشغفت صبح البشكنسية، جارية الحكم الثاني، ووالدة الخليفة المستنصر، أجمل نساء القصر وأروعهن، أو ينصتوا وبشغف إلى زرياب، علي بن نافع، الطائر الأسود الغرد، مبدع الغناء المتقن «الأوبرا» في الموسيقى العالمية، أو يدرسوا على القالي، أبي علي، أول سفير ثقافي مشرقي، وأول محاضر جامعي في الغرب، وبخاصة في كتابه «الأمالي».

وندخل من باب العفو إلى صحن البرتقال، فيطالعنا المسجد الذي بناه

(١) معركة هياج الربض معروفة في تاريخ قرطبة : انظر كتاب افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي تحقيق د . طباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧ ص ١٥ .

« صقر قريش » عبد الرحمن الداخل، على القسم الآخر من كنيسة القديس فانسان، أو «بسنت بنجنت» والذي ابتاعه من أصحابه بمبلغ مئة ألف دينار، وأذن لهم ببناء كنيسة، تماماً كما فعل أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عندما أخذا برأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من مشاطرة الروم في كنائسهم ، وبخاصة في كنيسة دمشق العظمى توطيداً وتطبيعاً لتفاهم أصحاب الديانتين السماويتين .

حرص الداخل في بناء المسجد على تقليد مسجد جدّه الوليد بن عبد الملك بدمشق، فخماً متسعاً، بسيطاً، إلاّ أنه والفن الأندلسي وليد مدنيات الفرس، والأغريق، والعالم القديم، والمدرسة السورية التي أقامها الأمويون في بلاد الشام بعدما ورثوا حضارتها، والمدرسة المصرية والمغربية اللتين تأثرا بهما، قد ظهر في دوره الأول في الجامع الأعظم،في ما ظهر عبر دور الانتقال في قصريّ الزهراء واشبيلية، حتى تجلى برونقه بعد أن استكمل مقوماته في القصر الأحمر بغرناطة، آخر معقل عربي في شبه الجزيرة.

عندما نزل العرب بعد الفتح الأول في الأندلس، ودخلت القبائل من بَعْدُ مع موسى بن نصير، أطلقت كل منها على المدينة التي حطت الرحال فيها اسم مدينتها، فأهل الشام سموا غرناطة دمشق، وأهل حمص اعتبروا اشبيلية مدينتهم، وكذلك فعل أهل فلسطين بشريش، وأهل قنسرين بجيّان .

حرص « الدَاخل » ، عبد الرحمن بعدما وطد دعائم الامارة على جمع هذه القبائل كلّها وصهرها في بوتقة الايمان فبنى المسجد الجامع في قرطبة ليصرف المسلمين عن التناحر القبلي في ما بينهم، وعن التفكير في العودة إلى مواطنهم الأولى، فكان البناء وفاقاً للغاية، آية في الفن المعماري المتطور، إتساعاً وبساطة فالقناطر التي ترفع البناء العظيم ـ وكما يصفها المرحوم مصطفى فروخ في كتابه : « رحلة إلى بلاد المجد المفقود » ـ « أدواح حملت من النقوش الرقيقة المشجرة ما هو أشهى من الأثمار، أو كأنها غابة من النخيل الظليل في واحة غناء وارفة الأغصان » .

كُلُّ هذا يبدو للعين من باب النخيل، وقبل أن يدخل الزائر إلى الجانب الذي أقامه «الداخل» على أنقاض كنيسة القديس «فانسبان» أو في موضعها، حتى إذا اجتاز المدخل تملكه العجب فعلى الجدران «رسم ، وحفر ، ونقش ، وترصيع ، ووشم غاية في الفن والابداع تحلت بالذهب، ووشيت بالألوان الزمردية، والقرمزية والسماوية » .

٣٦٠ نافذة في الجامع

أما أبواب المسجد فهي بدعة في النحت، والصقل، والتلوين، تعلوها أقواس منحنية في ما تحوط بها أطر مستطيلة، ينتظم على كل منها ، وبعد الناحية الدنيا إطاران أبرز ما فيهما الأقواس المترابطة النائمة بخشوع على أعمدة دقيقة من المرمر، في حين تستهوينا وعلى جانبيّ الواجهة الوسطى زخارف تطل في نوافذ مغلقة ذات عقود مضاعفة في الطابق الأسفل ، ومفصصة مزركشة في الطابق الأعلى يهيمن عليها جميعاً لونان، الأبيض الناصع، والأحمر الداكن ،في ما تلفها النقوش والزخارف الهندسية الأنيقة والبسيطة، والترصيع المتقن المحاكي للطبيعة وعناصرها .

ويقتحم المؤمن باب النخيل ليعبر إلى قلب المسجد فإذا هو في قاعة فسيحة متباعدة الأطراف متسعة الأبعاد تقوم في وسطها غابة كثيفة من عمد المرمر ذات الأقواس المترابطة المعلقة الآخذ بعضها في عناق بعض بحب، وشوق، وتلاق.

مَـرْمَـرٌ تَسْبَـحُ النّـواظـرُ فيـه   ويطول المدى عليها فَتُرْسِي
وسِـوَارٌ كَـأنّهـا في استـواء   الفات الوَزير في عَرْضِ طِرْسِ
فترةُ الدّهر قد كست سَطرَيها   ما اكتسى الهدب من فتور ونَعْس

لقد احتوى المسجد الجامع ثلاثمائة وستين طاقاً على عدد مدار أيام العام جميعاً حيث تدخل الشمس في كل يوم من طاق فتحمل الضوء والاشراق إلى عمق القاعة الفسيحة «بيت العبادة» وتكشف عن ألف ومائتين وثلاث

وتسعين سارية نصبت بشكل عجيب يأخذ بالألباب، منها عدد غير قليل أخذ من الأشكال العتيقة التي تتميز بالتيجان ، والوسائد ، والتي أعيد استعماله في العمارة الاسلامية بحيث توضع الوسادة المزركشة بالزخارف والرسوم « القوطية » فوق التاج الروماني ذي السقف القصير ، مما يؤكد على أن الأندلسيين قد تأثروا بالمواد التي وصلت إليهم من الحضارات القديمة ، وتمكنوا بفضل حذقهم أن يتعاملوا معها بكفاءة بعدما حاولوا تقليدها ، بخاصة التيجان الرومانية « الكورنثية » والمركّبة مكتفين برسم ملامح الزخرف العام دون الاهتمام بالتفاصيل .

يبدو هذا التقليد وقد تطوّر أمثَلَ للعيان، وأبين، في السواري الأخرى المتراكبة ، وفي الجزء الذي بناه الحكم الثاني ، حيث تبدو فيها الزخارف وقد جنت، والتي يعجز الوصف عن رسم معالمها لأنها في الواقع أقرب إلى الخيال، غير أن التائه فيها، والدارس لروعتها لا يشك في أنها بدعة الفن المعماري الأندلسي، للقدرة الفائقة التي تميز بها اخصائي النقش، والكفت، والوشم، على استعمال المواد المسخرة لهذه الزخارف (وهي الجص) وقد أضحت بين يديه أكثر ليونة وطواعية ، وكأنها معادن ثمينة، ومن هنا يعاملها بمهارة وحذر ورفعة، ويسمو بها في عمله حتى تصبح وكأنها قد جُردت من ماهيتها الأصلية، وعندئذ يقوى على صياغتها كيف يشاء، وعلى المثال الذي يشاء.

عباءة الملك

ونتطلع إلى بيت المحراب فلا نلمح عابداً يصلي، أو مؤمناً يتضرع، وليس من يقيم الصلاة ، أو يرفع الأذان ، وتقع المفاجأة في مرة من زياراتي للمسجد ، عندما يقيم الملك سعود بن عبد العزيز الصلاة وبصوت جهوري، ثم يلقي عباءته المذهبة أرضاً ويحيي المسجد بركعتين، فيخر في أثره العابدون المتضرعون المؤمنون ، أمام دهشة القساوسة والرهبان.

. . . و وبعدُ يتطلع لعل عينه تقع على مصحف الخليفة عثمان بن عفان،

المحلاة أجزاؤه الخارجية بالأحجار الكريمة، والعقيق، واللؤلؤ . . . فلا تقع على شيء، فقد ضاع مع ما ضاع من تراث الأمة ومجدها الغابر.

إلى جانب المحراب يقوم المنبر الذي صنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة في الأصل، كل واحدة عن الأخرى وقد ربطت جميعاً في ما بينها بصنعة متناهية في الدقة والابداع، بعد أن رصّع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمّر بمسامير من الذهب الخالص.

يحكي المؤرخون أن خلال ساعات العبادة كانت تضاء في المسجد أربعة آلاف مصباح مصنوعة من الفضة والنحاس البراق تنير كُلّ بواكي المسجد البالغة تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، فضلاً عن الضوء الذي يطل من النوافذ العالية فيكشف عن واحد وعشرين باباً، علامات مميزة الصناعة والبراعة الفنية الخارقة، وقد كفتت بالنحاس، وحفرت ورصّعت بالآيات البيّنات.

وينقضي اليوم، أو يؤذن له بالإنقضاء، ونحن معاً نصلي لذات الله، ليس في المسجد ورحابه، بل في قرطبة كلها، في كل الوجوه الجميلة المخملية السمراء، وفي كل العيون الناعسة الدعجاء، وفي كل القدود البانية الهيفاء.

خمسة أيام في المدينة العربية ما عرفنا خلالها النوم إلا خطفاً، ساعات طوال نقضيها على الجسر وأمام القناة العظيمة التي بناها الناصر لدين الله لري المدينة وضواحيها بدعة في أساليب السقاية وطرائقها، ساعات نتنزه بها، ونحن نسير الهوينى في دروب المدينة وقد شبكت الجميلة الحلوة يدها بيدي، بعد أن شبكت روحي، وعلقت بالقلب الذي أحبها، نتجه إلى إقدام جبل العروس لنطل على بقايا الزهراء وقصرها الذي بناه عبد الرحمن الناصر إرضاء لإحدى جواريه التي شغف بها .

ونغادر وبحزن مشوب بالرجاء إلى غرناطة قبلة المجد والحضارة والفن، والذوق، والأناقة في كل الأندلس الاسلامي.

وتطل غرناطة ، من جنوبي الأندلس ، والقطار بعدُ ما زال في طريقه إلى المدينة الشامخة، الغافية وسط الطبيعة الساحرة ، والمتكئة قبالة جبل الثلج الذاهب في السماء.

وتبدو هضبات غرناطة وسهلها الأفيح الممتد أمامها كالأمل، العابق بأريج الزهر، ويطل القصر الأحمر، الرابض على هضبة مطلّة على المدينة، وكأنه يقص سيرة بني الأحمر الذين نزحوا إلى غرناطة من أرجونة قرب قرطبة، والذين كانوا ينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، ويعرفون ببني نصر .

القصر الأحمر آية في البناء العربي، الذي كان يكره الظلام ، ويسعى إلى الاشراقة السمحة في الطبيعة الضاحكة ، في أرضه المزهوة، في بنائه الشامخ، في أبوابه العريضة ، ونوافذه الكثيرة .

وصعدنا إلى جنة العريف التي تكاد تطوق القصر، المشرئب البناء وقد بدت عليه مسحة حزينة من بقايا المعركة الفاصلة بين العرب، وأهل البلاد بالرغم من أن القصر أصبح قبلة للسياح ومحجاً لرجال العلم، وغاية للبحث التاريخي.

دخلنا إلى مشارف القصر من باب الرمانتين، الذي أقامه كارلوس الخامس، وكأنه كان يريد بهذه التسمية أن يؤكد إسم المدينة « كرانادا » مرتين كما عرف منذ عهد القوط ، وينفي عنها إسمها العربي المحرف غرناطة، أوغرناطة الذي عرفت به يوم احتلتها العرب سنة سبعمائة وإحدى عشرة للميلاد .

وجزنا باب العدل تحت برج ساحق، وإذا نحن أمام التاريخ ، نطل على الفحص الغرناطي، السهل الفسيح الخصب، وإذا نحن أمام القصر، أمام القصبة، وأمام برج الشمعة الذي ارتفع عليه علم قشتالة يوم خسر العرب المعركة .

وعلى مقربة من القصبة يقع القصر الملكي، حمراء غرناطة الذي أقامه محمد أبو الأحمر بن نصر الملقب بالغالب بالله، ثاني ملوك غرناطة ، والذي

أغرم خلفاؤه بزخرفته وإضافة بعض الأجنحة إليه ، ولا سيما محمد الثاني ، وحفيده محمد الثالث الذي أنشأ مسجد الحمراء. أما الأمير الذي أتم القصر فهو يوسف بن إسماعيل بن فرج، وكان آخر ما أنشأه البرج المربع، وهو الآن المدخل الأكبر للقلعة، وتدل النقوش على أنه أنشيء سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين للميلاد .

لقد قوضت بعض أركان القصر الأحمر التي تواجه القلعة ، أو أتخمت بمبان حديثة ، كقصر كارلوس الخامس الذي أقامه ليحاكي به عظمة البناء العربي فما أفلح، أما القصر الداخلي فهو على حالة جيدة وقد خطت قاعاته على أن تكون سلسلة متناسقة البناء .

والقصر صورة ليست هي الفن ، وليست هي الابداع وليست الجمال ، إنما هي صورة على الفن والإبداع والجمال ، أخرجها العقل العربي بعد أن تفاعل مع عقول الرومان والفنداليين والقوط رمزاً للترف ، ومشعلاً للحياة .

فقاعة البركة التي رصعت أرضها بالمرمر الأبيض، والتي انفرجت في وسطها عن حوض للسمك، وبرج قمارش أحد الأبراج الذي سمي باسم مهندسه العربي ، آيتان من آيات الزخرف والهندسة .

هذا إلى جانب قاعة الأسود حيث يربض فيها الاثنا عشر أسداً ترسل من أفواهها الماء لجينياً لؤلؤياً، وقاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال ، وقاعة السفراء وقاعة المشورة وجناح الحريم ومدخل القرنة المذهبة التي تطل نوافذها على المدينة الهادئة الساكنة المتكئة إلى أعتاب القصر الأحمر.

هذه الأجنحة طليت بالزخرف، ورسوم هندسية ، ومصوغات ، مشبكة نزلت بالنجص الملون ، وزينت بآيات قرآنية وشعار الملك المؤسس « لا غالب إلّا الله » .

كل هذا يدفع بالعين أن تتأمل ملياً وتحاول أن تخترق البناء الخالد لتقرأ

حقيقة التاريخ العربي الضاحك الحزين في تلك الأرض، ليس في غرناطة آخر معقل عربي سقط بيد الاسبان ، بل في اشبيليا وفي قصرها ، وفي قاعة السفراء منه بخاصة ، في منارة مسجده الجامع آية الفن والعمارة ، ومنتهى الذوق والدقة والابداع ، في جيان ، في شريش في طليطلة ، في كل ناحية في الأرض الأندلسية ، في الانسان العربي الأندلسي ، في الأزقة الضيقة ، في الزنقات الملتوية ، والنوافذ العريضة المكللة بالورد والياسمين ، وفي تلك الوجوه الحلوة التي أضحت صورة لملامح الوجه العربي ، البؤبؤ الأسود الحالك ، والوجنة الكرزية السمراء ، والابتسامة الصافية، تحية العرب للعرب ولكل الذين يقدرون رسالة العرب في الحضارة والانسانية .

ويهبط الليل على غرناطة ، ويهرع الرفاق كل الرفاق مع الحلوة التي عقدت عليها بالإيماءة والكلمة ، والنشيد ، والصلاة ، في محراب العين ، بل بالشباب يومئذ وبكل النضارة ، والوسامة ، والرقة ، والاشراقة ، أليس الشباب كما قال أبو العتاهية :

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

ونهرع إلى (Calle de los jitanos) حي السمراوات البدويات وإلى السرداب ذي المدخل الضيق، الملتوي، المتعرج، الهابط ليكتشف في أعماقه عن جوهره وماهيته ، أنه ركن الرقص « الفلامنكو » أنموذج الرقص الشعبي لسكان أقليم « فلاندس » العربي والذي أضحى طابع الرقص الاسباني المعاصر.

في السرداب يضيع الليل ، كل الليل ، والانسان الهائم يقظ ، يقطف الحب كيف شاء.

وتنطفىء الشموع والأضواء وكأنها بذلك تأذن لأنوار جديدة أن تسطع بعضها في كبت . وترتفع الستارة عن المسرح ، وتبرز عليه حلوة سمراء يحار الانسان في جوهرها وماهيتها، «تؤدي حركات في اتقان ونسق وهي تنقر بالصنوج وبأصابع يديها الرفيعة الطويلة الحريرية الملمس ، وتغني بنقرها لحناً

عذباً رقيقاً لا ينقطع ما دامت الهيفاء في رشاقتها ، وفي زيها الأندلسي البدعة ذي الطبقات المتتاليات ترفل في حب ، وغنج ،ودل، وتيه ، وترسم بيديها بل بأصابعها كلها وبنقر صنوجها حركات كأنها تعبر بشعر ، وإن لم تكن من الشعر في شيء عند الذين يعتقدون أن الشعر وزناً وقافية وحسب.

إنه وبصدق شعر ولكن على « رتم » من ابتكارات أندلسية حضارية تؤديه (Al - Bailarina) « الراقصة » حركة في لحاظ معبرة ، ونقر ذي دلالات ،عرف فيها كل التهائهين الضائعين لغة جديدة للحب، وهم وإن لم يتقنوها من قبل، إلّا أنهم حذقوها ، بالقبلة الصامتة الخرساء الطويلة ، وبالأيدي اللاهبة المحمومة ، وبمقلة العين وهمسها » .

إنها لغة العشق ، ومن حروف ، ومن كلمة وكلمة إلى جملة ، إلى معنى ، إلى عبارة فقصيدة ، حتى إذا أتقنوا الشعر عن ظهر قلب بعد أن حذقوا مقوماته ، راحت الحلوة السمراء تضرب بقدميها وجه الأرض « المسرح » ضربات قوية على صوت قيثارة هادئة اللحن تارة وصاخبة تارة أخرى، فإذا اشتد غضبها وقويت ضرباتها على الأرض وقد ثارت خرج عليها «الحبيب» وقد أخذتها النشوة، وهو شاب أسمر نحيل ترب لها، يعتمر قبعة سوداء ويرتدي قميصاً ضيقاً متدلياً من أمام ، وسروالاً من قماش أسود يكاد جسده النحيل أن يخرج منه، وهو يضرب بالصنوج أيضاً وكأنه يرد على لغة الحبيبة السمراء التي اشتاقت إليه .

«إذا أدى «الراقص» حركات بيديه، وضرب وجه الأرض بحذائه الثقيل ضربات وعلى شكل ذي نسق جذاب اندفع يغني لحناً من شعر موريسكي ذي المطلع والقفل آخر ما أبدعته مدرسة ابن قزمان من زجل وموشح بالأندلس.

كان الشاب الأسمر النحيل في حركاته وغنائه ورقصه مزيجاً من الفن الايقاعي والرقص العربي ، وقد غلف كل ذلك بما أفاده الرقص الأندلسي من الفنون الأوروبية الحديثة ، بلى كان يغني لحناً من شعر موريسكي ويرقص « الفلامنكو » .

وفي ما كان يؤدي غناءه ورقصه وهو يمد في اللحن صوته مدّاً طـويلاً، والحسناء تتجاوب بدورها في رقص رشيق وتغريه بالقبل ثم تنفـر منه تعـذبه، وتحـرق قلبه ، تـطل من وراء الستارة حسنـاء أخرى لتقـوم بدورهـا ، وربمـا خرجت بثوب وإن كان ذا ذيل وطبقات أسطوانية فهو لا يخرج « موديـلا » عن ثوب الأولى ، إلا باللون ، ثم تطل ثالثة فرابعة ، فخامسة ويعلو على المسرح الغناء ، ويضطرب الـرقص ، ويشتد الايقـاع حتى يتناسى الـوجهاء والأغنيـاء والأثـرياء ، والعشـاق ذواتهم ويندفعـون بـالنقر وقـد انـطلقـوا على سجيتهم وطبيعتهم بعد أن أغفلوا ولو إلى حين ، إنهم ذوو شأن في عالم الاقتصاد ، أو ذوو خطر في دنيا الجمال ، والحب والشباب » .

بعـد جولات طـويلة ، أو قصيرة من الـرقص الايقاعي ، لا تسـأل عن الفجر إن أشرق، أو لم يشرق ، فالفجر ، والضوء ، والسحر في عينيّ الحبيبة التي ألقت كل ذاتها بين يديك . . .

□□□

الشعر والأدب
في عهد الامارة بالأندلس

كان واقع الحياة الفكرية في الأندلس مع بدء حياة الاستقرار والأمن والبناء عقب قيام الدولة الأموية كإمارة مستقلة ، كواقع العلم والأدب في المشرق العربي ، يوم كانت الجزيرة العربية مركز الحياة الفكرية ، وموطن الشعر والأدب . فعكاظ ، وذو المجنة ، وذو المجاز تلك الأسواق الأدبية القائمة بين كثبان الرمال المترامية في بطء وفي حياة ، تحت شجرات النخيل الباسقة الذاهبة في الفضاء ، وامام عيون ماء متدفقة في كثير من جهد ، وقليل من عطاء ، شهدت مظاهر الحياة الأدبية التي مكنت العرب ان يبدعوا الحرف متناسقاً، متجانساً موسيقياً، عذباً، فيه تجاوب عميق، وفيه تفاعل مع الذات الملهمة التي كانت تستجيب لهذا الشعر ، والذي كان نواة الحياة الفكرية لهذه الأمة ، التي كان ادبها بُعيد الدعوة من ارقى آداب العالم القديم ، وكاد يوازي بقوة عناصره ، وقوة ابداعه وتفاعله مع الحياة ، ومع البيئة ، الأدب اليوناني ، والأدب الروماني ، وكان مع ذلك ارقى من الأدب اللاتيني والأدب الفارسي ، لأنه مع ضيق خيال مبدعيه ، كان يمثل كثيراً من خصائص الأدب الخالد ، فالأدب القصصي ، وادب الحوار ، والابداع تلك الميزات التي كانت بعض عناصر الأدب اليوناني الخالد ، كانت ممثلة في الشعر العربي ، مع فارق البيئة والاستقرار والحضارة ، فالشعر الجاهلي ابن الصحراء كان مرآة لحياة الجماعة العربية بكل مظاهرها ، وكان يمثل الى حد بعيد الحياة الاجتماعية ، وحياة الابطال، ولا غرو ان شعر اليشكري القصة،وقصص ابي زيد وعنترة هي

اصدق مثال لعناصر الأدب المميز ، ومظهر للجمال الفني . واذا كان الشعر في الجزيرة قد سبق النثر الفني لأن الانسان بطبيعته عاطفة قبل ان يكـون فكراً ، فالشعر في الأندلس ايضاً كان اسبق من النثر الفني في الأدب العربي ،هذا النثر الذي حمله في ما بعد اعلام كبار في العلم جميعاً، مع فارق واحد ان الشعر والأدب كـان في الاندلس اخصب فكـرات واكثـر مـوضـوعـات ، ذلـك لأن الأندلس العربي كان مهداً لحياة ثقافية راقية ، وموطناً طيباً ، وبلداً للعلم والفن والأدب ، اسهم الفينيقيون في وضع ركائزه ، واقام عليه البناءَ شامخاً من بعدُ اليونانيون والرومانيون ، ثم اقبلت المسيحية فأنعشته ، ودفعت به في معـارج الابداع والبقاء . « ولعـل هذا مـا يفسر لنـا سراً من اسـرار الازدهار الفكـري السريع الذي حققه المسلمون في اسبانيا ، على قلة اتصالهم بمنـابع الثقـافة القديمة والـوسيطة في العـالمين الاسلامي والمسيحي » فلقـد عرفت اسبـانيا القوطية اعلاماً كباراً امثال ايزدور الاشبيلي ، الذي كـان يرجـع في اصله الى الايبيـريين الرومـان ، والذي لم يكن كـاتباً دينيـاً فحسب ، بـل كـان مصنفـاً مـوسوعيـاً ، حاول ان يجمـع في كتبه كـل مـا انتهى اليـه من علوم اليـونـان والرومان .

وهكذا نجد ان الاندلس ، الامارة الأموية ارض العلم والأدب ، والفن الذي وصل اليها عبر الزمان من الفينيقيين واليونانيين والرومانيين كـان مطلاً ، متجاوباً متفاعلاً مع الشرق العربي ، كجزء من امبراطوريته الواسعـة ، والذي انكمش على نفسه في ما بعد محاولاً تكوين دولة جديدة، فيها ابدع ما في الغرب من مفاتن وآثار ، واجمل ما في الشرق من سحر ، وحضارة . وبالرغم من كل ذلك ، فلم يقو الشعر في الأندلس ان يستقل عن حقيقة الشعر المشرقي ، وان تفاعل في ما بعد وابدعَ، فالنظرة الاندلسية إلى المشرق اكانت قدسية صادقة تحس بمـا لهذا الشرق العربي من سبق في ضـروب الحياة جميعـاً ، ولعـل صاحب العقد الفريد قد عبر عن هذه الحقيقة في مقـدمة كتـابه قبـل ان يقدم ابوابه الآليء في قوله : « وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هـذا ، ان لمغربنـا على قاصيتـه ، وبلدنا على انقـطاعـه حـظاً من المنـظوم

والمنثور » . ويبدو جلياً في قول صاحب العقد ان هذا الأدب الأندلسي في مطلع حياة الامارة كان « حظاً » من الشعر والنثر ، وكان العقد جميعاً في نظر الصاحب بن عبّاد بضاعة مشرقية . وفي ضوء قول صاحب العقد يؤكد المستشرق الاسباني المعاصر اميليوغراسيا كومس « ان الشعر الاندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي وان تاريخه يصور لنا التطورات التي المت بالشعر العربي الأصيل ، فلقد كان لشعراء الأندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي ، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً اثرياً قديماً ، وكذلك المحدثون من شعراء المشرق العربي ، لم يكن لهم عند شعراء الأندلس اثربعيد ، في ماخلا بدوات نلمحها بين الحين والحين ، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث Neoclèsica . وعلة ذلك انه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الاندلس كان الشعر القديم المحدث في اوجه في المشرق ، والحقيقة ان الشعر الأندلسي عامة فيما خلا بضع شواذ فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية لأن شعراءه تأثروا بالشعراء الاعلام في المشرق بناحية البراعة لا بناحية التفكير فضلاً عن ان الشعر العربي كله في ذلك العصر كان في بدء نموه وتطوره واحتكاكه مع العالم المتحضر الذي خضع للدولة العربية بالفتح .

وليس من شك في ان هذا الشعر الأندلسي الذي كان بدائياً في اول عهده بالامارة تطور حتى بلغ اوج مجده في القرن العاشر الميلادي ، وفي عهد الخلافة الاموية بالذات ، واصبح صورة لذروة النضج الفكري يعمل فيه العقل والتفكير والابداع والابتكار ، كما كان انعكاساً للخيال والعاطفة والبيئة . وقد شملت موضوعاته الزهد ، والهجاء ، والحماسة ، والنسيب والمديح ، والرثاء ، والوصف بصفة خاصة ، وكان حل ابداعهم في وصف الطبيعة الأندلسية وما فيها من سحر وتألق . غير انهم لم يظهروا براعة ذات بال في الشعر السياسي والحماسي ولم يوفقوا كثيراً في شعر الحكمة والتهذيب ، اما شعرهم الديني فتنقصه حرارة العاطفة ، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبتذل الى وجد الصوفية دون تدرج .

ان هذا الشعر الاندلسي الذي نبع من اعماق الشعر العربي على حد

قول المستشرق الاسباني اميليوغراسيا كومس عملت ناحيتان على ابرازه ، وعلى تطوره ، فعرب الأندلس قد انكروا الذات ، واحتملوا كل انواع التضحيات في سبيل الوصول الى منابر العلم والاساتذة المبرزين في العواصم الشرقية ، وكان عملهم هذا لما يبعث على الاعجاب الشديد ، اما الناحية الثانية فهي ان الصلة لم تكن قائمة بين الغرب العربي ، والشرق العربي فحسب بل كانت هناك كذلك صلة اخرى قائمة بين عنصريّ الثقافة في شبه الجزيرة ، اسلامية ، ومسيحية .

على هذه الاسس من عناصر الواقع الطبيعي للأرض الاسبانية وتاريخها ، وواقع البلاد السياسي نشأ الشعر العربي عامة ، وشعر الطبيعة والموشح الذي تميزت به تلك الأرض عن سائر الشعر في الدنيا العربية كلها . وكان نغماً خالداً متجاوباً مع جمال الأرض في سحرها وكبريائها ، ومع الشعب هناك في فرحته وفي حسرته ، تلك الحسرة حكاية شعب مجّده التاريخ ويكاه وعبّر عنها ابن الأبّار في بيتين من قصيدته الكبرى يستعطف فيها أبا زكريا الحفصي لنجدة بلنسيا .

ادرك بخيلك ، خيل الله اندلسا   ان السبيل الى منجاتها درسا

يا للجزيرة اضحى اهلُها جزراً   للحادثات وامسى جدها تعسا

□□□

الخصومة الأدبية بين
المشرق والمغرب العربيين

لا شك ان الأدب في الشمال الافريقي والأندلس كـان امتداداً لـلأدب المشرقي في جميع مظاهره ، ذلك لأن تاريخَ هذا الأدب الذي اخذ في العصر الأمـوي يعبر عن كثيـر من النتاج الفكـري يصور التـطورات التي طـرأت في الأصلِ على الشعر العربي في مواطنه الأولى ، فشعراء الأندلس الذين كـانوا في طليعة رجال الفكر هم كسائر شعراء المغرب اعجبوا بالشعر الجاهلي ، وان لم يترك هذا الشعر اثراً واضحاً في ادبهم كما اعجبوا بشعر المـولدين الـذين ابتعدوا في وصفهم عن الصحراء وحياتها .

لقد اخذ هذا النفرُ من ادباء الاندلس والمغرب مع مطلع القرن الـرابع للهجرة، العاشر للميلاد يَـطْرُقون مـواضيع جـديدة لم تكن ظـاهرة الأثـر ، او واضحة المعالِم عند الجاهليين او الأمويين اطلاقاً .

في ضـوء هذا الواقع يقرر المستشرق الاسباني الدكتـور اميليوغراسيـا كومس في كتابه « قصائد عربية اندلسيـة» ان هذه الـطبقة من شعـراءِ المشرق ايضاً لم تترك اثراً بعيداً في الشعر الأندلسي الاّ ما صبغت به الناحيةَ الجماليةَ فيه .

يرجع الدكتور كومس في رأيه هذا«الى ان الأندلس عندما اصبح له شعرٌ يصلح ان نسميه بالقديم المحدث Neoclasica ، كان عينُ هذا الشعـر قد بلغ

الأوجَ في المشرق العربي» .

لا غرو في ان الواقع العلمي يثبت ان المولدين من شعراء العصر العباسي قد افلحوا في صرف القصيدةِ الجاهلية التي سادت في الأدب العربي كمظهر كلاسيكي لمبنى القصيدة العربية عن حقيقة موضوعاتِها ، وتعددِ اغراضِ الشاعر فيها ، الا انهم لم يفلحوا في تبديل واقعها العَروضِيّ ، لأن حقيقةَ شعرِ هذه الطبقة من المولدين كانت تواكبُ جوهرَ الشعر العربي وحسب .

الحقيقة ان القصيدةَ العربية الكلاسيكية قد سادت في الأندلس وفي الشمال الافريقي ايضاً ، وان الأدب في هذه المنطقة من العالم العربي يومئذ لا يتميز بميزة ليست في الأدب العربي عامة ، ولا غرو ان نفراً من شعراء الأندلس والمغرب العربي قد اعجِبُوا ببعض شعراء المشرق ، ويرى الدكتور كومس ان المتنبي قد ترك اثراً بارزاً في حقيقة القصيدة العربية الأندلسية، وان اثر المتنبي ظل في الشعر الأندلسي حتى موات الشعر العربي في اسبانيا الاسلامية .

إلى جانب هذا الرأي نجدُ الأديبَ الفرنسي هنري بريس يؤكد « ان اسبانيا الاسلامية في القرن الحادي عشر لم تتوقف عند حد اعجابها بالمتنبي ، فهناك شعراء آخرون اثاروا انتباهها فابن خفاجة الذي يعتبر اكبر مصوري الطبيعة ، والذي ليس هو اكثرُ من مقلد ماهر يعترف انه استقى اكثرَ مُخَيِّلَتِهِ الشعرية من شعراء المشرق كالشريف الرضي ، ومهيار الديلمي .

مع هذين الرأيين نجد رأياً آخر للمستشرق الاسباني الدكتور الياس سدبا يؤكد فيه ان شعراء الأندلس من المغرب العربي خاصة بالرغم من اعتمادهم على الشعر المشرقي كمعين لتطور شعرهم ، فإن بعضَهم وفي مقدمتهم ابن عبد ربه قد اثبت في كتابه العقد مقاطعَ من شعره الغزلي ، وكأنه كان يحاول ان يؤكد ان شعره هذا يفوق الشعرَ المشرقي رقةَ عِبارة ، وجمال معنى .

من البديهي ان الرأي الذي توصل إليه المستشرق الاسباني سدبا يدل ولو بإشارة خفية الى الشعور الذي كان يحسه الاندلسيون نحو اعلام المشرق العربي ، وبالتالي يعبر عن حاجتهم الى تكوين شخصيتهم الادبية المميزة منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد .

لقد كان الشعور السائد بين الطبقة الواعيـة الموجهـة في شبه الجـزيرة دافعاً لنفر من اعـلام الفكر في المغـرب العربي في ان يبحثـوا عن خصائصَ مميزة للأدب في اسبانيا الاسلامية .

كان ابن حزم في طليعة هؤلاء المفكرين الذي يؤكد هنري بريس انه كان حكيماً عندما رأى من العبث ان يذهب بعيداً للبحث عن اشياءَ متوفرة لديه ، والاندفاع نحو ادب المشرق ، ذلـك ان هذا الادب المشـرقي لم يكن كافيـاً ليقدم معرفةً تامة عن ماهية الانسان .

امام كل هذه الآراء ندرك ان مظاهر الخصومة الأدبية بدت في المغرب العربي منذ عهد الأديب ابن عبد ربه الذي اخذ يحاول مع الاتجاه الأدبي العام في البـلاد الى تكوين شخصيـة ادبية مستقلة لهـا طابعهـا المميز ، وان هـذه المحـاولة اخـذت في القرن الخـامس للهجـرة، الحـادي عشر للميـلاد في رسم الخطوط الكبرى لهذه الشخصية الأندلسية الفذّة ، التي راحت تبتعد عن مواكبة ادبِ المشرق عامةً وشعرِ المتنبي والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي خاصة ، لأن هذا الشعر لم يعد بمقدوره ان يمد العبقريـة الاسلاميـة ـ الاسبانيـة بنتاج يتوافق وتفتح هذه العبقرية على الآفاق الجديدة التي بهرت عربَ الاندلس .

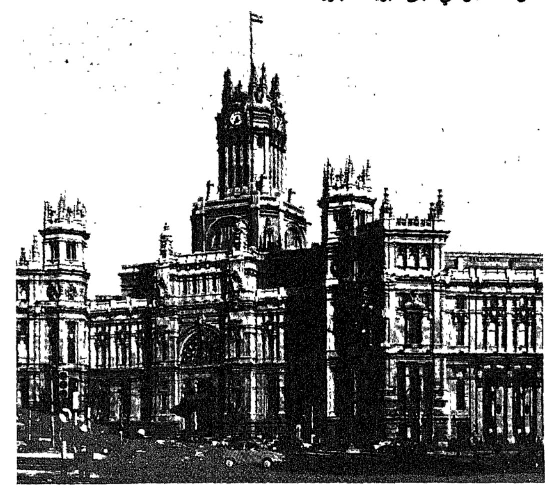
لقد كان التنـافس شديـداً بين قرطبـة وبغداد ، بين المشـرق والمغرب العربيين، في السياسة، والأدب، والاجتماع، خصومة في الحكم وفي الادارة، الّا انها خصومةٌ معتدلة لم تكن لِتَحُس بها بغدادُ كما تَحُس بها قرطبة الا في عهد المنصور ابي جعفر ، اما في غير عهد القائد العباسي فما كان اشد احساس قرطبة لهذه الخصومة الخلّاقة التي بنت الشخصية الاندلسية المتكاملة ، ذؤابة الحضارة العربية في الأدب والعلم ، والفن ، ونبراسَ الهداية لا في شبه الجزيرة وحسب وإنما في

اوروبا كلها التي عاشت على اشعاع الفكر الاسلامي الاندلسي ، وعلى حصيلة نتاج مدرسة طليطلة في الترجمات الفلسفية والدينية التي كانت معيناً خِصْباً لبناء حضارة اوروبية مستقلة ، قدّر لها في القرنين التاسع عشر والعشرين على حكم العالم.

ان الخصومةَ الأدبية التي استمرت ردحاً من الزمن بين المشرق والمغرب العربيين كانت المدماكُ الأول في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، المدينة للفكر العربي وللتراث الشرقي . بخصائصها وشمولها .

□□□

الفن المدجن في مبنى البريد «مجريط»



العنصر الغربي
في الأدب الاندلسي

من المقرّر اليوم ان الأدبَ في الاندلس نبع من بحر الأدب المشرقي ، وتاريخُه في هاتيك الأرض يصور لنا التطورَ الذي مرّ بالأدب العربيِّ عامةً ، فشعراءُ الأندلس اعجبوا بالشعرِ الجاهلي واقبلوا على دراسته ولكنهم كانوا يروْن فيه شيئاً اثرياً قديماً كما يؤكد المستشرق الاسباني اميليوغرسيا كومس .

من هنا لم يكن لهذا الشعر الجاهلي، وكذلك للأدبِ العربي المحدث الذي تزعمته بغدادُ وبرع فيه نخبةٌ من اصحاب المعنى كأبي نواس ومسلم بنِ الوليد ، وابي تمّامٍ وابنِ الرومي وغيرِهم من الشعراء اثرٌ فعالٌ في نفوس شعراء الأندلس ، في ما خلا تصاويرَ نلمحُها بين الحينِ والاخر وعباراتٍ نلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعرِ القديم المحدث .

لعل سبَب ذلك يرجعُ في ما يؤكدُ النقادُ ويقرّه البحثُ العلمي ان هذا الأدبَ القديمَ المحدث عندما اخذ يظهرُ في الأندلس على يد نخبةٍ من شعرائه الأوائل كان في اوجه في المشرق العربي .

بالرغم من هذه الحقائق التي يثبتها التاريخُ ويعترف بها الدارسون لحقيقة ادبنا في المشرق والمغرب العربيين فالأدبُ الأندلسي لم يستمر بعد القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد في مواكبةِ جوهرَ الأدب العربي في المشرق ذلك ان عواملَ مختلفة اخذت تؤثرُ فيه وتتفاعلُ به حتى اضحى ادباً

مُمَيّزاً في كثيرٍ من مظاهِرِ الذهنِ ، والفنِ واللغةِ والموسيقى .

ليس من شك في ان للبيئة الأندلسية اثـراً كبيراً في تكـوين هذا الأدبِ الأندلسي الجديـد ، وقد تـوفرت لهـا خصائصُ من الـطبيعةِ والفكـر لم تكن للأدب العربي عامةً ، فتفاعل العربُ مع سكـان البلاد على ارض هـذه الدولـة العربية الاسبانية التي التقى فيها المتناقضان ، عربيٌ اسمرُ من اعماق الصحراء ، وغربيٌ اشقرُ من اطراف اوروبا ، ومسجدٌ قائم في أنفة وحرية الى جانب كنيسة قائمة في انفة وحرية ، كما هو واقع معابدنـا في لبنان ، ولغـةٌ عربيـةٌ تكتب من جانب ، ولغةٌ اعجمية تكتب من جانب آخر ، كل هذا اثر في الأندلس فصدر عن ادب جديد يمثله اديبُ اسبانيا الاسلامية الذي كان على حد قـول الناقـد الفـرنسي هنري بـريس مزيجـاً غريبـاً من القديم والحديث ، من الكلاسيكية والرومانطيقية ، من المجون والصوفية .

ان النـاحية الأولى من هـذين الاتجـاهين في شخصيـةِ الأديب العـربي الاسباني تُرَدُّ الى الثقافة العربيةِ الأصيلة التي وجدت في الأندلس ارضـاً طيبةً والتي صرف لها الأديب الاندلسي جهده ، واما النـاحيـة الثانيـةُ فكانت نتيجـةً حتميةً لما توافر امام عينيه وتحت وخز ضميره من ردود الفعـل الداخليـةِ التي تبحث عن المشـاهدة ، إن روحَ الأديب الانـدلسي الحساسة لا تتمكن في ما يقول بريس من التخلص تماماً ، لا من المشاهدِ التي لَمَحَها من خلال الشعراء القدامى ، ولا من الأحاسيس التي شعر بها عند قراءته لروائع الماضي ، ومع كل ذلك فلقد كان اديباً فذاً صاحب شخصيةٍ مستقلة .

هـذه الحقـائق تـدفعنـا إلى ان نقـرر على اهميـة البيئـة ، لا في حيـاة الشعوب والأفراد وحسب وإنمـا في حياة الفكـر ومظاهـره المختلفة في العلم والثقافة والأدب .

العوامل الغربية كثيرة ايضاً تلك التي اثـرت في ادبنا الأنـدلسي واهمها التعـايش ، والطبيعة ، واللغة ، ومن هذه العوامل الاسـاسيـة صـدر العـربُ في الاندلس عن نوعٍ جديد من الأدب حاوله أعلامُ الأدب في المشرق فلم يوفقوا

اليه وجاء فطرياً طيعاً في الاندلس نتيجةً حتميةً لواقع الحياة العربية الاسبانية .

ان الازدواج في اللغة هو الـذي ساعـد على نشأة طـراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية فيما يؤكد المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا .

الحقيقة ان اهل الأدب الفصيح ازدروا هذا الطراز الشعريَ الجديد ، الا ان العامة اقبلت عليه ، وما زال امره يعظم حتى اصبحَ لوناً من الأدب اتخذ من الأدب الشعبي صورتين احداهما الزجل ، والثانيةُ الموشح .

من الواضح ان الفرق جليّ بين الزجل والموشح ، فالزجل شعر يصاغ على وزن خاصٍ في فقرات تعرف بالأبيات وتبدأ مقطوعتُه ببيت يعرف بالمركز تليه اغصانٌ ذاتُ قافيةٍ واحدة ، ويتكوّن الغصنُ عادةً من ثلاثةِ مصاريعَ أو اكثر ، ثم يعقبهـا بيتٌ في نفس وزن المركـز وقافيتـه وهكذا ، وهـو كلام عـامي في الغالب .

اما الموشح فهو في الاصل محاولةٌ جدية لتوزيع جديـد للعروض على نحو لم يألفه شعراء المشرق وكثيراً ما استخدم الموشح اشـطارَ الاشعار ذاتِ الاعاريض المهملة .

هذا ويذكر ابنُ خَلْدون بأن المتأخرين من شعراء الأندلس استخدموا فناً من الشعر سموْه بالموشح ينظمونه اسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويعرّفون المتعددَ منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانِهَا نهجاً متتالياً في ما بعد إلى نهايةِ الموشحة .

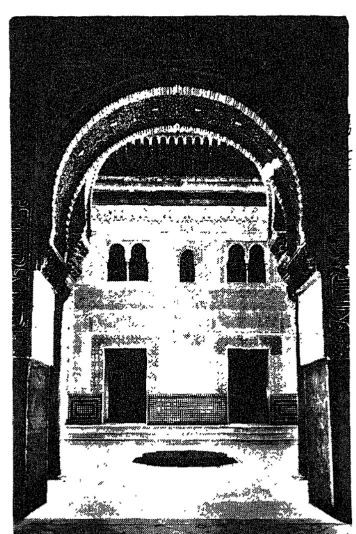
ان هذا اللونَ من الشعر الذي عرف بالموشح أميل الى تسميته كذلـك نسبة الى الموشحة من الطيـر او الظبـاء لغرتين مسبلتين عن جـانبيها همـا في اعتقادي القافيتان المختلفتان في كل سَمْطٍ من المطلع ، لا نسبةً الى الوشاح على حدِّ قولِ بعض النقاد .

هذا العنصر الغـربي في البيئة ، والتعـايش ، واللغة والتقـاليد واقبـالِ العرب على هضم حضارة القـوط إلى جانب تـأثيرهـم في حيـاة الاسبان دفـع

الاندلسَ العربي الى ان يصدر عن ادب جديد في معطياته ومقوماتِـهِ ، الأدبِ الذي حاوله المشارقةُ فأخطأوه وجاء لحناً متجاوباً مع سحـر الأندلسِ وروائـه الخيرِ المتدفق صلاةً وشعراً وموسيقى ، على شفاه شعـرائه المتـأخرين وعلى ضربات نغم موسيقية خالدة .

بعد هذه الحقبة من عطاء العرب في شتى مظاهر الفكر،وبعد ان استقلت الشخصية الأندلسية منذ القرن السادس للهجرة ، الحادي العاشر للميلاد عن الشخصيـة المشرقية ،اصبحت المصدر الأول لتوجيه الفكر في العالم الغربي .

□□□



القصـر الأحمـر

شعر الطبيعة
في الأدب الاندلسي

كان الاندلس العربي ارضاً خصبة للون جديد من الوان الشعر ، اوحت به زرقة سمائه ، وخيلاء ارضه ، وجمال طبيعته ، وانسياب انهاره ، وتلاطم امواجه المتكسرة على اعتاب ارضه الخضراء .

هذا اللون من الشعر الذي تغنى به الشعراء المتفوقون في الاندلس ، على نحو جديد ، واطلقوا فيه نشيدهم تمجيداً لهذه الطبيعة الساحرة الآثرة ، وصلاة لتلك الأرض الزاهية الضاحكة ، ودعاءً ، قلت ان هذا اللون من الشعر الذي تغنى به الشعراء كتب للاندلس العربي خاصةجديدة، واكسب شعراءها تفوقاً على اقرانهم في المشرق ، فإذا هم شعراء الطبيعة يخلدونها في اوصافهم ، ويتغنون بها في صلاتهم ، ويتيهون في عوالمها ، واذا هي حقيقة وجودهم ، وسر ابداعهم .

ان شعر الطبيعة لون جديد في تاريخ ادبنا العربي ، لم يكتب للشعر الجاهلي الذي كرس العصر الاموي حقيقته من حيثُ بناء القصيدة العروضي ، وبالتالي من حيث اكثر موضوعاته التي كانت نهجاً تقليدياً في الأدب حتى عصر ابي نواس . قلت لم يكتب للشعر الجاهلي ان يعنى العناية الكافية بجمال الطبيعة وسحرها ، لأن طبيعة الجزيرة العربية قاسية فقيرة الالواح الموحية ، فضلاً عن ان الشاعر الجاهلي في وصفه للرياض او للطبيعة لم يكن يقصد جمال الروض، او بهاء الطبيعة لذاتيهما ، وانما كان يريد وصف من احبَّ من

خلال وصفه للروض وللطبيعة .

الواقع ان شعر الطبيعة كفن ادبي لم يعرفه النقاد العرب الاّ في العصر الحديث ، وان كان قد نشأ مع الحركة الابداعية في الآداب الغربية قبيل نهاية القرن الثامن عشر بعد ان وجد الشعراء المبدعون في الطبيعة ميداناً فسيحاً لخيالهم ، وتربة خصبة لنمو العواطف الانسانية ، وموضوعاً يلائم الاسلوب القوي الصريح .

ان شعراء الاندلس قد سبقوا شعراء الغرب في ابداع هذا اللون الجميل من الأدب الخالد ، حيث تركوا فيه صوراً لعواطفهم ، ومذاهب لاشواقهم ، وخلاصة لافكارهم مزجوا فيه نبل مشاعرهم بعد ان وجدوا في طبيعة بلادهم انعكاسات لآمالهم ، ولما كانوا يحسون من شوق وهوى الى الأرض ، والى الطبيعة التي الفوا فيها صداقة صوفية تجذبهم الى الساقية الهاربة من اعماق النهر ، والى الجبل الرابض ، والى الغابة الملتفة المنتشرة في اعماق بعض المنخفضات من الأرض هناك ، عندما تتلاقى الجبال فلا تقوى على ان تشد بعضها الى بعض .

هذا ، ولعل الشاعر الاندلسي ابن خفاجة قد صور طبيعة الاندلس صورة باقية على الدهر فيها حقيقة هذا الشعور ، وصدق تلك العاطفة .

يا أهلَ اندلسٍ لله دَرُّكُمُ ... ماءٌ وظِلٌّ وانهارٌ واشجار
ما جنةُ الخلد الاّ في دياركم ... ولو تخيرت هذا ، كنت اختار
لا تختشوا بعدها ان تدخلوا صقراً ... فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

لم يكن هذا الشعر وليد الطبيعة الاندلسية وحدَها ، فلقد ساعدت على نشأته وازدهاره الحياة المترفة اللاهية ، والتمازج الذي تم على ارض تلك الدولةِ بين شرقي فاتن نحيل من اطراف الصحراء صهرته الشمس ، وغربي اشقر من اطراف اوروبا امتزجت الألوان امام عينيه من زرقة في السماء ، وزرقة في البحر ، واخضرار في الأرض وثلج ناصع البياض على قمم الجبال ، حتى كادت هذه الألوان ان تنطبع في بؤبؤ عينيه .

عن كـل هذا ، عن الـطبيعة السـاحرة ، والحيـاة اللاهيـة ، والتمـازج الغـريب الـذي تم على ارض الانـدلس بين الشـرق والغـرب ، بين دنيـا الاساطير ، وارض التاريخ القديم نشأ هذا اللون في الشعر الاندلسي حكايـة ادب سبق الحركة الابداعية التي عرفتها اوروبا في اواخر القرن الثامن عشر .

الحقيقة ان الاندلسيين قد استشعروا معاني ذلك الجمـال في ايبريـا ، تلك الأرض التي تشدها الجبال من الشمال ان تغرق في البحر ، فاقبلوا على اللهو ، والمرح ، والاستمتاع بطبيعة بلادهم ، بعـد ان تعلق الشعراء ببيئتهم فصوروها وافاضوا في ذلك . وليس ادل من شعر ابن سفر المريني على وصف الاندلس روضة الدنيا :

فـي ارض انـدلسٍ تُلتـذُّ نـعمـاء ... ولا يـفـارقُ فيـهـا الـقلبَ سـراءُ
وليس في غيـرهـا بـالعيش منتفـعٌ ... ولا يـقـوم بحـق الانس صـهـبـاء
واين يعـدل عن ارض يحض بهـا ... عـلى الـمـدامـة امـواهٌ وافـيـاء
فيهـا خلعت عذارى مـا بها عـوِضٌ ... فهي الرياض ، وكلُّ الأرض صحراء

لقد اضحى من المقرر ان الشعر الاندلسي قد مرّ في مـراحل ثـلاث ؛ فكان منذ بدء عصر الامويين حتى اواخر القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد يمثل الشعـر التقليدي لادب الشـرق ، واعلام هـذا اللون : ابن عبد ربه ، وابن هانيء ، وابن شهيد وغيرهـم .

اما المرحلة الثانية وهي الحقبة التي امتدت خلال القرن الخامس فلقد اخذ الشعراء فيها يصدرون عن الحاضر ويمثلون النفس ومشـاعرهـا ، والبيئة ومظاهرها مع الاحتفاظ بشيء من روعة الاسلوب التقليدي ، وفي نهايـة هذه الحقبة تم انتصار الجديد ، واتسعت حركة الموشحات ، اما اعلام هذا اللون فابن زيدون ، وابن عمّار ، والمعتمد بن عباد ومن اليهم من شعراء الطوائف . وبانتهاء القرن الخامس للهجرة اخذ الشعراء يمثلون البيئة المترفة والجـدّة ، واعلام هذه المرحلة ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة وغيرهـم .

ان قوى الابداع جميعاً في هذا الشعر الاندلسي خلال مراحله الثلاث قد

انسكبت في هذا اللون من شعر الطبيعة الذي هو عنوان كتاب الشعر في الاندلس العربي :

لـله نـهـر سـال فـي بـطحـاء | اشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه | والزهر يكنفه بحر السماء
قد رق حتى ظُن قرصاً مفرغاً | من فضة في بردة خضراء
وغدت تحفُّ به الغصون كأنها | هُدُب تحفّ بمقلة زرقاء

فاذا كان ابن خفاجة وهو من شعراء الطور الثالث قد غنى الطبيعة على قيثارته بهذا الابداع ، والاخراج ، والتألق ، فكيف ابدع صفوة شعراء الاندلس هذا اللون من ادب الطبيعة ، وكلهم كان مرهفَ الحس ، موسيقي الجرس ، وقد اوغلوا في هذا النشيد لا سيما في الطورين الأول والثاني .

إن شعر الطبيعة في الاندلس يصور لنا تعلق الشعراء ببيئتهم وتفضيلها على بيئات الأرض جميعاً ، بعد ان كان خيالهم متعلقاً بالشرق العربي ، وهو يصف طبيعة بلادهم الطبيعية والصناعية التي اقامها الامراء والخلفاء ، فهم يصفونها كما ابدعها الفن المعماري منعكسة في القصور ، والمساجد ، والبرك والاحواض .

والخلاصة ان الطبيعة في الاندلس لعوب ، طروب ، وثوب تبعث الاشراق في النفس ، والرجاء في القلب ، ووصفها في شعر الاندلسيين انما يقوم على جوانبها الضاحكة الندية ، هذا الوصف الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالغزل والخمرة ، اذ ان المرأة هي من اجمل الصور المعبرة عن محاسن الطبيعة وجمالها .

ان الطبيعة في الاندلس تلك الاوبرا الالهية ، هي اللوحة العالقة امام الشعراء يتغنى بها كلٌّ على سجيته ، وعلى لحن واحد هو هذا اللون من الشعر الابداعي ، الذي زها واشرق في اندلس العرب قبل ان يطل على العالم نغماً خالداً .

الحـب والـغـزل
في الأدب الاندلـسي

بين الحب والغزل ، ما بين الشعور والتعبير من علاقة ، فاذا كان الحب فرحاً والماً ، وصـالاً وحرماناً لقاء وشوقاً الى اللقاء ، واقعاً نتحسّسه او ذكرى نسترجعها . . فالغزل هو التعبير عن بهجة المحب حين يفرح ، وعن اساه حين يتألم .

واذا كان الحب ازاهر تتفتح ، او اشواكاً تنمو ، فالغزل هو عبق الزهور حين تتفتح ، ووخز الشوك حين يجرح .

وما دام الحب شعوراً ، والغزل تعبيراً فالذي تقتضيه طبيعة الحقائق ، ان يكـون الشعور سـابقاً على التعبيـر ، ليكـون الغـزل كفن متـأخـراً عن الحب كعاطفة .

في ضـوء هذا الواقع غنى الشعراء العرب يوم عرفوا النشيد ، هذا اللون من الشعـر ، وما الابيـات التي وطؤا بها لمعلقـاتهم واغراضهم المختلفـة في القصيـدة الواحـدة الاّ منهج تقليـدي وصفوا بهـا الحبيب والمنزل ، وهي في حقيقتها لا تخرج عن نطاق الصنعة الفنية ، كما انها لا تتصّف بالغزل .

ان شعراء الجاهلية اصحاب هذا المذهب التقليـدي في الأدب العربي قـد احسنوا وصف الحبيب ولم يحسنـوا تصويـر الحب ومغازلـة النساء ، لأن الغزل لم يعرف مفهومه اللغوي والأدبي إلاّ بعد الاسلام وبعد ان اثّر في نهضته عوامل مختلفـة متباينـة من رقّة الامـزجة ، والانصـراف الى الترف ، وعـلاقة

الرجل بالمرأة من حيث موضوع هذا الشعر ، ولغة القرآن ، وجزالة الفاظه ، واسلوبه القصصي من حيث مبناه .

لقد كان الشاعر الاسلامي حريصاً على ان يصوّر عاطفة حبه ، وشوقه والعلاقة الروحية القائمة بينه وبين من احب ، بعيداً عن محاسن المرأة وجمالها ، بينما كان الشاعر الجاهلي لا يخرج في شعره عن وصف المرأة التي احب .

هذا ، وليس من شك في ان الأبيات الغزلية في آخر معلقة امرىء القيس ليست له ، وانّما قد دست عليه .

لا غرو في ان هذا الغزل الذي ظهر في الجزيرة العربية بعد ان اسهمت الدولة الاموية في نهضته ، قد ابدع عمر بن ابي ربيعة في عرضه عندما اطلقه على اسس جديدة من التصوير ، والعاطفة ، والحوار ، والاخراج .

من هنا كان عمر بن ابي ربيعة زعيم هذه المدرسة الجديدة في الأدب العربي ، واستاذ الاسلوب القصصي في فن الغزل حدّد خصائصه في رائيته ، قبل ان يكتب للناقد الامريكي ادكار الن بو ان يضع اصول القصة الحديثة .

وهكذا رسم عمر ابن ابي ربيعة لشعراء الحب في الاندلس الطريق الذي اندفعوا فيه يتغزلون على سجيتهم ، ويضيفون الى الأدب العربي لحنا جديداً وقد التقى فيه الشرق والغرب عند اعتاب الفردوس الاندلسي الخالد .

ان اوائل شعراء الحب في الاندلس ، كالرمادي ، وسعيد بن منذر البلوطي ، وابن عبد ربه لم يخرجوا في ابياتهم عن وصف الانسان الذي احبوا ، وهم في ذلك قد التقوا مع شعراء الجاهلية من حيث الموضوع والاسلوب ، وان كانت طبيعة البيئة الاندلسية قد فرضت على شعرهم شيئاً من الرقة وجذالة اللفظ ، ولعلّ ابن عبد ربه يمثل في شعره انموذج هذه الباقة من شعراء الطليعة في الاندلس .

مـا ان رأيـت ولا سمعت بـمثـله ... دراً يـعـود من الحـيـاء عـقـيـقـا
واذا نـظرت الى محـاسن وجهـه ... ابصـرت وجهـك في سناه غـريقـا

ان الابداع في ابتكار هذه الصورة المزهوّة المشرقـة في تصويـر وجه الحبيب وقد ترامت عليه كل الألوان الزاهية الساحـرة الضاحكـة في الاندلس الجميل ، هو اجمل من شعر الصحراء ، وقد تتطاول على شعر طرفة بن العبد يوم وصف وجه الانسان الذي احب :

ووجه كأن الشمس القت رداءهـا ... عليـه نقي اللون لم يتخـدد

مـا ان اجتاز الغـزل في الأندلس المـرحلة الأولى في درب شعر الحب العربي ، حتى اطل عليه شاعر كاتب مزج الشعر بالعلم ، والعاطفة بالنقـد ، قلت اطلّ على الغزل في الاندلس ابو محمد علي بن حزم القرطبي الذي هزأ بالدموع الغزار التي ذرفها الشعراء على « ديار الحبيبة » ونهج سبيلاً قلّل فيه من بهجة الوصل ، ومن هنا كان شعره واقعيـاً واضحاً يصف احـوال النفس على فـطرتها ، كمـا يصوّر احسـاسه العميق بـاسلوب تغلب عليه الـرقّة والجـذالة والخيال :

وددت بـأن الـقلب شـق بمـديـة ... وادخلت فيه ، ثم اطبق في صدري
فـأصبحت فيـه لا تـحلين غيـره ... الى مقتضى يـوم القيـامـة والحشـر
تعيشين فيـه مـا حييت فـان امت ... سكنت شغـاف القلب في ظلم القبر

كاد الاندلس يعيش غزله على انسانية ابن حزم في حبه لو لم يندفع مع ابن زيدون في غزلـه ، وفي حبه لـولادة ابنة المستكفي ، وقـد سمحت البيئة العربية للمرأة الشاعرة ان تنادي الحبيب وان تلتقي به وتنشده ما تعاني من حب وشوق :

تـرقـب اذا جنّ الـظلام زيـارتـي ... فـأنـي رأيت الـليـل اكتـم للسـر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يسـر

ويلبي الشاعر الاندلسي لأول مرة في حياة الغزل العربي نداءصريحاً ، ويجد في هذا الانسان المحب ، اجمل ما يرجوه في كبريائه وعزته ، وتـردّده

وهو مع ذلك محب صادق العاطفة :

ته احتمل، واستطل اصبر، وعزّ اهن   وول اقبل، وقل اسمع، ومُرْ اطع

ان هذا النوع الجديد من الغزل الاندلسي الذي لم يعرفه الشرق العربي عند شاعر من شعراء الغزل ، حتى ولم يعرفه عند ابن ابي ربيعة ذاته ، قد دفع بالغزل العربي وبالحب العربي الى ناحية الحرية او الاباحية في الحب ، وقد سجل في تاريخ الفكر الانساني تقدميّة الحياة العربية الاندلسية ، وحرية المرأة ، ورقيّ المجتمع .

وهكذا غنى شعراء الاندلس مع الطبيعة هناك ، اجمل نشيد الاهي امام الساقية الهاربة من النهر الكبير ، وعلى زقزقة الطير المختبئة في اعشاشها بين اغصان الاشجار ، كان يتعالى مع ثورة الطبيعة في الربيع وكأنه ينشد اجمل اوبرا سماوية للمرأة المخلوق الخالد، التي يلتقي فيها كل الخير ، والحق والجمال ، ملهمة الشعر ، ولحن الغزل .

واعتماد الرميكية الم تتجاوب مع المعتمد في حب عميق امام النهر وعند شاطىء الفضة في اشبيليا ، فكانت بحق هذه المرأة التي التقى فيها كل الخير وكل الجمال لولا ما عانى المعتمد من دلالها والغنج وهو وكما اشرنا تلقب بين الملوك والعظماء باسمها :

أغائبة الشخص عن ناظري   وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون   ودمع الشؤون وقدر السُهاد
تملكتِ مني صعب المُرَام   وصادفتِ مني سهل القياد
مراديَ اعياك في كل حين   فيا ليت أنيَ أُعطى مُرادي
دسست اسمك الحلو في طيه   والّفْتُ منه حروف اعتماد

كيف لا فمطالع هذه الأبيات هي : الألف ، والعين ، والتاء والميم والدال فعند التقائها تشكل اسم « اعتماد » .

بلى كيف لا . . . إنّه الحب . . . وإنه الغزل .

الغنـــاء الـعـربـــي

عرفت قصور الانـدلس الاسلامي في قـرطبة ام المـدائن الحالمـة عند اقدام جبل العروس ، وفي الزهـراء الواحـة الضاحكـة للحياة ، وفي اشبيليـة الجنة الناعسة على شاطىء نهر الفضة ، وفي غرناطة قبلة الأرض القائمة وسط سهلهـا الافيح ، وفي طليـطلة القمة المسيجـة بنهر التاج، وفي جيان ومـالقـة وبالنسيا ومرسيا وسرقسطة وبطليوس الالىء المبعثرة على ارض شبه الجزيرة .

قلت عرفت قصور الاندلس مظاهر من الحياة الوادعة الهانئة ، وضروباً من الترف الانيق ، وانواعاً من اللهو في مجالس الامراء والخلفاء والاعيان وفي ردهات وقاعات قصورهم المزدانة بالرياش وفاخر الاثاث ، وامام برك الماء في الحدائق الغناء ، وفي ظل سديم رشاش النافورات،كان الغناء العربي وما يرافقه من قينة رشيقة تغني، وغوان جميلاتٍ يهزجن، وعازفـات يضربن، وسـاقيات يطفن متعة الانفس والارواح ، ومراد السمع ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، وصلاة الكئيب ، وانس الوحيد لعظم موقع الصوت الحسن من القلب واخذه بمجامع النفس .

والغنـاء في الأصل صنـاعة بـارعة تـرمي الى تلحين الاشعار المـوزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقّع كل صوت منها تـوقيعاً عنـد قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضهـا الى بعض على نسب متعارفـة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب كما يقول ابن خلدون .

الحقيقة ان الغناء العربي كان في الأصل على ثلاثة اوجه ، النصب ، والسناد ، والهزج فالنصب هو غناء الركبان والقيان ، والسناد فهو الثقيل الترجيع الكثير النغمات ، واما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحكيم .

هذا، ومن الثابت ان اصل الغناء العربي ومعدنه كان في امهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً في المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ثم قدر له بعد ان شاع فن الغزل في الحجاز وكثر الشعر فيه استجابة للغناء، وعمّ المجون ، وساد اللهو، ان ينتقل الى العراق فيجد في بغداد عاصمة الدولة العباسية في ما بعد ارضا طيبة مع بذور الموسيقى والغناء الفارسي .

لم يتوان هذا الغناء ايضاً عن ركب الشعر والنثر العربيين عن الانتقال الى الاندلس على ايدي الفاتحين ليتفاعل على ارضه مع ما ترك الجرمان والفندال والقوط من بذور غنائية وموسيقية الا انه بالرغم من هذه الرحلة الشاقة والعسيرة لم يقو ان يحمل في طياته فناً متكامل النوضج ، محدد الاصول كما يؤكد ذلك خوسة فورنس عميد الكونسرفتوار الموسيقي الملكي بمدريد في كتابه « تاريخ الموسيقى » .

الحقيقة ان الغناء العربي ـ الاسباني لم ينهض في الاندلس الا على يد الامير عبد الرحمن الداخل الذي قدر له سنة مائة وثمان وثلاثين للهجرة ، سبعمائة وخمس وخمسون للميلاد ان يقيم امارة مستقلة عن نفوذ المشرق وان يتخذ قرطبة عاصمة له .

ان حب المنافسة عند اموبي الاندلس في ان تلعب عاصمتهم عظمة دمشق وتناهض بغداد عاصمة العباسيين دفعت بامراء البيت الحاكم وخلفائه الى دعوة نوابه الادباء والشعراء والموسيقيين الذين كانوا ينتمون الى امهات المدارس العلمية والأدبية والفنية في المشرق العربي، والى ان يفسحوا لهم بين كبار رجال البلاط .

الواقع ان قرطبة مدينة الانـدلس الجميلة لم تتأخـر كثيراً عن تـأدية دور دمشق في الحياة السياسية والاجتماعية وعن اللحاق ببغداد فأصبحت في عهد عبد الرحمن الناصر من اكبر مراكز الازدهار الفكري والحضاري، لا في اوروبا وحسب ، بل في العالم جميعاً ، لها جامعتها ومدارسها الكبيرة ولها اعـلامها العظام في العلم والفن والأدب والغناء والموسيقى .

في عهد عبد الرحمن الثاني وفي احدى ليالي سنة مائتين وست للهجرة، ثمانمائة واحدى وعشرين للميلاد حط في قـرطبة زريـاب الطائـر الغرد ، ابـو الحسن علي بن نافع فقدر له بعد ان انشأ مدرستـه الموسيقية ان يأتي على كل البذور الفنية والغنائية التي خلفها في الاندلس علون وزرقون والقيان الشهيرات فضل ، وعلم ، وقلم .

غنّى زرياب هارون الرشيد بعد ان حط على ضفاف دجلة من بلاد فارس وحـذق الغناء والمـوسيقى على يد اسحق بن ابـراهيم الموصلي رائـد الغنـاء العربي ، غناء عذباً مزيجاً من الغناء العربي جميعاً بعد ان ربط بين الالحان في دقة فتمازجت في فن وصنعة .

كان زرياب طلعة في اللحن والغناء والموسيقى اقام في الاندلس مدرسة فنية جعل لها قواعد ومناهج خاصة بها وكانت له اساليب يختبر بها هواة الفن والغناء وكثيراً ما اختبر المطبوع الصوت من غير المطبوع باساليب خاصة به لم تكن معروفة قبل عهده ، وعن هـذه المدرسـة تخرج اسـاطين الغناء العـربي بالاندلس على يد معلمهم الاكبر علي بن نافع .

الى جانب هذه الاصول اضاف زرياب الى العود وتراً خامساً وكان الى ايامه اربعة اوتار تقابل الطبائع البشرية الاربع عرف بالوتر الـدموي الأحمـر ، كما اخترع مضراب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مرهف الخشب فابدع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع .

هذا وبالرغم من تشدد رجال الدين ونظرتهم الى الموسيقى نظرة سخرية

واستهزاء ، وبينا كان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها امراً محطاً لا يليق إلا بالموالي والاماء ، ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني او المغنية او النادبة، ولم يسمحوا ببيع كتب الموسيقى والاناشيد علنا ، فان سوق الفن نفقت في الاندلس بالرغم من ذلك كله .

هذا الازدهار الموسيقي والغناء في الاندلس يفسر لنا عوامل نشأة لون جديد من الشعر كان الاندلس السباق اليه دون سائر الدنيا العربية قاطبة .

فالزجل والموشحة هما في واقع الأمر فن شعري واحد ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما ، اذ لا بد ان يكون في اللغة الدارجة ، اما الموشحة فلا تكون الا في العربية الفصحى وكلا الفنين كانا حاجة ماسة للغناء والموسيقى في الاندلس فبينما نجد ان الزجل كان يغنى به في الطرقات فالموشحات لا تغنى الا في اجواء خاصة وفي ظل القصور .

الثابت ان الغناء العربي في الاندلس لم يقتصر تأثيره من الناحية الأدبية على نشأة هذا الطراز الشعري الجديد فالمستشرق الاسباني خوليان ريبيرا : (يرجع الى الزجل والموشح السر في تكوين القوالب التي صبت فيها الطرز الشعرية في العالم المتحضر اثناء العصر الوسيط كما ثبت انتقال بحور الشعر الاندلسي الى جانب الموسيقى العربية الى اوروبا عن الطريق التي انتقل بها الكثير من علوم القدماء وفنونهم، لا ندري كيف من بلاد الاغريق الى روما ومن روما الى بيزنطة ومن هذه الى فارس وبغداد والاندلس ومن ثم الى بقية اوروبا) .

المقرر انه لم تنتقل الى اوروبا انغام الموسيقى وحدها بل صاحبتها الاغنيات التي تغنى بها وكان من الطبيعي ان يكون لها آثار من الطُرز الشعرية التي وجدت هناك .

الواقع ان الغناء العربي والموسيقى الاندلسية استوطنت الشمال الافريقي بعد انهيار الاندلس الاسلامي بسقوط غرناطة سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة، الف واربعمائة واثنتين وتسعين للميلاد. فمنذ القرن الرابع

للهجرة، العاشر للميلاد وبعد احتلال فرنندو الثالث لقرطبة هاجر خمسون الفاً من عرب الاندلس الى تلمسان وعند سقـوط اشبيلية وقعت هجـرة اخرى الى غرناطة وتونس وعندما احتل دي اراغون بلنسية بلغ عدد المهاجرين الى غرناطة وفاس مائتي الفاً .

هذه الهجرات الى الشمال الافريقي ادت الى نشوء بعض الاختلافـات في الاسلوب الموسيقي، ونشأت عن ذلك مدارس مختلفة او طرق مـوسيقية ، فالمدرسة التونسية واصلها اشبيلي والمـدرسة الجـزائريـة واصلها غـرناطي ، والمدرسة المغربية وهي مزيج من المدرستين البلنسية والغرناطية .

ان تعاقب القرون على هذه الموسيقى ابعدها عن جوهرها الحقيقي، ان في المـوشحات، او الازجـال لأن اللهجة الانـدلسيـة التي بهـا نـظمت تلك المقطعات او القصائد لم تكن مفهومة الا بين المهاجرين الاندلسيين وبالاخص بين الاجيال الأولى منهم ولذلك اخذت ازجـال وموشحـات بلهجات مغـربية تحتل في اللحن محل الازجال الاندلسية كما ان موسيقى هذه الالحـان التي كانت تنقل بالسماع من جيل الى جيل فقدت اثرها مع الزمان ايضاً وترك الامر للموسيقيين يتناقلونها بالسماع وهم في معظم الحالات يجهلون قواعدها الفنية الأصيلة .

وبعد ومهما يكن من امر هذا الغناء الاندلسـي وموسيقاه فليس من شك في ان الغناء العربي في شبه جزيـرة ايبريـا اثّر في الشعـر العربي وكـان نقطة تحول في توزيع الوزن العربي واوزان الشعر الأوروبي اطلاقاً بعد ان كان بدعاً بين الغناء جميعاً شعراً ولحناً وموسيقى .

□□□

أوائل كتب الطبقات
في الأندلس

كان الأندلس العربي حريصاً على وضع كتب الطبقات والمراجع لأصول البحث العلمي ، تلك الأصولُ وان لم تعرف اساليبَ العلم الحديثة ، فهي ولا شك الركيزةُ الأولى التي قامت عليها دراسةُ الآداب ، والعلومِ والتاريخِ ، بل والحضارةِ في هاتيك الأرض ، التي جمعت الى اعتدال اقليمِها كلَّ مقوّمات الحياةِ الفكرية ، واصولِ بحثها المركزة وفق مراجع ومصادرَ مقررة .

لقد كثرت عنايةُ الاندلسيين بتصنيف معاجمِ الأعلام ، وفهارسِ الكتب . هذا التصنيفُ الذي لا يكونُ الا بعدَ ان تستكملَ الثقافةُ حقيقةَ وجودِها وتصبحَ امراً حتمياً ، ومنهجاً مقرراً في حياة الأمم والشعوب .

في ضوء هذه الحقيقةِ كان الأندلسُ بحكم واقعه الحضاري ، ومركزه العلمي مدعواً لتنظيم اصول البحث والدراسات الفكرية فيه ، بعد ان عمت الثقافةُ ارجاءه ، وانتشرت المعارفُ بين ابنائه واتسعت آفاقُها حتى مست الضرورة الى وضع المعاجم لطوائف الرجال النوابغ ، ولفروع العلم وابوابه المختلفة .

ان البحث العلمي الحديث ، والدراساتِ الأدبية التي يقومُ بها المستشرقون والأدباء تجدُ في كتب الطبقات خيرَ معينٍ على رسم الخطوط الكبرى لهاتيك النهضة الفكرية التي بهرت اوروبا والعالم ، والتي اخذت

تكون مدعاةً لاهتمام النقاد والعلماء في هذا العصر الحديث .

الدارسُ للحياة العربية في الأندلس يجدُ نفسَه امام مجموعةٍ كبـرى من الفهـارس ومعاجم الأعلام، ككتاب الفقهاء لابن عبد البـر ، ومعجمِ اعلام القضاة للخشني ، هذه المعاجم التي صنفت بعد حركةٍ واسعةٍ كانت ترمي الى وضع فهارسَ لكـل لون ، وكـلِّ فن ، وكلِّ طبقـة من الوان وفنـون الحياة في الأندلس وطبقاتِ الرجال فيه . ومن الخيرِ قبلَ ان نقدمَ على دراسةِ هذا اللونِ الجديدِ من المصادر ان نشيرَ إلى ان الشرقَ العربي كان قد سبقَ الاندلسَ الى الاهتمامِ بهذا النوعِ من التأليف كما ان باستطاعة الباحثِ ان يقرِّر بدءَ تاريخِ هذا التصنيفِ في الشرق العربي ، ومدى اهتمامِ الكتّاب والمؤلفين به ، ذلـك لأن اكثرَ الموضوعات التي عالجها كتّابُ الشرق وان كانت نتيجةً حتمية لتطور الحياةِ الأدبيةِ والفكريةِ فيه دون معرفةِ الحاجةِ الماسة اليه . فقد دُرست وقررت اصولُها ومناهِجُها . فالتدوينُ والنثرُ الفني ، والنقدُ ، وعلم التأريخ وغيرُها من الموضوعات التي مارسها المتفوقون بحكم تطور الحيـاة الفكريـةِ دون تقديـرِ النتـائج التي يتـرتب عليها مثـلُ هذه الابحـاثِ بالنسبـة الى مستقبـل الثقـافـة العربية ، قد اصبحت من الموضوعات العلمية المنهجية .

ولعل من اهم المصادر العربية التي تـوضحُ سبـلَ الكتّاب والمؤلفين ، وتحدد غاياتِهم واهدافَهم ، والتي يمكنُ الرجوعُ اليها هي رسالةُ عبد الحميد الكـاتب الى الكتّـاب التي يـوصيهم فيهـا بـطائفـة من الـوصـايـا الأخـلاقيـة والمسلكيـة ، والتي تشيرُ الى الغـايات الكبـرى التي تدفـعُ بهـذه النخبـة من المفكرين إلى تصنيف ابحاثِهم وتشعب موضوعاتِها فيقول لهم : « فتنافسوا يا معشرَ الكتّاب صنوفَ الآدابِ ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض، ثم العربيةَ فإنها ثِقَافُ السنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حِليةُ كُتُبِكُم ، وارْووا الأشعار ، واعْرِفـوا غريبَهـا ومعانِيَهـا وايامَ العـرب والعجم ، واحاديثَها وسيَرَها ، فإن ذلك معينٌ لكم ما تسموا اليه هِمَمُكم » .

من هذه الوصية التي سجلها عبدُ الحميد الكـاتب قبيل منتصف القـرن

الثاني للهجرة، الثامن للميلاد تظهرُ حاجة الحياة الفكرية الماسة الى ضرورةِ تدوين ايامِ العرب والعجم والى تصنيف احاديثهم وسِيَر اعلامهم .

ولم يكد يُطِلُّ القرنُ السادس للهجرة، الثاني عشرَ للميلاد حتى كان هذا النوعُ من كتب المراجع قد استكمل كثيراً من اصول البحث العلمي ، وكان نفرٌ كبير من الكتّاب كالفتح بن خاقان صاحب « قلائد العقيان » و « المطمح » ، وابن بسام صاحبُ « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » والحظري البغدادي صاحب « الزينة » والعماد الكاتب الاصفهاني صاحب « خريدة القصر وجريدة اهل العصر » ، وآخرين من هذه الطبقة مشارقةً ومغاربة ، عنُوا بتصنيف الكتب في طبقات شعراء عصورهم وما اليها ، وهو امر يدلُّ على جسامة تلك النهضات الأدبية .

من الملاحِظ ان اساليبَ المشارقَةِ والمغاربة في معالجةِ هذه الموضوعات لم تكن واحدة ، فالمشارقةُ كالثعالبي ، والباخرزي ، والحظيري ، والعماد الأصبهاني كانوا الى الاحاطة والاستيعاب في مناهجهم ، فلم يَقْصُروا كتبَهم على طبقة في اقليم معين ، فالثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » قد افرد باباً ذكر فيه جمهرةً من مشاهير شعراء المغرب والاندلس وكُتُبِها وحذا العماد الاصفهاني حذو الثعالبي او زاد عليه ، فافرد قسماً ضخماً لشعراء الأندلس وصقلية والقيروان والمغرب العربي .

هذا ، وإذا كان عبدُ الحميد الكاتب قد دعى الكُتَّابَ منذُ مطلعِ القرن الثاني للهجرة ، الثّامِنِ للميلاد ان يتجهوا نحو هذا النوعِ من التأليف ، وان لم يكنْ يَعْنيه على الشكلِ الذي عُرف فيه من بعد فإنَّ اولَ من كتب في هذه الموضوعات بالاندلس ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النَّميري ، مولى بني امية المتوفى في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد، وكانت باكورةُ مؤلفاته كتاباً عن فقهاء قرطبة ، اعتمد عليه في ما بعد ابنُ الفرضي في وضع كتابه القيم « تاريخ علماء الاندلس» . الى جانب مُؤلف ابن عبد البر يأتي كتاب « تاريخ قُضاة قرطبة » لأبي عبد الله محمد بن الحارث بن اسد

الخشني ، الـذي وضـعه عـلى اسـاس الحوليـات ، وذكر فيـه القضاة الـذين تمـرسوا بقضـاء قرطبـة من لَدُن الفتـح حتى سنة ثـلاثمـائـة وسبـع وخمسين للهجرة ، تسعمائةٍ وثمانٍ وستين للميلاد .

ان تاريخ قضاةِ قرطبة للخشني والذي ترجمه الى الاسبـانية ونشـره في مدريد سنة الف وتسعمائة واربع عشـرة المستشرق الاسبـاني خوليان ريبيرا ، قلت ان كتاب تاريخ قضاة قرطبة للخشني يضم من الفوائد ما يجعله من الزم واهم ما يُرْجَع اليه لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس من اول الفتح حتى عصر الحكم المستنصر .

هذا ويقول المستشرق ريبيرا : «بأن الخشني وضع كتابه وتحت يده وثائقُ على جانب كبير من الأهمية العلمية والتاريخية»، ويرجعُ بـأنه وضـع الكتاب بإيحاء من الحكم نفسه ، الذي سهل له الاطلاع على المصادر المحفوظة في ديوان الخلافة وسجلات القضاة والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . كما يرجح ريبيرا إلى ان الخشني قد اعتمد كتباً عفّى عليها الزمن ، وقد استفاد الى حد بعيد من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها ، واهم هذه الروايات ما كانت تحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات الكبيرة الحاكمة .

أما قيمة هذا الكتاب العلمية فيرى ريبيرا بأن الخشني ليس بالمسرف في الدقة ولا بالشديد التحفظ في نقده لمـا يورد من الأخبـار ، والحقيقة ان هـذا المأخذ الذي يراه المستشرق ريبيرا انما يَمَسُّ الكتاب بوجه خـاص في قسمه الأول لأنه يقص فيه احـداثاً وقعت في العصـور الأولى ، واخبارهـا يُحيط بها الغموض .

من الطبيعي ان يقع ابو عبد الله الخشني في بعض الأخطاء بالنسبة إلى اخبار القضاة الثلاثة الأول في قرطبة لأنه كان يعتمـد الروايـات المحلية ذات الصبغة الاقليمية، والـرجل غـريب عن البلاد الا ان الـذي يحمـد في كتـاب الخشني اننا لا نلمس فيه تدخلاً لقوى خارقة او لعواملَ غير طبيعية في مجرى الحوادث ، كما ان الرجل ابعدُ ما يكون من ان تسيطر عليه نوازعُ دينيةٌ، او ان

يكـون ذا عصبيةٍ سياسية، فلا تزلف ولا مـداهنةَ لأهـل الـدولـة في الكـتاب . والخشني مع احترامـه للحكم المستنصر لم يتـورع من ان يذكـر اخباراً تَشينُ البيتَ الأمويَ الحاكم .

ان اهميةَ هذا الكتابِ من الناحية العلمية والتارخية أنّـه يضعُنا في قلب قرطبة عاصمةِ الامارة وكرسيّ الخِلافة في ما بعد كما يقول ريبيرا. اما اخباره فموضوعة بقَالب من الواقعية لا يبلغُ تصويرَها كتّابٌ غيرُه . وهو وان يحدثنا عن امور تافهةٍ ويصور لنا مشاهدَ مبتذلة لا جلاَلَ فيها ولا رابطَ يربطُها الى غيـرِها فهي تطوي عنصراً فنياً مهماً يُعين على دراسة المظاهِـرِ الاجتماعيـة ، مما لا يذكره او يُعْنى به غيرُ هذا الكتاب . إلى جانب ذلك نجـدُ في الكتاب مادةً قيمة لدراسة نظام القضاء في الاندلس فهو من هذه الناحية يلقي ضوءاً على المسائل التي تتصلُ بتولية القضاة وعزلهم وعددهم وما كان يشترط فيهم من الصفاتِ العقلية والخلقية والكفاءات العلمية، ويعرفنا بأجناس القضاة عرباً او مولدين او بربراً ويحدثُنا عن كفاياتِهِم وموازينِهِم في اصدار الأحكامِ ، ويقدم لنا مادةً طيبة عن اجراءات التقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء . مـع المقارنـة بما كان عليه في غير الأندلس من البلاد العربية .

وكتابُ الخشني الذي يعتمدُ في سرد اخباره على الاسنادِ يُعْتَبَرُ في طليعة كتب الطبقات في الأندلس العربي التي قامت عليها تلك الدراساتُ الـواسعة في تاريخ الآداب والعلوم ، وفـي ضـوئها قـررت ميزاتُ حضـارةِ العرب في اندلسهم ؛ النبراسِ الذي ما زال يضيء بالرغم من العـاصفةِ التي أتت على الذبالة فأطفأت حرارتَها وابقت اشعاعهَا ابدياً سرمدياً بقاء الانسانية .

□□□

فن المقامة
في الأدب الأندلسي

من الثابت أن الثقافة العربية في الأندلس هي الامتداد الطبيعي للثقافة العربية عامة ، وانها ليس فيها ما يتميز عن حقيقة الأدب العربي إلا في بعض الموضوعات التي أبدعها الأندلسيون .

في الواقع عرف الأندلس العربي أدباء كثاراً قبل أن يعرف أدباً تنطوي عليه البيئة الأندلسية ، والأدب في هذا المضمار كعلم لا كيان له اطلاقاً ، وإذا كان النتاج الأدبي في الأندلس هو الذي دفع النقاد إلى دراسته وتقدير قيمته العلمية فلا شك أن أعلام الأندلس بابداعهم للأدب الإنشائي هم الذين أغروا النقد بدراسة نتاج الفكر الأندلسي .

هذا ، وإذا كان نقاد الأدب العربي في المشرق لم يجدوا في القرآن الكريم واللغة العربية اطلاقاً ، أصلاً لكلمة أدب ، وذهب بهم الظن إلى أن هذه الكلمة قد دخلت اللغة العربية من إحدى اللغات القحطانية المنقرضة ، واستدلوا بالحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي » دليلاً على ورود هذه الكلمة في المصادر الأولى ، وحددوا لها معان تتوافق ومدلولها بالنسبة الى الأعصر الأدبية .

قلت إذا كان نقاد الأدب العربي في المشرق قد حددوا لكلمة أدب عدة معان ، فنقاد الأدب الأندلسي وافقوا المشارقة في تحديدهم لهذه الكلمة ويقول

المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيا أن العرب أطلقوا لفظة أدب على المعارف التي من شأنها أن ترفع مستوى الثقافة الذهنية ، وتؤدي إلى تحسين سلوك الناس في اجتماعهم بعضهم الى بعض .

الحقيقة أن النقاد العرب جعلوا المكان الأول بين هـذه المعارف لفقه اللغة العربية ، والشعر وشروحه ، وتاريخ العـرب وأيامهم ، ونـراهم يدخلون في مفهوم الأدب في بعض الأحيان لطائف الذهن والألعاب ، وفنون التسلية ، وينظمون في سلكه المعارف التجريبية = في أحيان أخرى = تمشياً مع ما ذهب إليه ارسططاليس في تصنيفه للعلوم .

في ضـوء هذا الـواقع لتـطور مفهوم الأدب في شبـه الجـزيـرة ، تـأثـر الأندلسيون المشارقة في النثر تماماً كما تأثروهم في الشعر، وكان ظهـور النثر الفني في الأنـدلس متأخـراً أيضاً بـالنسبة لـظهـور الشعـر، وهكـذا كـان نثـر الأندلسيين على نهج أساليب الانشاء وألوان التعبير في المشرق العربي، الى جانب ما سلكـوا في تنظيم أداة الحكم من نـظام الديـوان، واستيزار الكتّاب والشعراء.

كـان النثر الفني في الأنـدلس واقعاً مستمـداً من حقيقة النثـر عامـة في الأدب العربي، فنبغ المغاربة بالترسل على أنواعه ، وأنشأوا الكتب المصنفـة في المعارف والعلوم والآداب، وبرعوا في الانشاء الخطابي على نحو يتـلاءم وطبيعة البلاد وبُعْدِها عن مواطن الثقافة الأصيلة في دمشق وبغداد.

مـر النثـر الفني في الأنـدلس في مـراحـل ثـلاث ، فكـان إلى التنميق والتزيين في عصوره الأول يجري مرسلاً مطبوعاً (لا يُلْتَزَمُ فيه سجع ولا يُتَكَلَّف فيه توشية ، وإنما هي البلاغة تقضي بعض الأحيان بأن يسجعوا ويوشـوا دون انتقاص في الطبع) ، ومن هنا كان النثر في الدور الأول اشبه شيء بنثر ابن المقفع والجاحظ وأمثالِهما من بلغاء الكتاب المطبوعين .

ثم صـار الترسـل إلى تكلف السجـع والتـزيين، وتقليب الجمـل على المعنى الواحد وهو أشبه شيء بترسل العباسيين في العصر الثالث والرابع .

ومـا آذن القرن السـادس للهجرة بـالأفول ، حتى غلبت الصنـاعةُ على الفن ، واتسعت دائرة التكلف، فإذا الانشاء في القرنين السابع والثامن عبارات مرصوفة ، وألفاظ مترادفة مملة ، وتلميحات تاريخية وبيانية لا حد لهـا ، وقد تناول الأدباء في ترسلهم ، الأخوانيات على أنواعها ، والمقامات بعد ظهورها في المشرق العربي.

عرف الأندلسيون مقامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري من أدباء القرن الخامس للهجـرة، الحادي عشـر للميلاد كفن من فنـون الأدب بعد أن انتشرت في العالم الاسلامـي يـومذاك ،وأعجبوا بها وقلدوهـا بالـرغم من أن بديع الزمان الهمـذاني من أدباء القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد كان قد سبق الحريري الى تأليف المقامات .

يـرجع العلمـاء والنقاد اطـلاع الأندلسيين على مقـامات الحـريري الى الاتصال القوي القائم يومئذ بين منابـر العلماء المبـرزين في المشرق ورجـال الفكر الأندلسيين، الى جانب الشهرة الـواسعة التي رافقت مقـامات أبي علي محمد قاسم بن الحريري .

نحن لا نحاول أن ندرس هنا أصل المقامات ونشأتها بقدر ما نحاول أن ندرس تاريخ من واكب الحريري في الأندلس العربي .

لقد وصلت مقامات الحريري إلى الأندلس ، وكان لها بين أدبائه صدى كبير فمضى نفر من أدباء البلاد بالنسج على منوالها ، فكان الفقيه ابن القصير ابو جعفر عبـد الرحمن بن أحمـد الأزدي من أدباء القـرن السادس للهجـرة ، الثاني عشر للميلاد ينشىء في ما يقول المستشرق الاسباني انخل كونثالث بالنثيـا مقامات في ما كتب من رسائل أدبية وخطب ومواعظ ، كما ألف أبو طاهر محمد ابن يوسف السرقسطي الاشترقوني مجموعة مقامات لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين .

إلى جانب هذين الأديبين وضع أبو طالب عقيل بن عطية المـراكشي ، تلميذ ابن بشكوال شرحاً على مقامات الحريري . فضـلاً عن أن أكبر شـراح

مقامات الحريري في العالم الاسلامي كان أندلسياً من شريش ، وهو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفي سنة ستماية وثمانية عشر للهجرة ، ألف ومايتين واثنتين وعشرين للميلاد ، وكان رجلاً واسع العلم يعد من بين شيوخ الأندلس الذين نبغ على يديه عدد من العلماء والأدباء .

يحدث العالم البلنسي أبو عبد الله بن الأبّار القضاعي صاحب الحلة السيراء فيؤكد أنه قد لقي الشريشي في مدينة بلنسيا ، وقرأ عليه جزءً من شرحه على المقامات ، وأجاز له رواية بقيتها ، وقد قيل أن له ثلاثة شروح لمقامات الحريري ، ولم يترك في كتاب من شروحه فائدة الا استخرجها ، ولا خريدة الا استدرجها فصار شرحه يغني عن كل شرح تقدمه ، ولا يحتاج إلى سواه في لفظ من ألفاظها .

لقد كان لشرح الشريشي لمقامات الحريري أهمية علمية كبرى ، حتى أن المستشرق سلفستر دي ساسي الذي عنى بدراسة مقامات الحريري وشرحها أفاد الى حد بعيد من الشعر الذي أورده الشريشي في شروحه ، مؤكداً أن العالم الأندلسي كان حريصاً على الدقة في كل ما أورده من نصوص .

لم يكتف الشريشي بما وضع على مقامات الحريري من شروح أدبية ، بل أضاف من علمه الواسع طائفة عظيمة من الموضوعات ذات الأهمية البالغة .

ان الدارس لأدب الأندلسيين في معناه المتطور يرى أن المشرق العربي كاد يطبع الأندلس في كل شيء ، في الشعر ، وفي الأدب ، وفي التاريخ ، وفي النقد كما طبع أعلامه الكبار بألقاب مشرقية فكانوا بما يصدر عنهم صورة لانعكاس الحضارة والفكر العربيين في المشرق على المغرب العربي والأندلس جميعاً ، وهكذا أطل الشرق بمفاتنه وحضارته ، بسحره ورقيه ، بأدبه وفلسفته ، بتطوره واشعاعه على مشارف أوروبا الغارقة يومئذ في دنياها ، والمتعطشة لنتاج الفكر العربي .

أصول الفلسفة
في الأندلس

عرف الشرقُ منذ عهدِ الاسكندر في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد الثقافةَ اليونانيةَ وما أن تقدم التاريخُ حتى كانت بلادُ مصرَ وسوريَا والعراق تقْبلُ علَى هذه الثقافةِ اليونانية وعلى مدارسِها المنبثةِ في أرجاءِ الشرق الأدنى جميعاً ، وتدرسُ الأدبَ والعلومَ والفلسفةَ اليونانية . وعندما قدّر للعرب كأمة أن يفتحوا هذه الأمصار صادفوا في طريقهم هذه المدارس التي كان لها أثرُها البارزُ في تلك الأقطار ، وكان لها إلى جانبِ ذلك طابعُها المؤثرُ المميزُ عن طابعِ الثقافةِ الأصيلةِ يومئذ في الشرق ، وهي الثقافةُ الفارسيةُ التي كانت تستمد علومَها وآدابها من ثقافاتِ الشرقِ ومن آدابِ الهند وثقافَتِه .

وبالرغم من كلِّ هذا ، فالثقافةُ اليونانيةُ قد وجدت أرضاً خِصْبَةً في بلادِ فارس ذاتِها يومَ انتشرت المسيحيةُ في عهدِ الأمبراطوريةِ الرومانيةِ وأصبحت الدينَ الرسمي ، وقدّر لها أن تُغْلِقَ المعابدَ الوثنية ، حتى أن العقل الفارسي قد تأثر إلى حد بعيد بهذه الثقافةِ اليونانيةِ التي رحلت الى الشرقِ على حد تأكيدِ بعضِ العلماء ، ونشرت فيه بذورَ علومِها الأصيلةِ وطرقَ نقاشِها العلمي وجدلِها المنطِقي الذي هو مظهرٌ من مظاهرِ علومِ الفلسفةِ التي أقامها اليونانيون كمدرسةٍ متجددة من مدارسِ الفكر القديم .

هذا وإذا كانت الفلسفةُ وهي في الأصل كلمةٌ يونانيةٌ مركبة من فيليا وتعني المحبة ، وصوفيا وتعني الحكمة ، وتأويلُها محبةَ الحكمةِ ، وهي التأنقُ

في المسائِلِ العلميةِ والتفَنن فيها ، وعلمُ الأشياء بمبادِئها وَعِلَلِها الأولى ، قد أخذت مدلولَها من اللغةِ اليونانية فلا شك في أن الثقافةَ بمعناها المطلقِ كانت تتوكأُ في جميع مظاهِرها على العقل اليوناني ، وعلى مادتِه الغزيـرةِ الخِصبة التي قُدّر لها أن تَنْتشرَ في الشرقِ وتظَلَ خلالَ تسعةِ قرونٍ مدارَ الحياةِ العلميةِ والأدبيةِ فيه . فالفلسفةُ في الماضي لم تكنْ مختلفةً عن العلم بـل كانت هي العلمُ الكلي حتى ان كلمة فلسفة كـانت تدلُّ عنـد الأولين على العلم بصورةٍ عامة ، فأرسطو نفسُه كان يستعمل هذا اللفظَ بصيغة الجمع للدلالة على العلوم الخاصةِ كالرياضياتِ وعلوم الطبيعةِ وغيرها ، ثم جاء شيشرون فعرّف الفلسفةَ بقوله : « هي معرفةُ الأشياء الالهيةِ والانسانية » أما في القرونِ الـوسطى فقـد كانت الفلسفةُ تشتملُ على العِلم الطبيعي وكانت الفنونُ السبعـةُ وهي قواعـدُ اللغةِ ، والبيانِ ، والجدلِ ، والموسيقى ، والحسابِ ، والهندسة، والفلك، تتفرع منها .

ولم تكن الفلسفـةُ في فجرِ العصـر الحاضـر عند بيكـون » وديكارت وغيرهما أقلَّ شمولاً مما كانت عليه عند الأولين فديكارت في كتابه « مبـادىءُ الفلسفة » يشبه الفلسفةَ بشجرةٍ جـذورُها علمُ مـا بعدَ الـطبيعة وجـذعُها علم الطبيعة وأغصانُها علم الميكانيك وعلم الطب ، وعلم الأخلاق . ولم يبق الأمرُ كـذلك في تحـديدِ الفلسفـةِ خـاصـةً بعـد أن أخـذت بعضَ العلومِ عنهـا ، فالرياضياتُ كالهندسة علم الحيل كلُّ منها قـد استقل عن الفلسفـة ، وبقيت العلومُ الأخرى طوالَ القرونِ الوسطى خاضعةً للفلسفة كما بقيت الفلسفةُ نفسُها خاضعةً للاهوت .

هذه الفلسفةُ عُرفت بذورُها في اسبانيا منذ فجر التاريـخ يومَ كـانت بلدَ ثقافةٍ وموطنَ علم وضع الفينيقيون أساسَه وزاد عليه اليونان والرومان ، ولعـل ذَلك ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه العربُ في اسبانيا ، على حداثة اتصالِهم بمنابعِ الثقافةِ القديمـةِ والوسيـطةِ في العالمين الاسلامي والمسيحي آنذاك . لقد عرفت اسبانيا مـظاهرَ للحيـاةِ الفلسفيةِ في دراساتِ أكبر شخصيات ذاك العصر مكاناً وأبقـاها أثـراً وهو القـديس ايزودور

الاشبيلي الذي لم يكن قوطياً ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمعَ في كتبه كلَّ ما انتهى اليه من علومِ اليونانِ والرومان مُعَدَّلَةً تعديلاً يتفق ومذهبه الديني ، وهو يعد من هذه الناحية من كبارِ الكتابِ والمفكرين المسيحيين بل من آباءِ الكنيسة ، وقد خص كتاباتِه بأصول الكلمات اذ وضع فيها كتاباً يعتبر موسوعةً أخلاقيةً تضمُ ثروةً عظيمةً من الأفكار اليونانيةِ والرومانيةِ وفلسفةِ المسيحيةِ الأولى ولقد عالج في الأجزاءِ الثلاثةِ الأولى من الكتابِ الفنونَ السبعة وهي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، عين العلومِ التي قامت عليها الفلسفةُ في القرون الوسطى ، والتي كانت تعرف بالعلم الطبيعي كما سبق واشرنا من قبل .

فاسبانيا من هنا كانت على صلة وثيقةٍ بالفلسفةِ وعلومِها قبل الفتح العربي للبلاد ، غير أن المسألةَ الفلسفية في اسبانيا العربية تلك التي لم تقرر في زحمة المجالس والمجامع ، والتي لم تكن أسطورةً فكانت كواقع الأدب العربي الأندلسي ، وليدِ الأدب المشرقي بدليل أن العالم الاسباني اسين بلاثيوس يؤكد « أن تاريخَ الفكر الفلسفي في اسبانيا العربية هو صورةٌ مطابقةٌ لما كانت عليه الثقافةُ الاسلاميةُ المشرقيةُ دونَ أن تكونَ له بالتراث المحلي صلةٌ حقيقيةٌ يقومُ عليها الدليل » ويرجع بلاثيوس رأيَه في ذلك الى ما ذكره صاعدُ الطليطلي وابنُ حزم القرطبي في كتبهما ، وأنَّ أحداً منهما لم يكنْ على صلةٍ بتاريخِ الفكر اللاتيني في الأندلس قبل الفتح العربي ، حتى أن أحدَهُما لم يكن ليعرفَ مجردَ اسميّ سِنيكا ، والقديس ايزودور الاشبيلي ، الآنفِ الذكر ومبدعِ الفلسفة المسيحية الأولى في تلك البلاد مع أنهما عرفا الشيءَ الطيبَ عن لاهوتيي المشرق العربي .

لم يكن رأي المستشرق ميكل بلاثيوس في تحديد أصول الفلسفة الاسلامية في اسبانيا العربية عبثاً فلقد أغفل فلاسفةُ العرب المتأخرون في اسبانيا كُلَّ شيء عن الفلسفة في اسبانيا قبل الفتح ، ولعلهم أرجعوا ذلك الى ما هو معروف من أقفار العصر القوطي من التفكيرِ الفلسفي أقفاراً يكادُ يكون تاماً ، فضلاً عن أن هبوط مستوى آدابِ المستعربين في الأندلس الى جانب

واقعِ الفاتحين من عربٍ وبربر وانصرافِهم الى حياتهم الاجتماعيةِ والاقتصادية وعزوفهم عن أيّ تفكير فلسفي، إذ لم يُحسوا بحاجة إليه وقد اكتفوْا بأن أخذوا عن أهل البلاد لغتَهم وقانونَهم الجاري بينهم وأطرافاً من أنظمتهم السياسيةِ والاداريةِ حالَ دونَ ظهورِ فيلسوف واحدٍ في الأندلس قبل القرنِ الثالثِ للهجرةِ، العاشرِ للميلاد .

كان حظُّ الأندلسيين من العلوم في بدء نشاطِهم ، الدراساتِ الفقهيةِ واللغوية ، ولقد قُضِيَ في عنفٍ على كلِّ الحركاتِ الأولى التي رمت الى التجديدِ والتشريعِ في ميدان الفقه خاصةً ذلك لأنه كان لها طابعٌ سياسي قومي فضلاً عن أنَّ فقهاءَ الأندلس من المذهب المالكي كانوا أشدَّ الناسِ كراهةً لكل حركةٍ ترمي الى التجديدِ ومخالفةً لما كانوا سائرين عليه ، وأيدتهم الدولةُ في ذلك فحرّمت على الناس كتبَ الفقهِ غيرِ المالكي وقضت بذلك على كلِّ محاولةٍ مؤديةٍ الى الفلسفة .

والحقيقة أن اسبانيا العربية لم تعرف الجدلَ وبعضَ العلوم الفلسفية الا بفضلِ ذلك النفرِ من علمائِها الذين أموا الشرقَ واتصلوا بمنابعِ الثقافة فيه بعدَ أن جلسوا الى حلقاتِ كبار شيوخ المذاهبِ المشهورة ، واغروْا علماءَ المشرق أن يفدوا الى الأندلس وأن يتكلموا بين أهلِه بآراءِ فرق الباطنية والخوارجِ والأباضية وغيرِها . حتى إذا كان القرنُ الثالثُ للهجرةِ كانت علومُ الرياضةِ والطب والفلك والتي هي من الفنونِ السبعة التي قامت عليها الفلسفة تتقدم في بطءٍ شديد جداً حتى ان المستشرق بلاثيوس خَلُصَ الى القول: إنَّ الفلسفة لم تدخل الأندلسَ صريحةً ظاهرةً بوجه مسفرٍ وإنما وفدت عليه في صُحبة العلوم التطبيقية ، أو تسربت اليه متسترةً في ثنايا بدعِ الاعتزال وبعضِ مذاهب الباطنية ، كما اجتهدَ أصحابُ هذه المذاهب في النَّجاةِ بأنفسهم من تعقب الفقهاءِ وأهلِ الدولة بالظهورِ في مظهر التدين والنسك .

لقد كان أمرُ هذا النسكِ والدعوةِ اليه بعدَ القرنِ الثاني للهجرة، الثامن للميلاد مَدْعاة لانطلاق أصحاب هذه الفكرات عن عُزلتهم ودعوةِ الناسِ الى

سلوكِ طريقهم حتى أصبحَ لهم مريدون واتباعٌ ، وأخذت حياةُ الزهدِ وحلقاتُ النساكِ تظهرُ في الأندلس ، وفي هذه المواضعَ جرت عادةُ الناس بالخلط بين الفلسفةِ وعلومِ الغيب الى جانبِ ما كانوا منصرفين اليه من تعبدٍ وتدارس لشؤون الدين .

والواقع أن الأندلس العربي لم يعرف مفكراً أصيلاً الا بشخص محمدٍ بنِ عبد الله بن مسرّة الذي كان يستر آراءَه وراء نسكِه وزهادتِه ،وكان أبوه عبدُ الله يهوى آراء المعتزلة وكان صديقاً لخليلِ بنِ عبد الملك المعروف بخليل الغفلة الذي سار على نهج آراء ابراهيم النظّام من كبار مؤسسي المعتزلة بعد أن حمل آراءها الى الأندلس طبيبٌ قرطبي .

في ضوء هذه الحقائِق العلميةِ نستطيعُ أن نؤكد بأن الأندلسَ العربي البلدَ الشامخ في كثيرٍ من مجالاتِ الفكرِ لم يعرف الفلسفة « كمحبة للحكمة » الا في أواخرِ القرنِ العاشرِ للميلاد وعلى يد عالمٍ جديد أقام مدرسةً فكريةً حديثةً على غِرار المدرسةِ الأفلاطونية الحديثة هو محمد بنُ عبدِ الله بنُ مسرة رائدُ الفلسفةِ الاسلامية في الأندلس العربي .

لقد مهد عبدُ الله بنُ مسرة رائدُ الفلسفة الاسلامية في الأندلس الذي لَزِم معتَزَله في جبلِ قرطبة حيثُ اتخذَ لنفسه دويْرةً ، وأخذ يقرأُ دروسَه ويعرض للمسائِل العويصة بطريقة بارعة وتعبيرٍ بليغ ، ويبدو لمن يتعمقُ في ذلك العلم كأن ابن مسرَّة يتكلمُ برأي أهلِ السنة في حين أنه كان يفتح بكلامِه مغاليقَ الأسرارِ لطلبته ، وينتهي بأن يعلمهم كتبه التي ألفها .

لقد خلَّف ابنُ مسرَّة كثيراً من الكتب لم يصل الينا منها الا اسم اثنين هما: «كتاب التبصرة» « وكتاب الحروف » ، ويبدو أن الناسَ الذين عرفوا كتبَه ثارت مشاعِرَهم ضدَّها ، وسرعان ما انتشرت هذه الكتبُ وانتقلت الى غيرِ قرطبة من المواضعِ حتى أنها وصلت المشرقَ وأنكرها نفرٌ من علماءِ الجماعة المتمسكين بالمأثور .

إن مذهبَ ابن مسرة العالم الأندلسي الذي توفي في قرطبة سنة ثلاثمائة

وتسع عشرة للهجرة ، تسعمائة وواحدة وثلاثين للميلاد ، وشيع الى قبره باحترام من خصومه وإجلال من اتباعه قدَّم لنا فيه الأستاذ ميكل بلاثيوس دراسةً قيمةً مستمدة من مذهبه الفلسفي والديني الذي نلمح أثراً له في الكتبِ الأندلسية أمثالِ كتبِ ابن حزم القرطبي ، وصاعد الطليطلي ، والشهرستاني ، وابن أصيبعة والقفطي .

سيظل ابنُ مسرة الأندلسي محورَ الفلسفة الاسلامية في الأندلس العربي ، ما دام الأندلس موطناً خِصباً من مواطنِ الحضارة الانسانيةِ والثقافةِ العربية الأصلية .

□□□

العنصر الاسلامي
في الكوميديا الالهية

تعتبر الكوميديا الالهية La Divina Comedia ، أو الالعوبة الالهية ، أعظم أثر أدبي خلفه شاعر ايطاليا الكبير دانتي اللجييري ، بعد رحلة ماورائية ممتعة قصد بها السماء والجحيم وما بينهما .

لقد كانت انطلاقة الشاعر الخلّاقة المبدعة بعد حلم عميق وبرفقة بياتريس المرأة التي أحب ، والتي طافت به في تلك الأجواء السماوية فعاد من عوالمه ، وهو ما زال على الأرض ليكتب للناس ملحمته التي خلقته شاعراً وأديباً وفيلسوفاً خالداً .

إن فكرة الألعوبة الالهية لشاعر فلورنسا لم تكن جديدة بالنسبة الى الفكر العالمي يومئذ ، فمن المؤكد أن الأدب العربي قد حفل بمثل هذه الرحلة الماورائية التي أبدع حقيقتها الخيال العربي وبرّز في تصويرها وعرضها وإخراجها حتى كانت حدثاً أدبياً عالمياً وصل به الأدب العربي الى مصاف الآداب العالمية الخالدة .

قلت ان فكرة الألعوبة الالهية لدانتي شاعر فلورنسا لم تكن ابداعية مطلقة في كل معطياتها ومقوّماتها بالرغم ممّا ذهب اليه أنصار الشاعر وأتباعه .

في النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي أطلّ على الدنيا الشاعر الإيطالي بعد أن أفل عنها أبو عامر بن شُهيد، ومحي الدين بن عربي ، وأبو

العلاء المعري ، وكلهم كان قد ألقى عصاه في العالم الماورائي ، وحاول أن يقدم صورة لقوة خياله ، وسعة اطلاعه ودقة نقده .

لقد أضحى من الثابت أن فكرة هذه الرحلة الماورائية عند دانتي الايطالي ، وملتون الانكليزي ، وفي شطحات ابن عربي ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد ، ورسالة الغفران لأبي العلاء اتكأت على معجزة الاسراء التي حيكت حولها قصة معراج النبي ﷺ إلى السماء .

لا شك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي دفعت ابن عربي الى شطحاته ، واعتمدها خيال ابن شُهيد والمعري في رسالتيهما .

الى جانب هذه الحقيقة تؤكّد المصادر العلمية أن الفونسو العاشر العالم كان قد أمر بترجمة معراج النبي من العربية الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية ، هذه الترجمة التي ظهرت من جديد في مدريد سنة ألف وتسعمائة وتسع وأربعين ، وقد عنى بها خوسه مونيوس سنديو .

هذا ومهما يكن من أمر هذه الترجمة التي أمر بها ملك اسبانيا الفونسو العاشر ، الذي قدّر له أن يرعى مدرسة الترجمة في طليطلة ويأمر بترجمة القرآن الكريم الى اللاتينية والاسبانية ، قلت مهما يكن من أمر هذه الترجمة فسياق الالعوبة الالهية متناسقة منسجمة مع فكرات وعرض المعراج الاسلامي .

إن العالم الاسباني الدون ميكل أسين بلاثيوس يؤكد في كتابه : «الأصول الاسلامية للألعوبة الالهية » الذي نشره في مدريد سنة ألف وتسعمائة وتسع عشرة ، يؤكّد أننا واجدون في الأدب الاسلامي مفتاح جانب كبير ممّا استطاع الناس ، وما لم يستطيعوا تفسيره من المسائل المتعلقة «بالكوميديا الالهية» .

لا غرو أن العالم الاسباني الدون ميكل أسين بلاثيوس ، يريد أن يثبّت أن الأصل الاسلامي الذي يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة الكوميديا الالهية هو اسراء الله برسوله ﷺ الى المسجد الأقصى وعروجه به الى السماء . « سبحان

الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

من هذه المعجزة بالذات صاغت أخيلة الكتّاب والشعراء أساطير ذاعت بين جماهير الناس ذيوعاً واسعاً ابتداء من القرن التاسع للميلاد ، ثم زاد عليها أهل الدين والتصوّف والأدب من العرب ، وأضفوا عليها ثوباً شاعرياً في ما تلا ذلك من العصور . فالنبي العربي الذي حكى قصة اسرائه ، هو الذي أوحى لدانتي أن يبدع رحلته الماورائية ، فيقص بلفظه بعد أن يتوكأ على العنصر العربي ما وقع له وما رغب في تدوينه في رحلته الأسطورية .

إن الاسراء الاسلامي والألعوبة الالهية مع الفارق بينهما تبدآن في أعقاب حلم عميق .

والذي يقرأ أساطير المعراج الاسلامية يجد أن ذئباً وأسداً يقطعان طريق الخروج من النار على المسرى به الى السماء ، ويقابل ذلك ما يحكيه دانتي من أنه وجد فهدة وذئباً وذئبة على مخرج جهنم تحول بينه وبين الدخول ، كما نجد أن هذا المسرى به يلقي الخيتعور شاعر الجن في حديقة كثيفة الشجر بين السماء والنار وتعرف هذه الحديقة بأنها مقام الجن ، تماماً كما يقود فرجيل الشاعر القديم دانتي الى بستان الليمبو مقام الأبطال والعباقرة من أهل الأعصر القديمة .

ليس من شك أن حديثاً مقتضباً كهذا لا يقوى أن يقارن بين هذه الرحلات الماورائية التي أبدعها الشعراء أمثال ابن شُهيد ، والمعري ، ودانتي وملتون وبين العنصر الأساسي لها وهو المعراج .

إن المعري صاحب رسالة الغفران لا يبتعد عن هذه الصورة فرسالته التي لا تذكر بستاناً ملتف الشجر بل « مدائن ليست كمدائن الجن ، ولا عليها النور الشعشاني ، وهي ذات أوحال وغماميل ، فيقول لبعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ فيقول : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذكروا في سورة الاحقاف وهم عدد كثير . ثم يقول بعد قليل ما اسمك أيها الشيخ ؟

فيقول أنا الخيتعور أحد بني الشيطان ، ولسنا من ولد ابليس ، ولكنّا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم عليه السلام » .

هـذه الفكرات الـواحدة التي تـرد في الكوميـديا الالهيـة ، وفي رسالـة الغفران ، ولها نص صريح في أساطير المعراج ليست هي مجرّد أفكار عابـرة تواردت عند هذه النخبة من أعلام الشعر والأدب .

قلت قـد يعجز هـذا الحديث أن يمـرّ بكـل الفكـرات الأسـاسيـة ذات الموضوع الواحد في كـل من الألعوبـة الالهية ، والفـردوس المفقود ورسـالة الغفران وأساطير المعراج الاسلامية من جهة أخرى .

انا نجزم أن الأناشيد الجميلة ، كلّ الأناشيد الحلوة التي خلّدت شاعر فلورنسا كعبقري ومزجت الشعر بصور ابداعيـة والتي لن تقوى التـرجمة على تجسيد معانيها هي . . . هي المقاطع والتصاوير ، والحقائق في كل ما ورد في الأسطورة العربية التي استمدّت حياتها وحقيقتها والصور الرهيبة المخيفة تارة ، والهادئة المغرية تارة أخرى من سور الأعراف ، وقٓ ، ومحمد وغيرها .

ليس من شك في أن الحقيقة العلمية تجزم أيضاً أن فكرة الانتقال الى ما وراء هذا العالم ليست هي من اختراع المعري ، أو دانتي ، إنّما هي في ضمير الانسـانية منـذ أعماق التـاريخ . لقـد كان هـذا التطلع المـاورائي في يقـظة الحس ، ووعي الفكر نتيجة حتمية لنموّ ضمير الانسان ، فشعوره بالقوة الالهية على النحو الذي اهتدى فيه الى معنى الألـوهية هـو الذي أوحى اليـه أن هذا العالم الأرضي إنّما هو قنطرة يعبر عليها الانسان الى العالم الآخر.

لقد كانت فكرة المصير بعـد الموت . . . وفكـرة الحساب على الخيـر والشر ينبوعين خصبين لتغذية خيال الفكر البشري منذ أقدم الأزمنة ، وهذا ما نـراه في تاريـخ مصر القـديمة ، وتـاريخ البـابليين ، والكلدانيين ، والديـانة الزردشتية ، والبوذية الهندية ، والأساطير الاغريقية من تصوير للعالم الثاني .

هذا فضلاً عن أن الكتب السماوية في الأديان الثلاثة الكبرى اليهودية ،

والنصرانية والاسلامية لم تخل من ذكر العالم الآخر وتصويره .

لا غرو أن دانتي الجبيري الذي أطلّ على العالم وقد سبق لشعراء العربية واعلامها أن رسموا له الطريق الى الجنة والنار وما بينهما وهم بدورهم قد أطلّوا من نافذة المعراج ، والكتب السماوية ، وفكرات العالم القديم على هذا العالم الماورائي ، قلت إن دانتي شاعر فلورنسا قد توكأ على العنصر العربي في رحلته يوم قرأ : La Escala de Mahoma

أي «معراج محمد» التي ترجمت قبل عهده وبأمر من الفونسو العاشر الى الاسبانية واللاتينية ، والفرنسية .

إن رحلة دانتي الماورائية كانت كما يقول أتباعه رحلة دينية اقتبس حقيقتها من بعض مفكري ديانته السابقين عليه في الزمن ، أمّا في ما لم يجدوا له أصلاً عندهم فقد نسبوه الى عبقرية دانتي وخياله المبدع . غير أن الحقيقة تؤكد أن شاعر فلورنسا من هناك من بلاده كان يتلمس طريق الصحراء على كثبان الرمال المترامية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، حيث على مدى عروج النبي محمد ﷺ الى السماء من بيت المقدس كما يقول كعب الأحبار أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس .

بلى من هناك استمدّ شاعر فلورنسا فكرة الكوميديا الالهية التي خلّدته كعبقري انساني خالد .

□□□

مدرسة طليطلة وأثرها في خدمة الفكر الغربي

عرف الاسبان منذ القرن السابع للهجرة، الثالث عشر للميلاد بوادر خيرة في نقل علوم العرب وآدابهم الى اللغتين الاسبانية واللاتينية ، وقد اعان على ذلك رغبة الفونسو العاشر الذي قدر له ان يرعى هذه الحركة ويشرف عليها .

فقد أذن للأمير الاسباني وقبل ان يتسلم عرش قشطالة أن يأمر بترجمة كتاب كليلة ودمنة، وهو مجموعة من الحكايات الخرافية الهندية التي جمعها برزويه طبيب انو شروان او كسرى الأول ملك فارس والذي نقله الى العربية سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) ، عبد الله بن المقفع .

يجمع كل « مؤرخي الأدب الاسباني وفي طليعتهم مندذ أي بلايو ان ترجمة كتاب كليلة ودمنة وكتابيّ «السندباد» و«برلعام ويواصف» كان لها اكبر الأثر في دخول عنصر القصص الشرقي الى اوروبا .

الحقيقة ان كتاب كليلة ودمنة شق طريقه بفضل مادته واسلوبه وموضوعاته التي جاءت جديدة بالنسبة الى آداب الأمم، قلت إن «كتاب كليلة ودمنة نقل من العربية الى السريانية واليونانية والعبرية والاسبانية ، ثم نقل على يد يوحنا دكايوا من العبرية إلى اللاتينية بعد ان اسماه « مرشد الحياة الانسانية » وهكذا لعب الكتاب دوراً حاسماً في تصوير العقلية الشرقية واساطيرها ومبلغ حنكته ومرونتها ، الى اوروبا التي وجدت فيه معيناً لا ينضب من الأسطورة ، والعلم والثقافة .

ان الثقافة الاسبانية خاصة والثقافة الأوروبية عامة مدينة للملك الاسباني العالم الفونسو العاشر الذي قدر مسؤوليته امام التاريخ وقد رأى على مقربة من مملكته وفي وسط شبه جزيرة ايبيريا النهضة الثقافية والفنية والعمرانية التي اقامها العرب في الأندلس المتحضر فأنشأ في مرسية معهداً للدراسات بإشراف الرقوطي الفيلسوف العربي ، وبالرغم من الجهود التي بذلها الملك الاسباني العالم لإنجاح المعهد فقد ظلت إمكانات انطلاقه محدودة الأثر في نقل آثار الفكر العربي الى اللغة الاسبانية .

مع كل هذه النتائج التي وصل إليها معهد مرسية فقد اصر الفونسو العاشر على نقل المعهد الى اشبيلية كما انشأ فيها مدرسة للبحوث والترجمات الى جانب مدرسة عامة للاتينية والعربية جعل فيها اساتذة كباراً من العرب لتدريس الطب والعلوم والمعارف الانسانية ، بينما ظلت طليطلة المدينة الحالمة على قمة الجبل المسورة بنهر تاجه مركزاً للثقافة الاسبانية .

لا شك ان العالم الاسباني الملك وفق في كل الخطوات التي رسمها لتطعيم الفكر الاسباني بنتاج الفكر العربي خاصة والشرقي عامة عندما التف حوله عدد غير قليل من العلماء النصارى والمسلمين واليهود المتحققين بشتى العلوم ، وقد ادوا خدمات جليلة عندما اشرف الفونسو العاشر بنفسه على توجيه اعمال الترجمة ، والتحرير والتلخيص التي كان مساعدوه يقومون بها .

أمر الفونسو العاشر وفي مدرسة طليطلة بترجمة الانجيل المقدس الى اللغة الاسبانية كما امر بنقل القرآن الكريم اليها ، بعد ان قدر لبدرو الجليل في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد نقله الى اللاتينية .

لم تقف جهود العالم الاسباني الملك الفونسو العاشر عند نقل هذين الكتابين فقد امر بترجمة التلمود « والقبّالة » وبأمره كما اشرت ونقل كتاب كليلة ودمنة .

هذا ويشير النقاد الاسبان وفي طليعتهم المستشرق انخل كونثالث بالنثيا إلى ان لألفونسو العالم يداً في ما أمر به أخوه الدوك فادريك من ترجمة قصة

السندباد ، الكتاب الهندي الأصل الى اللغة الاسبانية .

يبدو ان اوروبا عرفت كتاب السندباد عن طريقين ، الأول غربية وهي :

انه قدر لأوروبا ان تعرف عن هذه الطريق جزءاً من اقاصيص السندباد وقد اسماها دومينيكو كومباريتي بالمجموعة الغربية ، ومن المرجح انها وصلت الى الغرب عن طريق ترجمة يونانية نقلت من السريانية ، وهذه في الأصل عن العربية وهي التي عرفت في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي باسم SINTIPAS .

أما الطريق الثانية فهي شرقية الأصول اذ ترجمت مجموعة اخرى من حكايات الكتاب الى اللغات الأوروبية عن اصول فهلوية وفارسية وعربية واسبانية ، ومن المؤسف ان كل هذه الأصول قد فقدت ما عدا الأصل الاسباني ، ومن هنا يعتبر هذا الأخير اقرب الترجمات الى الأصل .

الواقع ان الدوق فادريك شقيق الملك الفونسو العالم وبإيعاز منه نقلت هذه القصة من العربية الى الاسبانية وقد انجزت ترجمتها سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين للميلاد بعد ان أسماها « مكايد النساء وحيلهن » كما في الاسطورة الشرقية من دهاء المرأة وحنكتها .

مع كل هذه الكتب الدينية والأسطورية التي شهدت النور في اللغة الاسبانية فقد نقلت مدرسة طليطلة قصتيّ « بونيوم » و« سر الأسرار » كما عمل الفونسو العاشر على ادخال مادة عربية تاريخية واسطورية في ثنايا تاريخ الاسبان العام وفي مقدمتها قصة زليخة ويوسف .

لم يقتصر همّ العالم الاسباني على هذه الناحية من الموضوعات فقد امر بترجمة كتب في الالعاب الشرقية ككتاب الشطرنج الذي نشره في زيورخ سنة الف وتسعمائة وواحد واربعين ارنالد شتايجر هذه اللعبة التي تعتمد على العقل والتدبر والتي لها حتى اليوم أثر ملحوظ في المجتمع الاسباني .

ليس من شك في ان العقل الأوروبي المعاصر مدين للخدمات الثقافية

التي قدمها الفونسو العاشر عن طريق مدرسة طليطلة ، ان جهود العالم الاسباني لا تقف عند حد نقل هذه الكتب فقد تعدت ذلك الى تصنيف كتب في علم الفلك جمع لها نفراً غير قليل من اهل العلم ، فقد قدّر لهؤلاء العلماء ان ينهضوا بالدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم وما قاموا به من اعمال اخرى كان الملك كثيراً ما يشرف بنفسه عليها ، كما كان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة « ويقوم بترتيبها وتنظيمها بنفسه وخاصة ما يقول فيها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطليموس في الفلك والجغرافية» .

قد يضيق الحديث عن ذكر العمل الثقافي الذي اداه الفونسو العاشر للفكر الغربي معتمداً على اصول عربية وشرقية في الدين ، والتاريخ ، والاسطورة ، غير انه من المفيد ان نؤكد ان مدرسة طليطلة للترجمة التي افاد منها العالم الملك الفونسو العاشر بعد ان وعى النهضة الفكرية العربية في الأندلس الجميل الخالد كانت القاعدة العلمية لنهضة اوروبية شاملة مدينة للفكر العربي الاسباني ولألفونسو العاشر ، بكل نهضاتها الحديثة التي مكنتها خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ان تتبوأ عرش الانسان الحديث ، قبل ان تنتقل منها الى الدولتين العظميين .

□□□

الاتجاه القومي والوجدانية
في شعر الحنين الى الأندلس

لم يعرِف الأدبُ العالمي شعراً صُهرت فيه العاطفةُ ، واشتَدَّ فيه الألمُ ، ونبغَ فيه الخيالُ ، وتألقَ فيه الحبُ ، ورسخت فيه الاتجاهاتُ القوميةُ والأهدافُ السياسية ، وَلَزَمَ فيه الشعراءُ نهجاً واضحاً معيناً محدَّدَ الأغراضِ والميولِ كما عرف شعرَ الحنين الى الوطن .

هذا واذا كان نقدةُ الأدبِ يؤكدون ان الوجدانيةَ في الشعر اقوى ما تكونُ في فنيّ الرثاءِ والغزلِ فمما لا شك فيه ان شعرَ الحنينِ الى الوطن وإن كان من صُلْبِ الوجدانيةِ وموضوعاتِها الرئيسة فهو اشدُ وجدانيةً، واقوى عاطفةً، والهبُ مشاعرَ من الغزل والرثاءِ لأنه في جوهرِ كِيانِهِ مزيجٌ من الوجدِ الخالص ، والحزنِ القاتل ، مَعْدِن فنيّ الرثاء والغزل .

ان الشاعر في هذين الفنين انما يُنْشِدُ شعرَه في حبيبٍ واحدٍ او يبكي عزيزاً واحداً ، وقد تتفاوتُ عنده العاطفةُ في هذا الغزلِ وهذا الرثاءِ بِقَدَرِ ما للحبيب وللميتِ والمرثِي من اثرٍ في نفسِه ، بينا الشاعرُ الذي يندبُ الأوطانَ ويحن اليها إنما يُحِبُ ذَاتَه ، ويتفجعّ عليها بعد ان اضحى غريباً في الأرضِ ، لا ملاذَ ولا وطنَ له . ومن كان هذا شأنُهُ فحريٌّ به ان يأتِيَ شعرُهُ اقوى وجدانيةً ، واعمقَ اثراً واشدَ حزناً والماً من كُلِّ وجدانيةٍ لأنّه في شِعْرِهِ تألُّقٌ للحبِ الأسمى ، ورِثاءٌ للأرض التي لا تموت في وجدانه .

لله ارضٌ إن عدمْتُم هواءَها   فأهواؤكم في الأرضِ منثورةُ النظمِ

امام هذه الحقيقةِ فإن كلماتِ الوطنِ والأرضِ ، والهجرةِ والتشرد غيرُ ذات مدلولٍ حقيقي عندَ اكثرِ الذين يعيشون في بلادِهم كادحين او سعداء لأنهم بحكم اقامتِهم على ارضهم لم يدركوا المعاني البعيدةَ لها ، ومن هنا كانت الصعوبَةُ في فهمِهم معنى المأساةِ التي يعيشها الغرباء ، او اولئك الذين نزحوا عن اوطانِهم ، فضلاً عن جهلِهم لمفهومِ السعادةِ المُثْلى التي ينعمون بها في ظِلِّ علم الوطن ومجده .

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابُه   كلانا عن الأوطانِ أزْعَجَهُ الدَّهْرُ

من هنا كان شعرُ الحنين الى الوطنِ اشدَ الشِّعر الوجداني المـاً ورجاءً وعبقريةَ خيال ، كما كان اوضَحَ الشعرِ الاجتماعي اتجاهاً قومياً ، وهدفاً سياسياً ، وابعدَه اثراً ، واعمقَه براعةً في ضروبِ الوصف ، أموضوعياً كان هذا الوصفُ ام وجدانياً ، تجريدياً او إيحائياً ، اصيلاً ام استطرادياً لأن الشاعرَ في خِضَمِّ معاناتِهِ الأدبية لا يجدُ مندوحةً عن ذكرِ الوطنِ والتغزلِ به والحنينِ إليه ورسمِ معالِمِهِ الجامدَةِ والمتحركة وتصويرِ طبيعَتِهِ والتغني به ، بعد ان اضحى الملهمَ الخالد لعطائه :

فإن كُنْتُ اخرجتُ من جنة   فإنـي احـدِّثُ اخبـارَها
ولولا ملوحـةُ مـاءِ البكـا   حَسِبْتُ دموعِيَ أنهـارَها

إن الدارسَ مع ذلك لهذا النوعِ من الشعرِ لا يستطيعُ ان يجزمَ أنّه في مستوى واحدٍ من الوجدانيةِ والعطاء لأن النبوغَ في هذا اللونِ انما يتوقفُ على المواهِبِ الأصيلة ، والكوامِنِ الخفية في نفس الشاعر ووجدانه ،فضلاً عن ان ما امتزجَ من هذا الشعرِ بعقيدةٍ او فكرةٍ وطنيةٍ ، او هدفٍ عام قد يأتي غايةً في الابداعِ ، وذروةً في العطاء .

في ضوء ذلك قد يبدو شعرُ عبدِ الله بن فرجِ اليحصبي المشهور بابن العسال :

يـا اهـلَ انـدَلُسٍ حُثُّـوا مـطيَكُمْ　　فمـا المُـقَـامُ بهـا إلاَّ مـن الغَـلَطِ
الثـوبُ يَنْسِـلُ من اطـرافِـهِ وأرى　　ثـوبَ الجزيـرةِ منسـولاً من الـوَسَطِ
ونـحنُ بيـن عـدوٍ لا يـفـارِقُـنـا　　كيفَ الحيـاةُ مـع الحيـات في سَفَطِ

قلت قد يبدو شعرُ اليحصبي وهو من اوائِلِ شعراءِ الحنينِ في الأندلس اقـربَ إلى الشعر الحكمي منه الى الشعر الحماسي لأن سقوطَ طليـطلة بيد الأذفونش سنة ٤٧٥هـ ١٠٨٢م وهي اولى المـدائنِ العربيـةِ التي تقع في يـد الاسبانِ لم تحدث الاضطرابَ الحقيقيَ في البلادَ ، فضلاً عن ان الشاعـرَ لم يُشارِكْ في النزوح الى جانِبِ أَمَلِهِ ورجائه في مَنْعَةِ الأندلس الذي لا زال في يد العرب .

غير ان الدارسَ لشعر شهاب الدين احمد بن محمـد المقّري صـاحبِ نفح الطيب من غصن الأنـدلس الرطيب ، وكتـابِ ازهار الـرياض في اخبـار عياض ، وكان قد نزح عن وطنه لاسبابٍ سياسيةٍ واتخذ مدينَةَ فاس مقراً له ، يرى ان الوجدانية في شعرِهِ صورةً لشعوره المتوقد ، واحساسِـهِ الغريب نحـو فداحَةِ الرزء بالنسبة لواقِعِهِ هو مع ان أذى لم يصبْ وَطَنَهُ :

بَـلَـدٌ تَحُفُّ بـه الـرِّيَـاضُ كـأنـه　　وَجـهٌ جميـلٌ والـريـاضُ عِـذَارُهُ
وَكَـأَنَّـمَـا وَادِيــهِ مِـعْـصَـمُ غـادةٍ　　ومن الجُسـورِ المُحكَمَـاتِ سِـوَارهُ

والمقّري عندما يحدث عن نـزوحه قـد يبلغ شأواً في العـاطفة الـوطنيةِ بخاصة ان فنّه النثري ربما يعينه اكثرَ من الشعرِ على تصويرِ هذه العاطفة : « إنّه لما سَبَقَ القضاءُ وَجَرَتِ الأقدارُ بارتحالي عن الوطنِ المحبوبِ والقَرار، بعد ان شمِمْتُ عَرَارَهُ النَّجْدِيّ ولا اشجانَ ولا اكدارَ في عشيَّةٍ لم يكن بعدها من عرار وَنَزَحْتُ عن بلد ، به الوالدُ ومـا ولد ، مَحَـلُّ قَطْعِ التمائمِ ، وَفَتْحِ الكمـائِمِ سقى اللّه عِهَادَه صَوْبَ الغمائِمِ .

بـلادٌ بهـا الحَصْبَـاءُ دُرٌّ وَتُـرْبُهـا　　عَبِيـرٌ وانفـاس الـرِّيـاحِ شُمُـولُ
تسلسـلَ منها مـاؤهَـا وهـو مُطْلَقٌ　　وَصَـحَّ نسيمُ الـرَّوضِ وهـو عَلِيـلُ

ان شاعراً وكاتباً كالمقّري يندفع في خياله وراءَ عـاطفتِهِ الـوطنيةِ فيـرى حصباءَ بلادهِ دُراً ، وترابَها عبيراً ليؤكِدُ مبلـغَ قوةِ الوجدانيةِ وانصهارِ العاطفةِ ، وعبقريةِ الخيال في هذا النشيدِ الوطني لبلدٍ نزح عنه كارهاً غيرَ راض .

والمقّري إذ يتغنى بالوطنِ والترابِ والهواءِ والماءِ لم يَفُتِهِ ان يتطلّعَ اليه عن بعدٍ ليستعيدَ ذكرياتٍ عذاباً على نفسه :

يـا مَنْ يُـذكّـرني حـديثَ احِبّتي طـابَ الحـديثُ بـذكـرهمْ وَيَـطِيبُ
أعِـدِ الحـديثَ عليَّ من جنبـاتِـهِ ان الحـديثَ عن الحبيـبِ حبيبُ

فإذا بلغ الحديثُ عن الحبيب هذه الوجدانيةَ القويةَ الـزاخرةَ بـالعاطفـةِ الصادقةِ المتدفقةِ فما هو مبلغُ الوجدانية في الحبيبِ ذاتِه ، في حديثه هو وفي لقائِهِ ، في تصويرِ هُدْبِ عينه ، او في التطلع بعمق الى وجهِهِ الضـاحِكِ ذي الانعكاساتِ والرؤى . وبعد اليست الوجدانيةُ في مثلِ هذا الشعرِ المزيجِ من الذكرى والألم اقوى منها في الرثاءِ والغزل ؟

ومن ثمةَ فأيُ شعرٍ ادقُ ، وايُّ معنى ارقُ ، واي عاطفـةٍ اشجى ، وأيُ خيالٍ اوفى من قوله ايضاً:

سلام على تلك المعاهد انّها مـراتعُ ألْآفي وعهـدُ صِحَابي
ويا سَرْحَةَ الحيّ انْعِمِي فَلَطَالَمَا سَكبتُ على مَثْوَاكِ ماءَ شبابي

فشعر الحنين هذا يكشف عن حقيقةِ شعورِ المقّري وقوةِ إيمانِه بالوطن بالرغم من المكانةِ العلمية والمنزلة الرفيعةِ التي تبوأهـا في فاس لأن لا شيءَ يعدلُ الوطنَ والأرضَ والهواءَ والماءَ .

كـأن اكفَّ الـريـح تكتبُ اسْـطراً على النّهـرِ إلاّ ان احْـرُفَهـا زُرْقُ
فَتَحنِي عليهن الغصــونُ قُـدودَهــا لتقـرأهـا جهـداً من الـوَرقِ الـوُرْقُ

إزاءَ هذه الوجدانية الزاخرة في هـذا النمطِ من الشعرِ لا بـد للناقـدِ من تقويم العاطفةِ الوطنيةِ ومبلغِ ابداعِها في التعبير من جوارح الشاعـر وخَلجات

قلبه ، وحقيقةِ شعوره القومي نحو الوطنِ الذي احبَّ ، والأرضِ التي بكى ، والروضِ الذي تطلعَ ، والحبيبِ الذي تغنى .

من هذه الحقيقة بالذاتِ وشعرُ الحنين إلى الوطن لم يدرسْ بعد كصورةٍ للوجدانية المثلى حري به ان يتبوأ مكانَه في الشعر الغنائي ، في الأنا ، التي تكادُ ان تكونَ كُلَّ الشعرِ العربي .

□□□

المراجع العربية

ابن الأبار ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله

التكملة لكتاب الصلة ، نشر قطعة منه فرنسيكو كوديرا اي زيدين في المكتبة الاندلسية (ج ٥ ـ ٦ ، مدريد ١٨٨٧ ـ ١٨٩٠). ونشر القطعة الثانية منه الفريد بل ومحمد بن شنب عن مخطوط فارسي . الجزائر ١٩٢٠ ، اما القطعة الثالثة فنشرها الاركون وكونثالث بالنثيا في

Miscelanea de Estudios y Textos arabes Madrid 1915

اعتاب الكتاب : مخطوط مكتبة الاسكوريال رقم ١٧٣١ .

تحفة القادم : مجلة المشرق البيروتية .

درر السمط في خبر السبط ، نسخة مكتبة مدريد الوطنية رقم ٥١٢٧ .

كتاب الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة مخطوط مكتبة الاسكوريال رقم ١٧٢٨ .

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي

الكامل في التاريخ ، طبعة نور نبرج ، لايدن ١٨٦٧ ـ ١٨٧٦ .

الادريسي ، ابو عبد الله محمد

وصف افريقيا واسبانيا ، نص عربي وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزي ودي خويه ، ليدن ١٨٦٦ .

الادريسي ، الشريف

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ القسم الخاص بالمغرب والسودان ـ ليدن ١٨٦٦ .

الاسكندري ، أحمد
ابن زيدون ، في مجلة المجمع العربي بدمشق سنة ١٩٣١ -
اشباخ ، يوسف
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة المحامي محمد عبد الله عنان طبعة مصر ١٣٧٧هـ .
ابن بسام ، ابو حزم علي
الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الأول والجزء الأول من القسم الرابع وما نشر منه ، مصر ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .
البستاني ، بطرس
دائرة المعارف ، والأجزاء العشرة الجديدة تحقيق الدكتور فؤاد افرام البستاني .
ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبد الملك
الصلة - ط مدريد ١٨٨٢ .
الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي
كتاب الأغاني ، طبعة كوسيمارتن . جريفستالد سنة ١٨٤٠ .
ابن بطوطة : ابو محمد بن محمد اللواتي الطنجي .
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ط : مصر ١٣٢٢ .
البغادي ، عبد القادر بن طاهر
الفرق بين الفرق القاهرة ١٩١٠ .
البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر
كتاب فتوح البلدان تحقيق الدكتور عبد الله طباع وعمر طباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .
انساب الاشراف ج - ٥ تحقيق س غويتين طبعة القدس ١٩٣٦ .
البكري ، ابو عبيد الله بن عبد العزيز
المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، من كتابه المسالك والممالك الجزائر ١٩١١ .

ابن البيطار ، ضياء الدين ابو محمد
جامع مفردات الادوية والاغذية . بولاق سنة ١٢٩١/ ١٨٧٤ .
بيل ، الفريد
برنامج المخطوطات العربية الموجودة بخزانة القرويين ـ ط فاس ١٩١٨ .
التفتزاني . . . ابو الوفا . . . سعيد الدين مسعود بن عمر
دراسات في الفلسفة الاسلامية : القاهرة ١٩٥٧ .
ابن تومرت ، المهدي
اعز ما يطلب وما معه . ط الجزائر ١٩٢١ .
ابن جبير ، ابو الحسن محمد
الرحلة طبعة ايطاليا ١٨٩٦ .
حاجي خليفة :
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : طبعة فلوجل ليبزج ولندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ .
الحافظ الذهبي
العبر في خبر من غبر ، منشورات دائرة المطبوعات في حكومة الكويت ١٩٦٠ .
الحريري ، ابو محمد القاسم بن علي :
المقامات طبعة دي ساسي ، باريس ١٨٤٧ ـ ١٨٥٣ .
ابن حزم القرطبي ، ابو محمد علي
الاخلاق والسير في مداوة النفوس . القاهرة . ١٩٢١ .
طوق الحمامة في الالفة والالاف طبعة د. بتروق لايدن ١٩١٤ .
ترجمة اسبانية بقلم كرسيا كومس مدريد ١٩٥٣ .
الفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣٢١هـ .
جمهرة انساب العرب طبعة ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ .
حسن ابراهيم حسن . .
تاريخ الاسلام السياسي مصر ١٣٥٣ ـ ١٩٣٥ .

الحسني ، هـاشم معروف
تاريخ الفقه الجعفري بيروت دار النشر للجامعيين (بدون تاريخ) .
الحميري ، عبد المنعم بن
صفة جزيرة الاندلس انتخبها من كتاب الـروض المعطار في خبر الاقطار ليقي بروفنسال دار المعارف مصر ١٩٣٧ .
ابن حيـان ، حيان بن خلف
المقتبس في تاريخ رجال الاندلس . طبعة انتونيا ، باريس ١٩٣٧ .
الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٩٣٨ .
ابن خاقان ، ابو نصر الفتح
قلائد العقيان ومحاسن الاعيان طبعة بولاق ١٢٨٣هـ ١٨٦٧م .
مـطمح الانفس ومسـرح التأنس في ملح أهـل الاندلس ، القسـطنطينـة ١٣٠٢هـ .
الخننسي ، الحارث بن أسد
تاريخ قضاة قرطبة ترجمة ريبيرا مدريد ١٩١٤ .
ابن الخطيب ، لسان الدين
اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام نشره ليقي بروفنسال ، دار المكشوف . بيروت
الاحـاطة في تـاريخ غـرناطـة مخطوط مكتبـة الاسكـوريـال رقم ١٦٧٣ (١٦٦٨ فهرست غزيري) ٢٧٣٣ المكتبة الأهلية في مدريد ، ورقم ٣٤ بالأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد .
خفاجة ، محمد عبد المنعم
قصة الأدب في الاندلس مصر ١٩٥٦ .
ابن خلدون ، عبد الرحمن
ـ المقدمة طبعة كاترمير باريس ١٨٥٨ .
ـ اخبار البربر ومواليهم من زناته وذكر اوليتهم واخيالهم ، وما كان بديار المغـرب خاصـة من الملوك والدول ، وهـو الكتاب الثـالث من « العبر

وديوان المبتدأ والخبر » وقد نشره دي سلان وطبعه في الجزائر ١٢٦٧/ ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب » ثم ترجمه الى الفرنسية ، ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ واعيد نشره باشراف كازانوفا .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر بولاق ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م .

الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ مسجد قرطبة وقصر الحمراء .

ابن دحية ، ابو الخطاب

المطرب من اشعار اهل المغرب (نشره الاستاذ ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور احمد احمد بدوي ١٩٥٤) .

ابن رشد

- شروح مؤلفات ارسطو ١٢ج البندقية ١٥٦٠ .

- ما وراء الطبيعة : نص عربي مع ترجمة اسبانية وتعليق بقلم كارلوس كيروس مدريد ١٩١٩ .

- تهافت التهافت ، نشره الآب بويج بيروت ١٩٣٠ .

ابن رشيق ، ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني

العمدة في محاسن الشعر وآدابه القاهرة ١٩٣٤ .

الزركشي

تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية . تونس

زيدان ، جرجي

تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة القاهرة

ابن زيدون ابو الوليد احمد

الديوان ، تحقيق كامل كيلاني عبد الرحمن خليفة مصر ١٣٥١ - ١٩٣٢ .

السبكي : تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب تقي الدين

طبقات الشافعية القاهرة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦ - ١٩٠٧م .

ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي
رايات المبرزين وشارات المميزين ، نشره مع ترجمة اسبانية كرسية كومس في مدريد ١٩٤٢ .

السيوطي ، ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد جلال الدين .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة طبعة مصب ١٣٢٦هـ .
حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة طبعة (بدون تاريخ) .
لب اللباب في تحرير الانساب لايدن (بدون تاريخ) .

ابن شاكر الكتبي ، صلاح الدين محمد .
فوات الوفيات بولاق ١٢٩٩هـ .

الشبيبي ، محمد رضا
ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله المصرية ونصوصه العربية ، جامعة الدول العربية ١٣٨١ ـ ١٩٦١ .

الشعراني
الادلة البينية النورانية عن مفاخرالدولة الحفصية ـ تونس (بدون تاريخ) .

الشماع
تاريخ الدولة الحفصية طبعة تونس.

الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم
كتاب الملل والنحل ، طبعة و . كيورتون . لندن ١٨٤٢ ، القاهرة ١٣١٧ .

شكيب ارسلان
الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ج ٣ مصر١٣٥٥هـ ١٣٥٨ .

ابن صاحب الصلاة البرجي ، عبد الملك
«المن بالامامة على المستضعفين ، بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، وظهورالمهدي وتاريخ الموحدين» مصور خاص عن مخطوط مكتبة اكسفورد . رقم ٤٣٣ .

صاعد الطليطلي، ابو القاسم

طبقات الامم . نشره الأب شيخو في بيروت سنة ١٩١٢ .

الضبي ، ابو جعفر احمد

بغية الملتمس ، انظر المكتبة الاندلسية .

الطبّاع ، عبد الله انيس . . .

تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي بيروت ١٩٥٨ .

فتوح البلدان للبلاذري بيروت ١٩٥٩ بالاشتراك مع عمر طباع .

ـ حسان بن ثابت الانصاري بيروت ١٩٥٦ .

الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام بيروت١٩٥٥ .

ـ الحطيئة شاعر من عبقر بيروت ١٩٥٧ .

ـ الحلة السيراء لابن لأبار ـ بيروت ١٩٦٣ .

ـ الشعراء الاعلام بيروت ١٩٤٩ .

الطبّاع ، عمر الفاروق انيس

عبقرية الخيال في رسالة الغفران بيروت ١٩٥٥ .

الطبري ، محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك طبعة مصر ١٣٢٦هـ .

ابن طفيل ، ابو بكر

رسالة حي بن يقظان القاهرة ١٢٩٩هـ .

ابن عبد الحكم :

فتح مصر والاندلس ، طبعة ج هـ جونر ، لندن ١٨٥٨ .

فتوح افريقيا والاندلس ، طبعة الجزائر ١٩٤٢ ، طبعة تحقيق الدكتور عبد الله انيس الطباع دار الكتاب اللبناني ١٩٦٢ .

عبد الله بن عبد الواحد الفهري

كتاب الوثائق المستعملة مخطوط رقم ١١بمكتبة الدراسات العربية بمدريد.

ابن عبد ربه

العقد الفريد ، القاهرة ١٣٢١ ، فهارس تحليلة لمحمد الشافعي جزءان كلكتا ١٩٣٥ و١٩٣٧ .

عبد العزيز ، عبد المجيد . .

ابن الآبّار حياته وكتبه ، تطوان ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ .

ابن عذارى المراكشي ، ابو العباس

البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، طبعة دوزي ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ .

القالي ، ابو علي .

كتاب الامالي ، بولاق ١٣٢٤ .

الغافقي ، ابو جعفر احمد ين محمد بن السيد

المرشد في الكحل ، ترجمة ماكس مايرهوف نشره في برشلونة سنة ١٩٣٣ .

الغبريني ، ابو عباس

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، نشره محمد بن شنب الجزائر ١٣٢٨ .

الغزيري ، ميخائيل

فهرس المخطوطات العربية ، مكتبة الاسكوريال طبعة مدريد ١٧٦٠ ـ ١٧٧٠ .

الفاسي ، محمد

التعريف بالمغرب ، مقدمة لتاريخ الأدب العربي بالمغرب الاقصى ، جامعة الدول العربية ١٩٦١ .

ابن فرحون ، برهان الدين ابراهيم العمري

الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب طبعة القاهرة ١٣٢٩هـ .

ابن الفرضي ، عبد الله

تاريخ علماء الاندلس ، طبعة كوديرا مدريد ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢ ، انظر : المكتبة الاندلسية فهرس المخطوطات في مكتبة مدريد الوطنية .

فروخ ، عمر

وثبة المغرب بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني .

ابن قـزمـان :

ديوان شعر طبعة نيكل (بحروف لاتينية) مدريد ١٩٣٣طبعة بيروت ١٩ .

ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم

الشعر والشعراء تحقيق احمد محمد شاكر طبعة مصر ١٩٦٤هـ الامـامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

القـزويني ، زكريا بن محمد بن محمود .

آثار البلاد واخبار العباد . غوتنجن ١٨٥٠ .

ابن القفـطي :

تاريخ الحكماء طبعة لبيرت ، ليبزج سنة ١٩٠٣ .

القلقشنــدي

صبح الاعشى طبعة مصر ١٩١٣ ـ ١٩١٨ .

ابن القوطية القرطبي

تاريخ افتتاح الاندلس، نشره جيانجوس ١٨٦٨ ، واعاد نشـره الدكتـور عبد الله انيس الطباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٨ .

كنون ، عبد الله

النبوغ المغربي في الأدب العربي

الطبعة الأولى تطوان بدون تاريخ ـ طبعة دار الكتاب اللبناني في بيروت ١٩٦١ .

ماكيب ، جوزف

مدينة العرب في الاندلس ، ترجمة الدكتور تقي الـدين الهيلالي طبعـة بغداد ١٣٦٩ .

ابن مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية طبعة مصر ١٣٤٩هـ .

المراكشي ، عبد الله

المعجب في تلخيص اخبار المغرب طبعة مصر ١٩٤٩ .

المعري ، أبو العلاء

رسالة الغفران ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء طبعة مصر .
المقّري ، ابو العباس احمد
نفح الطيب من غصن الانـدلس الرطيب وذكر وزيرهـا لسان الـدين بن الخطيب ، طبعة دوزي ودوجا وكريل وراسيت جزءان ، ليدن ١٨٥٥ ـ ١٩٦١ .
ـ ازهار الرياض في اخبار عياض مصر ١٣٥٢ .
المكتبة الاندلسية :
نشر كوديرا وريبيرا في مدريد وسـرقسطة من سنـة ١٣٨٣ الى ١٨٩٥ ، عشـرة اجـزاء هي ج١ ، ٢ الصلة لابن بشكـوال ٨٨٣ ، ج ٣: بغيـة الملتمس في تاريخ رجـال الاندلس للضبي ، ج ٤ المعجم لابن الأبـار ١٨٨٦ ، ج ٥ ، ٦ : التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩ ج ٧ ، ٨ : تاريخ علماء الاندلس ١٨٩١ ، ج ٩ ، ١٠ فهرست ابي بكر بن خير ١٨٩٥ .
مؤنس ، حسين
فتح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧ .
فجر الاندلس القاهرة ١٩٥٩ .
الشرق الاسلامي في العصرالحديث ط : ٢ القاهرة ١٩٣٨ .
Essai sur la chûte du califat umayyade de Courdoue, le Caire 1948.
تاريخ الفكر الاندلسي ، كونثالث بالنثيا ترجمة مؤنس .
ابن النديم : ابو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق الوراق :
كتاب الفهرست ، طبعة فلوجل ، ليبزج ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ .
ياقوت الحموي :
معجم الادباء ، طبعة مارجوليوث ليبزج ـ لندن ١٩٠٧ .
معجم البلدان ، طبعة دار بيروت ـ لبنان .
اليعقوبي :
كتاب البلدان طبعة دي خويه ، ليدن ١٨٩٢ .

المـراجـع الأجـنبيـة

Aguado Bleye, Pedro
Historia de España. Bilbao 1928. 2 vol.

Altamira y Crevea, Rafael
Historia de España y de la civilización Espanóla. Curata edición. Barcelona 1900-1928 4 vol.

Amador de los Rios, José
Historia Social, politica y religiosa de los judios en España y Portugal, Madrid 1875 3 vol.

Amari, Michele
Storia dei musulmani di Sicilia 2ème edizione publicata con note a cura di carlo Alfonso Nallino. Catania-Romeo Prampolini 1935-39.

Antuña, Melchor M.
La córte literaria de al-Hakam en cordoba en Religion y Cultura (S.I.) 1929.

Asin Palacios, Miguel
La escatologia musulmana en la Divinia Comedia. Madrid 1919.

Basset, René
La littérature populaire berbère et arabe dans le Meghreb et chez les Maures d'Espagne in «Melanges Africains et Orientaux» Paris 1915.

Bertrand, Luis
Histoire d'Espagne. Paris 1932.
Le poète arabe al-Mutanabbi et l'Occident Musulman in (R.E.I.) 1929.

Brockelmann, Carl
Geschichte der Arabischen litterature leyde 1937.

Casiri, Miguel
Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis Matriti 1760-1770 2 vol.

Codera y Zaidin, Francisco
Decadencia y desaparición de los almoravides en Espana Zaragoza-Madrid 1889.
Estudios criticos de historia arabe espanala - Zaragoza- Madrid 1917 3 vol.

Conde, Jose Antonio
Historia de la dominación de los arabes en España. Madrid 1820-21 3 vol.

Contreras, Rafael
Estudio descriptivo de los monumentos arabes en Granada Sevilla y Cordoba 2ème edición Madrid 1878.

Danvila y Collado, Manuel
La Germania de Valencia 1884.

Derenbourg, Harwig
Catalogue des Manuscrits arabes de L'Escorial revues et mises au jour par E. Levi Provençal. Paris 1928. Publications de l'Ecole Nationale des langues orientales vivantes, VI Serie 3 vol.
Documents inédits d'histoire almohade. Fragments manuscrits du «Legojo» 1919 du fands arabe de l'Escurial, publié E. Levi Provençal Paris 1928.

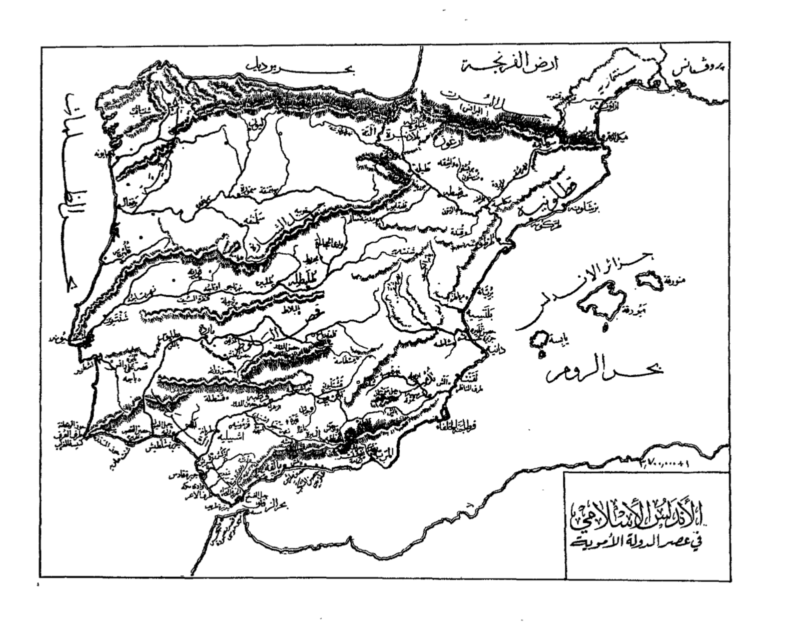
Dozy, Reinhart Pieter
Notices sur quelques manuscrits arabes Leyde E. J. Brill 1847-51.
Encyclopedie de l'islam. Leyde E. J. Brill. 1913 Articulo Sobre ibn al-Abbar par Muhammad ibn Chanab.
Scriptorum Arabum Loci de Abbadidis 3vols 1846-1863 E.J. Brill-Leyde.

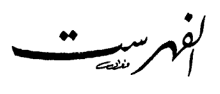
Garcia Gomez, Emilio
Cinco pœtas musulmanes. Madrid 1944.
Pœmàs arabigo-Andaluces-Buenos Aires 1942.
Sobre el Sentimiento de la belleza fisica en la Pœsia arabe «Cuadernos de Adan» vol I Madrid 1944

Gayangos, pascual de
The History of the Mohammadan dynasties in Spain-London 1840 2 vols.

Gonzalez Palencia, Angel
Historia de la España Musulmana Barcelona 1929 (4ed. 1945)
Coleccions labor no. 164-165 2a edicions Madrid 1945.

Guillem Robles, Francisco
Catálogo de los manuscritos árabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid 1889.
Levi Provençal, Evariste
Histoire de l'Espagne musulmane Leyde E. J. Brill. 1950-53 3 vols.
Menendez Pidal, Ramón
Pœsia Arabe y pœsia europea 4em edición Madrid 1955.
Muller, Marcus Jospeh
Beitrage zur geschiéhte der Weslihichen Araber. Munchen C. Franz vol I 1866.
Nallino, Carlo Alfonso
La litterature arabe des origines à l'époque de la dynastie umayyad 1910-1911.
Nicholson, A.
Literary history of the Arabs Weimar 1898.
Ocaña, Jimenes, Manuel
Tablas de conversión de datas islamicas a cristianas y viversa-Madrid-Granada 1946.
Peres, Henri
La poésie andalouse en arabe classique au XI Siecle. 2ème édition 1953.
Pons Boiques, Francisco
Ensayo biblio grafico sobre los historiadores y geografos arabigo-Españoles Madrid 1898.
Piles, Andrés
Valencia Arabe. Valencia 1901.
Revue Africaine vol. Lix Alger 1918.
Simonet, Francisco Javier
Historia de los mozarabes de España- Madrid 1897-1903.
Stohes, F.G.
Moslems in Spain trâd per F.G. Stohes Paris 1913.
Teres Sadaba, Elias
Algunos aspectos de la emulación pœtica en al-Andalus apud. «Hamenaje a Millás Vallicrosa» Barcelona 1956.
Linajes Arabes en Al-Andalus, apud «Al-Andalus» vol XXII 1957.
Terras, Henri
Islam d'Espagne une recontre a l'Orient et l'Occident Paris plon 1958.
Torres Balbas, Leopodo
Los edifición hispano-musulmanes (en Revista del Instituto Egipcio estudios Islamicos I 1953-1372 p. 92-121).


الأندلس الإسلامي
في عصر الدولة الأموية
ارض الفرنجة
بروفانس
قطلونية
برشلونة
جزائر الأندلس
منورقة
ميورقة
يابسة
بحر الروم
بلنسية
دانية
لقنت
قرطاجنة الحلفاء
المرية
قرطبة
اشبيلية
طليطلة
ماردة
بحر الظلمات


الفهرست

مقدّمة وإيضاح

الفهرس هو عينُ الكتاب الباصرة والكوى التي يطل منها الباحث على مطاوي السّفر وما فيه من المعرفة المتحللة وراء الحرف والكلمة .

أما إذا كان الكتاب المرجع بخاصة خُلُوّاً منه فهو لا يعدو أن يكون في نظر النقد العلمي وعلم الكتب كالأعمى الذي يقود مبصراً جاهلاً ، في حين كان والواقع ، ومنذ كان « صبح الأعشى » .

ان فهرس هذا الكتاب بخاصة كندرة بعض الفهارس التي حققت في الفهرسة الوصفية وللكتاب العربي قفزة نوعية مبتكرة ومتطورة لأنه جمع الفهارس المتعددة على نحو قاموسي « Dctionnaire » وفاقاً لترتيب المعجم .

في ضوء ذلك يجد الباحث ، والدارس ، والمنقب مبتغاه في ضوء المفهوم الهجائي اذا حرّر مطلبه من « أل » التعريف التي لا يعتدُّ بها في الفهرسة الوصفية ، بمعنى أنّه يجد كلمة اليمانية مثلاً في حرف الياء ويجدها حتماً بعد كلمة اليمامة وفاقاً لترتيب المعجم . واعتمد على الشهرة . من هنا فأسماء :

الاعلام : أُشير اليها بنجمة تساعية ✱

الاماكن : أُشير اليها بدائرة سوداء ●

عناوين الكتب : أُشير اليها بمربع اسود ■

المذاهب والفرق : أُشير اليها بشرطة صغيرة -

وبعدُ :

انجز هذا الفهرس القاموسي في :

المركز الثقافي اللبناني

للفهرسة العلمية

لجنة

من الببليوغرافيين المتعاونين

بيروت ص . ب : ٥٧٢٢ ـ ١٤

هاتف : ٢٥٦٥٠٩ ، ٣٦٨٥٩٤ ، ٣٠٨٧٠٦ ، ٣٤٩٦١١ .

الهمزة

حرف ب

حرف ت

حرف ث

حرف ج

حرف ح

حرف خ

حرف د

حرف ذ

حرف الراء

---

(١) في سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨ - ٩٤٩م ارسل امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع المعروف بورفيرو جينت « أي لابس الأرجوان » سفارة الى عبد الرحمن الناصر وكان في ما حمله المبعوثون نسخة من الكتاب المذكور وهو مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب .

حرف ز

حرف س

حرف ش

حرف ص

حرف ض

حرف ط

حرف غ

حرف ف

حرف ق

حرف ك

حرب اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام الف

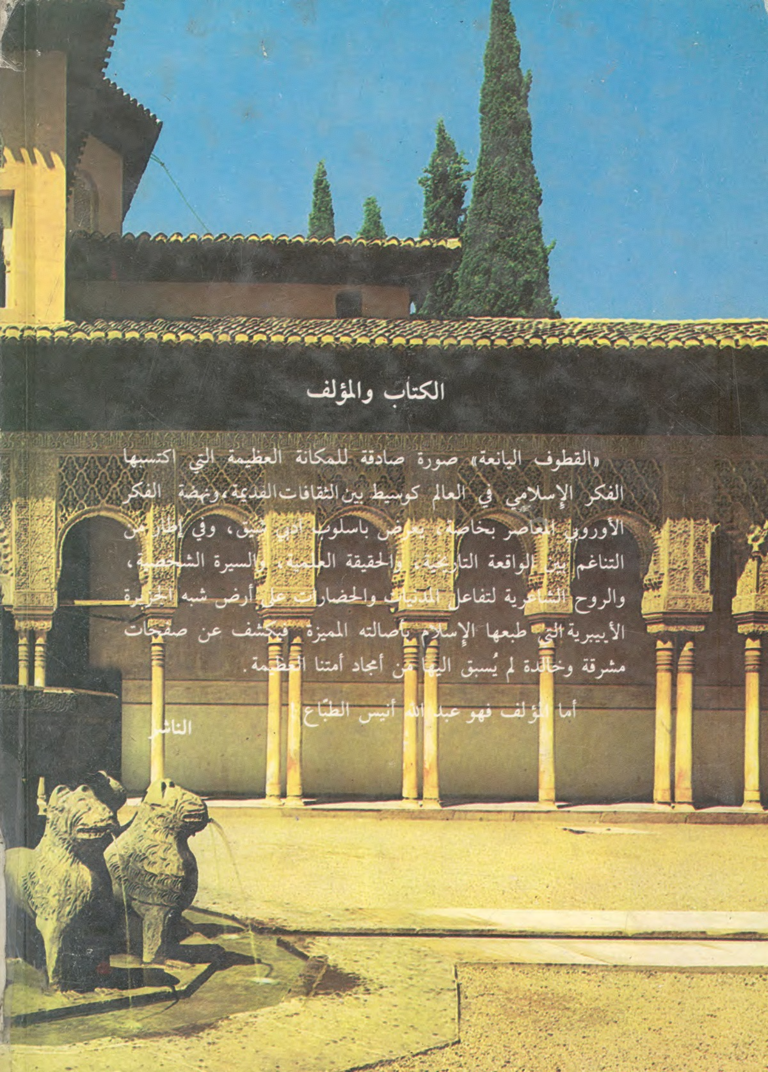
حرف الياء

فهـرست أحداث
تاريخية وعسكرية وفـاقـاً
لـورودهـا في متن الكتاب

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث	رقم الصفحة
١٣٣	٧٥٠	فرار عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك من سوريا	١٢٣
١٣٨	٧٥٥	بدء حقبة عهد الامارة الأموية في الاندلس	٢٠، ١٢٥
١٣٨	٧٥٥	بدء حكم عبد الرحمن الداخل في الاندلس « قرطبة »	٢٠، ١٢٥
١٣٩	٧٥٦	قيام الامارة الأموية في الاندلس	١٢٣
٢٠٢	٨١٨	هياج الربض في قرطبة	٢٤٠
٢٠٦	٨٢١	وصول علي بن نافع زرياب المغني الى قرطبة	١٣٦
٢٤٩	٨٦٠	مولد اديب الأندلس ابن عبد ربه	١٣١
٢٨٩	٩٠١	مولد ابي علي القالي	١٤٠
٣٠٠	٩١٢	ولاية عبد الرحمن الناصر	١٤٤
٣٠٣	٩١٥	وصول ابي علي القالي الى بغداد	١٤٠
٣١٦	٩٢٨	اعلان الخلافة الأموية في الاندلس وتسمية عبد الرحمن الناصر بالخليفة الأموي	٢٠، ٦١، ١٤٤
٣٢٦	٩٣٧	مولد الشاعر ابن هانيء	١٦٩
٣٢٧	٩٣٩	انشاء منصب صاحب الوزارتين في الأندلس	١٤٨
٣٢٨	٩٣٩	وفاة الكاتب ابن عبد ربّه	١٣١
٣٤٧	٩٥٨	مولد ابن درّاج القسطلي الشاعر	١٤٩
٣٥٠	٩٦١	وفاة الناصر لدين الله عبد الرحمن	١٤٤
٣٥١	٩٦٢	مولد ابن الفرضي	١٦٥
٣٥٧	٩٦٧	وفاة ابي علي القالي	١٤٠
٣٨٢	٩٩٢	قدوم ملك البشكنس شنجة بن غرسية على المنصور بن ابي عامر	١٥٥
٣٨٣	٩٩٣	مولد علي بن حزم	١٧٩
٣٨٥	٩٩٥	وقوع الملك شنجة اسيراً بيد المنصور ابن ابي عامر	١٥٦

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث	رقم الصفحة
٣٨٥	٩٩٥	المنصور بن ابي عامر يؤدب مملكة ليون	١٥٧
٣٩٠	١٠٠٠	مولد ابن رشيق القيرواني	١٨٣
٣٩٤	١٠٠٣	مولد ابن زيدون	١٨٨
٤٠٣	١٠١٣	وفاة ابن الفرضي	١٦٧
٤٠٣	١٠١٣	ثورة البربر في قرطبة	١٦٧
٤٢٢	١٠٤٠	وفاة ابن درّاج القسطلي الشاعر	١٤٩
٤٣٢	١٠١٠	مولد المعتمد على الله الملك والشاعر	١٩٣
٤٣٤	١٠٤٢	وفاة الملك المعتضد ابن عبّاد	١٧٣
٤٤٧	١٠٥٥	وفاة الشاعر ابن حمديس	١٩٨
٤٥٦	١٠٦٣	وفاة ابي علي ابن حزم صاحب المذهب الظاهري	١٧٩
٤٥٦	١٠٦٣	وفاة ابن رشيق القيرواني	١٧٩
٤٦١	١٠٦٨	مولد ابن قزمان	٢٠٢
٤٦٣	١٠٧٠	وفاة الشاعر الوزير ابن زيدون	١٨٨
٤٧٦	١٠٨٣	وفاة القاضي عياض	٢٠٦
٤٧٩	١٠٨٦	معركة الزلّاقة	١٠٨
٤٨٠	١٠٨٧	مولد الفتح بن خاقان	٢١١
٤٨٤	١٠٩١	سقوط اشبيلية بيد يوسف بن تاشفين وأسر المعتمد الملك	١٩٧
٤٨٨	١٠٩٥	وفاة المعتمد في اغمات اسيراً	١٩٧
٥٠٢	١١٠٩	ابن بسام يؤلف الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة	٢١٦
٥٠٧	١١١٣	مولد ابن زُهر	٢١٩
٥٢٢ أو ٥٣٢	١١٢٨ أو ١١٣٨	وفاة ابن باجة	٢٢٤
٥٤٢	١١٤٧	وفاة ابن بسّام	٢١٥
٥٥٥	١١٦٠	وفاة الشاعر ابن قزمان	٢٠٢
٥٦١	١١٦٥	مولد الصوفي ابن عربي	٢٧٧
٥٩٥	١١٩٨	وفاة ابن زُهر	٢١٩

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	الحدث	رقم الصفحة
٥٩٥	١١٩٩	مولد ابن الأبّار القضاعي	٢٢٠
٥٩٨	١٢٠٠	رحلة ابن عربي الى مكة المكرمة	٢٣٩
٦١٠	١٢٣٠	مولد الصوفي عبد الله الششتري	٢٣٣
٦٣٨	١٢٤٠	وفاة ابن عربي	٢٣٧
٦٥٨	١٢٦٠	وفاة ابن الأبار	٢٢٩
٦٨٦	١٢٨٧	وفاة الصوفي الششتري	٢٣٣
٧١٣	١٣١٣	مولد لسان الدين ابن الخطيب	٢٤٠
٧٣٤	١٣٣٣	مولد الشاعر ابن زمرك	٢٥٠
٧٧٦	١٣٧٤	وفاة الوزير لسان الدين ابن الخطيب	٢٤٠
٧٩٧	١٣٩٥	وفاة ابن زمرك	٢٥٠
٨٩٧	١٤٩٢	سقوط غرناطة آخر معقل للاسلام في الاندلس	١١٣
	١٧١٠	وفاة المكتبي اللبناني ميخائيل غزيري	٢٥٤
	١٨٧١	مولد القس المستشرق ميكل آسين بلاثيوس	٢٥٨
	١٩٠٤	وفاة المستشرق بلاثيوس	٢٥٨
	١٩٤٩	خوسة مونيوس سندينو يترجم« الاسراء والمعراج » الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية بعد ان أمر أصلًا بترجمتهما الفونسو العاشر العالم	٣٣٠



الكتاب والمؤلف

«القطوف اليانعة» صورة صادقة للمكانة العظيمة التي اكتسبها الفكر الإسلامي في العالم كوسيط بين الثقافات القديمة، ونهضة الفكر الأوروبي المعاصر بخاصة، يعرض باسلوب أدبي شيق، وفي إطار من التناغم بين الواقعة التاريخية، والحقيقة العلمية، والسيرة الشخصية، والروح الشاعرية لتفاعل المدنيات والحضارات على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية التي طبعها الإسلام بأصالته المميزة فيكشف عن صفحات مشرقة وخالدة لم يُسبق اليها من أمجاد أمتنا العظيمة.

أما المؤلف فهو عبد الله أنيس الطبّاع!

الناشر